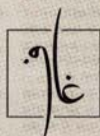
روساريو رارو

أثر رسالة

ترجمة: طه زيادة



رواية



أثر رسالة

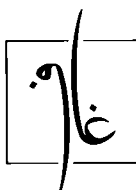
روساريو رارو

أثر رسالة

رواية

ترجمة: طه زيادة

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution



2023

أثر رسالة / رواية

روساريو رارو

ترجمة: طه زيادة

العنوان الأصلي للكتاب:

La huella de una carta

Rosario Raro

Translated by: Taha Ziada

الطبعة الأولى - 2023

ISBN 978-1-989667-20-0



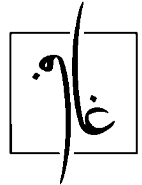
مسعى للنشر والتوزيع

Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com



تصميم الغلاف: محمد النبهان

إلى رامونا بيريث، لأنني أعلم أنكِ ستقرئينني من هناك مع سيلفيا فالدمار، روسا الكاثار، فرناندو روبلس، انريكي مورييل، تايلور نومي، سيلفر كين، وفرنسيسكو جونثالث لديسما.

«الحقيقة هي الضحية الأولى دائما لأي حرب.»

اسكيلو

«لا تراودني أية رغبة في اللعب في عالم يغش فيه الجميع.»

فرانسوا موریاك

«يعتبر أي إنسان بدون أخلاق حيواناً متوحشاً طليقاً في هذا العالم.»

ألبير كامو

«جودفريد بارون بيت لحم:

لا تظهر الخوف أمام العدو!

تحلَّ بالشجاعة والاستقامة لكي يحبك الرب!

قل الحقيقة دائماً حتى لو كان فيها هلاكك!

احمِ الضعفاء وكن عادلاً!

هذا هو قسمك.

انهض فارساً!»

مملكة الجنة، رايدلي سكوت (2005)

سيناريو ويليام مونهان

دوسلدورف، رنانيا الشمالية - ويستفاليا، 17 أغسطس 1962

لم يستطع بورو نفاسكويس رؤية أي شيء من الفيلا الفخمة التي حدثه عنها دكتور فاريك كيسلر؛ فقد كان يحيط بها سور ارتفاعه ثلاثة أمتار. اضطرا لدفع البوابة المعدنية سويًا من شدة ثقلها. تجولا بالحديقة عبر الممرات الحجرية، وشاهدا، عندما مرّا بجوار المسبح الفارغ، دلو طلاء صدِئًا مسكوبًا في قاعه بين بركتين تكسوهما الطحالب، وبجوار بعض الأغصان المتساقطة، حذاء أبيض ذا رقبة طويلة من الجلد الصناعي المصقول. أطل بورو من الحافة وتأكد من أن الحذاء كان بجانب قدم ميرخا وباقي جسدها. كانت مقلوبة على وجهها فوق أرضية القاع الزرقاء الجافة في هذه المنطقة، وشعرها المتسخ ملتصق بجانبي جمجمتها. أنار خلفه بالكاد شعاع كابي صادر من كابينة تغيير الملابس والدش، وكان هذا الشعاع مصدر الضوء الوحيد. استدار فاريك نحو بورو وأمسك بذراعه، وقال بعدما استطاع تمالك نفسه والقفز إلى الداخل:

اتصل بالشرطة! أسرع! اخرج إلى الشارع! ابحث عن أي شخص! ميرخا، ميرخا، أجيبيني! سمع كيف حاول بورو دون جدوى إغلاق البوابة الحديدية. غطى وجهه بكفيه، وأجهش بالبكاء في البداية، ثم صرخ. لم يجرؤ على لمسها لأنه شعر بأنها على الوضع الذي كانت عليه لم تعد هي نفسها. جثا على ركبتيه، ولاحظ أنها ترتدي الكنزة الوردية نفسها التي أهداها لها في مدريد. كان قد حذرها، ولكنه تركها بمفردها. لن يعوضها عن ذلك مطلقًا.

انحدرت دمعة من الدكتور فاريك كسلر على أرضية المسبح البلاستيكية، وانزلقت لبضعة سنتيمترات نحو القاع الأزرق حتى مست طرف الخنصر ليد ميرخا اليمنى.

الجزء الأول

1

برشلونة، 17 مايو 1962

عاشت نوريا سومبورت في صدفة منزلها لؤلؤةً بمنأى عن الوحل، ولكن غارقة في بحر الملل، متزوجة من ظل رجل. هكذا تصف حالها مع زوجها ماكسيمو ثفرا، وهو تاجر لم تكن تراه سوى في عطلات نهاية الأسبوع وبعض المناسبات. عشقته لحد الهوى، ولكنها تحملت منه الكثير من العواصف.

تتسلل كل صباح خارجة من منزلها، رقم 55 بشارع بونانوفا، بمجرد سماع صوت باب الكشك المعدني، حتى لا توقظ صغارها.

عرف البناء باسم قصر مولاي حفيظ، السلطان المغربي الذي أمر بإنشائه. تشعر نوريا بنوع من التميز لإقامتها في تلك الجوهرة المعمارية الحداثية بشرفاتها المتعددة وحديقتها وبرجها المجلل بتاج مخروطي مكسو سطحه بالزجاج الأخضر.

يروقها أن تطل من الشارع على محيط القصر، كان مهيبًا وكئيبًا في الوقت نفسه. يبدو البناء هيكلًا كارتونيًا وسط الظلال التي تتكون في الصباح. ولكنه بقوة العادة لم يتوقف عن إثارة إعجابها. تحتفظ لنفسها، خلال تلك الدقائق الخمس القليلة التي تركت فيها طفليها بمفردهم، مارك ذا السنة الواحدة، وميريا ذات الأربع السنوات، ببضع لحظات للاستمتاع بذلك المشهد

الجديد ببطاقة معايدة، ولكنها تسرع الخطا في الحال متوهمة أثناء الاستغراق في انبهارها هناك، أنه قد تقع كل أنواع المصائب من اندلاع حريق إلى حادث اختطاف. ولا تهدأ حتى تصعد وتتأكد من أنهما مازالا نائمين تلفهما السكينة لدرجة أن طيف ابتسامة يداعب جفونهما.

تقرأ الجريدة، في الأيام بدون ماكسيمو، كما تسميها، للحد الذي يسمح لها به مارك وميرييا. بينما تحتسي فنجانًا من القهوة بالحليب شديد السخونة، تستغرق وقتًا طويلا في تناوله.

ولم يكد يمضي عليها أكثر من دقيقتين في تصفح الجريدة، في عامود المنتصف بالصفحة الأخيرة بين رسائل الإعلانات المعتادة عندما رأت ذلك الصباح مستطيلًا بارزًا محاطًا بإطار أسود مزدوج مكتوبًا فيه بحروفٍ كبيرة وكأنه يخاطبها هي بالتحديد: «**هل تحبين الكتابة؟**». اقتربت أكثر لكي تقرأ الحروف الصغيرة التي تعدد المواصفات المطلوبة لدى الراغبين في الحصول على تلك الوظيفة: «**المسؤولية، الإلمام بمجال علم النفس، مستوًى عالٍ في التحرير، أن تكون شخصًا خلّاقًا، تتمتع بحدس قوي، وقدرة على تقديم الحلول**».

فكرت نوريا، مثل أي شخص يستمع إلى أعراض مرض ما فيعتقد على الفور أنه مصاب بها جميعًا، أن هذه المواصفات تنطبق عليها تمامًا، وأنه لا يوجد شخص آخر غيرها يمكن أن يكون كذلك، مثلما كانت هي، ومثلما تصفها تلك السطور بمنتهى الدقة.

اختتم الإعلان بشرط عام: «**والمهم: يجب أن يتحلى الشخص المطلوب بخصال إنسانية لأبعد مدى**». بعد ذلك يحدد أنه يجب أن تتوافر لديه آلة كاتبة.

نظرت نوريا بحنين إلى ماكينتها الأوليمبيا ذات اللون الأزرق السماوي المتوسدة قطعة الأثاث القابعة أمامها، فرغم صفوف مفاتيح الحروف فقد بدت كأنها أسنانُ أفواهٍ خرساء، إذ لم تعد، منذ انتقالها إلى هناك مع ماكسيمو،

تبث لها نبضاتها. نظرت إليها لأول مرة وكأنها هي نفسها: آلة عديمة النفع، لم تعد مستخدمة، ماكينة جامدة، ميتة. شبعت موتًا كخطتها في ألا تحتاج شيئًا من أحد، أن تصبح مستقلة بذاتها، مغامرة بمفردها، مكرسة جسدًا وروحًا لأي مهنة مرتبطة بالأدب. ابتسمت حين تذكرت ذلك.

يقول السطران الأخيران: «**حِسٌّ عالٍ تجاه المشكلات الاجتماعية، ومهارةٌ خاصة في التواصل مع الآخر**». كان الإعلان الأكثر غموضًا على الإطلاق بين الإعلانات التي رأتها، ولهذا السبب اهتمت به أكثر. وفي النهاية لم يكن هناك سوى عنوان صندوق بريد واحد.

أزاحت نوريا بإصبعين خصلة شعر سقطت على وجهها، ونحَّتها خلف أذنها اليمنى، وشرعت في كتابة الرد على الفور: «**أنا الشخص الذي تبحثون عنه**».

أضافت عنوانها وبضعة أسطر أخرى أوضحت من خلالها دراساتها للسكرتارية الدولية، واللغات، والكتابة على الآلة، فضلًا عن خصالها التي تتوافق حرفيًا بالمصادفة مع الصفات المطلوبة.

***

جاء الرد قبل مرور أسبوع:

عزيزتي السيدة ثفرا:

يرجى الحضور الجمعة في تمام الساعة الخامسة بعد الظهر في شارع بيلايو رقم 56 بطابق الميزانين، بهذه المدينة.

تتفهمين أننا نحتاج للتعرف على المتقدمين قبل اتخاذ القرار.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،

ليونور ارانا و أليكس فرومنت.

تخيلت نوريا زوجين من الأثرياء متقدمين في العمر يبحثان عن شخص يتولى أمور المكاتبات، أو ينسخ بعض المذكرات لكي يرثها أحفادهما.

لأول مرة منذ زواجها يتعين عليها التوجه لموعد بمفردها، ولهذا كانت تحتاج لشخص تترك معه أطفالها. كانوا يقطنون هذا البناء الضخم لأن شركة المناجم العامة التي يعمل بها ماكسيمو وقعت اتفاقًا ينص على أن يعيشوا فيه مع دورا بلومر، مالكة العقار وجارتهم الوحيدة التي بدت لنوريا منذ الوهلة الأولى سيدة لطيفة، ولكن شديدة التحفظ، وكأن كل شيء يدور في فلكها. كانت نادرًا ما تتعامل معها، باستثناء اللقاءات الودية المعتادة في الحديقة أو في الفناء، والتردد إلى منزلها عندما يتصل بها ماكسيمو هناك على الهاتف الوحيد في بناء مولاي حفيظ.

انتهزت فرصة نوم مارك وميريا في التوقيت نفسه للصعود إلى العلية حيث تسكن مالكة العقار. سمعت في صعودها الموسيقى التي تصيب بالخدر المصاحبة لبرنامج إيلينا فرنسيس[1]: «المستشار العاطفي»، التي تحرص الكثير من النساء على الاستماع إليه بشغف، حتى لا يفوتهن تفصيلة منه، وكأنه يتضمن مجموعة من التعاليم الإلهية. أخبرها ماكسيمو أن هذه الموسيقى لأغنية اسمها «صيف هندي[2]». قرعت نوريا الجرس، عندما شرعت مقدمة البرنامج في الحديث.

---

1. المستشار العاطفي «إيلينا فرنسيس»، برنامج إذاعي استمر بثه في إسبانيا خلال الفترة من 1947 إلى 1984، وحقق رواجًا كبيرًا وكان له جمهور في كل مكان. وكانت مقدمته شخصية وهميةً، ترد على الرسائل التي ترد إليها من المستمعات بنصائح تعكس مدى سيطرة العقلية الذكورية الأخلاقية القمعية المستبدة على المجتمع الإسباني خلال تلك الفترة، وتقوم هذه الرواية على أحداث حقيقية جزء مهم منها من أرشيف هذه الرسائل التي تقدر بمئات الآلاف ومازالت موجودة إلى الآن.

2. مقطوعة موسيقية ألفها الموسيقار الأمريكي فيكتور هربرت (1859 - 1924) عام 1919، وتنتمي لموسيقى الجاز، واشتهرت بعد تأليف آل دوبان كلمات لها في منتصف الثلاثينات (م)

- «سيدة ثفرا، كيف حالك؟» حيتها دورا بلومر. لم تكن ترتدي سوى رداء منزلي خفيف بلون وردي شاحب محبوك على الصدر بشريط عريض من الساتان. كان لون بشرتها عجيبًا، أقرب إلى الشحوب، ولكن ضاربٌ إلى البرونز عند الجبهة والوجنتين والذقن، ولم يكن هذا من تأثير التبرج، لأن نوريا لاحظت أنها لم تكن تضع المساحيق إلا عند الخروج. حاجباها مشذبان بعناية فائقة، كما لو كانا مرسومين بريشة على عجل، أما الشفاه والعينان فقد بدت رطبة دائمة. تلمع مثل شعرها الطبيعي، الذي عقصته الآن في ضفيرة طويلة ذهبية مثل اسمها[1].

فكرت نوريا في أنها تودّ معرفة كيف نجحت جارتها في الاعتناء بجمالها الفائق لتبدو في عيون الناس بسنوات عمرها الخمس والثلاثين أصغر عمرًا؟

- «في خير حال... حسنًا، كنت أود أن أطلب منك شيئًا»، قالت بصرامة دافعها الندم الشديد على فكرتها.

- ولكن، تفضلي! لا تقفي عندك!

استقبلتها من المدخل رائحة قهوة ممزوجة بعطر شديد الإثارة.

- «لا، من الأفضل، لا. لقد تركت طفليّ وحدهما. الموضوع يتعلق بهما تحديدًا. أنت تعرفين أشخاصًا أكثر مني هنا في برشلونة، ولهذا كنت أود أن أسألك إذا كنت تعرفين شخصًا محل ثقة لرعاية الأطفال. لوقت قصير فحسب. أنا على عجلة من أمري وما كنت لأزعجك بذلك، أو بأي شيء آخر ما لم يكن الأمر على هذا النحو.

- «لقد أفزعتني. يا ليت كل المشاكل مثل هذه، حتى إنها ليست مشكلة». قالت الجارة وهي تمرر كفيها على اتساعهما على جانبي رأسها لتتأكد من أن كل خصل الشعر الغزير في مكانها. «ولكن أخبريني، متى

1. دورا تعني بالإسبانية ذهبية.

سيكون هذا الوقت؟»

- «يوم الجمعة بعد الظهر. يتعين عليّ القيام بمهمة في شارع بيلايو. أتوقع العودة خلال ساعتين أو ثلاث على الأكثر. ما على هذا الشخص إلا أن يعطيهما وجبة الغداء، وسأكون قد عدت في موعد العشاء. لا أدري إن كنت أبالغ في طلبي، أودّ أيضًا أن يأتي هذا الشخص إلى المنزل لكي لا يضطر الأطفال للخروج».

- «لا تقلقي يا عزيزتي!». في تلك اللحظة، اعتقدت نوريا أن مالكة العقار تستخف بمشكلتها. «أنا تحت أمرك. أنا سأبقى معهما».

لم تكن تتوقع هذا الرد. من ارتباكها تمعنت في الفتحة المضمومة بإحكام بالشريط الساتان فوق صدرها النافر.

- «لا، لا، كل ما كنت أطلبه منك...»

- «أعرف» قاطعتها، «ولكن، أفضل أن نبقى هنا في منزلي».

لم تكن نوريا تودّ إثارة غضبها، ولكن ذلك الاقتراح لم يخطر على بالها ولم تكن تعرف ماذا تفعل؟ إنّ قبول عرضها كان الأكثر صوابًا، ولكن لهذا يتعين عليها أن تنفض عنها مخاوفها، كأم تتسم بالحمائية الشديدة كما اعتادت أن تصف نفسها، وإذا كانت ترغب بالفعل أن يطرأ على أيامها مع ماكسيمو نوع من التغيير.

2

افتقدت نوريا، في يوم الجمعة ذاك، حماسها المعتاد للخروج من المنزل. ومع أنها خرجت بدون طفليها، فقد شعرت أنها تجر عبئًا أكبر مما لو كانت تصطحبهما كالمعتاد. نظرت إلى الردهة قبل أن تطأ قدمها الشارع.

كانت هذه أول مرة تفعل ذلك، مما جعلها تتذكر كل الصباحات حينما كانت تفتح الجريدة يحدوها الأمل، وأقصى ما تتمناه قراءة إعلان مثل ذلك، لا يتعلق بمهمة مثل تجميع قطع ألعاب أو وظائف مشابهة لا تتطلب أية مهارات.

تخيلت ما يعنيه حصولها على مال خاص بها، مهما كان ضئيلًا، وادخاره. كان دخل زوجها أكثر من كافٍ، ولكنها بالإضافة إلى رغبتها في تجنب الإصابة بفتور الهمة بسبب الساعات المتشابهة، كانت تود الاستمتاع بكسب رزقها من كدها هي، لدرجة أنها فكرت في طريقة لوضع مدخراتها في دفتر توفير أمها. انتبهت إلى أن استباقها الأحداث يشبه إلى حد كبير قصة بائعة الحليب، ومع ذلك فقد كان ذلك بمنزلة محفز لها.

علقت حقيبة اليد في ذراعها عقب التأكد من أن جميع الأزرار المحبوكة على الحلة ذات اللون الأخضر الزمردي محكمة الربط. اتجهت إلى موقف الحافلة التي أقلتها من جادة بونانوفا إلى ميدان كتالونيا. نظرت إلى اللافتة المكتوب عليها «ميدان الجيش الإسباني» الاسم الرسمي الذي لا يكاد يستخدمه أحد على الإطلاق.

كانت منتعلةً حذاء كلاسيكيًا بنعل متوسط الطول، في حين انسدل شعرها البني المصفف بعناية والمتماوج حتى الكتفين. تألقت عيناها الشبيهتان بلوزتين بلون عسلي تشوبه مسحة زرقاء، أما رموشها فكانت طويلة مع استدارة، والحاجبان مزججان ولكن ليسا دقيقين للغاية، بل طبيعيين، مع أنف مستقيم لمنحوتة إغريقية، شفتان لحميتان، واعدتان، وجنتان مرتفعتان وبارزتان بوضوح. وجه هادئ يتميز بنظرة حادة جديرة بمراقبة دقيقة تريد دائمًا معرفة شيء إضافي.

لم تضطر نوريا للسير إلا لبضع دقائق حتى باب المبنى رقم 56 من شارع بيلايو. كان للمبنى الذي اتفقوا معها على اللقاء فيه عدة شرفات دائرية تشكل صفوفًا متوازية من المزهريات المعدنية فوق الأحجار المنحوتة للواجهة الخارجية. لم يقطع هذه الصفوف سوى نوافذ مؤطرة ذات زجاج ملون لافتة للأنظار في الدور الثاني. وقد برزت من الإفريز عدة منحوتات لرؤوس نسائية.

بدا لها المدخل شديد الكآبة وكأن صورة الشتاء تجمدت به. نظرت نوريا إلى طريق الرمل (لاس رمبلاس) قبل أن تحزم أمرها بالدخول. لاحظت بوضوح أكثر التناقض بين الخارج والزمن المتوقف في الداخل، وكأن قرونًا أخرى تطفو فوق ذلك المدخل المكسو برخام مبالغ فيه لدرجة أنه يبدو كضريح. تسلطت فوقها مرايا الجدران الجانبية، قزمتها وملأت الفراغ بظلال أشياء لا وجود لها هناك.

ودت الفرار عدوًا لتعانق أبناءها، والعودة إلى السقف الحامي الذي غادرته توًا، لكي تعاود النظر إلى الآلة الكاتبة دون أن تمسها. كان مدونًا في الورقة التي تحملها في يدها رقم المبنى، وليس رقم الطابق. أخذت تصعد على مهل بينما شعرت بحركة من خلفها تأكدت عندما التفتت مذعورة من أنها لم تكن سوى انعكاسها في الفراغ المعدني الموضوع به مزهرية ضخمة منقوش

عليها رسومات زرقاء كوبالتية. اتجهت إليها ثبتتها من مقابضها لكيلا تسقط من فوق قاعدتها الخشبية. لم تعرف لماذا فعلت ذلك؟ ولكن ما إن سمعت خشخشة بالداخل، ودت لو تقلبها لترى محتواها. حينئذٍ، أوقفت اندفاعها دقات ساعة صادرة من أحد الطوابق العليا؛ فواصلت الصعود لكي تصل في موعدها المحدد. قطعت مع آخر دقات الخامسة ممر طابق الميزانين، وقد فاح من المكان عبق توابل، ميزت من بينها عبير القرفة ممزوجًا بالياسمين والكافور. كان حديد الدرابزين بالتصميم نفسه لحديد الواجهة الخارجية، وقد عُلّق على الحائط بجوار الباب الأول لافتة فضية لامعة مكتوب عليها: «مختبر مستحضرات تجميل»، وأسفلها توقيع يحاكي الكتابة بخط اليد.

كان يصل إلى حيث بلغت صوت مكتوم ومنغم لعدة ماكينات. استمعت أيضًا على خلفية هذا الإيقاع لبضع خطوات وفي الوقت نفسه انفتح الباب وفق نظام آلي. دخلت نوريا ونظرت إلى البوابة الزجاجية على الجانب الأيسر من الممر المؤدية إلى بهو داخلي مربع الأركان وفسيح للغاية. نظرت لأسفل: كانت جدرانه مغطاة باللبلاب. حصن ريفي رطب في قلب برشلونة تكدست به صناديق وعبوات عليها نفس الرسم: شمس ساطعة تؤطر صورة جانبية لامرأة ترتدي معطفًا طويلًا، مزين بشريطين، وقلادة تحيط بجيدها الرقيق.

مازال ضوء النهار قويًا حتى هذه الساعة من المساء، وقد عززه اللون الأبيض السائد سواء في القيشاني أو الأثاث، في تناقض واضح بين بهو المدخل الكئيب وتلك الحجرة السابحة في الإضاءة، وكأنهما ليسا مكانين متتاخمين، أحدهما بأسفل والثاني بأعلى، بل ينتميان إلى مدينتين وفصلين وعصرين مختلفين.

اقتربت نوريا من المرأة الجالسة خلف طاولة يفصلها حاجزان يمكن طيهما بزاوية قائمة عن الصالة الرئيسية، وعندما أخبرتها مبتسمة باسمها،

وأظهرت لها الورقة المدون عليها اسم السيد أليكس والسيدة ليونور، نظرت إليها السكرتيرة باهتمام، وفتحت أجندتها ببطء، وراجعت بسبابتها العمود الأيسر، ثم قالت لها إنهما بانتظارها، أول باب على اليمين. أعجبت نوريا بالثوب الكاروهات الفرنسي التصميم المحبوك على الوسط الشبيه بذلك الذي ترتديه دوريس داي في أفلامها حين تذهب في نزهة خلوية.

في الجهة المقابلة من تلك الحجرة الوحيدة التي تشغل تقريبًا الطابق بالكامل، كان هناك رجل يرج زجاجة دقيقة بلون أصفر عنبري. استدار على الفور وحياها بابتسامة. كان يرتدي نظارة تبدو أحدث صيحة، كان فارع الطول ذا بشرة لوّحتها الشمس، عريض الفكين بشكل ملحوظ، كستنائي الشعر، وعينان صافيتان وابتسامة مشرقة. فكرت نوريا أنها لم تر في حياتها شخصًا يليق عليه المعطف الأبيض أكثر منه.

***

عندما طرقت نوريا سومبورت باب المكتب، أجابها صوت واثق من نفسه، رنان ومتعجرف:

- تفضل!

- أنا السيدة ثفرا.

- تفضلي. تفضلي واجلسي! (خاطبتها سيدة في غاية الأناقة، بشعر أشيب). سيدة ثفرا، زوجي، أليكس فرومنت، والأب بيلسيرميس.

صافحت نوريا الثلاثة وهي تتفرس في الأثاث الخشبي الثقيل والغرائبي، بدا كل شيء محصنًا ضد الزمن، أدوات المكتب تبرق لدرجة أنها تحولت إلى شيء مهيب، أقرب إلى القداسة. سألتها ليونور أرانا:

- منذ متى تكتبين، سيدة ثفرا؟

- من الأفضل أن تناديني نوريا، من فضلك. حسنًا، أكتب منذ زمن.

أقرأ على أبنائي حكايات تتخللها حوارات أجريتها مع ابنتي الكبرى: ميريبا. أحتفظ بها لحين يستطيع الصغير فهمها. بالإضافة إلى ما أخبرتكم به في رسالتي، درست السكرتارية الدولية، لذا أجيد تحرير أنماط الوثائق التجارية كافة.

- ممتاز، سيدة نوريا، فلنرَ... (التقط أليكس فرومنت طرف الحديث)، سوف تتعرفين على برنامج المستشار العاطفي الإذاعي الناجح، الذي يقدم النصح، إن جاز لي التعبير، بكل كفاءة، لنساء هذا البلد.

ربطت نوريا بين المنتجات المكدسة في البهو الداخلي والبرنامج المشار إليه الذي يحوّل، كل يوم، وفي الساعة نفسها، المحلات وورش الحياكة، وأفنية الجيران إلى صناديق صوت تردد الصوت نفسه مضاعفًا. تذكرت إعلانات المساحيق التي تتخلل الرسائل المذاعة. ولكن سرعات ما خطر أطفالها على بالها، فتسارع نبض قلبها. كيف حالهما؟ هل تناولا غداءهما؟ أعادها صوت دون أليكس الحاسم إلى الواقع.

- نحن، معملنا، رعاة هذا البرنامج، ولأن هذه سياسة الشركة (بدت نبرة صوته لوزير أو لصاحب عمل يخاطب موظفيه)، لا نريد أن نترك أيًا من المكاتبات التي تصل من المستمعين من دون رد. هذا هو غرضنا، ومع ذلك غرقنا في فيضان الرسائل التي نتلقاها كل أسبوع. (أشار إليها صوب كومتين من الرسائل على طاولة مستديرة). قبل المتابعة أود أن تدوني ملاحظات حول ما سأقوله لاحقًا، لأنني أود التأكد من أنكِ لن ترتكبي أية أخطاء إملائية. تتفهمين مدى حرصنا على صورة شركتنا.

وكأنه مشهد معد سلفًا، دخلت في تلك اللحظة السكرتيرة وتركت صينية عليها قهوة وطبق حلوى، ومفكرة وقلم رصاص.

- شكرًا جزيلًا، ليليانا. تفضل يا أبتِ (قالت دونيا ليونور وانتظر الباقون لحين انتهائه).

- يطلب استشارتنا في كثير من الأحيان أشخاص ضلوا الطريق، يمرون بلحظات مصيرية من حياتهم (تابع السيد فرومنت). وهنا قد تتدخلين، إذا قررنا نحن ذلك. يجب أن تثبتي لنا أنكِ شخص يتحلى بالحكمة، يعرف كيف يقود ببصيرة هؤلاء النساء ويجنبهنّ ارتكاب حماقات تتنافى مع الأخلاق. هل تفهمينني آنسة نوريا؟

لم تشأ تصويب أسلوب مخاطبته لها. اكتفت بالإيماء بالموافقة دون التوقف عن تدوين التفاصيل التي شرع في توضيحها حول وظيفة تلك المكاتبات.

- لكن قبل ذلك، يجب أن نتأكد من مدى كفاءة عملك، التي أفترض توافرها سلفًا من ملاحظاتك. (اعتدل السيد فرومنت، بعد أن نظر بطرف عينه لكتابتها في المفكرة التي قدمها إليها، ثم التقط عشوائيًا، أو هكذا أراد لها أن تعتقد، ظرفًا من بين كل الظروف المفتوحة، وقدمه لها). سوف ننتظرك هنا.

أومأت ليليانا إليها بإشارة لكي تتبعها. ازداد إعجاب نوريا بقوامها الممشوق حين صارت أكثر قربًا، الشعر الأشقر المقصوص حتى منتصف الرقبة، ورقّة مشيتها.

اصطحبتها السكرتيرة إلى حجرة أصغر بكثير يتوسطها مكتب. كانت الجدران مكتظة بعبوات متراصة فوق الأرفف، لنفس مستحضرات التجميل التي رأتها في البهو. جلست نوريا.

- هذا قد يستغرق بعض الوقت، يمكنني أن أخبر زوجك إذا أردت (قالت ليليانا وهي تتفرس في خاتم زواج نوريا).

- لن يكون ذلك ضروريًا (قالت بأسى شديد). جئت بمفردي.

- معذرة (سارعت ليليانا بالقول). لا أود أن أبدو قليلة التحفظ.

- لا، لم تكوني كذلك. ماكسيمو كثير السفر، إنه تاجر (أضافت عندما لاحظت على ليليانا نوعًا من عدم التصديق). ولهذا لم يتمكن من مرافقتي.

- يعمل أيضًا في مجال مستحضرات التجميل؟

- لا، لا، ليست له أية علاقة بذلك. يعمل في شركة المناجم العامة.

- إنها شركة عظيمة (قالت ليليانا بإندهاش). بالتأكيد يعرف العديد من الأشخاص المهمين.

- حسنًا، يقول ماكسيمو دائمًا إن الصلات الجيدة حاسمة بالنسبة للأعمال.

- حسنًا، لن أعطلك أكثر من هذا، حين أبدأ في الدردشة أنسى نفسي.

- لا تشغلي بالك، أنا ممتنة لك فقد ساعدتني على الاسترخاء. علاوة على أنه ليس لدي الكثير من الأشخاص لكي أتحدث معهم (أضافت نوريا بخجل زائد).

- أسرعي الآن لأن السيد والسيدة فرومنت ينتظرانكِ (ابتسمت لها ليليانا بصورة أكثر ألفة، وأضافت قبل أن تخرج وتغلق الباب): حظًا طيبًا.

بعد أن جالت ببصرها بين العبوات المتراصة فوق الرفوف مبهورة من تنوعها، شرعت نوريا في التركيز على الرسالة، ساورها قلق من عدم فهم الخط، ولكن سرعان ما وجدت الأمر يسيرًا للغاية برغم الكتابة غير المنتظمة.

سيدتي العزيزة:

إليكِ ما حدث لي الأسبوع الماضي (ولكن قبل أن أحكي لكِ، اسمحي لي أن أقدم لكِ نفسي، أنا سيدة في منتصف العمر، حسنة المظهر برأي الجميع، أعيش في مدينة مهمة، ستتفهين لماذا لن أبوح باسمها). كنت في يوم من الأيام مع زوجي بأحد المطاعم. نحن على وشك إتمام ثلاثين عامًا من الزواج، وهو يعاملني كملكة، على الرغم من أن الرب لم يشأ لنا أن نرزق بأبناء. كل ما هنالك أنه في المحل الذي ذكرته لكِ وأثناء تناول طعامنا، لم يستطع زوجي أن يحيد ببصره عن طاولة أخرى، تشغلها أم

وابنها، طفل في السابعة من عمره. وتزايد تركيز نظرات زوجي عليهما أكثر فأكثر وكأنه لا يخشى أن يلحظه أحد، وهذا أزعجني. لم أشأ سؤاله إذا كان يعرفهما لكيلا ينفعل. المهم أنه حينما نهضت المرأة على عكس ما كنت أنتظر، لم يتبعها بنظراته بل ركز على الطفل. وبينما تظاهرت بالتجاهل منشغلة بكأس الأيس كريم، رأيت كيف ابتسم له وأشار له بيده. حينما عادت الأم من الحمام، رحل الصغير وتحرك زوجي خلفه، وكأنه مدفوع بقوى خفية. لم أستوعب الموقف. ولما مرت عشر دقائق دون أن يعودوا، قررت الاقتراب من منطقة الحمامات، ومن بعيد نظرًا لأن المكان كبير للغاية، رأيته يعطي الطفل شيئًا على باب حمام الرجال. أكاد أجزم أنه كان مالًا.

لا أدري ماذا أصدق. كما سبق أن أخبرتك، لا أجرؤ على سؤاله، لدرجة أنني فكرت أن لديه حياة سرية، وأن هذين الاثنين هما زوجته الأخرى، أو أيا كان، وابنه، ولكن ابنه، حين التقاهما صدفة، ومع أنّ المرأة ادعت التجاهل، تعرف عليه ولكي يغلق فمه أعطاه المال. لا أدري، وأنا التي كنت أظن أنني أعرف عنه كل شيء، من نمطيته الشديدة، اكتشف الآن أن لديه علاقات أخرى بأشخاص مجهولين بالنسبة لي. ما رأيكِ؟ سوف يريحني كثيرًا تلقي رد عاجل من جانبك. إلى حين ذلك، لكِ مني كل تقدير واحترام،

امرأة في حيرة.

قرأت نوريا من البداية للنهاية بدون توقف. قررت إزاء عدم توافر المزيد من المعطيات أن الأكثر عملية هو طمأنتها ودعوتها لتحاشي رؤية أوهام، ومن منطلق هذه الفكرة صاغت الرد بأسلوب البرنامج المعتاد.

صديقتي العزيزة:

أعتقد أنكِ تبالغين بشأن أمر لا يعتبر حدثًا من الأساس. ربما مما أخبرتني به من أنكما لم تصبحا والدين، من الطبيعي أن يشعر زوجك بنوع من الإحباط ويجذبه الاستمتاع، حتى لو كان بهذه الطريقة المقتضبة، بحضور الأطفال الصغار. وهذا هو السبب الذي يجعله أكثر ظرفًا. لا يوجد ما يسوء في ابتسام رجل لطفل وقيامه بذلك على سبيل المجاملة. أما فيما يتعلق بما رويته بخصوص المال، إن كان ذلك حقيقيًا، فيبدو لي نوعًا من الإسراف. من أجل مصلحتكم المالية، آمل ألا يعتاد زوجك على تبديد ماله بهذه الأريحية.

حسنًا، يا صديقتي، إليكِ ما يمكنني أن أنصحكِ به، أن تراقبي، إذا كان لديكم أبناء أخوة، جيران... في أعمار مماثلة لطفل المطعم، كيف يتصرف زوجكِ في وجودهم؟ هكذا ستكتشفين السر. في أثناء ذلك، تحلَّي بالهدوء، لا يوجد ما يسوء في شخص معروف للجميع باستقامته.

شكرًا على استماعك كل ظهيرة لبرنامج استشارتنا الإذاعي.

أعادت نوريا قراءة رسالتها، متهيئة لتبييضها على ورقة أخرى من تلك الأوراق التي أمدوها بها، ولكنها لم تجد ذلك ضروريًا، أضافت فاصلة، ولم تضف المزيد من التصويبات. ساورها القلق بشأن تحرير الرسالة وكأنها شخص آخر؛ لم يكن هذا صوتها ولم يكن هذا أسلوبها في التعبير.

خرجت من الحجرة، وطرقت باب مكتب السيد فرومنت بقبضة يدها.

– تفضلي تفضلي! (قال).

– فلنر كيف تكتبينَ إذا تكرمت، اقرئي أولًا الرسالة الواردة وبعد ذلك ردك! (قال الأب بيلسيرميس وهو يعتدل في مقعده).

عندما بدأت في قصة طفل المطعم، لم تكفّ دونيا ليونور والقس عن تبادل النظرات. لم تتوقف نوريا حتى نهاية الفقرة التي تناشد فيها المستمعة باسم المذيعة المشهورة ألا تضايق زوجها بأسئلة خبيثة. ابتسم الثلاثة بارتياح.

– سيدة ثفرا (عادت دونيا ليونور لمخاطبتها على هذا النحو)، سوف نصدق أنكِ كنتِ محقة بشأن ما أخبرتنا به في رسالتِك، وأنكِ الشخص الذي كنا نبحث عنه. إنه رد ممتاز، أرى أنكِ التقطتِ جوهر برنامجنا. هناك مسائل أخرى، نستطيع توضيحها لكِ ولكن، ليس كلها، حدسك سينبئِك بما يجب وما لا يجب أن تفعليه. أليس كذلك، يا أبتِ؟

التفتت نوريا. كان كلٌّ من القس ودون أليكس ينظران إليها باهتمام. بدا وكأن الرجلين أصيبا بالخرس. حركت الرسالة المرسلة للبرنامج والرد الذي حررته نوريا لديهما العديد من علامات الاستفهام. لم يكن موضوعًا سهلًا، بل كان حسب تقديرهما، شائكًا للغاية، واجتازت نوريا الاختبار بنجاح: أثبتت تحليها بالأمومة، والهدوء كما أظهرت قدرة على التحليل، وأهم من ذلك كله التقليل من أهمية أي شكوك يمكن أن تعرض زواج المستمعة للخطر. لا يمكن أن يطمعوا في أكثر من ذلك.

– ليس لديّ ما أعترض عليه (أجاب بيلسيرميس أخيرًا). سوف أتولى الإشراف على الردود التي ستحررينها قبل إرسالها. وأرى أنكِ تتحلين بالفطنة. وأثق في أنكِ ستقومين بالمهمة الموكلة إليكِ بدقة.

– أعتقد أن زوجي موافق أيضًا. أليس كذلك، أليكس؟

– من جانبي، لا يوجد أي اعتراض على المحتوى، ونعم أعرب عن رضائي التام، وأعني أنّ الرد على الرسالة جاء بهذه الطريقة (قال السيد فرومنت وهو يضعها في حافظة جلدية ذات سحاب).

ابتسمت نوريا بسعادة.

– حسنًا، عزيزتي اعتبري إذن أنكِ من الآن في فترة اختبار. سوف نستمر

ونرى. (قالت دونيا ليونور ذلك بهدوء وابتسامة عريضة).

- شكرًا جزيلًا (قالت خافضة بصرها وهي لا تزال غير مصدقة).

- أرجو منكِ أن تقبلي دعوتي على الغداء في يوم من الأيام. أحب التعرف عن قرب على الأشخاص الذين نتعامل معهم. (تابعت دونيا ليونور، وقالت «نتغدى» بدلا من أن «نتناول الطعام»، وكأنهم في مكان آخر من أوروبا أو أن من عادتها استباق مواعيدها).

- سيسرني ذلك (قالت نوريا، وهي تسأل نفسها إذا كان ذلك اللقاء يعد جزءًا من عملية التقييم، أو سيكون مزيدًا منه).

- سوف تحملين إلى منزلك كل يوم جمعة صندوقًا من هذه فيه رسائل مفتوحة، وسوف تعيدينها إلينا مع الردود محررة. فكري في العمل الاجتماعي الذي سوف تؤدينه وما ستفعلينه لصالح كل هؤلاء النساء المسكينات الضائعات. وكما تتخيلين لن يكون هناك عقد، السرية تجبرنا على أن يكون الوضع هكذا، ولكن نعطيك كلمتنا: سوف ندفع لكِ بانتظام قدرًا من المال سيبدو لكِ جيدًا للغاية. هل أنتِ موافقة؟ (وقبل أن تفسح لها المجال للرد تابعت): أليس كذلك، أليكس؟ أخبر الآنسة قدر المبلغ! (كانت دونيا ليونور تخاطبها بصيغة أو أخرى بالتبادل).

- سوف نعطيك كل أسبوع شيكًا بقيمة 175 بيزيتا، أي 700 في الشهر (قال السيد فرومنت)، بالإضافة إلى مبلغ صغير مقابل التنقّلات. ستجدين في الصندوق ورقًا مطبوعًا عليه شعار وورقًا للنسخ؛ وإذا أخبرتنا بنوع آلتك الكاتبة وصنفها، فسوف نزودك بعدد من أشرطة الحبر للكتابة. تتفهمين أننا نفضل أن تكون ردودك مكتوبة على الآلة. أثق في مراعاتك لشروطنا.

تبادل الثلاثة نظرات تواطؤ ألغت وجودها، وكأنهم أقروا اتفاقًا يرسم الحدود ولا تستطيع نوريا تجاوزها. أدركت أنهم يحتاجونها أكثر مما تحتاجهم هي، على الرغم من محاولتهم التظاهر بأن الأمر ليس على هذا النحو، ولكن

بدا لها أنها انتبهت إلى نوع من الاستعجال في كل حركاتهم وإيماءاتهم.

اكتفت بالموافقة بدون القول إنها بحاجة للتفكير في الأمر، ولكن كان هذا ما سوف تقوم به بمجرد الخروج من هناك. لم تكن تعرف على وجه الدقة الأمر الذي زجت نفسها فيه. راودها شعور بأنهم يخفون عنها أكثر بكثير مما أوضحوه لها. مد لها السيد فرومنت يده مصافحًا من خلف مكتبه.

- إلى اللقاء بعد أسبوع. إذا احتجتِ إلى أي شيء فاتصلي بهذا الرقم (قدم لها بطاقة مكتبه). سوف نرد عليكِ زوجتي أو أنا على الفور. ولا تنسي التكتم الذي يستوجبه هذا العمل الحساس. شكرًا جزيلًا.

- عزيزتي، أنا متأكدة من أنكِ ستكونين عونًا كبيرًا لنا (ودعتها السيدة فرومنت).

- تشرفنا، سيدة ثفرا. إذا احتجت لأي دعم روحي، فسوف تجدينني في أبراشية الراعي الصالح. أتلقى الاعترافات الجمعة في السابعة والنصف. والآن أعتذر لكم إذ يتعين عليّ الرحيل لأن أمامي مسافة طويلة أقطعها إلى هناك. (رحل القس قبلها).

أخطر السيد فرومنت وزوجته السكرتيرة، فشرعت على الفور في تغليف الصندوق الذي سوف يسلمونه إلى نوريا بالورق البني وربطه بالدوبار.

- لكي نوفر عليكِ المزيد من الإزعاج، الأسبوع المقبل سوف يكون الصندوق جاهزًا، نرجو أن تستوعبي أننا لم نكن نعرف أنكِ سوف تأخذينه (قالت دونيا ليونور).

- مبارك! (همست ليليانا وهي تسلمها الصندوق بعد تغليفه).

- منحتها نوريا ابتسامة، وتيقنت من أن الصندوق ليس ثقيلًا، وقطعت القاعة وهي تحمله. بدأ حلول المساء. ولم يعد هناك أحد في المعمل وتوقف أيضًا ضجيج ماكينات الطابق السفلي.

ساورها قلق شديد بمجرد وصولها إلى بهو الاستقبال. كانت الساعة السابعة تقريبًا، ومازال أمامها نصف ساعة لكي تصل إلى المنزل. احتاجت العثور على كابينة تليفون للاتصال بدورا.

كان أمام نوريا في طابور الهاتف شخصان، ولم يبدُ أن الشخص بالداخل في عجلة من أمره على الإطلاق، أسند ظهره إلى الزجاج وانفجر في الضحك ورأسه مائل للوراء. تفقدت السيدة المنتظرة في أول الطابور الوقت.

- ياله من بارد! أنا في عجلة من أمري. سوف أبحث عن كابينة أخرى خالية (قالت).

حينئذٍ نظر إليها الرجل الوحيد المتبقي. كانت نوريا تفرك ذراعيها، تقلب في حقيبتها، والصندوق على الأرض إلى جوارها.

- حضرتك تحتاجين أيضًا الاتصال بأسرع ما يمكن، أليس كذلك؟ عندما يخرج هذا، تفضلي! لست في عجلة من أمري.

- نعم، بالفعل، أنا ممتنة لك، أبنائي مع الجارة، وقد تأخرت. شكرًا، شكرًا.

في الحال خرج شاغل الكابينة، وبدون التوقف عن الضحك، رمقها بنظرة من أعلى لأسفل ورحل.

- دقيقة واحدة فقط (قالت للرجل ذي الحلة التي مر عليها عقود، وكذلك كانت حال قبعته).

وضعت عدة عملات وشرعت في تدوير القرص بإصبعها بطريقة بدت وكأنها تريد تسجيل كل الأرقام مرة واحدة. دورا مشغولة. أخذت تنقل حركتها من قدم لقدم، أسندت يدها على أحد الجدران الزجاجية الشفافة، ضغطت على الذراع واستعادت القطع المعدنية. أدارت القرص من جديد والنتيجة نفسها. خطر لها في البداية أن يكون ماكسيمو هو المتصل وأنّه

يتحدث مع دورا، لأنه اعتاد كلما احتاج لأن يخبرها بيوم وصوله أو بأي تغيير في الخطط أن يترك الرسالة مع مالكة العقار. بالنسبة لها لم تكن تحب أن تتسبب لها في هذه المضايقات، إلا أنه لم يكن أمامها سبيل آخر لأنها لم تتمكن بعد من التغلب على عناده بشأن معارضة امتلاك خط خاص. أصابها الذعر حينما فكرت أنه لن يستوعب خروجها بدون طفليها. تصببت عرقًا. ظنت أنه قد وقع مكروه سواء لمارك أو ميريبا، ولهذا كان الهاتف يعطي إشارة مشغول باستمرار.

- لم يحالفكِ الحظ (قال الرجل المنتظر في الخارج).

- لا، ولكن شكرًا على أية حال (أجابته بتعبير شارد وهرولت صوب محطة الحافلة، التي كانت مكتظة بالركاب.

3

- حسنًا، أخيرًا وصل، لحسن الحظ (قال أحد الواقفين في الطابور وأخرجها من شرودها).

مرت عليها دقائق الانتظار تلك دهرًا. عندما رأت الحافلة قادمة تتهادى، وتنفث الكثير من الدخان، فسرت كل ذلك على أنها علامات تشير إلى أنه يتعين عليها التخلي عن تلك المغامرة التي تعتزم خوضها.

لم يحدث مطلقًا أن كان الطريق بهذا البطء. كانوا يتقدمون ببطء شديد، صف المركبات في المحور نفسه يكاد يكون متوقفًا. مسحت وجهها بمنديل دون أن تتذكر أنها متبرجة، فرأت البقع تلطخ القماش، فأخرجت الفرشاة من علبة البودرة من ماركة «ماديراس دي أورينتي» لتصلح زينتها أمام النافذة. ومع انعكاس وجهها المهموم تراءى لها طفلاها وهما يبكيان. فكرت أن تكمل سيرًا على الأقدام قبل أن تختنق بالداخل هناك، ولكن بدلًا من أن تنزل، انحل حبل رباط الصندوق وتمزق الكارتون من الجزء العلوي. رفعت الغطاء ومررت يدها فوق الظروف المرصوصة والمفتوحة. قدرت أنه يحتوي على خمسين رسالة. فقرأت محاولة إلهاء نفسها، من أين أرسلت وتواريخ خاتم الصادر التي لم تكن ممسوحة. تناولت أكثر الرسائل بروزًا، وما إن شرعت في قراءتها لم تستطع التوقف.

صديقتي العزيزة:

أنا أم يائسة. شهدت شيئًا يعد أسوأ ما عشت في حياتي. حسنًا، لدي

مفاتيح منزل ابنتي. وفي يوم من الأيام، أردت أن أترك لها هناك كنزة من صوف الأنجورا. أود أن أخبرك أنها قطعة ملابس قيمة، أعجبتها منذ أن رأتها في الفاترينة، ولم يكونوا قد أحضروا مقاسها حتى ذلك الصباح الذي أحدثك عنه. أردت مفاجأتها، لكي تجده عند عودتها من العمل في المستشفى، ولكن المفاجأة كانت من نصيبي أنا.

فما إن دخلت حتى رأيت ظلًا أمام مدخل غرفة النوم الرئيسية. تصورت أن الموسيقى الصاخبة لم تسمح لهم بسماعي وأنا أفتح باب الشقة. انتابني الخوف وفكرت في الإنصراف، ولكن فكرت أنه إن كان هناك لص، أو مجموعة لصوص، فعلى الأقل يجب أن أصرخ مستنجدة. أكون مفيدة في شيء، هذا هو دور الأم دائمًا، يا سيدتي، كما تعرفين. تقدمت على أطراف أصابعي، وقطعت الصالون، وحينما نظرت إلى غرفة النوم، رأيت امرأة من ظهرها تشاهد نفسها في مرآة الخزانة. يجب أن تلتمسي لي العذر على ألفاظي، لكنني مضطرة لأن أقول: إنها كانت ترتدي ملابس عاهرة، تنورة قصيرة سوداء ضيقة للغاية، جوارب (كولون) بدانتيل، حذاء بنعل مرتفع للغاية، وشعرها محلول ومنسدل حتى خصرها، في النصف العلوي ارتدت بلوزة قصيرة من الجبير شفافة تمامًا. طقم أساور من الخرز في معصمها، خاتمين على الأقل في كل يد... وهذا كل ما رأيت.

ابنتي الشقراء بالطبيعة غسلت شعرها لسنوات بالكاموميل، علاوة على أنها أرقى كثيرًا وأسلوبها في الملبس أكثر احتشامًا. على عكس تلك المرأة تمامًا.

اختبأت في الحجرة المجاورة، ومن شق الباب الموارب بين الحلق والمفصلات استطعت أن أرى. لم أستوعب ماذا تفعل تلك السيدة، إن جاز القول، هناك، وفي ذلك الوقت. عندما مرت من أمامي، واستطعت رؤيتها بصورة أفضل من ثقب الباب، تمنيت الموت. كانت تضع رموشًا صناعية وطلاء

شفاه ثقيل و... وكانت زوج ابنتي!

شعرت بنبضي يتسارع بعنف لدرجة أنني تصورت أن قلبي سيقفز من حلقي. انحنى أثناء مروره بحجرة الطعام لإغلاق الراديو، علق الحقيبة في كتفه وخرج. ترددت بين أن أطل من الشرفة لأرى أين يذهب، واختلاس النظر من ثقب الباب، وحسمت أمري مع الخيار الثاني. كان الطريق قصيرًا للغاية. عبر بسطة السلم، أخرج مفتاحًا، ثم فتح ودخل الشقة المقابلة. لا أدري ماذا أفعل، ابنتي تعمل كثيرًا، وفي نوبات أيضًا. المرضى هم كل حياتها. وهو يدرس لكي يتأهل لمنصب قاضٍ. قلنا لهما ألا يتمما الزواج قبل اجتياز الاختبارات، لأنهما مازالا شابين صغيرين، ولا داعي للاستعجال، ولكنهما أصرا. والآن هذا ما جرى. هل يجب أن أخبرها؟ الصدمة التي تلقيتها كانت ثقيلة، ولكن لا أريد تصور ما قد يحدث لطفلتي الحبيبة إذا وجدته على هذه الهيئة. أتوسل إليك أن تنصحيني.

تودّعك أم تتمنى أن تصبح ابنتها الغالية حرة.

شرعت نوريا، وكأنها في حالة انتشاء، في الرد عليها فورًا في المفكرة التي تحملها دائمًا في حقيبة يدها. توقفت عن النظر إلى الطريق، تمر الثواني، ولكن على الأقل كفت عن إحصائها. أخذت تكتب وكأنها تسير أثناء النوم.

سيدتي العزيزة:

تحدثينني عن المفاجأة التي أعددتها لابنتك بالكنزة من صوف الأنجورا، ومن المحتمل أن يكون زوج ابنتك يعد أمرًا مماثلًا. لا تيأسي! إذا كان لديه مفتاح الشقة بالطابق نفسه، فربما يرجع ذلك إلى أنه اشتراها بمال والديه ليضمها إلى شقته، ولم يخبروكِ بالأمر حتى الآن. كل شيء جائز. وهذا لا يعني أنه هناك لكي يلتقي بأحد. ولأنك الحماة فلديك أيضًا مفتاح

مسكنه، ولا يوجد دليل أكبر من هذا على الثقة. كل زيجة عالم منفصل، والمتزوجون يريدون أن يغلق عليهم بابهم. وأنصحك ألا تقتحمي حياتهم، وإلا فسيعرفون. بحكم متطلبات عمل ابنتك لابد أنه ليس لديها الكثير من الصديقات، وما يدرينا أن زوج ابنتك تكبد عناء التنكر في هذه الهيئة ليقوم من خلال ذلك بدور المنديل الذي يكفكف بحر دموعها عندما يتوفى أحد المرضى في المستشفى؟

انظري! لا تعيري كثيرًا من الاهتمام لشيء يبدو بكل وضوح أنه لعبة بينهما! سرعان ما سيأتي الأحفاد ومعهم سترين سعادتهما تكتمل. فكري أن ما رأيته لا يعنيك، وأنه ما كان يجب أن تكوني في ذلك الوقت في منزلهما وكفى!

شكرًا، صديقتي، على رسالتك الرقيقة. اكتبي لي مرة أخرى وقتما تشاءين!

وبلا مزيد، أودعك.

لم تجرؤ نوريا على التوقيع، مع أنها كانت على وشك الإقدام على ذلك. كتبت تلك السطور وهي غريبة عن نفسها. كانت مقتنعة بأنه بعد عقد ونصف من إذاعة برنامج المستشار العاطفي في الراديو، علق بها أسلوبه، تلك المواقف، الأسلوب القويم للتصرف الذي يدافع البرنامج عنه ويعمل كمتحدث باسمه.

ومع تأثرها بتلك القصة، لم يجعلها ذلك تنسى الصفحتين القصيرتين اللتين اختبروها بهما، وهو ما جاء شديد التناقض مع التلقائية التي حررت بها الرد. وكأن شيئًا لم يحدث.

بدا لها سلوكًا في منتهى الحقارة وغير أخلاقي من جانبها إخفاء الاشمئزاز الذي شعرت به في الحقيقة، لمجرد إرضائهما. ولكن أدركت على الفور، بمجرد أن رأت أمامها الأب بيلسيرميس، أي قناع يجب أن

ترتديه للرد. ومع ذلك لم تستطع أن تمحو من رأسها صورة الطفل في حمام الرجال بالمطعم، ومن خلفه زوج المستمعة صاحبة الاستشارة، الطريقة التي استدعاه بها لكي يحضر، وأسلوبه في التودد إليه، والاشمئزاز، والفوقية، والسلاسة التي يتعامل بها أولئك الذين يستغلون من يعدونهم أدنى منهم بحكم أعمارهم، أو وضعهم الاجتماعي، أو لأسباب أخرى. قالت لنفسها أيضًا لتخفف من حدة التوتر: إن هناك احتمالًا أن تكون مجرد أوهام وشكوك من جانبها.

أخيرًا، اقتربت الحافلة من جادة بونانوفا. تحمست نوريا حين فكرت أنها سرعان ما ستعرف أخبار طفليها، ولكن عقلها استرجع مجددًا مشهد المقابلة، كانت مقتنعة بأنهم كذبوا عليها لكي يرغموها على فعل الشيء نفسه: الكذب على المستمعات. إذا لم تكن تلك الاستشارات تذاع في الراديو، فذلك لم يكن بسبب ضيق الوقت، كما أخبروها، أو بسبب التأخير نظرًا لكم الرسائل المستقبَلة. لم تستطع كبح جماح مخيلتها إزاء الحالتين اللتين لم تتعرف عليهما إلا توًا. لطالما كانت كذلك مع الخير والشر، لم يساعدها التخيل على الكتابة فحسب، بل في البقاء واقفة على قدميها، وفي تلك المواقف بالتحديد، لكي تنسى مدى شعورها بالذنب لأنها تركت طفليها طوال كل تلك الساعات.

ولهذا، بالرغم من التوتر الذي أثاره ضميرها، لم تستطع في نفس الوقت إنكار شعورها بالحماس لأن تتاح لها فرصة العمل بالكلمات.

عندما نظرت إلى صندوق الخطابات، حفظت دفترها على الفور لأنها انتبهت إلى أن الحافلة تسير نحو شارعها. تفرست في باقي الركاب، وكأنها قد تعثر بينهم على أبطال القصص التي انتهت من قراءتها توًا. تجاوب أكثر من شخص مع نظراتها بالحدة نفسها. تنفست بارتياح واستجمعت نفسها استعدادًا للنزول في المحطة القادمة.

***

كانت ضحكات طفليها تصل إلى الطابق الأرضي ببناية مولاي حفيظ. كانت هذه أفضل هدية استقبال بعد تلك الظهيرة الحافلة. صعدت حتى العلية، وبعد تبادل التحية، أفادتها السيدة دورا برسالة من ماكسيمو.

عرفت من توقيت المكالمة أنها وزوجها اتصلا بمالكة العقار في اللحظة نفسها تحديدًا. قال ماكسيمو للسيدة بلومر: إنه شُغِل كثيرًا أثناء رحلته الأخيرة، ومازال يتعين عليه البقاء في ثاراجوثا، ويشعر بأنه ليس لديه طاقة لقيادة السيارة، ومن ثم سيصل صباح اليوم التالي.

- هل سار كل شيء على ما يرام في مهمتك؟ (سألتها الجارة بفضول كبير).

- حسنًا، في الحقيقة لقد كانت مقابلة عمل. أخبروني بأنني سأقوم بالرد على المراسلات التجارية لشركة مستحضرات تجميل (قالت وفاءً بوعدها الذي قطعته للسيد والسيدة فرومنت والأب بيلسيرميس بعدم الحديث عن طبيعة هذه الرسائل). يبيعون كريمات تحتوي على زيت فيزون، زيت الأفوكاتو، وكل تلك الأشياء. يعلنون عنها في الراديو.

- حصلت إذن على الوظيفة، تهانيّ. وهل يهدونكِ كل هذه الكريمات؟ (سألتها بحماس شديد).

- لاحقًا، أتصور ذلك، نعم. عينات على الأقل. لكن سنرى، لا أريد بناء قصور في الهواء.

- هل هي ماركة فرنسية؟ (تابعت دورا).

- لا، محلية.

ظهرت ميرييا في تلك اللحظة بمنتصف الممر.

- مامي، أين كنتِ؟ (استغربت الطفلة أيضًا عدم قضاء فترة الظهيرة مع أمها، لكن نوريا لاحظت أنها سعيدة).

- في الجوار، يا ملاكي، سوف نرحل الآن. هل استمتعت بوقتك مع السيدة دورا؟ (حينئذٍ خاطبتها): شكرًا، لقد أسديت إليّ معروفًا كبيرًا، لولاك لما كنت استطعت الذهاب. لا أعرف كيف أشكركِ على ذلك.

- لا بأس. لم أبذل أي مجهود. إنها في منتهى الظرف. من الواضح أنكِ أحسنت تربيتها. (رفعت مارك من على الأرض). أشتاق أحيانًا لإنجاب أطفال، فقط في بعض الأحيان، قليلًا جدًا (قالت ذلك بدون أن تتوقف عن الابتسام).

- دورا (قالت ميريبا)، يجب أن نرى أي نوع من الأفيال أنتِ؟ (وانفجر الاثنان في الضحك).

- ميريبا، كفى! والكبار يجب مخاطبتهم بحضرتك (زجرتها أمها، وكأن الصغيرة تدرك مغزى ذلك).

- لكن هل ترينني بدينة إلى هذا الحد؟ (استمرت دورا في الدعابة).

كانت شديدة النحافة بشكل مبالغ فيه، وفقًا لماكسيمو، الذي وصفها بالهضيمة مثل عود قصب، وتأمل نوريا ألا تكرر ابنتها ذلك في تلك اللحظة. على العكس، بدت بالنسبة لها ممشوقة القوام، ولكن صارمة وكأنها نحتت من مادة غير قابلة للكسر. كانت معجبة بأناقتها، وطلتها الرقيقة والقوية في الوقت نفسه، وشخصيتها الحاسمة.

- دورا إذا نجح ذلك، سوف اضطر لأن أطلب منكِ مساعدتي في البحث عن شخص. هذه كانت مرة واحدة، ولكن هذا يكفي. كل يوم جمعة سأضطر للتغيب لعدة ساعات... (تركت العبارة معلقة. استحضرت لحن صيف هندي (Indian Summer) لفيكتور هربرت، كان له منذ بضعة ساعات مغزى آخر بالنسبة لها). سوف نتكلم. وشكرًا مرة أخرى.

تلفتت حولها قبل أن تغلق دورا الباب. تنبهت لأول مرة تدخل فيها

تلك الحجرة أنها تشبه كثيرًا بيوت العرائس. كل شيء مرتب ويبرق في موضعه بالضبط. ينطبق على كل لوحة وكل قطعة أثاث وصف «أنثوي»، وكأنها السمة الغالبة على عالم مالكة منزلها.

لم تكن نوريا تعرف عنها أكثر مما تظهره الجدران، سيرتها الذاتية من خلال اللوحات المؤطرة: حفلات، وعروض أزياء، ورحلات سفر، تعتبر الرفاهية السمة المشتركة بين كل تلك المشاهد. حكى لها ماكسيمو أن دورا لم تكن بحاجة للعمل لأن حياتها تعدّ ميسورة للغاية، من عائد الإيجار الذي يدفعونه والإرث الذي تركته لها والدتها.

من الردهة، كان بوسع نوريا تمييز حافة الحوض ومقعدًا مثبت عليه ثلاث دعامات من الفلّين مغطاة بباروكات.

- آه، ذاك (خاطبتها دورا متتبعة نظراتها). على حسب حالتي حينما أستيقظ أكون شقراء بشعر فضي، أو حنطاوية أو صهباء. وهكذا لا أملّ من نفسي.

خرجت ميريا مهرولة، وأخذت واحدة من تلك الخوذات الخاصة بالشعر المستعار، ووضعتها فوق رأسها وانطلقت تجري عبر الدهليز. خرجت والدتها خلفها لتنتزع منها تلك الباروكة المجعدة البنية اللون لتعيدها إلى صاحبتها.

- تفضلي! معذرة. سوف نتركك في سلام.

فكرت حينما صارت بمفردها مع الطفلين أن مضمون تلك الرسائل لن يروق لزوجها. وقد يعتبر قصصها جريئة بشكل مبالغ فيه. لهذا السبب، وليس لأنها تعهدت بالحفاظ على السرية للسيد والسيدة فرومنت، شرعت في البحث عن مكان للصندوق بعيدًا عن نظر ماكسيمو. وبعد أن طافت عدة مرات بالمنزل والصندوق في يدها، دسته عنوة في الجزء السفلي من مخزن المطبخ في فراغ مزدوج. لم يكن ظهر مخزن المطبخ ذاك مسدودًا، بل مفتوحًا

على الفناء وبه شبكة سلك معدني تسمح بتهوية جيدة لمخزون البطاطا والبصل، وتحول دون أن تنبت جذورها.

أدركت، وهي واقفة مسلطة نظرها على الصندوق المخبأ هناك، أنها كانت المرة الأولى التي لا تبوح فيها لزوجها بكل شيء. إلا أنها كانت مقتنعة بأنه إن عرف محتوى تلك الرسائل، فلن يسره أن تجيب عنها أو تقرأ قصصها المريعة. لم تكن لتبدو له ملائمة لشخص مثلها، أي مثل زوجته.

4

عندما استيقظت نوريا صباح اليوم التالي، وجدت ماكسيمو ثفرا جالسًا إلى حافة الفراش يتأملها.

- صباح الخير، لم أتصور أن تأتي مبكرًا إلى هذا الحد (قالت له وهي تتمطى).

- أخذت السيارة مع شروق الشمس. اشتقت لرؤياكم (كانت الساعة حوالي التاسعة صباحًا). السلام المنزلي لا مثيل له لكي يستعيد الإنسان حيويته.

- خرجت أمس لوهلة، ماكسيمو (قالت بسرعة. شعرت أنها مضطرة للاعتذار لعدم تواجدها في البيت عندما اتصل بدورا). كنت أرى شيئًا بخصوص عمل.

- كاتبة شركة كما كنت ترغبين؟

- شيء من هذا القبيل. أعلم أننا لسنا بحاجة للمال، ولكنه سيسليني، سيجعلني أشعر بأنني ذات فائدة. تعلم مدى حبي للكتابة.

- ولكن، الأولاد؟

- هذا أفضل ما في الأمر، ماكسيمو، لن أكون مضطرة للخروج من المنزل. يتعلق بـ... (ترددت نوريا، أخذت توازن كلماتها) بالرد على مراسلات القسم التجاري لشركة مستحضرات تجميل، وهذا عمل أستطيع القيام به من هنا. إن كنت لا تمانع.

لم يجد ماكسيمو ثفرا ما يسوء في هذا النشاط، يتشابه عنده الحياكة لشركة أزياء أو تجميع خرز لمحل خردوات.

- إذا كان سيسعدك، فليس لدي ما أقوله. وإذا تعبتِ، تتركينه وانتهى الأمر. قضية محسومة. (ثم قدم لها لفة مستطيلة لا يكاد يصل ارتفاعها سنتيمترًا). افتحيها.

فضت نوريا الورق بحرص وفتحت الصندوق الكارتوني. كان منديلًا حريريًا لامعًا بلون السومون. يحضر لها ماكسيمو هدية كل أسبوع. لا ينسى مطلقًا. فكرت وهي تتحسس ذلك النسيج، أنه مع اضطرارها للتحلي بالكتمان بخصوص مراسلات البرنامج الإذاعي، يجب أن يسري ذلك على الجميع، دورا على سبيل المثال، إلا أن واجبها يحتم عليها أن تشارك زوجها حتى في أدق تفاصيل حياتها، لكي تكون واضحة وبدون غموض. ومن ثم قررت أن تخبره:

- ماكسيمو، ألا تـ...

- ألا يعجبكِ؟ هذا لتدفئي به رقبتك.

دخلت ميربيا في تلك اللحظة

- بابا، ومن أجلي؟

أعطى الطفلة مغلفًا ورقيًا عليه رسومات دمية تتسلق سلم.

- انظري! المهرج النطاط دنكن، أما اللبان فسوف آكله أنا. وكل مرة سوف أحضر لكِ قطعة درج سلم لكي يهبط ويصعد قطعًا أكثر.

ظلت الطفلة واقفة حتى أجرى لها تجربة، فأخذت تقفز وتصفق. تشعر نوريا في لحظات كتلك أنها تحتاج أن تكون فترة إقامته في المنزل أطول.

***

لم يكفَّ آل ثفرا عن الدخول والخروج خلال اليومين التاليين. كان ماكسيمو يتمتع بقدر من الطاقة لدرجة أنه بدلًا من أن يستريح، بدا أنه عازم على أن ينجز في عطلة نهاية أسبوع واحدة ما يمكن أن تقوم به عائلة أخرى في شهر. اتجهوا صباح السبت إلى ميدان لا برثلونيتا لشراء سمك. كانت النصبات المواجهة للبحر عبارة عن طاولات مغطاة بقماش كتاني خشن أزرق تراصت عليه أصناف متنوعة من منتجات البحر. يصر ماكسيمو على تشمم المحار الذي يلفت انتباهه، فتخرج بدورها كيس النقود في كل مرة يفعل ذلك وتدفع ثمنها. لم تكن تعتبر أنه تصرف سليم أن تتركها بعد أن أمسكها زوجها بيده وتشممها على هذا النحو. كان نهمًا في كل شيء. وعندما يتجمع لديهما كيلو جرامين، تجذبه من ذراعه لكيلا تضطر لشراء المزيد.

في الظهيرة، بعد الغداء، ذهبوا إلى حديقة الحيوان، وعندما هبط المساء، تنزهوا في لاس رامبلاس. كعادتهم كلما كان ماكسيمو متواجدًا، لم تكف نوريا عن الكلام، وكأنها ادخرت كل الكلام من أجله. تخبره بأدق التفاصيل عن مهام حياتها اليومية، قلقها، وكل ما فكرت فيه طوال الأسبوع. هكذا كانت منذ الوهلة الأولى. حكت له عن شقاوة طفليهما، والفرحة التي انتابتها عندما انتصب مارك واقفًا مبتعدًا عن طاولة السفرة التي كان مستندًا عليها لكي يسير نحوها فاتحًا ذراعيه بخطواته الثلاث الأولى وهو يتعثرً. كانت تتمنى لو كان موجودًا أيضًا. ولكن على عكس أحاديثهما السابقة، هذه المرة كانت هناك عدة أشياء لم تخبره بها.

عندما عادوا مجددًا إلى منزلهم، أخذ ماكسيمو حمامًا، وبعد ذلك جلس على المقعد لقراءة الجريدة التي نزل اليوم لإحضارها بنفسه. أثناء ذلك، حممت نوريا الطفلين، وأعدت لهما العشاء، وبعد نحو عشرين دقيقة أدخلتهما الفراش. عندما دخلت غرفة النوم، احتضنها من الخلف، وشرع بتقبيل عنقها في البداية من على الشعر، ثم رفع خصلاتها. حلّ حمالات

الصدر ومددها على ظهرها في الفراش. لم تتخيل نوريا أن المتعة التي كان بوسعه أن يمنحها إياها يمكن أن تجدها بعيدًا عنه. لم يسمح لها بأن يحتفظ جسدها بأية أسرار، يتحكم بها كآلة موسيقية يضبط إيقاعها. ويدوم الشعور معها لأيام، وكأن ممارسة الحب معه لا تقتصر على تلك الدقائق فحسب، بل هي بداية لبقاء ذلك الشعور بداخلها. تلك كانت طريقته في أن يقول لها إنه راحل ولكنه يبقى.

***

ما إن رحل ماكسيمو الإثنين، حتى وضعت نوريا الآلة الكاتبة الأوليمبيا الزرقاء السماوية في منتصف منضدة حجرة المعيشة، منتصف صدفتها تمامًا التي كانت البيت بالنسبة لها. كانت قد استبقت تلك اللحظة منذ أن عادت الجمعة من شارع بيلايو. وصممت، على مدار يومين على الأقل، ألا يربطها بالعالم الخارجي شيء سوى تلك الرسائل.

على الظروف من الخارج بأحرف مكتوبة على عجل تلخص مضمونها في كلمتين: («فوضى عاطفية»، «عنف» أو «عطفي» تقصد «عاطفية»)، وأحيانًا بجمل مطولة مثل «فقدت الزمن» أو «ابن ذوات في الثالثة والعشرين يتمنى أن تكون له لحية كاملة».) أول رسالة شرعت في قراءتها، كان مرسومًا عليها صليبٌ أسودُ فقط كوصف لمحتواها.

سيدتي العزيزة:

إليكِ ماحدث لعائلتي. أحذركِ إنه أمر فظيع. يوجد فندق رائع يطل على البحر، على مسافة بضعة كيلومترات من منزلنا.

ألقت نوريا نظرة على ختم المرسِل وتحققت من أنه مُرسل من ويلبا. كانت هناك رسائل كثيرة مرسلة من خارج كتالونيا ولم تُبَث لأن موجات

البث لم تكن لتسمح لصاحباتها بسماع الرد مطلقًا.

عندما كنت في التاسعة وشقيقي في الحادية عشرة، أبلغ موظف الاستقبال أبي عبر الهاتف بأن أمي موجودة في إحدى الغرف مع أحد الجنود. يجب أن أوضح لكِ أنني ابنة عميد جيش، ولكِ أن تتصوري مدى خطورة الوضع. في تلك الظهيرة المشؤومة، الأسوأ في حياتي، اصطحبنا جندي مراسلة من المدرسة قبل موعد الخروج بساعة. رأيت شخصًا يرتدي الزي الرسمي يدخل الفصل وأمرني بجمع متعلقاتي ومرافقته. وفعل الشيء نفسه مع شقيقي. خشيت أن تكون مأساة قد وقعت! وما لم أتصوره وقتها هو أن المأساة لم تقع بعد وأن الخطة التي دبرها عقل أبي الشرير، كانت أن نشهدها.

تركنا السائق عند باب الفندق الذي أخبرتك عنه. كان أبي ينتظر على أحد مقاعد الكافيتريا، صعدنا نحن الثلاثة السلم، وقطعنا الممر، وتوقفنا أمام حجرة كانت الأبعد عن بسطة السلم. لم نعرف أنا وشقيقي ماذا كنا سنفعل هناك. ثم أخرج أبي المفتاح الماستر الذي أعطاه إياه موظف الفندق، فتح الباب، وكانت أمي هناك في الفراش، ثائرة الرأس وقد اختلط مكياجها، مع شاب. أخذنا أبي نحن الاثنين من أيدينا، وأوقفنا أمام الشرفة. حاول الجندي الهرب، ولكن بمجرد أن لمست قدمه الأرض، أطلق أبي النار على رأسه. بدأت أمي حينئذٍ تتعلثم، وترتجف، وتبكي، وتتوسل إليه أن يتركها من أجل صالح العائلة كلها، رجته. بدا أنه لا يسمعها، وصوب بين حاجبيها، وترك لها ثقبًا في منتصف جبينها. ارتطم رأسها بحافة السرير الأمامية عندما مالت رقبتها إلى الخلف. لم نكن أخي وأنا نقوى على السير إلا أن أبي دفعنا نحو باب الخروج. صعد خادم من الفندق فقال له أبي: «أخبر السلطات، حضراتكم لديكم عمل

لتقوموا بتنظيف كل هذا، أما أنا فقد نظفت ما يخصني».

حدث لي هذا منذ نعومة أظفاري، سيدتي. ما رأيكِ؟ لماذا تصرف أبي على هذا النحو؟ هل كانت هذه موعظة؟ جعلنا نشهد إذلال أمي، ولكنها كانت ستموت في النهاية؛ وفقًا للمبادئ الأخلاقية لمن قتلها، ولم يكن هناك سبيل للرجوع، ولكن ماذا عنا؟ لماذا أرغمنا على أن نعيش مع هذا؟

كما لكِ أن تتصوري، كيف عشنا شقيقي الحبيب وأنا بلا زواج؟ توافقنا بشكل جيد، بقينا فيما كان في الماضي منزلنا، أنا أطهو من أجله، أحب القيام بذلك لأنني أعرف ذوقه، علاوة على أننا نتشارك نفس الهوايات، نذهب إلى السينما، ونقرأ الكتب نفسها، ولن أنكر أنه يسعدني أحيانًا كثيرة تعاملنا كزوجين، وما لا يعلمه أحد أننا في ليالي العواصف ننام متعانقين في نفس الفراش الذي كان لوالدينا. لحسن الحظ أنه لم يتلوث. ربما بدت علاقتنا مبالغًا فيها بعض الشيء، ولكنها كانت تخفف ألمنا. كان هناك أمر إيجابي وحيد في كل ذلك، أنه وحّد بيننا للأبد. لم نعرف شيئًا عن أبي حتى وفاته في مكان بعيد.

شكرًا من أجل قراءة رسالتي، سأكون ممتنة لكِ على بعض الكلمات بهذا الخصوص، وأؤكد لكِ أنني سأتقبلها بكل سرور.

إليكِ أحر عناق من المدينة الأكثر إشراقًا في كل إسبانيا،

ماريتا

أحكمت نوريا أطراف الرداء المنزلي بعد إغلاق الظرف. فكرت في والديها، متأكدة من أن أيًا منهما لم يخطر على باله فكرة الخيانة الزوجية، فضلًا عن حدوث ذلك في قرية، على الرغم من أنه في حالة تلك المرأة، لابد أن الأجواء التي وصفتها كانت منغلقة تمامًا: معسكر الجيش، والمدينة، وزوجة رجل عسكري برتبة كبيرة.

قررت بمجرد أن تتاح لها الفرصة الاتصال من شقة دورا بأسرتها، فقد اعتادوا الاتصال بها كل أسبوع، لكن في تلك اللحظة شعرت برغبة في وجودهم قريبين منها، وكأنهم سندها، ومرجعيتها الأكثر خصوصية، والنموذج الذي يحتذى به.

ستقترح على ماكسيمو قضاء الصيف المقبل معهم، بينما يذهب ويجيء، سيان عنده الذهاب إلى برشلونة أو السفر حتى لابيسبال. كانت هناك طرق جيدة. سوف يلفت الأنظار بسيارته الفورد موديل ثندربيرد، ذات اللون الفيروزي، مع أنه من الأفضل إثارة الحسد أكثر من إثارة الشفقة، كما اعتادت أمها أن تقول.

قرأت الرسالة التالية.

سيدتي العزيزة:

ما سأحكيه لكِ ليس شأنًا يخصني، لكن صدقيني إذا قلت لكِ إنه بالنسبة لي أكبر بكثير مما لو كان كذلك، لمجرد أنه أمر يتعلق بشقيقتي الحبيبة. لا أبالغ إن قلت لكِ إنه يؤلمني أكثر بكثير مما لو كان يمسني مباشرة. حسنًا: لا أشعر بأية مودة تجاه زوج شقيقتي، كان ذلك في البداية بدون أي سبب، ولكن لطالما ارتبت بشأنه. ربما يرجع ذلك إلى ما يطلق عليه البعض الحدس الأنثوي.

ما حدث أنه، بمرور الأعوام، ساءت حال شقيقتي معه، كانت مسلوبة الإرادة عندما تزوجا. وخاصمت كل من تكلم معها آنذاك في أمره من العائلة. وهكذا تركناها تفعلها، لأنه سواء والديّ، أو أشقائي الثلاثة الذكور، أو أنا، لم نر ما يجعلنا نؤاخذه عليه، لكن لا أدري، سيدتي، كان بمثابة نذير شؤم، وكأن به شيئًا لا نفهمه. إذا قلت لكِ إن ابتسامته كانت مزيفة، وأنه يتفرس بي بشكل مبالغ فيه، ربما تتصورين أنها انطباعاتي

الشخصية، ولكن لو كان ذلك ممكنًا لتجنبناه، وبالطبع، أدى ذلك لتزايد عزلة شقيقتي. عزمت على ألا يمر أسبوعٌ بدون أن أذهب لزيارتها في غير وجوده، هذا بالفعل ما التزمت به.

على مر السنين أصبح أكثر شحًا. أو ربما كان يخفي شحه من قبل والآن لا يرى حاجة لذلك. أصبحت شقيقتي تثير الرثاء ليس لأنها مهملة أو لأمر كذلك، بل لأنه لا يعطيها مالًا لأي شيء: لا تستطيع الذهاب إلى صالون التجميل، ولا تستطيع صباغة شيبها وهذا جعلها تشيخ. إنها في الخامسة والثلاثين من عمرها فقط، وتبدو كأنها تخطت الخمسين. والثياب، سيدتي، هي نفسها دائمًا مرتّقة ومرفّأة. أحاول مساعدتها في حدود استطاعتي، لكنها تخبرني أنها تفضل الاستمرار على حالها هكذا، لأنها تتعارك في كل مرة تطلب منه مالًا من أجل أي شيء، ويغضب راحلًا بعد أن يصفق الباب بقوة ويسمعه كل الجيران. ولا تسيئي الظن! فكما أخبرتك إنّ شقيقتي لا تطلب شيئًا لنزواتها، بل من أجل أبناء شقيقتي، أطفال مساكين، يبدو كأنهم يعيشون في بلد أفريقي. يعيشون على ما يعطيه لها في ظرف كل أسبوع، يقول لكيلا ينفقوه مرة واحدة، وهو مبلغ زهيد. إذا كنت أكتب لكِ الآن، فهذا لأنني أكدت لها، لكيلا تزيد الأمور تعقيدًا، أنه ربما يدخر باقي راتبه لكي يوفر مستقبلًا أفضل لأبنائه. أما هي فلا تعرف شيئًا عن البنوك، ونادرًا ما تخرج من المنزل لأنها تخجل -أظن- من أن يراها أحد على تلك الحالة. أنا معذبة. انظري! المرة الأولى التي أخبروني فيها (أتصور أنكِ لن تخبري أحدًا)، لم أكن أريد التصديق، لكن مساء أمس تحققت بعينيّ. زوج شقيقتي، يا سيدتي، يذهب كل يوم بعد الخروج من العمل ليقضي ساعتين في الحي الصيني، بينما زوجته وأبناء شقيقتي يعانون من شدة العَوَز لدرجة أنه يقترّ عليهم حتى في الطعام. يبعثر هناك ما يحتاجونه بشدة.

أخبريني ماذا أفعل. هل أخبرها؟ هل سيزداد الأمر سوءًا؟ لو أنك رأيتها... إنها أطيب إنسانة يمكن أن تتخيليها. لم تفكر في نفسها مطلقًا، بل فيمن حولها فحسب. لا أدري ماذا أفعل؟ أوشك أن آخذها إلى منزلي. أنا عزباء، والحمدلله، لأنه كما تفهمين، أفضل البقاء بلا رجل على أن يكون لي رجلٌ كهذا.

قولي ما تشائين! فلا عذر له. إنه سافل. وأخبريني كيف ستتصرف شقيقتي إذا انتقل إليها أي مرض منه؟

أستودعك متمنية أن تنعمي بصحتك طول العمر.

5

سارت الأسابيع التالية على المنوال نفسه، ونوريا تستمتع بتلك العلاقة عن بعد، دون أن تبتعد على الإطلاق عن الأشخاص الذين لم يعودوا مجهولين بعدما قرأت مشاكلهم، وتحاول أن توفر لها أية حلول. كما استطاعت أن تجعل حياتها الأسرية تمضي بأسلوب يحول دون أن تقتطع تلك المهمة الجديدة من وقتها مع طفليها أو مع ماكسيمو خلال عطلات نهاية الأسبوع.

ومع ذلك، اعتاد زوجها سؤالها بصورة أكثر إلحاحًا في كل مرة، إذا لم تكن قد تعبت بعد من ذلك العمل. لم يثبط هذا من عزيمتها مطلقًا، على العكس كان يحفزها أكثر وأكثر، لأنها لم تكن أبدًا شخصا متقلب الأهواء، وهي تريد أن تثبت له ما بدا أنه لا يعرفه، وهو أن تلك الوظيفة لم تكن مجرد نزوة.

التقطت رسالة تبدأ بالتحية المعتادة، «سيدتي العزيزة»، مكتوبة أسفل العنوان والتاريخ. خط امرأة عصبية، وكأنها في عجلة كبيرة من أمرها، قالت إنها تكتب إليها من أجل «مسألة في منتهى الخطورة».

أكتب إليكِ لأنه ليس لديّ أحد أتوجه إليه. سبب رسالتي هو ما يلي: بالصدفة البحتة لأقصى ما يمكنك أن تتخيلي، عرفت بأمر مسألة رهيبة على لسان صديق. يوجد بيني وبين هذا الصديق أقصى قدر من الحميمية التي يمكن أن توجد بين رجل وامرأة، حضرتك تتفهمينني. إنه شخص ذو سلطة كبيرة، ولا يمكنني توضيح أكثر من ذلك. حسنًا إذن، اعتدنا أن نتقابل لمرة في الأسبوع. هذه المرة، جئت أنا قبله إلى عشنا الصغير.

شقة في وسط المدينة، يمكن الولوج إليها عبر مكتبه. بعد أن وضعت حقيبة يدي على الطاولة المجاورة للفراش، خلعت حذائي، وتجردت من ثيابي انتظارًا لمجيئه، دخلت الفراش ورحت في النوم. كانت مجرد دقائق معدودة. إلى أن سمعت بين النوم واليقظة، جملًا عن أطفال مولودين مبتوري الأطراف. كانت التفاصيل شديدة البشاعة، لدرجة أنني أفقت على الفور. لم يكن يفصل بين شقتنا المفروشة (meublé) ومكتبه سوى بضعة أمتار، ولهذا وصلني صوته في منتهى الوضوح عبر الجدار الفاصل.

ولأنه نسي موعدنا، واصل المحادثة الهاتفية. شحذت آذاني فسمعته يقول إنه ليس من العدل أن ترى الأمهات المسكينات اللاتي تحلمن بأطفال أشلاءهم أمام أعينهن، وإنه منطقي بعد ذلك أن يتخلين عنهم في الملجأ أو حتى أن يقتلنهم، لعجزهن عن مواجهة هذه البشاعة كل يوم. أضاف بعد ذلك أنه يجب عمل شيء بسرعة، قبل أن يطولهم الجحيم هم أيضًا، وأن رأسه ستنفجر لأنه لم يعد يحتمل وطأة كل هذا الذنب، وأن يكون معلومًا أنه يريد الفكاك من مثل هذا الأمر بأسرع ما يمكن. قال كل هذا. أصابني الأرق منذ ذلك الحين. وتهاجمني صور أولئك الصغار كلما كنت بمفردي، أراهم يضحكون لاهين عن مآسيهم. لا أستطيع انتزاعهم من رأسي. لا أعلم من هم، أو حتى إذا كانوا يعيشون في هذا البلد، ولكن ما لا يساورني أدنى شك بشأنه هو مسألة الأطراف المبتورة تلك. هذا هو أكثر شيء تكرر.

على أية حال، أرجوك سيدتي أن تغفري لي جرأتي وأنانيتي حين أبث إليكِ أثقل همومي، وغرضي أن تسدي لي النصح: ماذا يجب أن أفعل؟ ألا تبدو لكِ خسة من جانبي أن أتجسس على شخص فعل الكثير من أجلي؟ هل هذه خيانة للعطف الذي أولانيه شخص كان في منتهى الطيبة معي؟ إنه إنسان لم يبخل عليّ بشيء، ويسألني دائمًا إذا كنت بحاجة لشيء، في الوقت

الذي لا يعوزني شيء بفضله.

أدرك الفكرة التي ستدور برأسك عند قراءة هذه السطور، وهي لماذا نلتقي في الخفاء؟ كل شيء له تفسير. نحن لا يمكننا أن نحظى بأي نوع آخر من العلاقات بسبب ظروف الحياة: هذا السيد متزوج، وما زاد الطين بلة، أن زوجته قعيدة. ستكون خسة أن يتخلى عنها في مثل تلك الظروف. هذا أمر يسهل فهمه.

لن أزعجك أكثر من ذلك. في انتظار ردك، تودعك من تتمنى من الله أن يمتعك بطول العمر.

أصابت هذه السطور نوريا بذهول أكثر بكثير من كل الرسائل الأخرى. كانت الرسالة مليئة بالشطب، وكأن من كتبتها لا تهتم بالشكل، يؤرقها هاجس نقل همومها. وقد نقلت بكل وضوح إلى نوريا صورة هؤلاء الصغار. كما تقول السائلة، تخيلتهم مبتسمين لاهين عن المأساة التي تمثلها عاهاتهم.

أفاقت وأخذت تتفرس في طفليها لفترة طويلة، وكأنها تنتبه لأول مرة أن لكل منهما عينين وأربعة أطراف... شعرت بأنها محظوظة، ولكن لم تستطع انتزاع الألم الذي سببته لها تلك القصة. عادت بعد ذلك إلى الصالة. وظلت هكذا إلى أن اقتربت ميريا حاملة شقيقها بين ذراعيها. كانت تتعامل معه وكأنه دمية. لم تشأ نوريا أن تفزع الطفلة فتتعثر، كما لم تكن تريد منعها من حمله. لقد نسيت نفسها مع تلك الرسالة الرهيبة.

- تفضلي! (قالت لها الطفلة وكأنها تناولها جوالًا)، كان يبكي.

- ولكني لم أسمعه...

- كان يبكي بدون صوت. تعلمين كيف هو (قالت ميريا بنبرة تجمع بين الخبث والتلطف).

كانت الطفلة نموذجًا مصغرًا من جدتها لأمها: قوية وحازمة، لديها إجابات على كل شيء. وتتفوق عليها في بعض الأحيان. كان والدها ينبهر بها، وتعتقد نوريا أنها تتمتع بقدرة تفوق قدرتها على الإغراء. خطر لها شيءٌ بينما كانت تنظر إليهما:

- ميريا، حبيبتي، هل ممكن تضعيه بمنتهى الحرص على السجادة؟

- نعم، مامي.

تعلم نوريا أن ابنتها تحب أن توكل إليها مهام تتعلق بشقيقها، لأن هذا يبث فيها ثقة تفوق أكثر بكثير ما تحتمله سنوات عمرها القليلة.

- سأكتب شيئًا وآتي على الفور.

أرادت نوريا الاحتفاظ بالنسخة الأصلية، ولما كان يتعين عليها تسليم نفس عدد الرسائل التي تلقتها، أخذت تقلد خط السائلة، نسخت عدة سطور، حتى بدت لها المسودة مقبولة. تدرك أنه مجهود مجاني، لأنها إن احتفظت بها، فلن تكون هناك إمكانية للمقارنة، ومع ذلك أرادت أن تفعلها على هذا النحو تحسبًا لتدقيقهم في الخط المكتوب على الظرف الذي سوف تعيده بالتأكيد، ثم أعادت نسخها بدون ذكر أي شيء عن الأطفال، وكأن كل الاستشارة تقتصر على خيانتها فحسب. وحققت مبتغاها بحذف الفقرتين فقط اللتين تتعلقان بالأطفال المزقي الأطراف. لكنها ترددت حينما أمسكت بالظرف لتضع فيه الرسالة: لم تعرف إذا كانت تلك الاستشارة تمثل واقعة فردية أم سيكون لها توابع. وتريد معرفة إذا كانوا سيسلمونها خطابات المرسِلات نفسهن دائمًا أم أنها لن تعرف شيئًا آخر عن تلك المسألة بعد ذلك.

لم تكن تريد المجازفة أن ينتبه الأب بيلسيرميس عند قراءة ردودها أن هناك رسالة ناقصة؛ فقد بدا لها منذ الوهلة الأول رجلًا فطنًا، ولكنها شكت في أن تكون قراءته للرسائل على هذا القدر من الدقة، بدليل أن تلك الرسالة أفلتت منه ووصلت إلى يديها.

نسخت بعد ذلك ردها على الآلة، وحثتها من خلاله على توخي الحرص حتى لا تحطم ذلك الزواج، وأن ترأف بالسيدة المشلولة والكف عن مداعبة زوجها لكيلا تصرفه عن مهامه. وضعت كلًا من الرسالة الجديدة المنسوخة يدويًا والمنسوخة على الآلة في الصندوق واحتفظت بالأصل في الخزانة نفسها التي ظلت بها ماكينتها الأوليمبيا لزمن طويل.

لم يمضِ عليها سوى بضعة أسابيع في العمل حتى أصبحت مستعدة للقيام بحيل. قالت لنفسها إن ذلك لحين معرفة المزيد عن تلك المسألة فقط. تأمل أن يقرؤوا في المعمل تلك السطور بشكل عابر فحسب قبل تسليمها وألا يلحظوا التغيير، وإلا فستفقد وظيفتها كمحررة خطابات حتى قبل أن تبدأ عملها.

احتاجت للحصول على الأكسجين بعد الاختناق الذي سببته لها تلك الرسالة. وهكذا ألبست طفليها وكأنه يوم الأحد وذهبت بهم إلى الحديقة.

***

حملت معها الكثير من الخبز الجاف لإطعام الحمام. تعشق ابنتها إطعامه. وبمجرد توقفهم عند أحد مقاعد الحديقة، وضعت ميريا الفتات فوق كتفيها لكي يحط الحمام عليها. فردت ذراعيها. كانت النقيض لفزاعة الطيور: مغناطيس لجذب الطيور.

- هل سينبت لي ريش؟

فكرت نوريا أن ابنتها ووالدتها وماكسيمو ينتمون إلى فصيلة من البشر لا تخشى من شيء. أما هي فعلى العكس، تهاجمها وتسيطر عليها أفكار فظيعة وتدرك تمامًا أن هذا يرجع إلى أنها تفكر دائمًا في الأسوأ.

جلست الطفلة، بعد أن التقطت الطيور كل الفتات من عليها، إلى جوار أمها وأخذت تنزع جزءًا من القشرة الخارجية عن رغيف الخبز، وعندما

أصبح لديها اللباب بدون الطبقة الخارجية، قطعته إلى لقيمات صغيرة تركتها فوق ساقيها، ثم التقطتها بيديها بعد ذلك. كانت نوريا شاردة تمامًا، تتطلع إلى الأمام نحو النافورة الحجرية المحاطة بالزهور. فجأة، ألقت ميريبا كل ذلك الفتات داخل عربة شقيقها فبدأ الحمام يتكالب عليه من أعلى ومن أسفل. أصيب الطفل بالفزع وانفجر في البكاء. في غضون أقل من خمس ثوان انهالت عشر حمامات على عربة الطفل الصغيرة. خلصته نوريا منها كيفما اتفق، وفرقتها بصعوبة.

كان مارك يرتجف وانحدرت الدموع على وجنتيه المنتفختين. ابتسمت ميريبا وهي تنظر لحذائها. انتابت أمها رغبة في زجرها، ولكنها لم تفعل. أمسكت بيدها وهي تدفع عربة الطفل واتجهوا إلى المنزل.

أعدت الحمام لطفليها بصابون من ماركة لوجران الوافر الرغوة. ثبتت مارك من عنقه وهي تأرجحه في الماء وكأنه مركبٌ وهي تصنع الموج بحركة يديها. انفجر الطفل في الضحك، ورفرف بذراعيه كما لو كانا جناحين. تركت ميريبا على الجانب الآخر من حوض الاستحمام المياه تنهمر على جسمها بالكامل، وفي كل مرة تضغط فيها الأسفنجة فوق رأسها جعلت تغلق عينيها بقوة حتى لا يلهبهما الشامبو.

– ماما، هل أصبحت براقة؟ هل سأصبح شفافة؟

ضحكت نوريا. شعرت بأنها محظوظة لأنها أم. وثمنت في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى أن أطفالها يتمتعون بوافر الصحة. أفادها الخروج في استنشاق الهواء كما كانت ترغب، ولكن مع ذلك، لم تتمكن من انتزاع تلك الكلمات من رأسها. المرأة التي كتبتها هي عشيقة شخص ذي نفوذ كبير، ولكنها لم تستطع تخيلها. في أفضل الأحوال قد يكون مجرد كابوس، فقد غرقت في النوم في انتظاره، ومن المحتمل أنها أثناء الغفوة خلطت بين الحلم والكلمات الآتية من الحجرة الأخرى. قررت نوريا أنها أخذت الموضوع على

محمل الجد أكثر مما ينبغي بدون حتى أن تتأكد إذا كان ذلك حقيقيًا. تعهدت لنفسها بتطبيق هذا المبدأ على باقي الخطابات؛ يقوم بعض المتسكعين أحيانا بطلب أرقام عشوائيًا والدخول في محادثات مع مجهولين، يخبرونهم أن الرقم خطأ، أو يكتبون لبرنامج استشارات لاختبار إذا كانوا قادرين على إثارة مشاعر لدى الآخرين: إثارة فزعهم، وقلقهم، مثلما حدث معها. تدرك أن الوحدة والحاجة للتواصل قد تسبب خللاً في الشخصية وفي قرارات من يعاني منها.

احتفظت بالرسالة في مكان آمن، وستترك عدة أيام تمر قبل إيلاج المفتاح في الصندوق والعودة إليها بعيون جديدة، وذهن أكثر صفاء، وعقل مستعد لتقييم مصداقيتها.

لم تشك نوريا أبدًا في حقيقة أي شيء من حولها، وحتى ذلك الحين لم تقع في أمر قد يوصف سلوكها بالسذاجة. تحتاج، قبل المضي قدمًا، إلى تصفية ومسافة.

***

على الرغم من التعطيل الذي سببته الرسالة حول الأطفال مبتوري الأطراف المزعومين، في تلك الجمعة الأولى من يونيو، وفي ساعة مبكرة كانت قد جهزت جميع ردود رسائل ذلك الأسبوع. وعادت مالكة العقار لتسدي لها عن طيب خاطر معروف البقاء مع مارك وميريبا، لذلك فكرت نوريا، أنه بالنسبة لتلك المرأة المنشغلة بأمور تبدو بكل وضوح أكثر إثارة للاهتمام، فإن مكوثها بعض الوقت مع طفلين، أمر في منتهى الغرابة. المهم أن ابنتها كانت مبهورة بدورا بلومر.

- يالروعة عالمها يا أمي!

لم تعلم إذا كانت تشير إلى منزلها أم خبراتها الحياتية.

كررت المسار نفسه حتى شارع بيلايو وفتح لها باب معهد التجميل رجل المعطف الأبيض الذي رأته في أول مرة ذهبت فيها إلى المختبر. أما هو فبمجرد أن انتبه إلى أنها تحمل صندوقًا، تناوله منها بدون أن يسألها عن شيء.

- هذا للسيد فرومنت (قالت نوريا بخجل، وهي تتطلع إلى عينيه الصافيتين خلف نظارته الرقيقة التي تؤطرهما).

- إنهما مسافران. رحلا إلى باريس، يذهبان على الأقل مرة كل شهرين، ولكن إذا كنت تثقين بي يمكنني حفظه لكِ (قال وهو يضعه فوق الطاولة).

- والسكرتيرة؟ (سألت نوريا وهي تومئ برأسها).

- ليليانا خرجت مبكرًا. أنت تعرفين تلك المقولة إذا غاب القط تلعب الفئران.

- حسنًا، أنا لا أعرف شيئًا عن أي قطط أو فئران (قالت بسذاجة).

- كما لم يعد هناك أحد في المصنع. إنه في القبو.

- تلك إذن الضوضاء التي أسمعها في كل مرة أصعد السلم.

- هناك الكثير من العمال. وعلى العكس هنا في الرقابة على الجودة، أنا هنا بمفردي.

اتجه الرجل ذو المعطف الأبيض إلى آخر الصالة لكي ينظف بعض الأجهزة المعدنية بماء صنبور حوض ضخم للغاية، وكأنها مهمة لا تحتمل التأخير أكثر من ذلك. جفف يديه في الحال، وعدل وضع نظارته على الجزء العلوي من أنفه. اعتقدت نوريا أنها مجرد حركة آلية، لأنه كان من الصعب للغاية تصور أنها قد تنزلق لأنه لم يكن أفطس الأنف على الإطلاق.

- هناك أمر آخر (قالت نوريا). انظر! لقد ساورتني بعض الشكوك، آمل أن تجد لي السيدة ليونور أو السيد أليكس حلًا لها.

- لا أستطيع إخبارك في أي يوم سيعودان.

- ربما تستطيع حضرتك مساعدتي...

- بورو (تابع مادًا يده إليها. احمر وجهها خجلًا عندما مدت يدها إليه).

- تشرفنا. في الحقيقة إنه أمر تافه، لكن كنت أود سؤالك إذا كانت هناك فتيات مثلي أنا.

ابتسم الكيميائي،

- أؤكد لكِ بكل ما أعرفه عن علم الجينات، وهو كثير، أنني مؤهل للقطع بأن حضرتِك فريدة من نوعكِ، ما لم يكن لكِ شقيقة توأمة، حينئذٍ ستكونين شبه فريدة. (لم تستطع نوريا تحاشي الابتسام، إزاء جديته المصطنعة) كما أهنئك على تألقك.

بدا لها التعليق مجرد مجاملة. كان قوام نوريا المفعم بالأنوثة على هيئة ساعة رملية، وشعرها البني الغزير المصفف بعناية، يحطان من شأن ذلك المكان المشؤوم المكسو معظمه بالألومنيوم.

- انظر! أقصد إذا كانت تأتي أخريات إلى هنا. أنت تعلم.

- كثيرات، وبعضهن حسناوات فاتنات، وقد لا تصدقين: أجمل من الحقيقة. غالبيتهن عارضات، يصورونهن بعمامات مثيرة من أجل اللوحات الإعلانية. ويوزعون الصور بعد ذلك على محلات العطور والخردوات، وكل من يراهن يعتقدن أن هذه الكريمات ذات تأثير قوي، وأنهن سيصبحن مثلهن في غضون أيام قليلة.

- أقصد (ألحت نوريا دون الكف عن الابتسام، متشككة أنه يعرف منذ الوهلة الأولى مغزى سؤالها) إذا كن يقمن بنفس ما أقوم به أنا الآن: الرد على الرسائل التي لا تبث في برنامج المستشار العاطفي الإذاعي.

- في هذه الحالة يؤسفني جدًا أن أقول لك، سيدة...

- ثفرا (أضافت نوريا).

- إنه ليس من اختصاصي إفادتك بهذا، أنا مهندس كيميائي، وكما يتضح لكِ من ملبسي وأدواتي، أنني المسؤول عن هذا المختبر (قال بابتسامة عريضة). أما كل ما يتعلق بالبرنامج، فيتولاه السيد والسيدة فرومنت، وليليانا، والأب بيلسيرميس.

- هل تعرف القس أيضًا؟ (قالت نوريا، على الرغم من أنها انتبهت في الحال إلى أنهما يلتقيان هناك باستمرار).

- نعم، منذ صغري. من المدرسة الداخلية.

- هل كان كاهنًا؟ (سألت نوريا بمنتهى الاندهاش).

- لا (صحح لها بورو، وكأن السؤال مضحكٌ بالنسبة له). كان واعظًا. ولكن هذا كان قبل وقت طويل من انغماسي في البحث عن نبع الشباب الدائم. (وضحك ملوحًا بيديه). هل تعتقدين أننا سنعثر عليه؟

- يا ليت، سوف توفر علينا الكثير من الأرق والقلق... أمراض... وقد يصيبنا بفقدان الشعور بالألم.

- صدقيني إذا قلت لكِ إنكِ لا يجب أن تقلقي من أي شيء. تبدين موفورة الصحة.

تضرج وجه نوريا خجلًا، وتلفتت حولها لتداري ذلك.

- هل أنت واثق من أنه لا يوجد أي أحد آخر هنا يستطيع الإجابة على شكوكي؟

أومأ بورو برأسه نافيًا وهو يتقدم لبضعة خطوات.

- مع الأسف.

- في هذه الحالة، من الأفضل أن أرحل. لا أريد تعطيلك أكثر من هذا.

- لم تعطليني. في الحقيقة، لقد تطوعت لانتظارك عندما أخبرتني ليليانا أنه يتعين عليها الخروج مبكرًا اليوم. ومن ثم أرجوكِ ألا تنسي أخذ هذا.

(رفع صندوق خطابات جديدًا من على طاولة السكرتيرة). تفضلي! لكي تتمكني من متابعة عملك.

- نعم، بالطبع، شكرًا جزيلًا (قالت نوريا، وكانت قد نسيت تمامًا أمر الرسائل).

وعندما التقطت الصندوق تحسس يدها فسحبتها على الفور وهي في منتهى الإحراج.

- حسنًا، سأرحل. شكرًا، مرة أخرى.

- شكرًا لك، من دواعي سروري (قال لها المهندس الكميائي).

كانت نوريا مرتبكة. اعتبرت طرحها لذلك السؤال حماقة. لقد أظهر السلوك الأكثر صوابًا برفضه الإجابة، ومع أنه لم يبدُ لها منزعجًا، بل على العكس مستمتعًا، عاهدت نفسها بأن تعتذر له ما إن يلتقيا مجددًا. فكرت نوريا مرة أخرى، خلال رحلة الحافلة، في أولئك الأطفال الآخرين المشوهين الذين ذكرتهم الرسالة، وفي والديهم، وفي أقاربهم. وقالت بينها وبين نفسها إنها ماتزال لا تعرف مدى المصداقية التي يمكن أن تمنحها لتلك السطور المقلقة للغاية.

لطالما تذكرت عائلتها، وما أبدوه من استيعاب تام لخططها. تلقت كل الدعم المادي الذي كان بوسعهم أن يمنحوها إياه، بالإضافة إلى العبارة التي صاحبتها دائمًا: أن كل آمالهم معقودة على سلوكها. وقالوا «كل» لأنها كانت ابنة وحيدة. عبروا عن ذلك على هذا النحو وكأن عدم وجود إخوة كان قرار نوريا ومسؤوليتها.

سار العام الأول الذي قضته في برشلونة وفق توقعاتها: اجتهدت كثيرًا في الدروس، وحصلت في الامتحانات على نتائج جيدة للغاية. ومع كل هذا توفر لديها الوقت لحضور بعض الأمسيات الأدبية التي تُقام بمناسبة معارض الفن التشكيلي، مع النبيذ والمقبلات، وكان يُعلن عنها تحت عنوان

مراسم الافتتاح» (vernissage). تعرفت بعدد من الشبان، وتحدثت معهم عن آخر رواية قرأتها لإجناثيو الديكوا وآنا ماريا ماتوتي، أو عن الشعر الرمزي الفرنسي، ضمن الكثير من الموضوعات الأخرى.

لقد جذبها منهم حواراتهم، إلا أن الخجل من الغالبية مع تصنع التعالي، مثل العلماء الذين لا شاغل لهم سوى الثقافة، حولهم في نظرها لمجرد معارف، ليس لديها أدنى اهتمام بتعميق علاقتها بهم. أشيع عنها بسبب هذا البرود في المعاملة، أنها ربما لا يستهويها الرجال، ولا هي تروقهم. ولكن كل تلك الشكوك تبددت عندما ظهر ماكسيمو.

رأته للمرة الأولى على باب قاعة الرقص في أردينا. بقيت تينا ريوس، زميلة الدراسة، التي جاءت معها نوريا، مع رفيقها العاطفي بالداخل، أما هي، فقررت الرحيل مبكرًا بعد أن أصابها الضجر من ذب البعوض عنها. كان ماكسيمو مستندًا إلى سيارة فورد ثندربيرد فيروزية اللون أمام باب المحل. وقد ارتدى قميص تنس أبيض وسروالًا به كسرات بلون بيج. بدا ذلك المشهد لنوريا كأنه من لوحة إعلان فيلم سينمائي.

– ظللت أراقبك طوال الليل. (شعرت بكلمات ماكسيمو الأولى وكأنها تهديد، حتى اختتمها بعبارة مجاملة): إنكِ فاتنة. يروقني أسلوب تصرفك مع الآخرين.

– أهذا لأنني لا أعيرهم اهتمامًا؟ (قالت بدون أن تنظر إليه).

– ليس هذا فحسب (قال بدون أن يبتعد عن السيارة حتى بدأت نوريا تمشي).

– لا أحتاج أن يدعوني أحد لكيلا أضيع وقتي لأنني لا أعتقد أنه يجب إفساح المجال لمن لا يروقك. (لم تكن قد توقفت؛ أخذت ترتب محتوى حقيبة يدها أثناء سيرها).

انضم ماكسيمو إليها. ترك السيارة هناك وكأنها مجرد جزء من المشهد.

- وماذا عني، هل ستكترثين بي؟

لم تجب نوريا.

- هيا نذهب إلى ميرامار، مازال الوقت مبكرًا. دعيني أدعوك. أؤكد لكِ إنني لن أجعلكِ تضيعين وقتكِ أو أزعجك.

بدا لنوريا أنه من الحماقة الرحيل مع غريب. خمن ماكسيمو ما يدور في عقلها، وقطع عليها الطريق متوقفًا أمامها. لم يقل شيئًا، نظر إليها فحسب بتمعن شديد لأقصى ما يستطيع.

- سأرحل إلى بيتي، حسنًا الفندق الذي أقيم فيه (قالت دون تفكير في عواقب كشفها له أنها لا تعيش مع والديها).

شعرت بذهول. لو حكى لها شخص آخر عن سلوك مماثل لما تقوم به، لأطلقت عليه الاسم القانوني والمحق للغاية: «تهور أحمق».

- سوف أرافقك. ليس جيدًا أن تذهبي بمفردك في هذه الساعة (أمسكها من ذراعها، قطعا نصف دورة وقادها حتى السيارة).

حينما فتح لها الباب ودعاها للدخول، كررت نوريا أنها لا تستطيع الذهاب مع شخص لا تعرف عنه شيئًا على الإطلاق. وما إن جلسا، قال لها ماكسيمو:

- انظري ياله من قمر. (بدأت تصدح من جهاز الكاسيت مقدمة البيانو للحن «Guarda che luna» لفريد بوسكاليوني، كما لو أنه أعده سلفًا.

لم يسبق لنوريا أن رأت جهاز راديوكاسيت محشورًا في لوحة قيادة أوتوموبيل. انتابتها رغبة في الرقص. وحاولت ألا يلاحظ ذلك عليها.

- لا تقلقي! في الثانية عشرة منتصف الليل سأتركك سالمة آمنة في مسكنك (قال بينما كان ينحرف في أول منعطف. أدركت نوريا على الفور أنه

عازم على التوجه نحو حديقة المونجويك فأصابها الفزع).

- أوقف السيارة!

- ماذا جرى؟ (قال وهو يضغط مكابح السيارة).

- لا أحب الكذب. علاوة على أنني لا أعرف شيئًا عنك. دعني أترجل.

- معذرة. تصورت أنه من الأفضل أن نبحث عن مكان هادئ للحديث وتناول مشروب. هذا فقط. لقد سحرتني.

- لا تكرر هذا!

- ماذا؟ التغزل فيكِ؟

- الكذب عليّ. لا أطيقه.

- هذا وعد. لا مزيد من الكذب (قال متفرسًا فيها بمنتهى الحدة). هل يمكننا إذن الذهاب إلى المونجويك؟

- فقط إذا كنت ستوصلني إلى المنزل في الثانية عشرة.

- هذا وعد. أين تقيمين؟

- في فندق اسمه كاسا لافوريت. (قررت الاعتقاد أنه سوف يتركها في تلك الساعة).

راودها لأول مرة منذ أن جاءت إلى عاصمة الإقليم، شعور بأنها تخوض مغامرة، أنها تخرج عن المألوف التقليدي، وانتابتها رغبة في معرفة كيف سينتهي كل ذلك وكأنه مقطع من رواية؟

ركنا السيارة في ساحة لا أرمادا. وبينما كانت نوريا تسوي تنورتها، وتحكم أزرار سترتها الصوفية، فتح ماكسيمو صندوق السيارة، وسُمع في الحال دوي انفجار.

- خرجت الليلة للصيد وأنا فريستك. (نظرت إليه وهو يحرك رأسه

يمينًا ويسارًا).

- يا امرأة، لم تكن سوى سدادة زجاجة الشمبانيا (قال رافعًا المشروب).

- يراودني شعور بأن كل شيء معد سلفًا.

- بالطبع لا. لا أعرف حتى منذ متى وهي هنا. (ورفع كتفيه دون أن يحر جوابًا).

- مثلج، بالطبع. معك براد وكل شيء؟

- باعوني الثلج على مشرب بار اردينا قبل أقل من نصف ساعة. طلبته عندما اكتشفتك بجانب حلبة الرقص. قلت لنفسي إن لم تأتي معي، فسأشرب وحدي احتفالًا برؤياكِ.

- أنت وقح! من يعرف كم مرة فعلت هذا؟ (قالت نوريا بينما يحسب على أصابعه، ويثنيها مفتعلًا جهدًا ذهنيًا عنيفًا).

- أعتقد أنكِ الثالثة، المرتان السابقتان كانتا خالتيّ، دعوتهما لتناول الغداء هنا بجانب تمثال لاسيرنيداد.

- لاسيرنيداد؟ وأنا الثالثة، لكن أؤكد لك أنني لن أكون الثالثة ثاتبة.

- في صحتك...

- نوريا (أكملت هي النخب نظرًا لأنه حتى الآن لم يكن قد أخبرها باسمه). وخالتاك، ما اسميهما؟

- أتريدين التعرف على عائلتي؟

6

تصورت نوريا بعد تلك الليلة أن ماكسيمو يتلذذ بتأخير الخطوات التالية في علاقتهما. وكان حزنها يزداد كلما مرت الأيام دون أن تعرف عنه شيئًا، مع أنها لم تكن تريد الاعتراف لنفسها بذلك. تأخر نحو أسبوع حتى اتصل بها في الفندق لكي يسألها عن إمكانية ذهابهما إلى السينما مساء السبت، ما لم يكن مضطرًا للسفر.

اتصل بها بينما كانت تتجمل من أجل الموعد ليخبرها أنه حدث ما كان يخشاه وأنه مضطر لتأجيل أقصى ما كان يتمناه، وأنه يأسف لإبلاغها بذلك في اللحظة الأخيرة.

في النهاية وبعد مررو أسبوعين على تلك الليلة التي تعارفا فيها، دخلا القاعة الغارقة في الظلام لسينما ديانا. تصورت نوريا أنها خلوة لكي يقبلها ويداعبها. خرجت من البيت متأهبة لردعه، إلا أنه طوال الوقت الذي استغرقه عرض فيلم «مدافع نافارون» ظل ماكسيمو غارقًا في شروده لدرجة أنه لم يوجه إليها كلمة أو حتى نظرة. عند الخروج، وبينما كانا يقطعان البهو، بدا أنه ينظر إليها لأول مرة:

– هل تودين أن أدعوكِ لتناول مشروب مرطب؟

– لا أدري، يراودني انطباع بأنك تقترح ذلك مضطرًا.

– نعم، إلى حد ما، الحقيقة أنني سوف أستيقظ غدًا مبكرًا للغاية.

– لكن إذا كان اليوم السبت؟

- يتعين عليّ قطع إسبانيا بالكامل في يوم واحد. لدينا في ساعة مبكرة من يوم الإثنين محادثات في بيرين. إنها في أورنسي. ربما أحصل على ترقية.

- وما هو مجال عمل شركتك؟

- في مشتقات التعدين.

فكرت نوريا أنه يندرج تحت هذه الفئة الكثير من المنتجات، ولكنها لم تشأ الإلحاح. وما إن وصلا إلى الفورد الفيروزية اللون من طراز ثندربيرد حتى اتجها إلى فندق لافوريت بدون المرور هذه المرة بحديقة المونجويك. ترجل ماكسيمو أمام المدخل، ودار حول السيارة لكي يفتح لها الباب، وودعها بتربيتتين على الكتف.

***

تهلل ماكسيمو فرحًا في اللقاء التالي بعد عودته من جاليثيا مباشرة؛ فقد تحققت أقصى توقعاته بشأن عمله. وبينما كانا يرقصان على إيقاع «let's twist again» لشابي شيكر، اقترب منها في إحدى مرات التقدم والتقهقر وأمسك بوجهها بين يديه وقبلها. سرعان ما انسحبا من وسط حلبة الرقص ليسترخيا على أقصى مقعدين وجدهما شاغرين. وحينما اقترب النادل طلب ماكسيمو منه زجاجة شمبانيا.

- مثل المونجويك.

- نعم، مثل الغداء مع خالتيك.

- الآن يمكنني الزواج. (انتابت نوريا الرغبة في سؤاله بمن، ولكن تحلت بضبط النفس). لقد عملت بجد لكي أحصل على ما لدي. أين تريدين أن تقيمي؟

بدا لها ضربًا من الجنون، ولكنها لم تشأ إيقافه. في غضون أقل من شهرين كانا معًا، عاريين في الفراش لأول مرة، بفندق فرومنتور ديل بويرتو

دي بويينسا في مايوركا صبيحة زفافهما في لابيسبال.

انبهرت نوريا بالطائرة المروحية التي أقلتهما إلى الجزيرة ثم عادت أدراجها إلى مطار ألبرات.

لم تكن الروعة التي تخيلتها شيئًا يذكر مقارنة بما شعرت به في الواقع. طلبت من ماكسيمو إلغاء بعض الرحلات لأن الشيء الوحيد الذي كانت تريده هو ممارسة الحب معه.

تعتز نوريا من تلك اللحظات بملمس شعر ماكسيمو المتموج حينما يلتف حول أصابعها كلما داعبته، نعومة ظهره وهو فوقها، والطريقة التي ينظر بها إليها في صمت، وكأنه يود اختراقها. أما أفضل ما في هذه المشاعر أنها ظلت تتكرر بلا انقطاع منذ ذلك الحين، وإن كان كل سبعة أيام فحسب.

كان الدوار الذي عانت منه بسبب السفر جوًا العيب الوحيد في رحلة شهر العسل. قلل الغثيان والقيء كثيرًا من رومانسية رحلة الذهاب والإياب القصيرة فوق البحر المتوسط. وما كادت تنسى الأكياس البلاستيكية التي اضطرت لاستخدامها، حتى عاودتها نفس المضايقات، بعد نحو خمسة أسابيع. عندما أخبرت زوجها بذلك قال لها: «تعرفين معنى ذلك على اليابسة». في تلك اللحظة وضعت نوريا راحة يدها على جبهتها ولاحظت أنها تهبط إلى أرض الواقع.

ولدت ميريا بعد تسعة أشهر بالتمام والكمال من وليمة الزفاف التي كان جميع المدعوين فيها من أقارب العروس. ولد مارك بعد ثلاثة أعوام ونصف. فرض ماكسيمو إيقاعًا سريعًا على الأحداث، في حين أن هذه السرعة الشديدة أصابت نوريا بالدوار. ولكن بعدما عرفت بأمر بعض القصص التي يرسلونها إلى برنامج المستشار العاطفي، أدركت لأول مرة أنها تستمتع بحياة شبه مثالية، يوفر لها فيها الحماية وكأنها كنز ثمين وهش.

***

بدت بعض الرسائل التالية التي وقعت بين يدي نوريا طريفة، وإن لم تخل من جرعة المأسوية المعتادة والخسة.

حكت أرملة في إحدى هذه الوريقات المطوية أنها وجدت نفسها مضطرة لأن تدفع لشخص لكي يدس في جيب جثة أحد الغرقى بطاقة هوية زوجها المتوفى الذي لم يُعثر مطلقًا على جثمانه منذ خروجه في أحد الأيام للصيد. ومن خلال تلك الحيلة التي قامت بها على أحد الشواطئ القريبة من منزلها بمساعدة الشريك المتواطئ، الذي لم تكشف هويته، تمكنت أخيرا من أن تقبض معاشه واحتفلت بذلك.

أخبرتها في رسالة أخرى، فتاة في ريعان شبابها، أنها سترحل إلى ألمانيا للعمل في منتجع صيفي، لأن صديقة مقربة مقيمة هناك. أخبرتها أن المدير المسؤول عن ذلك المكان لا تستهويه النساء وهذا هو ما كانت تبحث عنه: أن يتركوها في سلام؛ فقد ضاقت ذرعًا من كل مرة تصعد السلم لإزالة الغبار فيضعون أيديهم على مؤخرتها، هكذا قالت، أو من الشعور بنظرات جائعة في كل مرة تضطر لتنظيف الأرضيات على ركبتيها وظهرها محني للأمام لأن ربات عملها المتعاقبات اعتبرن تزويدها بممسحة ودلو بعصارة نوعًا من الترف، بينما يمكنها القيام بنفس العمل بيديها وبنتيجة أفضل.

كتبت أنها إن لم ترحل، فستقتل أحدًا في النهاية. تتصور نفسها تقذف رأس كل متحرش مر عليها بجميع أدوات النظافة التي كانت تستمتع بها بالفعل، واختتمت الرسالة بأنها سئمت فقررت الابتعاد، على الأقل عن إسبانيا.

الرسائل التالية كانت أخف بكثير: فتاة شابة تسألها كيف تصبح فنانة سينمائية، فأعطتها نوريا، وفقًا للدليل الذي زودها به رؤساؤها لمثل هذه الحالات، ويتضمن عناوين أكاديميات، وأطباء، وقنصليات لمن يردن العمل بالخارج، وقوائم أخرى كثيرة لمحلات في برشلونة، أعطتها عنوان مدرسة للفن المسرحي في شارع اليزابتس، 12، وإستديوهين للسينما: إجناثيو إف.

أكينو (إي إفي إي) بجادة ماركيس ديل دويرو، 106، وإستوديو أورسيا، خلف متحف القرية الإسبانية (PobleEspanyol).

كانت تلك الاستشارات المحدد بدقة أقل إرهاقًا لها في العمل، مع أن بعضها كان يخلط عدة موضوعات، بمعنى أنه بعد إخبارها بما تصفه المستمعات بالمسألة الخطيرة، يسألونها بعد ذلك عن كيفية علاج البثور الجلدية.

تُراجع بالنسبة لهذه الحالات الخاصة بالعلاج التجميلي، كتالوج كريمات معهد المستحضرات الطبية، وتوصي بالكريمات المرطبة بنكهة الفراولة وماء التونيك المنعش للبشرة، وآخر للبشرة الدهنية، والمساحيق الاستوائية، أو أي مستحضر يبدو مناسبًا وفقًا لخبرتها المحدودة.

ومع أن الاتفاق كان يقضي بأن تجيب عن جميع الرسائل، فقد اقترحوا عليها في ورقة تعليمات وضعوها في الصندوق الثاني مع الدليل، إمكانية استخدام نماذج ردود في بعض الحالات، خاصة تلك التي تطلب معلومات محددة، مثل ما هي عاصمة بلد معين، أوموعد الاحتفال بيوم القديس الشفيع، وأمور من هذا القبيل. والردود الأكثر على الاستفسارات الأكثر شيوعًا من هذه النوعية مضمنة أيضًا في عدة صفحات زودوها بها. وفي حالة ما لم تكن كذلك، تحيل السائلة إلى مكتبة بالمسيانا، رقم 9 بشارع دوران إي باس، فيما يختص بالموضوعات الدينية، وإلى مستشفى سانتا كروث لباقي الأمور الأخرى.

اجتهدت نوريا أكثر في الرسائل ذات الطبيعة الشخصية البحتة، أرادت أن تكون كل واحدة متميزة؛ فبالإضافة إلى أنها تفاصيل حياة مروية، كانت تشعر بها مثل قطع من أرواح انتزعها بعض الأشخاص لكي يضعوها في مظروف لتتولى هي مداواتهم.

بعد القراءة والإجابة على كل تلك الرسائل، حملت الصندوق إلى حجرتها، وضعته فوق الفراش، وراجعت بعناية ما تبقى منها دون رد إلى أن عثرت على واحدة تعرّفت على خطِها.

سيدتي العزيزة:

أود في المقام الأول التوجه إليك بالشكر، ولكن لا أريد أن أخفي عنك أنني ارتبكت. ليس في نيتي تحطيم ذلك الزواج. ولكن أكثر ما لفت انتباهي هو أنكِ لم تقولي شيئًا بشأن الأطفال الذين يولدون غير مكتملين، بدون عضو من أعضائهم أو عدة أعضاء، أعتقد أنه من المستحيل نسيان شيء كهذا. على الأقل أنا لا أستطيع، أما هو فمن سيء لأسوأ. لم يعد بيننا اتصال حميمي. مازلنا نتقابل، لكنه يستلقى في الفراش، ونظره مثبت في السقف، بينما أداعبه أنا. إنه شارد لا يتكلم، لا يحكي لي عن شيء. لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر. لا أريد مضايقته. أعلم أنني يجب أن أكون لماحة للغاية. لا يوجد دليل أكثر من نظراته الضائعة. لا يبدي أي ضجر معي لأنه اعتاد أن يتحلى بطباع جيدة، ولكن يبدو كأنه أصبح خاويًا من الداخل. كما أجده أكثر نحافة؛ فلم تعد الملابس فحسب فضفاضة عليه، بل وحتى القبعة، تمعني فيما أقول! أصبحت تغطي جانبًا أكبر من وجهه. أخبريني، من فضلك، إذا كنت ستساعدينني! أجيبيني لكي أعلم فحسب أنني لم أخطئ في تقديري لكِ! وبخلاف ذلك، إن لم تقولي شيئًا، فسأتفهم.

وتفضلي بقبول فائق الاحترام

امرأة يائسة تحتاج للمساعدة.

نظرت نوريا إلى الرسالة مرة تلو المرة دون أن تدري ماذا تفعل. رقدت على جانبها ممسكة بها في يدها تحاول نيل قسط من النوم. لم يستيقظ مارك خلال الساعات التالية، ومع ذلك لم تستطع أن تغفو البتة إلى أن رأت الصباح يبزغ من خلال فرجة ألواح الشيش الخشبي.

7

مر على ذلك ثلاثة أيام، وما تزال نوريا غير قادرة على مواصلة الرد على الرسائل، نتيجة للأثر الذي خلفته فها الرسالة الثانية للشخص نفسه، وكأن إصرارها يجعل ما تحكيه أكثر واقعية ويقنعها بمصداقيته. تنظر لأسفل بخوف في كل مرة تأخذ فيها شيئًا من مخزن المطبخ، وكأن ذلك الصندوق يحتوي على الرياح والعواصف، وقد تضيف هي، والأمل.

قرأت رسالة أم اضطرت لأن تترك طفلها في الملجأ لكي تتمكن من العمل. أخبرتها بأنها تزوره كثيرًا، وأنه بخير لأنهم يقدمون له هناك الكثير من حساء الدجاج، كما أجروا له جراحة لعلاج التهاب اللوزتين، لكن أكثر شيء تتمناه هو الفوز باليانصيب لانتشاله من هناك. فكرت نوريا في صغارها. حتى الآن لم يخطر على بالها مطلقًا أن يطرأ ظرف يجبرها على العيش منفصلة عنهما.

شعرت بالضياع وسط تلك الغابة من الأوراق والحروف المفعمة بالحياة. يتعلق الأمر في بعض الحالات بنداءات يائسة من أشخاص كبتوا مشاكلهم على مدار سنوات. ولكنها عادت سريعًا إلى الرسالة التي تشغل بالها، لأنها تعكس بجلاء مدى الحاجة الملحة لتلك المرأة.

أرقت نوريا توسلات سطورها. لا تريد أن تبدو لا مبالية، بل أن ترسل إليها لمسة حنان، ولكن بدون الانحدار إلى الشفقة. يبدو لها الإشفاق على الآخرين شعورًا مؤسفًا، لأن من ينتابه يضع نفسه في مرتبه أعلى من الآخر. تعلمت أن المهم احترام الناس، أن تضع نفسها مكانهم وألا تحكم عليهم

لأنهم على الأقل تحلوا بالشجاعة لكي يكتبوا.

ذاك المساء من يوم الخميس، ردت، أثناء الاستماع إلى برنامج إيلينا فرنسيس الإذاعي المستشار العاطفي عازمة على أن تتشرب بالمزيد من أسلوبها، على كل الرسائل المتبقية لديها، باستثناء واحدة.

تركت لديها غالبية الرسائل انطباعًا بأن، المرسِلات، فضلًا عن السؤال عن أمر ما، يحتجن إلى أحدٍ يقصصن عليه ما يجري لهن، بمعنى أن الرسائل تتعلق بمشاكل منزلية أقل أهمية بكثير من تلك التي لم تفلح في إبعادها عن ذهنها.

على العكس، لم تدر ماذا تفعل مع الرسالة الثانية للسائلة نفسها. لم يساورها أدنى شك في انتباه المستمعة، إن هي زيفت رسالة الاستشارة مرة أخرى، وتعاملت فحسب مع ارتكاب واقعة الزنا، إلى أنها تصم أذنيها أمام توسلاتها، لذلك ستبحث عن طرق أخرى لسبر أغوار جذور تلك المأساة.

أخذت تهوي بتلك الورقة، ثم تعيد بسطها مجددًا فوق المنضدة، إلى أن طوتها أربع طيات، ووضعتها في الظرف وحفظته في حقيبة يدها. إذا لاحظوا أن رسالة ناقصة منها، فستعرف أنهم يحصون الرسائل باستمرار، وحينئذٍ يمكنها التعلل دائمًا بنسيانها في المنزل، أو بأنها فُقدت وسط هذا الكم الهائل من تبادل الأسئلة والردود. قررت عند هذه النقطة التواصل مع تلك المرأة بطريقة بديلة بدون أن تضطر رسائلها للمرور عبر معهد التجميل.

***

سارعت نوريا بتجهيز الطفلين لتركهما مع دورا، وبارتداء ثيابها للوصول بأسرع ما يمكن إلى محطة الحافلة. مازالت مالكة العقار تتقبل عن طيب خاطر حتى الآن، قضاء تينك الساعتين معهما، ولا تعرف هي كيف تشكرها على ذلك؟ فبدون مساعدة الجارة لم تكن تعرف بمن تستعين.

عادت للتفكير أثناء الطريق في الرسالة التي مازالت بلا رد. تذكرت عندما أخبرها الزوجان فرومنت وكذلك الأب بيلسيرميس أن الرسائل التي يسلمونها لها هي التي لا يتوافر الوقت للرد عليها، إلا أن محتواها يعد دليلًا دامغًا على أن ذلك لم يكن المعيار الحقيقي.

تندس تلك الحالات المروعة بين تلك الرسائل التي ينتقونها والتي تتساءل ماذا تفعل لكي يصبح الدجاج أكثر قرمشة في الفرن أو كيف تزيل بقع الحبر من القميص؟ كان الأمر واضحًا بالنسبة لها: بجانب الرسائل التي تعرض أمورًا سطحية، يرفقون تلك التي تجمع بينها السمة الشائكة نفسها.

لم يكن هناك حل وسط. وقالت لنفسها، ما كانوا ليفتحوها ماداموا لا يريدون قراءتها. لم يشأ المهندس الكيميائي تأكيد الأمر لها، إلا أنها كانت مقتنعة بأنه توجد في برشلونة (نوريات) كثيرات أخريات تقمن بالرد على المتصلات الأخريات ببرنامج الاستشارات الإذاعي، العشرات، ويخصصون لكل واحدة مجالًا محددًا. تساءلت إذا كانوا اتفقوا مع باقي النساء اللاتي يكتبن لمعهد التجميل على أيام مختلفة حتى لا يلتقين ببعضهن.

تحتاج للتعامل مع قضية الأطفال المبتوري الأعضاء إلى معرفة إذا كان هناك حصر للرسائل على الرغم مما يقتضيه ذلك من جهد ضخم، وإذا كانوا يرتبونها في قائمة جدول مفهرس بالأرقام، وإذا كانوا يسجلون عدد الرسائل التي يسلمونها لها، ومصدر إرسالها بالإضافة إلى أسماء مرسلاتها. شكت في أنهم يرفقون ملخصًا للرسائل، لأنه لو كان الأمر كذلك، لانتبهوا للرسالة التي بدلتها.

خططت نوريا لاختبار ليليانا، بعد المحادثة غير المثمرة مع بورو. إذا عرفت كم الرسائل التي يتلقونها في الشهر، يمكنها حساب كم شخصًا يحتاجونهم للرد عليها، والتحري، والبحث، تحسبًا لما أنبأها به حدسها سلفًا.

كانت ترد على عشر رسائل في اليوم لكي تتفرغ في عطلات نهاية

الأسبوع التي يتواجد فيها ماكسيمو، ولكن يمكنها مضاعفة ذلك العدد لأن بعض الرسائل الأقصر لا تستغرق سوى بضع دقائق، وعلى عكس ذلك تقضي مع رسائل أخرى ساعات لكي تجد ردًا. أما بالنسبة لحالة الرسالتين بشأن الأطفال المشوهين، فقد لازمها ثقلهما باستمرار.

***

جرى التسليم في يوم الجمعة ذاك إلى السكرتيرة بالتحديد. بدا أنه لم يعد هناك أحد آخر في المعمل. يسمع في العمق الصوت المحبب للمستشارة الوهمية، وتصورت نوريا أنها قد تحب زيارة مقر الإذاعة لكي تعرف بصفة خاصة شكل تلك المذيعة الشهيرة التي لا وجود لها، إيلينا فرنسيس.

- أنا معجبة جدًا بأثوابك، ليليانا. من أين تشترينها؟ (سألتها نوريا بفضول).

- أحيكها بنفسي. أستخرج الموديلات من مجلات أمريكية ترسلها لنا جارة رحلت للعيش في نيو أورليانز.

- ألم تفكري من قبل في الحياكة بالطلب؟ سيدفعون لك أجرًا مجزيًا. أتعرفين كم أود أن تحيكي لنا ميرييا وأنا نفس الثوب، لكي نسير متماثلتين

- من هي ميرييا؟ شقيقتك؟ (سألت ليليانا بفضول).

- لا ابنتي. إنها في الرابعة من عمرها، ونبيهة للغاية. أفكر أحيانًا أنها متنبهة أكثر من اللازم. تعشق ارتداء ثياب مثل ثيابي.

- لم أتصور أن يكون لكِ ابنة.

- حسنًا، لدي طفلان. الآخر يدعى مارك وعمره عام. مفعمان بالحيوية. مثل والدهما.

ضحكتا في الوقت نفسه.

- نعم، يجب أن تكوني مستمتعة.

- بالنسبة لماكسيمو يسليانه كثيرًا. من السهل تحمل هذا العبء الكبير ليومين في الأسبوع. أما أنا فلا أعرف الراحة لحظة واحدة، لا يرحمانني.

- يجب أن يكون قاسيًا عليك البقاء لوقت طويل منفصلة عن زوجك.

- لم يكن الأمر سهلًا في البداية. تزوجت عن حب كبير لماكسيمو، وراودني شعور بأني أضيع حياتي مع كل يوم بدونه، لدرجة أنني اقترحت عليه مرافقته في سفرياته، وفعلت ذلك ذات مرة. بدا الأمر ممكنًا حتى ولدت ميريا. بالإضافة إلى أنه ليس لدي أحد هنا في برشلونة. هم الثلاثة كل ما لدي. هل لديك أبناء؟

- لا. أتصور لأنني لم أجد بعد الشخص المناسب. أحب الأطفال كثيرًا، قد لا تصدقينني، لكن لم أتمكن حتى الآن...

لاحظت نوريا مسحة حزن.

- أنا متأكدة أنه سرعان ما سيظهر عريس المستقبل. أنتِ في منتهى الأناقة، كما أنكِ في منتهى اللطف.

- لا أدري. أعمل حتى ساعة متأخرة وأكون متعبة للغاية في أيام الإجازات، كما لا أهتم كثيرًا لأن يحدث. ومع كل هذا تضاعف عملي كثيرًا بسبب موضوع الرسائل.

- هل يصل الكثير؟

- جبال. هنا خمسمائة في اليوم، وأخرى يرسلونها مباشرة إلى الإذاعة، وتلك لا نعرف عنها شيئًا. يطّلع عليها الرقيب وإذا لم تعجبه، فإنه يستبعدها، وأخرى يدرجونها ضمن سيناريو البرنامج.

- لم أكن أعرف أنها كثيرة إلى هذا الحد. أرد على نحو خمسين في الأسبوع (قالت نوريا مقدرة أن عملها لا يذكر مقارنة بالمجموع).

- لأنكِ تحت الاختبار. لكن السيد والسيدة فرومنت تحدثا في ذاك اليوم عن زيادة العدد لكِ، وراتبكِ أيضًا (أضافت ليليانا بنبرة تشي بالسرية).

- هل أنتِ متأكدة؟ (سألتها نوريا باندهاش).

- تمامًا، إذا كان ذلك ملائمًا لكِ. مع أنني أعتقد أنه نعم سيلائمكِ، وكثيرًا (قالت لها السكرتيرة وهي تغمز بعينها في تواطؤ). أما عن هذا، نعم ستكون هناك العديد من الصناديق سيحملونها إلى منزلك. في الوقت الراهن إليكِ رسائل هذا الأسبوع. نلتقي الجمعة المقبلة. إذا كنا بمفردنا، يمكن أن آخذ مقاساتك. أحضري لي ثوبا لابنتك لكي أرى المقاس ثم أضبطه لها في أول بروفة.

- عظيم! عندما سيرانا ماكسيمو متماثلتين... يالها من مفاجأة سنحضرها له! أشكرك.

- إنها فكرتك.

- اتفقنا. إلى اللقاء الجمعة المقبلة!

فكرت أثناء نزول السلم في مدى اختلاف حياة ليليانا عن حياتها. كان من الممكن أن تكون مثلها: مستقلة، في وظيفة مثل تلك التي درست لتحصل عليهافي النهاية. ومع أنها ليست نادمة على زواجها، تحن إلى الفترة السابقة على ماكسيمو. تعتبر تلك المحادثات مع ليليانا استثناء في حياتها الشديدة الوحدة. احتضنت الصندوق بقوة، شعرت بأن تلك الصفحات الملاصقة لصدرها تخفق أيضًا، وكأنها تحمل قلوبًا وأن مهمتها ضخ الأوكسجين فيها لكي تواصل ولا تتوقف عن الخفقان.

بمجرد أن جلست في الحافلة، قصت نوريا الدوبار بمقص صغير قابل للطي حملته معها حتى لا تضطر لانتظار الوصول إلى المنزل أو تتعطل في فك العقد، وشرعت في البحث عن ظرف يشغل بالها للغاية، ربما أكثر من الذي

يحتوي على شيك راتبها. لم تعثر على أي خطاب بنفس الخط الذي زيفته. في المقابل في قاع الصندوق وجدت عبوة تحتوي على بعض منتجات المعهد ومعها ملحوظة.

كلفني السيد والسيدة فرومنت بإعداد هذه التشكيلة من الكريمات لأجلك، لكن دعيني أقول لكِ أرى أنكِ لا تحتاجين لمكياج أو أية مساحيق على الإطلاق. ومن ثم قدمي هذه المجموعة هدية إلى أي صديقة أقل جمالًا منك، علاوة على أن تجاعيدك ستقيكِ حسدها.

أنتهز الفرصة للاعتذار عن مراوغتي في ذاك اليوم. تستوعبين أن هناك أسئلة معينة ليس من اختصاصي الإجابة عنها، سيدة ثفرا، لكن ربما كان يتعين عليّ إطلاعك على ذلك بطريقة أكثر تهذيبًا. سأجد الطريقة التي أعوضك بها.

وتفضلي بقبول فائق الاحترام.

بورو نافاسكويس

تأثرت نوريا كثيرًا بهذه الرسالة. أعادت قراءتها عدة مرات. طوتها بعد ذلك، بيدين مرتجفتين، لنصفين وبدلًا من إعادتها للصندوق، احتفظت بها في حقيبة يدها بجانب الرسالة التي استولت عليها.

عاودت ذهنها مجددًا كلمات سائلتها المعذبة: «أخبريني، من فضلك، إذا كنت ستساعدينني. أجيبيني لكي أعلم فحسب أنني لم أخطئ في تقديري لكِ. وبخلاف ذلك، إن لم تقولي شيئًا، فسأتفهم». فتحت غطاء عبوة الكريمات، وخطرت لها فكرة بناء على نصيحة بورو.

تأهبت فجأة للنزول في المحطة التالية. مشت مسافة مربعين سكنيين حتى وصلت إلى مكتب البريد، وقبل الاقتراب من نافذة إرسال الخطابات،

كتبت في مفكرتها على الطاولة التي تتوسط القاعة:

صديقتي العزيزة:

مؤكد أنكِ امرأة فائقة الجمال، ولكن مع ذلك، أرجو أن تقبلي هذه الهدية التي نأمل أن تستمتعي بها. سنعاود التواصل بكِ لاحقًا لكي نعرف إذا كانت كريماتنا بزيت الأفوكاتو قد نالت استحسانكِ. لم تخطئي في كتابة رسالتك إلينا، سنفعل كل ما يمكننا لمساعدتِك في كل ما تحتاجين. بدون أن أطيل عليكِ، اسمحي لي بتكرار امتناني لوجودك دائمًا معنا.

انتزعت الصفحة بعد ذلك بحرص قدر المستطاع من مفكرتها، ثم طلبت من الموظفة تغليف العبوة مع تلك الرسالة. أخرجت رسالة البرنامج لنسخ بيانات صندوق البريد وعندما وصلت لكتابة عنوان منزلها بجادة بونانوفا، لكي ترد عليها هناك، فكرت في أنها لا تستطيع القيام بذلك على هذا النحو، حينئذٍ ارتأت أن بوسعها أن يكون لها أيضًا صندوق بريد خاص لتلقي تلك المراسلات. سألت الموظفة:

- حسنًا، كما ترغبين. كم المدة التي تريدين استئجارها؟

- هل يمكن أن تكون شهرًا فقط؟

- نعم، بالطبع. هل أنتِ في إجازة؟ (سألتها).

- شيء من هذا القبيل (كذبت عليها نوريا).

- عليكِ إعطائي بياناتك والتوقيع هنا. سأزودكِ بالرقم بمجرد السداد.

- سأعطيكِ النقود في الحال (قالت نوريا وهي تفتح كيس النقود).

- أرى أنكِ في عجلة من أمرك (خاطبتها الموظفة أثناء انتقالها إلى نافذة أخرى.

- قليلًا (لم ترغب نوريا في إطالة المحادثة).

- تعالَي هنا لإنهاء الإجراءات. يتبقى لكِ خمس بيزيتات.

- أعطني بثمنها طوابع بريد سأتمكن هكذا من إلقاء الخطاب في صندوق البريد مباشرة.

وبعد ملء النموذج المطبوع باسم عائلتها، وهي عزباء، وعنوان والديها، سلمتها إياه.

- اتبعيني! يتعين عليّ أن أشرح لك الاستخدام. (توقفت المرأة أمام حائط به خزانات لمستوى متوسط الارتفاع). من الناحية الأخرى سيودعون لك الخطابات المرسلة. الرقم هو الذي يظهر هنا (قالت وهي تقدم لها قصاصة ورقية قطعتها من النموذج المطبوع الذي استوفته توًا). وهو مدون أيضًا على هذا المفتاح. سيكون عنوان المراسلات: اسمك بجانب هذا الرقم، ثم تضيفين برشلونة وهذا كل شيء. لتتحققي من استلام أي شيء، افتحي الخزانة (وبينما تخبرها بذلك تركت لها المفتاح في راحة يدها). أنا هنا إذا احتجت لأي شيء آخر. وهكذا لن يعرف أحد أين تقيمين، ولن تستقبلي في منزلك زيارات غير مرغوب فيها (أضافت).

- أشكرك، لطيفة جدًا (قالت نوريا وهي تقلب المفتاح وعبارتَها الأخيرة التي تشير إلى استخدام محدد: التواصل من خلال الرسائل مع الغرباء. قررت في الحال أن رأي موظفة البريد تلك لا يعنيها كثيرًا، مقارنة بالغرض الذي أرادت الاستعلام عنه.

8

حين عادت، وجدت ماكسيمو قد أخذ الطفلين من منزل دورا وهو ينتظرها في صالة الاستقبال. استوقفها بمجرد أن دخلت، جذبها من خاصرتها ورمق الصندوق بطرف عينه.

- في أية داهية كنتِ بحق الشياطين؟ أتدرين كم الساعة؟

- فاتتني الحافلة السابقة. أدرك أنني تأخرت. معذرة (قالت نوريا وهي تضع الصندوق على الطاولة).

- تعتذرين فحسب. أتعتقدين أنكِ أصلحت الأمر هكذا؟ أخبريني لو لم أصل في هذه الساعة، ماذا يمكن أن يكون قد حدث للأطفال؟

- دورا...

- دورا ليست أمهما! (قاطعها). أنت أمهما. وتهملين واجباتك. لم أسمح لك بالعمل من أجل هذا. أخبرتني أن العمل من المنزل. وأنكِ لن تتحركي من هنا، وأنكِ ستذهبين للحظة فحسب لتسليم مراسلات. ما حدث اليوم لم يكن لحظة.

- لن يتكرر مرة أخرى، أعدك. صدقني!

- إن التسليم في أيام الجمعة دائمًا، فلماذا لا تطلبين منـــ... من هذين الزوجين أن تذهبي مبكرًا إن أمكن ذلك؟

- اسمهما السيد والسيدة فرومنت. نعم هذا ما سأفعله. بالإضافة إلى أنه في التوقيت الذي أذهب فيه لا يكون هناك أحد تقريبًا في المعمل. (تابعت

مخاطبة إياه بالنبرة المتوسلة نفسها) وأنه ليس هناك ما يخشاه، وأن المكان آمن تمامًا بأحد شوارع وسط المدينة، مملوك لأشخاص محترمين، ومثلما يعلم، فهي لا تحب التردد على الأماكن النائية.

اقتنعت بأنها تمكنت من خلال هذه التفاصيل من إزالة أسباب تعكر مزاجه. وساعدها على ذلك أن ماكسيمو لديه دائمًا رغبة جارفة في مطارحتها الفراش، وكأنه لم يكن متغيبًا لنحو خمسة أيام، بل عائد من رحلة بحرية حول العالم، أو أطلقوا سراحه توًا بعد عدة سنوات في السجن. إلا أنه لم يكن هكذا. بل أخذ يحثها على قضاء ساعات أطول في المنزل.

- لكنني أبقى خارج المنزل لساعتين فحسب أيام الجمعة.

- آمل ألا يتكرر هذا لأنه إن حدث فسيكون لي معكِ شأن آخر. أؤكد لكِ.

- لن يتكرر هذا. بالفعل.

- حسنًا، انتابني القلق. (ابتسم زوجها أخيرًا) كنت نافد الصبر لأنهم رقوني مرة أخرى، وكنت أود أن أخبرك بأسرع ما يمكن. تعلمين أنني لا أحب على الإطلاق الحديث في الهاتف، وخصوصًا في مثل تلك الأمور، كما أود شرب نخب. لهذا ضايقني عدم وجودك في المنزل. تخيلي شعوري حين رأيت المنزل خاليًا. ضعي نفسك مكاني! (اتجه إلى الثلاجة لإحضار زجاجة شمبانيا). سأستحم ونتناول هذه، ما رأيك؟

- والعشاء؟ (قالت ذلك أثناء تعليق سترة ماكسيمو على مشجب المدخل وحمل حقيبته إلى الغرفة لتفريغها).

- الشمبانيا كفاتح للشهية، مثلما يتناولها الأرستقراطيون. سوف يعينونني مدير مبيعات لثلث البلاد تقريبًا، ما رأيك؟ هل أنت فخورة؟ ومع ذلك، سأضطر للسفر أكثر. سأظل أذهب إلى بيرين، ونطاقي سيكون كتالونيا، وأراجوان، وفالنسيا، ومورثيا، والباثيتي والوسط، لكن سيتعين

عليّ البقاء لوقت أطول في الشمال. لن أتمكن من المجيء كل عطلات نهاية الأسبوع. لكننا سنسوي الأمور. على أية حال، مازال الأمر مبكرًا، اتخذت الشركة قرارها لأنهم يعجلون كثيرًا بخططهم، لكن مازال متبقيًا نصف عام. يثقون بي كما ترين.

تفاجأت نوريا برد فعلها؛ فقد شعرت بأن تلك الأحداث غريبة تمامًا عنها، وكأن المتحدث الذي يحكي لها كل ذلك ليس زوجها بل مجرد أحد المعارف أو حتى أحد الأقارب دون أن يكون لذلك أدنى تأثير على حياتها. أرجعت ذلك إلى اعتيادها على فترات غيابه. علاوة على أنها منذ تلقي الرسالة الأولى لتلك المرأة، أصبح ذلك الموضوع يشغل الجانب الأكبر من تفكيرها.

بحثت نوريا أثناء وجود ماكسيمو في الحمام عن مخبأ لمفتاح صندوق البريد. لم ترد حمله في حقيبة يدها بجانب المفاتيح الأخرى التي تتركها معلقة على الباب أو فوق أي قطعة أثاث. تأكدت نوريا، بعد ذلك النقاش، أنه من الأفضل ألا تحكي له شيئًا عن الرسائل. طافت عدة مرات والمفتاح بيدها إلى أن لاحظت سان نيكولاس دي باري، شفيع المدينة التي ولد بها زوجها.

نظرت إلى القديس وكأنها تتضرع إليه، التقطت واحدًا من الأشرطة التي تستخدمه لعمل فيونكات لميريا، وبعد ربط المفتاح علقته في عنق التمثال بحيث يتدلى من خلف ظهره. تحققت بعد ذلك من أنه غير ظاهر في مرآة طاولة الفراش التي كان موضوعًا عليها التمثال. ومع ذلك نقلت تمثال القديس إلى أبعد زاوية.

***

شعرت نوريا عندما رحل ماكسيمو بأن العزلة نزلت عليها كستار. لم تكن تعي عزلتها حتى تعرفت على تلك الحيوات شديدة الاختلاف عن حياتها. ولكن، علاوة على محتوى الرسائل، زاد من ذاك الشعور أيضا قربها

من دورا وليليانا. كانت على يقين من احتياجها للتواصل مع المزيد من الأشخاص، والخروج من الصدفة، ومعرفة من تكون جارتها في الحقيقة. وعلى الرغم من أنها اهتمت برعاية مارك وميريبا، فإنها تكاد تبدو مجهولة بالنسبة لها حتى الآن.

بمجرد أن سمعت بوابة بناية مولاي حفيظ تُفتح أطلت من شرفة الطابق الثاني ثم صعدت لانتظار دورا أمام بابها.

- أردت تقديم هذه الهدية لكِ. إنها مجرد شيء بسيط، أنتِ تستحقين أكثر من ذلك بكثير (قالت وهي تقدم لها عبوة تضم تشكيلة من مستحضرات تجميل المعهد، مماثلة للتي وضعها بورو لها في الصندوق).

- لم يكن هناك ما يستحق، نوريا (قالت دورا بينما تتفرس في العلامة التجارية ذات رأس امرأة تتوسط شمس ساطعة).

- هل ترغبين في تناول العشاء معنا؟ أود ذلك كثيرًا. مارك نائم بالفعل. أنا ممتنة لكِ لأجل كل ما تقومين به...

- أشكرك، لكنني متعبة للغاية، كما أنني تناولت شيئًا خفيفًا بالفعل. ليكن في مرة أخرى! بالمناسبة، الجمعة القادمة لن أكون موجودة. سأرحل خارج المدينة، ولن أعود قبل الثلاثاء أو الأربعاء. معذرة. أخبرك بهذا مسبقًا لكي تجدي بديلًا.

- نعم، نعم، هذا ما سأفعله. لا تشغلي بالك. لا تقلقي! (قالت لها بارتباك شديد).

عاد شعور العزلة نفسه يسيطر على نوريا من جديد عندما أغلقت دورا الباب. كانت جارتها خيارها الوحيد. لا تعرف إلى من تلجأ. شعرت بالضياع، ولكن بحماسٍ كافٍ لحل تلك المعضلة.

***

بحجة شراء طوابع، انتهزت نوريا فرصة التنزه مع الطفلين للتوجه إلى مكتب البريد. أعجبت ميرييا بالفكرة لأنها تعشق ركوب الترام. عندما وصلت إلى هناك تركت ابنتها على الطاولة الرئيسية لكي ترسم على بطاقة معايدة للميناء من أجل إرسالها إلى جديها.

- سأرسم حمامة زاجلة لكي ترسل لهما تلك الصورة الجميلة.

في تلك الأثناء، اقتربت نوريا ومارك من قسم صناديق البريد لكي تراجع الصندوق الخاص بها. انتفض قلبها حينما رأت ظرفًا بداخله بمجرد أن أدارت المفتاح.

قبل كل شيء يجب أن أشكرك على ردكِ عليّ. لم أكن أعلم إن كنت ستفعلين. أدرك أن الأمر يتعلق بمسألة شديدة الحساسية. كما أشكركِ على تزويدي بعنوان صندوق البريد الذي سيحل الكثير من العقبات. صدقيني. وجدت عبوة تشكيلة الكريمات رائعة من أفضل ماركة عرفتها لم يكن هناك ما يدعو لأن تكلفي نفسك. أعلم أنه ليس لديكِ متسع من الوقت، لذلك سأدخل في صلب الموضوع: هذا السيد الذي حدثتكِ عنه، يسجل جميع اجتماعاته في مفكرة. إنه في منتهى الدقة والإلمام بكل التفاصيل.

ذهبت ذات صباح إلى مكتبه بعد أن تحققت في الأسبوع السابق من أنه لن يكون موجودًا، وفتشت في أوراقه. أعلم أن هذا غير مصيب، ولكن أعتقد أنه مبرر هذه المرة. انتابني الكثير من الخوف، لأنه على الرغم من إغلاقي الباب بالمفتاح، خشيت أن يحاول أحد فتح باب المكتب من الناحية الأخرى وينتبه لذلك. حسنًا أرسل إليك نسخة مما عثرت عليه.

بوسعك البحث عن شخص يفهمه، ويميط اللثام عن هذه المسألة الشديدة الغموض. وها هي ذي بين يديكِ.

كانت هناك بعد ذلك عدة سطور مليئة بكلمات بالغة الطول تسبقها رموز متشابكة. لاحظت نوريا على الفور أن هذه الثنائيات عبارة عن تركيبات. تفحصتها لبرهة وكأنها تستطيع فهمها.

فزعت حين سمعت ضوضاء ارتطام مقعد خشبي بأرضية ذلك المكتب الدائري. وقفت ميرييا إلى جواره تبكي.

– انقلب. لا أستطيع رفعه. وزنه ثقيل.

– ماذا لو كان قد وقع عليكِ؟ تعالي هنا، هيا! ألا أستطيع التوقف ولو لدقيقة واحدة لكي أقرأ؟ (قالت بينما توجهت بالاثنين نحو باب الخروج).

– الرسالة الملونة، الرسالة (ألحت الطفلة).

– هيا يا حبيبتي. أعدكِ أن نرسلها غدًا. لدي طوابع لكي أضعها عليها.

– ما هي الطوابع، مامي؟

– إنها مثل بطاقات المعايدة، الرسائل الملونة كما تسمينها، ولكنها أصغر. مثل الأوراق النقدية، إنها النقود التي تدفع لإرسال الأشياء. (فكرت نوريا أثناء الإجابة عليها في رغبتها الكبيرة في الوصول إلى المنزل والجلوس).

– هل سنذهب الآن إلى الحديقة؟

– لا، اليوم لا يا عمري.

– لماذا؟ أنتِ قلتِ لي. لا حسنًا.

– أعلم، لكنني متعبة.

– أنتِ دائمًا متعبة.

لم يكن أمام نوريا حل آخر، سوى تقبل أن ابنتها معها كل الحق.

***

بمجرد أن دخلوا غرفة المعيشة، اتجهت نوريا إلى خزانة التحف، وأخذت

القاموس. راجعت عدة صفحات مرة تلو المرة، ولكن لم تجد أي باب يحتوي على مفردات مثل «teratogénesis»، «estereoisomería» أو «focomelia». فتركت القاموس في مكانه، وأخرجت من حقيبة يدها المفكرة التي تحملها معها دائمًا، ثم حفظت الرسالة بعناية بجوار الاثنتين السابقتين.

أدركت حينما استلقت في فراشها بعد أن أدخلت ميربيا ومارك الفراش أنها سترى تلك الليلة أيضًا انبلاج الصبح.

***

غيرت ذاك الصباح، مواعيدها، كما وعدت ماكسيمو، وذهبت إلى شارع بيلايو بسيارة أجرة يرافقها طفلاها. واضطرت لأن تضع صندوق الرسائل المردود عليها في شبكة بلاستيكية كبيرة لها مقبضان مستديران.

شعرت بارتياح حينما وجدت أن رؤساءها غير موجودين. لم يكن متبقيًا في ذلك الطابق من معهد مستحضرات التجميل سوى السكرتيرة وبورو. امتنت نوريا إلى ليليانا على طريقة استقبال أطفالها. فقد قدمت لميربيا كمية كبيرة من قطع السكاكر أكبر مما تقدر كفا الطفلة على حمله، ونزع ورق السوليفان عنه وحمله إلى فمها. لذا كانت تطلب المساعدة من السكرتيرة كل مرة:

- الآن هذه الحمراء، آنسة (خاطبت ميربيا السكرتيرة بهذا الأسلوب من تلقاء نفسها).

- من اللطيف أنكِ اصطحبتها معكِ. هكذا سيكون الثوب مضبوطًا عليها أكثر من النقل من الآخر. سآخذ مقاسك عندما تريدين (قالت مخاطبة نوريا وهي تقدم لها صندوق خطابات الأسبوع).

- ميربيا، هل تريدين أن تصنع لنا نحن الاثنتين الثوب نفسه؟

- نعم، مامي، هكذا نسير متماثلتين

- في الحال (أخرجت ليليانا من حقيبة يدها شريط قياس متريًا للحياكة

وطلبت من ميرييا أن تعقد ذراعيها).

- حلزون مرقم (قالت الطفلة).

- الآن عليكِ الكف عن الحركة.

- هل يمكنني التنفس؟ (سألت ميرييا).

- قليلًا (قالت ليليانا وهي تلف شريط القياس حول عنقها، ثم تضعه على المعصم لقياس الطول. ثم لفته حول وسطها، وبسطته أفقيًا حتى الركبة. وفي كل مرة تغير ليليانا موضع شريط القياس كانت تدون عدة أرقام في ورقة لديها فوق طاولتها. (الآن دورك، نوريا).

نظرت هي في اتجاه المهندس وأجابتها:

- لا، في يوم آخر. (لم تكن نوريا تريد أن تأخذ مقاسها أمام بورو).

- كما تشائين. من أجل الإنجاز. إذا أردت، خذيها لنفسك وأرسليها لي.

- نعم، هذا ما سأفعله (قالت وهي تتجه صوب الباب ومارك بين ذراعيها وتمسك بصعوبة صندوق الرسائل.

أخذه بورو منها في الحال مقترحًا مرافقتهم. وافقت نوريا على مضض. فمن ناحية، كانت تريد التحدث معه محاولة تغيير الانطباع الذي كانت متأكدة من أنها تركته لديه من المرة السابقة بأنها امرأة فضولية كثيرة السؤال. ومن ناحية ثانية، لم يبدُ لها تصرفًا سليمًا؛ فمنذ زواجها من ماكسيمو لم تسر مطلقًا إلى جانب أي ر جل آخر.

نزلوا إلى الشارع، وكان المهندس يحمل الصندوق أما هي فتحمل مارك، بينما تقبض ميرييا على ذيل تنورتها. أخذت الطفلة تتحدث مع بورو بلا توقف. لم تكف نوريا عن الالتفات بضيق من جانب لآخر. فكرت في هذا الموقف أنه من حسن الحظ أنها لم تكن تعرف أحدًا تقريبًا في تلك المدينة. سمعت كيف سألت ميرييا بورو إذا كانت لديه رفيقة عاطفية، فالتفتت

لتنهرها، إلا أن الكميائي طلب منها ألا تشغل بالها.

- لا تزعجني على الإطلاق، إنها في غاية الظرف. (وقال مخاطبًا الطفلة): ليس على وجه الدقة.

لم تشأ نوريا أن يواصلا تلك المحادثة شديدة الخصوصية، فحاولت إلهاء ميريبا. وحينئذٍ اقترح بورو عليها أن يتمشوا حتى شارع كولون لمشاهدة البحر والاستمتاع بذلك النهار البديع. راقت الفكرة لميريبا كثيرًا. لم تكف عن الكلام طول الطريق الذي قطعوه حتى ساحة لا برثلونيتا، وكأنهم أسرة، مثلما اعتادوا أن يفعلوا مع ماكسيمو. شعرت نوريا أمام الميناء، بتجدد طاقتها: غذتها الشمس ورائحة البحر. انتبه بورو لذلك وأخبرها بأنه لاحظ أنها في منتهى السعادة.

- نعم، هذا صحيح. لدي كل شيء (أضافت بابتسامة).

- ماما، ماما، هل يمكن أن أذهب إلى الشاطئ لجمع الأصداف؟ (سألتها ميريبا).

- لا، الوقت متأخر. يوم آخر. يجب أن نرحل الآن.

- لبرهة فقط! (صاحت الطفلة).

- هيا، لن نتأخر سوى بضع دقائق للوصول إلى الشاطئ (قال بورو).

- فإن بللت ثيابك؟

- ستجففني الشمس (أجابت ميريبا أمها).

نظر بورو إلى نوريا بجدية، حين رحلت الصغيرة صوب الممشى.

- إنها طفلة رائعة والصغير أيضًا.

- شكرًا جزيلًا. الحقيقة أنني أراهم كذلك، ولكن هذا بالطبع لأنني أمهم (قالت نوريا بدون التوقف عن الابتسام). كيف حال البحث عن الشباب الدائم؟

- يعاند، وليس معنا فحسب. كم قرنًا مضت منذ أن راودت الإنسان نفس الرغبة؟ (هتف بورو وكأنه ممثل، وبعد ذلك وبنفس النبرة، أضاف): أنا على أتم استعداد لتسخير كل معرفتي في الكيمياء في خدمة القضية.

- المهم هو التصميم، وأعتقد أن لديك قدرًا كبيرًا من ذلك.

- الكثير للغاية. لا تتخيلين مدى أهمية ذلك بالنسبة لي ألا تتجعد بشرة النساء وكذلك الرجال الذين يستخدمون كريماتهن سرًا (تابع المزحة).

- لماذا تتعامل مع الأمر على هذا النحو؟ ألم تكن تفضل العمل في شيء آخر؟

- في الحقيقة، لم أعد كذلك. بعد الانتهاء من الدراسة، جربت صناعات مختلفة تمامًا، ولكن...

- لم يحالفك الحظ؟ (قاطعته هي).

- لم يكن لدي الطموح، علاوة على أنه كان لديّ ضمير زائد عن الحد. يمكن القول إنني كونت فكرة واقعية عمّا يمكن أن يقدمه لي عالم الصناعات الكيميائية فهربت (قال ضاحكًا ثم توقف ناظرًا إلى عيون نوريا)، لكنني لست نادمًا. أنا الآن أفضل من أي وقت مضى.

حينئذٍ رأوا الطفلة تلوح لهما بيديها فيما تقفز للخلف هربًا من موجة طالت الشاطئ. وزنت نوريا كلماتها، وتابعت وكأنها لم تلحظ عمقها.

- ربما تستطيع مساعدتي... (قالت، وقد شرعت في البحث عن شيء في حقيبة يدها. انتابها على الفور شعور بالندم). لا، دعك من ذلك، لا يهم.

- ما الأمر؟

- لا شيء حقًا. إنه لا شيء.

تقلب مارك بين ذراعي أمه مشيرًا إلى الرمال. تركته نوريا بحرص على الأرض.

- اذهب مع ميريبا، لكن على مهل.

سقط الطفل ونهض عدة مرات في بضعة أمتار قليلة.

- هل هي خطواته الأولى؟ ألا تبدو لكِ مؤثرة؟

- نعم، كثيرًا. لا أستطيع وصف ما شعرت به ذاك المساء حينما استند على ساقيه وتقدم نحوي.

- إذا كان بمقدوري، فيسعدني مساعدتك. في أي شيء (قال بورو متابعًا خطوات الطفل). أخبريني من فضلك ما الأمر.

نظرت إلى عينيه أيضًا. بدا عرضه لها في منتهى الصدق.

- لا أدري. أعتقد أنها تتعلق بعملك.

- وهذا سبب أدعى.

أخرجت نوريا المفكرة التي دونت بها ملاحظاتها، وأدنتها من بورو لكي تشير إلى الكلمات التي نقلتها من الرسالة التي أخذتها من صندوق البريد: «estereoisomería».

- لا أدري ماذا تعني. لم أجدها في القاموس (أخبرته نوريا بدون إبداء مزيد من التفسيرات).

- التماكب المجسم هو مصطلح من الكيمياء العضوية. لماذا تريدين معرفته؟ (سأل مرتبكًا).

- ليس من أجلي. إنه لـ.... لصديقة أرسلت لي ما يشبه التقرير الطبي (قررت نوريا عدم الكذب عليه باستثناء ما تعتبره ضروريًا).

- إنه مصطلح شديد التخصص (قال بورو).

- لعلك تقول ذلك لأنك لا تعرف معناه؟ (قالت مازحة).

رفعت ميريبا شقيقها لأعلى وقربت قدميه من الماء حتى تأتي موجة فترفعه.

- لا، كل ما هنالك أنني لا أعرف كيف أفسره لكِ؟ (تابع الكيميائي).

التصاوغ «isomería» النصف الثاني من مصطلح «estereoisomería» هي خاصية في المركبات الكيميائية التي لها تركيبة نفسها للجزيئات، ولكن تنص على أنه بالرغم من أن تلك الذرات متماثلة، تحتل مواقع مختلفة في الفراغ.

حاولت نوريا استيعاب ذلك الدرس الشامل حول تركيبات الجزيئات.

- أما عن ترتيب العناصر...(تابع)، ففي هذه الحالة، يغير بالفعل المنتج لأن ذاك الترتيب، وعلاوة على وجوده في الفراغ، هو ثلاثي الأبعاد، ولكنه ليس بهذه البساطة (قال وكأن ما ذكره سلفًا كان كذلك).

استرخت نوريا حيث رأت أنه ليس من الضروري أن تفهم كل شيء.

- لنقل إن البنية الداخلية للجزيء تتغير، على الرغم من ارتباط عناصر بالطريقة نفسها، لأن لديها في الفراغ توجهًا مختلفًا. هذا ما يعرف بالتماكب المجسم. هل تعرفين ماذا يعني «estéreo» باليونانية؟

- هل لديه أية علاقة بالصوت؟ (قالت نوريا).

- لا، تتعلق بالمادة في الحالة الصلبة. هل تتابعينني؟

- ليس كثيرًا، في الحقيقة (قالت حتى لا تعترف بأنها لم تفهم شيئًا).

- هناك طريقة أكثر سهولة لشرحها. فكري في أيدينا! إنهما متماثلتان، لكن متناسقتان، إذا وُضعت راحتا الكف واحدة فوق الأخرى، كل إصبع إبهام سيكون في اتجاه. (لاستكمال توضيحه، مثّل بورو تلك الحركات). لا أعلم إذا كنت ساعدتك أم زدت حيرتك أكثر.

- نعم ساعدتني، أشكرك (قالت نوريا وهي تدون عدة ملاحظات سريعة في مفكرتها).

- هل هناك شيء آخر لم تعثري عليه؟ كما تتصورين، أنا في غاية الاندهاش. لم أتوقع أن يكون هذا موضوعًا للحديث.

- معذرة، لكن أنت الكيميائي الوحيد الذي أعرفه (قالت نوريا مشيرة

بالقلم إلى كلمة أخرى مكتوبة في دفترها).

– هيا، فقد اخترتني بالتزكية (قال ضاحكًا واقترب لقراءة الكلمة التي أشارت إليها نوريا). التأثيرات المسخية، رهيبة! تعني أن هذه التركيبات قادرة على توليد مسوخ، أي أنها تسبب تشوهات خَلقية. تفقم الأطراف أحد توابع التأثير المسخي: هذا يعادل أن يكون للشخص أطراف مثل زعانف الفقمة.

انتفض قلب نوريا. ونظرت إليه مرعوبة، ثم أمعنت النظر في طفليها. دارت ميربيا عدة مرات ومارك بين ذراعيها إلى أن وقعت في النهاية من الدوار فوق الرمال إلى جوار شقيقها. تصورت نوريا أنهما لطخا ثيابهما، لكنها رأت أنهما في النهاية يجب أن يتسليا بشيء.

– هل أنت متأكد؟ (كررت بإلحاح).

– تمامًا. شحب لونك فجأة. ماذا ألمّ بكِ؟ (خاطبها بورو بقلق).

هرعت نوريا مفزوعة نحو طفليها. نحت شعرها إلى الجانب الأيسر، وسوته على الكتف الأيمن. شعرت أنها بحاجة للهواء؛ فمراسلتها المجهولة لم تكن تكذب. أدركت فجأة تلك الحقيقة: أن توليد مسوخ هو أمر ممكن بالفعل.

– ميربيا، هيا سنرحل!

– ماما... لكن لمَ؟ إذا كنا في أفضل حال (بدأت الطفلة في الاحتجاج).

– هيا بنا! (اقتربت نوريا منهما في عجلة من أمرها، ورفعت مارك من على الأرض، ونفضت الرمال عن بنطاله).

– لكن ماذا جرى؟ (سأل بورو مجددًا).

– لا تقلق! شكرًا جزيلًا على كل شيء.

وبدون أن تضيف المزيد، انطلقت نوريا متجهة نحو الطريق، وأوقفت أول سيارة أجرة ظهرت. حينما صارت داخل السيارة ناولها بورو صندوق

الخطابات.

- أشكرك مجددًا (قالت نوريا).

ظل بورو مرتبكًا بعد انطلاق السيارة متسمرًا في مكانه حتى غابت سيارة الأجرة عن نظره. وأثناء توقف السيارة في إحدى الإشارات استجوبتها ميرييا:

- ماما، هل لدى هذا السيد أبناء؟

- لا أدري، يا عمري، لا أعرف عنه الكثير (أجابتها نوريا بنبرة لا مبالية بقدر ما تستطيع التظاهر به).

- ولكنكما تحدثتما كثيرًا.

- نعم، لكن عن أشياء أخرى. عن عملنا.

- هل لديه أمٌّ وأبٌ (أجابتها الطفلة بعناد بينما استدارت نحو نافذة السيارة).

- نعم. هذا أكيد، لابد أن يكون قد جاء إلى الدنيا من مكان ما.

عبرت ميرييا عن رضاها، واسترخت نوريا. نظر إليها السائق في المرآة، فشعرت أن هذا نوع من التحذير، وكأنها إشارة مرور تنذرها بالخطر، تهديدات غير محددة؛ ولهذا تعتبر أكثر إثارة للقلق.

9

بمجرد أن استيقظت ميربيا حدثت أباها عن ذلك السيد الظريف، وأضافت في الحال، أنه كان في منتهى اللطافة.

سأل ماكسيمو نوريا عن الشخص الذي تقصده فقالت له من المؤكد أن الطفلة كانت تحلم.

انتظر حتى خرجت الطفلة من الحجرة، ثم خاطب نوريا حانقًا:

- عمّن تتكلم؟

- لا أدري، ماكسيمو. ماذا تعتقد؟ أنت تعلم أن خيالها واسع. لا شيء. لعلها إحدى القصص التي تقرؤها.

- أو من تلك التي تقصينها عليها. أتعتقدين أنني لم ألحظ أنكِ أكثر صمتًا من كل المرات السابقة، ولا تعيرينني الاهتمام الكافي؟ لا أدري، وكأنه لم تعد تهمك أمورنا، وشؤون أسرتك.

- الأمر ليس هكذا.

- بلى إنه كذلك، علاوة على أنه يتصادف حدوث كل هذا منذ أن صار لديكِ هذا العمل اللعين. سوف تضطرين لأن تتركيه. الأهم فالمهم.

التزمت نوريا الصمت طوال عطلة نهاية الأسبوع. كانت تجيب على ماكسيمو بجمل قصيرة مقتضبة. ظل الاثنان متكدرين. لم تتحدث مع زوجها حتى عن الطفلين أو ما فعلاه خلال تلك الأيام. وما كان من ذلك إلا أن أكدّ شكوك ماكسيمو.

شرع ماكسيمو بمجرد أن دخلت المطبخ ذلك الأحد ليلًا، في التفرس في غرفة المعيشة وحجرة النوم وكأن الأمر يتعلق بلعبة (اكتشفْ الاختلافات السبعة) الشهيرة! أراد اكتشاف ماذا تغير منذ آخر مرة كان هنا. دسّ يديه أسفل الأغطية المخزنة في الجزء العلوي من الخزانة، فعل الشيء نفسه مع المناشف المكومة في الحمام، نظر أسفل الفراش، وأثناء خروجه من الحجرة، فتح درج طاولة الفراش الأول بقوة أكثر مما كان ينتوي. ترنّح تمثال سان نيكولاس، لكن ماكسيمو أدركه قبل السقوط؛ فلاحظ على الفور المفتاح المتدلي من فوق عباءة الكاهن. يعلم أن هذا الغرض لا يتوافق مع أيٍ من السمات التي يصور بها تمثال القديس، وفكر أن حياة زوجته تختلف عما تبدو عليه. شعر بأن ثقته تتصدع وكان على استعداد للحيلولة دون انهيارها تمامًا إدراكًا منه أنه حينئذٍ لن يتمكن من إعادة بنائها.

***

ذهب ماكسيمو قبل السفر إلى ورشة الأقفال القريبة، صنع نسخة من المفتاح وعاد إلى المنزل لكي يترك المفتاح الأصلي في مكانه بحجة أنه نسي بعض المستندات. لم يحتج لقول شيء لأن نوريا كانت ماتزال نائمة. أغلق الباب بأكبر قدر من الهدوء.

طالع الجريدة في بار على الطريق تناول فيه الغداء، وتوقف عند إعلان اعتقد أنه مثالي:

هل تريد أدلة على شكوك؟ تقارير قبل الزواج وأثناء الزواج، العثور على عنوان، عدم الملاءمة المالية، في إسبانيا والخارج. دبلوما البحث الجنائي. وكالة حاصلة على أحد أقدم التراخيص الحكومية في كتالونيا. اتصل على جي. بي. هاتف 376689.

لم يتضح له إذا كان جي. بي هو اسم الشركة أم الأحرف الأولى من اسم

المخبر السري. انتزع الصفحة وخرج إلى الشارع واتصل من إحدى الكبائن.

- جويفري بالادري على الخط. مع من أتشرف بالحديث؟

- أفضل عدم ذكر اسمي. متى يمكن أن نتقابل؟ (تعامل ماكسيمو بطلاقة لا تليق بمن يقوم باتصال من هذا النوع لأول مرة).

- متى شئت، يا صديقي. حدد المكان والزمان، وإذا سمحت التزاماتي المهنية والشخصية العديدة فستجدني هناك.

- الخميس القادم، مساء. ما رأيك في بار (الـ بي)؟ (سأله بحسم).

- دعني أرى، دعني أرى! (بدا أن المخبر السري يراجع دفتر مواعيده). هل السابعة وقت مناسب؟

- إلى اللقاء إذن حتى ذلك الحين (قال ماكسيمو ثفرا) وأغلق الخط على الفور دون إضافة أي شيء آخر.

عرف أنه لم يفعل الصواب، ولكن حاول إقناع نفسه بأن ذلك كان الأفضل. لطالما قدم الغايات على الوسائل، والحزم في شخصيته على الخوف.

***

صنف ماكسيمو ذلك الرجل، خلال اللقاء الذي جرى بعد أربعة أيام، والذي تعرف عليه على الفور من بين باقي رواد المقهى، على أنه «أحد أبناء قاع المجتمع». انتابه الندم لوهلة لاستعانته به، إلا أنه وجد كعادته دائمًا جملة تلخص كل موقف، وهكذا أراح باله، وحدّث نفسه أنه إذا أراد الحصول على شيء، فعليه أن يتحمل تكلفته.

يعلم ثفرا، من مواقف سابقة أن شكوكه تجاه الآخرين كانت دائمًا مبالغًا فيها، بدون وجه حق، ولكن هكذا كان: شكّاكًا للغاية. كان يفكر معزيًا نفسه ألا أحد كامل، على الرغم من قناعته بأنه بات قاب قوسين أو أدنى من الكمال، وحتى أنه قد تجاوزه في بعض جوانب حياته.

لاحظ عندما أصبح بالادري أمامه أن لحيته الكثيفة تعطي انطباعًا أنها لا تتوقف عن النمو مثل شعره المليء بالقشرة. يدخن سيجارًا أسود، ويحتسي كأس كونياك. لفتت انتباه ماكسيمو نظارته المربوطة بسلك معدني. ثبتها فوق أنفه لكي يتفرس في صورة نوريا. شعر ثفرا بالتقزز من تحسس ذلك الشخص لصورة زوجته. أعطاه بعد ذلك نسخة المفتاح التي عثر عليها معلقة على ظهر تمثال سان نيكولاس.

-أحتاج لمعرفة ماذا يفتح. أثبت لي صحة الكفاءة التي يتشدق بها إعلانك.

-لا يكن لديك ذرة شك! يبدو أنك لا تعرفني.

رفع المخبر السري بحركة سريعة نظارته من على عينيه؛ فعادت لتتدلى من ياقته ثم رجع إلى الخلف مستندًا إلى ظهر المقعد. ارتدى حلة سوداء أكبر بنمرتين من مقاسه، ولكنه كان ينتعل حذاء جيدًا، وكأنه ركز كل شيء في قدميه لكي تجوبا الشوارع بدون راحة.

قرر ماكسيمو تلك الليلة عدم الذهاب للنوم في منزله.

***

استقل المخبر السري جويفري بالادري حافلة نوريا نفسها في الطريق إلى معهد مستحضرات التجميل. ذهبت هذه المرة بدون مارك وميريا لأن دورا تطوعت مجددًا للبقاء معهما. جاءت إجابة جارتها مقتضبة على الرغم من سؤالها عن رحلتها، ومحاولتها أن تكون مجامِلة علاوة على إضفاء نوع من التودد. تخيلتها نوريا في واحدٍ من تلك الأماكن التي لم تعرفها إلا من خلال المجلات فحسب: محطات تزلج ذات جليد مستدام، صالونات زي النُّدل فيها متوافق مع قواعد الإتيكيت ويقدمون كوكتيلات بالغة الرقي...

اقترب من يتبع نوريا، عندما صعدت سلم بناية شارع بيلايو، من المدخل المجاور وتحدث مع الشخص الذي يكنس الرصيف. طوى ورقة

من فئة مئة بيزيتا ودسها في يده.

- أتعرفها؟

- أراها هنا كل جمعة منذ نحو شهر تقريبًا.

- وماذا أيضًا؟

- تصعد إلى دور الميزانين، طابق مختبر الكريمات.

شعر بالادري أنه أهدر المال لأن زوج نوريا أخبره بكل ذلك بالفعل، ومع ذلك ألح.

- أتعمل لديهم؟

- على ما يبدو، لأنها في كل مرة تأتي ترحل ومعها صندوق. تحمل مستحضرات تجميل من تلك التي يعلنون عنها. في رأيي أنها إحدى الموديلات أو من شركة عطور.

- هل سبق أن رأيتها بصحبة أحد؟

- نعم، طفليها.

- انظر، اعتبر هذه النقود مقدم أتعاب، تعلم أن ما أخبرتني به لا يفيد بشيء، أنت مدين لي. أريدك أن تفتح عينيك على اتساعهما. سآتي إلى هنا بعد أسبوع بالتمام، وأتمنى أن يكون لديك ما تخبرني به، لكن غير الذي أعرفه بالفعل.

لم يحر البواب جوابًا. ولم يفعل شيئًا سوى تغيير موضع عود الأسنان إلى الجانب الآخر من فمه، وهو ما لم يمنعه من الغمغمة بتلك الجمل القليلة.

عندما تأهب للرحيل، رأى نوريا بصحبة رجل طويل. كانا يتجهان صوب لاس رامبلاس.

- مرحى مرحى! (قال وهو ينظر إلى البواب) يبدو أن الموضوع سينشط.

هذا أفضل؛ فقد بدأت أصاب بالملل. سأعود لاسترداد المئة بيزيتا. تذكر ذلك! ولا تتوقف عند هذه البناية فحسب! اعتن أيضًا بالبنايات الأخرى! (قال له بالادري وكأن من اختصاصه تنظيم عمله).

سارت نوريا وبورو صامتين لبرهة. تبعهما المخبر السري محافظًا على المسافة.

- لم يكن هناك داعٍ لأن ترافقني (خاطبته نوريا بإنزعاج شديد عندما وصلا إلى محطة الحافلة).

- أحتاج للتحدث معكِ، ولم أستطع القيام بذلك في المعمل.

- تفضل بالكلام!

- أصابني القلق في ذاك اليوم.

- أشكرك على اهتمامك بي (قالت نوريا متحاشية نظراته).

وضع بورو يده أسفل ذقنها بحنان ورفع رأسها برقة لكي ينظر إلى عينيها. راقبهما بالادري من خلال زجاج أحد المحلات متيقنًا من أمرين: أن الحظ حالفه، وأنه لن يقول شيئًا بعد لثفرا؛ فهو لا يريد الانتهاء بهذه السرعة من تلك المهمة. شعر أنه قد يحقق استفادة أكبر من وراء شكوكه. ظل المخبر السري العين الساهرة. ولم يفوت تفصيلة، لعل أيديهما تتشابك، يلامس هو أي جزء من جسدها، أو يقوم بأية إيماءة تشي بالطبيعة الرومانسية لذلك اللقاء. كان الاقتراب لهذا الحد ليبدو تهورًا بالنسبة لأي شخص آخر، ولكن ليس بالنسبة له، حيث يعتبر نفسه ضليعًا في فن التحقيق السري، كما سبق أن أخبر ماكسيمو.

انتهز المحقق وصول حافلة نوريا إلى المحطة لكي يعبر ويقترب أكثر منهما بقدر المستطاع.

- هل تسمحين لي بالاطلاع على التقرير الطبي الذي حدثتني عنه،

الذي أرسلته لكِ صديقتك؟

– لماذا؟ ليس له أية أهمية حقًا.

– حسنًا. لا يبدو من ردة فعلك ذلك اليوم أنه غير مهم.

– أفضل من ذلك أن توضح لي أمرًا: ما المقصود من توليد مسوخ؟ (سألت نوريا تاركة حافلتها ترحل).

– المقصود كافة أنواع التشوهات، مثل السيكلوب. أتعرفين ما هو السيكلوب؟

– نعم، العملاق ذو العين الواحدة مثل بوليفيموس جونجورا.

– ومثل وحش الشاعر لويس كارييو وسوتومايور، وكلاهما من نسل المسخ الذي وصفه هوميروس.

اندهشت نوريا كثيرًا من كل تلك الإشارات الأدبية، على الرغم من تفكيرها في التو أنه ليس محظورًا على كيميائي أن يعرف أمورًا كثيرة لا تمت بصلة إلى الذرات والجزيئات على الإطلاق.

– يكون للشخص المولود بتشوه السيكلوب محجر وحيد للعين في وجهه، ما يشبه العين الواحدة في منتصف جبهته... هل تقرئين شيئًا يتناول هذه الموضوعات المزعجة؟

– لا... إنه بسبب نفس التقرير (أكدت نوريا محاولة أن تبدو مقنعة).

– هل أنتِ حامل؟

– أنا؟ لا، بالطبع، كما لا أعتقد أنها حامل أيضًا.

– حسنا، لعلك سوف تخبرينني. باسم العلم يمكن تحقيق الأعاجيب، محاكاة عمل الرب، وكذلك ارتكاب الكثير من الانحرافات الفظيعة أيضًا.

أومأت نوريا بالإيجاب. وصلت حافلة أخرى، فناولها بورو صندوق الخطابات.

- أشكرك على كل شيء (قالت له قبل أن تصعد).

انطلقت الحافلة، ونظرت نوريا في ساعتها بعصبية، نادمة على تفويت الحافلة السابقة عن عمد. تأخرت كثيرًا مرة أخرى. لم تكن تريد حتى تصور المشهد الذي ينتظرها في منزلها. وأسِفت لأنها لم تذهب إلى المعمل في الصباح مثلما فعلت الأسبوع الماضي كما وعدت ماكسيمو أن تفعل دائمًا.

10

– مرة أخرى بماذا تفيدني وعودكِ؟ ليس هذا ما اتفقنا عليه. أخبرتني بأنكِ ستعملين من المنزل وأنها ستكون مرة واحدة أسبوعيًا بعد الظهر (خاطبها زوجها ما إن خطت من عتبة الباب).

– الأمر ليس كذلك، ماكسيمو، أعمل كل يوم ولساعات طويلة في بعض الأيام. أكثر مما تتصور. كل ما هنالك أنك لا تراني، لكن الجمعة هو يوم تسليم المراسلات، لكي يضعوها في البريد يوم السبت ويبدؤوا توزيعها يوم الإثنين.

– لكننا اتفقنا على أن تذهبي في الصباح. علاوة على ذلك، ألم تتعبي بعد؟

ومع أن ذلك السؤال بدا لنوريا نوعًا من الوقاحة، فلم تكن لديها رغبة في الجدال.

– تفضلي! لقد أحضرت لك هذا (طوح ماكسيمو بقلة ذوق علبة مستطيلة على الأريكة الثلاثية. كانت زجاجة عطر من ماركة ماروجيا).

لم تدر نوريا ماذا تفعل؟ تشممته وقربت الزجاجة من ماكسيمو.

– لقد عرفته، ولهذا اشتريته من أجلك، يشبه رائحة سوق فارسي. كما ترين أفكر فيك دائمًا.

انتاب نوريا شعور بالذنب، وهذا ما كان ماكسيمو يصبو إليه؛ فأخذته من يده لكي يدخلا غرفة النوم. اقتادته حتى الفراش لكي يجلس، وشرعت في تقبيله بعد أن وضعت عدة قطرات على عنقها. وعلى الفور ظهرت ميرييا.

- ممم، يالها من رائحة!

رفعها ماكسيمو على ركبتيه وناولها زجاجة العطر.

- تفوح منه رائحة الحب (قالت الطفلة).

نظرت نوريا إلى ابنتها ثم إلى زجاجة العطر بخوف. شعرت كأن حبها لماكسيمو أيضًا بدأ يتبخر مثل العطر. تمنت في تلك اللحظة أن يرحل فحسب بأسرع ما يمكن لكي تستعيد رسائلها.

صديقتي العزيزة:

استشرتُ صديقًا بخصوص ما أرسلتِهِ لي...

توقفت نوريا عندما كتبت تلك الكلمة الأخيرة، اعتبرت أنه ربما يتعين عليها أن تطلق عليه «زميل عمل»، ولكنها مالت إلى أن تتركها هكذا، لأنها صيغة مختصرة وعلاوة على أنها لا تعطي الكثير من الدلالات. ويمكن أن تتصور مستمعة البرنامج إذا أعطتها تلك التفصيلة أن من أفادها كان شخصًا من معهد مستحضرات التجميل نفسه. ومن ثم تابعت:

... أخبرني بأن أحد التأثيرات يتمثل في أن ذلك الجزيء يتسبب في ولادة مسوخ. أعلم أن هذا يبدو كقصة رعب، ولكنني أنقله لك حرفيًا. آمل أن أكون بذلك قدمت لكِ مساعدة ما. مازلت رهن تصرفكِ من خلال هذا العنوان البريدي. وأظن، فيما يتعلق بطريقة تواصلنا هذه، أنكِ تفضلينه على التواصل عن طريق البرنامج. أشكركِ على تفهمكِ.

وتفضلي بقبول فائق الاحترام.

اعتدلت بعد كتابة تلك السطور وأخذت تفرد ذراعيها، ضمت يدها أعلى رأسها، ثنت جسدها من عند الخصر حتى لمست طرف قدميها بأصابعها.

راقب جوفيري بالادري النافذة التي بدون ستائر من خلف أوراق

أقصر فرع لشجرة على الرصيف المقابل. يخصص المخبر السري نصف ساعة يوميًا لتلك المهمة، باستثناء أيام الجمعة. رآها ذلك الأسبوع تخرج للتسوق يوم الثلاثاء، وتصطحب طفليها في اليومين التاليين إلى الحديقة. في فترة الظهيرة تأخذ المذياع الذي لديها ضمن أثاث غرفة الطعام، وتشغله دائمًا في نفس التوقيت. وتوصل لاستنتاج أنها سيدة تميل إلى البقاء في المنزل، ولكن ربما تركز لقاءاتها، وبالتالي مشاعرها، على الشخص الذي تعتبره عشيقها بالفعل، ومن المحتمل أنها لا تحتاج لأن تراه سوى مرة واحدة كل سبعة أيام فحسب. وقدر بشكل جزافي أنه نظرًا لأنها علاوة على ذلك لديها زوجها، لم تكن بحاجة لمزيد من الجدية.

***

تركت الطفلين يوم السبت مع ماكسيمو بحجة شراء المكونات اللازمة لإعداد كعكة. استقلت الترام حتى مكتب البريد. شعرت أنها بلا وجل، ومنطلقة، وقادرة على القيام بذلك وأكثر. أدارت المفتاح في صندوق البريد، ومدت يدها في الداخل لتتأكد من عدم وجود شيء، انحنت وهي تنظر نحو الجهة الأخرى حيث الموظفون الذين يصنفون البريد.

دخلت المنزل بعد ساعة ونصف ومعها حقيبة من القماش ثقيلة للغاية. علاوة على ذلك، جعل حر الأيام الأولى من شهر يوليو تحركاتها أكثر صعوبة. كان ماكسيمو في حوض الاستحمام مع طفليه الاثنين. اعتقدت نوريا أن أماكن قليلة مثل بيتها تحوي كل هذا القدر من الجمال.

ذهبت نوريا، الأسبوع التالي، مبكرًا إلى المختبر لكي تأخذ لها ليليانا مقاسات الثوب الذي طلبته منها، إلا أن السكرتيرة عاودت الغياب مجددًا، ومرة أخرى يقدم لها بورو صندوق الخطابات. قائلًا:

- كنت أتأهب للانصراف. دعيني أرافقك إلى الحافلة!

لم تجد نوريا سببًا مجديًا للرفض، وسار الاثنان في صمت. عندما وصلا إلى المحطة، التفت إليها بورو باهتمام.

- يبدو عليك القلق. مازال الوقت مبكرًا. لماذا لا تبقين قليلًا؟

عبرا ميدان كتالونيا مرة أخرى حتى لاس رمبلاس. كان أكثر ما شغل بال نوريا هو معرفة إذا كانت مرسِلة الرسالة قد تسلمت ردها. عندما وصلا إلى كافيتريا سافوي، اقترح عليها بورو أن يجلسا في الخارج. سجلت عينا جيوفري بالادري، المشهد مجددًا. تبعهما المحقق الوفي لموعد يوم الجمعة، حتى هناك، ولم تفته تفصيلة هذه المرة أيضًا. قالت له نوريا بتصميم:

- سوف أعرض عليك شيئًا. ووضعت أمام ناظريه التركيبات التي نسختها من الدفتر الذي كان في المظروف الذي وجدته في صندوق البريد:

سألها باستغراب وهو يرتشف جرعة من شراب المارتيني الذي أحضره له النادل:

- هل كانت ضمن التقرير الطبي الذي حدثتني عنه؟

صبت نوريا قليلًا من زجاجة ماء ماركة فيشي، دون أن تحول نظرها عن يدي الكيميائي البارزتي العظام بحدة. ثم مسحت ذراعيه ببصرها لتتوقف عند شفتيه. رفع بورو رأسه؛ فركزت هي على الخطوط المكتوبة. قالت نوريا وهي تمرر له الورقة لكي يقرأها بصوت مرتفع:

- أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك، أود معرفة معنى هذه العبارة بالكامل «لم يؤخذ في الحسبان التماكب الفراغي في الجزيئات (سي) و (آر) بحيث تختص الـ (سي) بالتأثير المهدئ والـ (آر) بتأثير تشوه الأجنة».

تلتها دفعة واحدة. كانت قد كررتها في المنزل لمرات كثيرة؛ فبدت أمام بورو نافاسكويس طالبة مجدة تجتهد لاستجلاء غموض سرّ مبهم بالنسبة لها من خلال قراءة متأنية ومكررة.

– حسنًا، تعرفين ما هو التأثير المهدئ الناتج عن الباربتيورات، والمسكنات وكل المواد التي تساعد على تسكين الألم. جرت العادة أن تركيبة تلك العقاقير تحتوي في الغالب على اليوريا وحمض المالونيك ويستخرج من التفاح.

دونت نوريا بضع كلمات.

– أما تأثير تشوهات الأجنة...، حسنًا، فقد أوضحته لكِ من قبل.

أومأت نوريا بأسى.

– ما كل هذا؟ معذرة إن بدوت لكِ فظًا، آمل ألا أكون قد أزعجتكِ بأسئلتي، لكن أود معرفة ما يجري. ما هي تركيبات هذا العقار المسبب لتلك الأعراض؟ أتوسل إليكِ أن تخبريني بالمزيد. يجب أن تكوني صريحة معي. لا تخفي عني شيئًا من فضلِك. أود مساعدتِك، ولكن لأفعل ذلك، أحتاج معرفة الأمر الذي زججتِ بنفسكِ به.

– لا أدري، بورو. لا أعلم شيئًا عن الأمر أكثر من الأثر الذي تركه في نفسي. هذا الموضوع يدمرني. تنتابني كوابيس، أرى فيها طبيبًا يبتر أعضاء طفليّ. إنه أمر مريع.

لاحظ بورو ارتجاف نوريا؛ فضغط على يدها التي كانت على الطاولة. لعق جيوفري بالادري شفتيه لأن هذه القضية كانت تسير وفق هواه.

– اهدئي من فضلك! واشرحي لي بتأنٍ ماذا تقصدين؟

قالت نوريا بتردد:

– المرأة التي حدثتك عنها...

ألح بورو مقتربًا أكثر منها:

– ثقي بي. علاوة على أننا اتفقنا أنكِ لا تعرفين كيميائي غيري، أليس كذلك؟ (قال مازحًا).

أومأت نوريا بالإيجاب.

- كتبت لي هذه الصديقة لتخبرني عن أطفال يولدون مبتوري الأعضاء وأرسلت إليّ هذه التركيبات.

نظر إليها بورو بقلق.

- وماذا تعرفين عن... صديقتك؟

- ليس كثيرًا، في الحقيقة. نتواصل حتى الآن من خلال الرسائل عن طريق صندوق بريدي.

أكدت هذه العبارة لبورو أن ذلك التواصل حدث عن طريق برنامج المستشار العاطفي الإذاعي.

- أرجوك، أخبريني بالمزيد.

- في الرسالة الأولى... (ترددت نوريا مجددًا لبضع لحظات) كتبت أنها عشيقة شخص متنفذ.

- هل أوردت اسمه؟

- لا، (أخبرته ثم توقفت. تفرست في زرقة عينيه العميقتين كما لو كانت تستطيع الاطلاع على أفكاره، ثم تابعت): يبدو أنها عرفت من خلال محادثة استمعت إليها بدون أن ينتبه هو لذلك. قال: إن بعض هؤلاء الأطفال تُركوا في ملاجئ مختلفة. أعتقد أن المهم الآن هو العثور عليهم. بهذه الطريقة... سوف أتحرى عن القضية. لكن لا أدري. لم يكن ضمن مخططاتي مواجهة أمر كهذا.

- هل يمكنني الاحتفاظ بهذه التركيبات؟

انتزعت نوريا الأوراق من دفترها، وقدمتها له، وسألته:

- هل ستخبرني عن محتواها؟

- بالطبع. اعتمدي عليّ.

خمن من القرائن القليلة مصدر تلك الرسائل. لم يذكر أي منهما برنامج المستشار العاطفي الإذاعي، ولكنْ كلاهما أدرك أن تلك القصة بدأت من هنالك.

استعادا رباطة جأشيهما وما إن اقترب النادل حتى دفعا الحساب ورحلا. استقلت نوريا سيارة أجرة من نفس المكان وركبت السيارة مهمومة. نظر بورو بقلق إلى الأوراق التي سلمتها نوريا له. فرقع جيوفري بالادري بلسانه: جعلته هذه الطريقة في النهوض من الطاولة وبرودة الوداع يفكر في حدوث انفصال. كان هذا يعني بالنسبة للمحقق الفشل، لأنه لم يحط ماكسيمو ثفرا علمًا بالوقائع حتى الآن، أما الأسوأ بالنسبة له فكان عدم تقاضي أي نسبة من أتعابه؛ فقال لنفسه: في حالة عدم توصل هذين الاثنين إلى شيء أو أنهم توصلا بالفعل وانتهيا، ففي المرة القادمة التي سيلتقي فيها بعميله سوف يطلب منه عربون، سوف يتحجج بمصاريف الانتقالات والتدابير الأخرى، والذي يعرف بمقدم الأتعاب.

قبل دخول إحدى الحانات اقترب للحديث مع حارس عقار البناية المجاورة لمبنى السيد والسيدة فرومنت بشارع بيلايو، لكي يخبره بمعلومات إضافية مقابل مئة البيزيتا.

داخل سيارة الأجرة، اعتبرت نوريا أن انشغال السائق ببرنامج كرة القدم المذاع في الراديو بدلًا من التحدث إليها، على عكس ما يحدث معها عادة في مناسبات أخرى، نعمة كبيرة.

شعرت بمرارة كبيرة. تذكرت كلمات ماكسيمو عندما علم بأمر عملها -على الأقل الرواية التي حكتها هي له- عندما حثها على ترك العمل بمجرد شعورها بالتعب منه. لم ترغب في الاعتراف بأنه كان على حق، الاستسلام بهذه السرعة، ولكن للمرة الأولى طرحت فكرة اتباع نصيحته. حلت رباط صندوق الرسائل على سبيل التلهي؛ فرأت ظرفًا برتقاليًا معقودًا بشريط

مذهب موضوعًا فوق باقي الخطابات، فتناولته وتحسست ملمس الورق المقوى. كان من دونيا ليونور. فتحته نوريا على الفور. كتبت تقول بخط منمق كما لو كانت ترسم بجعًا وأمواجًا:

عزيزتي السيدة ثفرا:

أرجو المعذرة لتأخري في تحديد موعد الدعوة التي أخبرتك عنها يوم تعارفنا. وكما قلت لكِ آنذاك، أكرر رغبتي في تناول الغداء سويًا، وبهذه الطريقة نعرف بعضنا بعضًا أكثر. بالكاد توافر لي الوقت لكي أتوقف لأقرأ بعضًا من ردودكِ. وسوف أشرح لكِ السبب. ولكن حدثني الأب بيلسيرميس عن الطابع المتميز لأدائك لعملك، وأود أن أعلق على ذلك معكِ. يتعلق الأمر ببعض المسائل بعينها، التي أرى من الضروري مناقشتها لتفادي أن يؤدي عدم المعرفة بها لارتكابك خطأً ما.

حسنًا، عزيزتي، اتصلي بي هاتفيًا وأكدي لي إذا كان بوسعك الحضور هذا الأربعاء إلى منزلنا!

وتفضلي بقبول فائق الاحترام

ليونور أرانا دي فرومنت

سرت قشعريرة في ظهرها. تأكدت أنهم لاحظوا الخطاب الناقص، وأنها بدلت به خطابًا آخر؛ ولذلك السبب اقترحت دونيا ليونور مقابلتها في أقرب وقت، وتوقعت في ذلك اللقاء أن تفصلها، هذا مؤكد، بأسلوب مهذب، مثلما اعتادت تلك السيدة أن تفعل في كل أمورها. شعرت أنها حمقاء، لم يعد أمامها خيار آخر سوى دفع ثمن أفعالها الشديدة التهور والمجازفة. أسفت بشدة لإهدارها تلك الفرصة، حتى قبل أن تبدأ، ولكنها شعرت بأنه لا سبيل للتراجع وأنه لا مفر.

11

أدركت نوريا أنه لا مجال للتراجع عن هذه القضية حين وجدت في صندوق البريد صورًا لأطفال مبتوري الأعضاء، بدت لها أشبه بأوراق لعب مرعبة.

لم تشأ الانتظار حتى الجمعة. اتصلت بعد يومين بـ بورو في المعمل من هاتف عمومي. ثبتت عربة الطفل وهي تتحدث وتراقب ميريبا الجالسة على حافة أحد المقاعد. تعرفت في الحال على صوت ليليانا، ولكن يبدو أن السكرتيرة لم تلحظ أنها نوريا. قالت:

- سأصلك به على الفور.

نظرًا لأنها كانت تريد إجابة فورية، ما إن سمعت نوريا صوت بورو، حتى أطلقت السؤال التالي:

- هل توصلت إلى جديد بشأن التركيبات التي أعطيتها لك؟ بالإضافة إلى أن هناك أمر آخر. لم أفق بعد من التأثير. أحتاج لشخص أثق به. أعتقد أنني سوف أُجن. أود أن تساعدني في الوصول إلى هؤلاء الأطفال. يجب أن أعرف ماذا وقع لهم مهما بلغت صعوبة الأمر: من هم آباؤهم؟ وماذا يجري.؟ أعرف أشياء أخرى كثيرة، ولكن أحتاج أن تمنحني أنت أيضًا شيئًا قبل أن أخبرك بها.

نهضت ليليانا من مقعدها وعبرت الصالة في اتجاه الحمام. كانت ميالة دوما للاستعراض بشكل كبير.

- نوريا، سأساعدك بكل ما أوتيت من قوة، ولكن يجب أن تهدئي. في هذه الحالة يمكن أن يصيبك مكروه. هل مازلت هناك؟ نوريا؟ (ألح بورو).

- نعم، أنا هنا. (شعرت بنوع من الدوار فاستندت إلى ذراع عربة مارك.

- سوف نكمل الجمعة. (قال حينما شعر باقتراب ليليانا من طاولته).

كانت نوريا ممتنة لقطعه المحادثة فجأة لأنها بدأت تشعر بغثيان. ظلت واقفة على قدميها بصعوبة بالغة. وصلت منزلها بعد معاناة بينما كان الطفل يبكي في العربة وميرييا غاضبة من الجوع. بحثت بمجرد أن دلفت إلى الصالة، عن أنبوب الحبوب التي وصفها لها طبيب النساء لعلاج الدوار أثناء الحمل. تصورت أنها ستريحها إذا تناولت قرصين مرة واحدة.

رآها جيوفري بالادري على هذا الحال، وفرك كفيه؛ فقد بدأ يشتم رائحة المال الذي سيحصل عليه إن تمكن من عرض كل تلك المعلومات بحكمة على موكله.

***

شعرت بتحسن ضئيل في الصباح التالي، بعد الاستراحة طوال فترة المساء والنوم جيدًا، على الأقل لكي تفكر في قبول دعوة السيدة فرومنت.

تدخلت ميرييا على الفور، عندما تعهدت دورا عشية موعدها مع دونيا ليونور، بالبحث عن مربية أطفال.

- ماما، هل المربية هي السيدة التي تصنع الأطفال؟

- لا، التي ترعاهم (شرحت لها أمام مالكة المنزل. وضحكتا).

قالت لدورا كما لو أنها لم تعرف إلا في تلك اللحظة بموعد الغداء:

- هذا أمر طارئ.

- اطمئني. كل شيء على ما يرام.

- في الحقيقة، سيدة بلومر إنكِ لا تعرفين مدى امتناني لكِ. أقسم لكِ أنها آخر مرة. معذرة على توريطك في الأمر على هذا النحو.

- هذا مؤشر على أن أمورك تسير على نحو جيد. تخيلي لو أنكِ أصبحت تكسبين مالًا أكثر من زوجك! (كانت دورا على وشك أن تضيف أن هذا يثير عادة كثيرًا من المشاكل، إلا أنها تحلت بضبط النفس. نظرت حينئذٍ إلى داخل الدار ونادت): أورسولا.

- أمركِ سيدتي.

- أحب أن أعرفك بنوريا ثفرا. تعرفت على طفليها في يوم سابق. إنها زوجة المندوب الإيطالي. هل تذكرين الشخص الذي أخبرتكِ عنه؟

- نعم، سيدتي.

- إنه هو، نوريا، أورسولا ربتني وترملت الآن. عرضتُ عليها المجيئ لمساعدتي لفترة، على الأقل حتى تسوي أمور معاش زوجها. لا داعي لأن تبحثي عن شخص آخر.

فكرت نوريا في أمور كثيرة: التوصل لاتفاق مالي معها، أن تطلب من تلك المرأة ذات الوجه الودود أن تعمل لعدة أيام في منزلها أيضًا. أرادت أن تقول أشياء كثيرة لدرجة أنها لاذت بالصمت:

- ولكن...

- لا تقولي شيئًا. اليوم عندكِ، وغدًا عندي.

- شكرًا على كرمك (قالت نوريا بتأثر شديد).

فكرت نوريا أن دورا تأسرها أكثر بمعروفها، واعتقدت أنه بالنسبة لها لا وجود للمشاكل إلا لثوانٍ معدودة. يبدو أن أسلوب حياتها يتطابق تمامًا مع تفكيرها، كما أنها تتحلى بقدر كبير من الهدوء كما لو كانت بحرًا من السكينة.

12

لم تنزل عليّ منذ شهرين، لا أدري إن كنت سأستطيع إعالة طفلي. الرجل الوحيد الذي قربني هو مالك الصيدلية التي أعمل بها ولكِ أن تتخيلي ما سيظنه إذا عرف الحالة التي أخشى أن أكون عليها.

تخيلت نوريا وجه الأب بيلسيرميس عندما يقرأ تلك السطور.

لطالما قدمتِ أجود النصائح، أخبريني ماذا يجب أن أفعل؟ ورجاء، لا تذيعي الرسالة أو تذكري اسمي! مرفق طيه ختم لصالح الأطفال الفقراء، لهم مكانة في قلبي، لأنني كنت أيضا مثلهم.

قررت نوريا تأجيل الرد لما بعد، وانتقلت على الفور إلى رسالة أخرى.

حسنًا، سيدتي، اكتب إليكِ لأن لدي طفلة هي كل ما أرجوه من الدنيا. بدت لنا طبيعية عندما ولدت، كانت مولودتنا البكرية، وكما يقولون بالتأكيد، لا يجب أن ننظر لأبناء غيرنا: لاحظنا عندما رأينا ابن شقيقتي، وكان أصغر منها بكثير، أن بها شيئًا غير طبيعي. كانت شبه منومة طول الوقت، تتكلم بصعوبة، وتعاني من صعوبة أكبر في السير. ومرت السنين، وكانت محتجزة دائمًا في المنزل. وأكملت الآن ستة عشر عامًا، ولا سبيل لردعها. أوضح لك ما أقصده: جريها وراء الرجال، ونخشى وقوع كارثة. فبمجرد انشغالي في المحل أو السينما أو أي مكان تسعى خلفهم.

أهديناها زوجي وأنا دمية، لاقتناعنا بأن غريزة الأمومة تفتحت لديها. أعترف لكِ أنه من الصعب معرفة كيف تعاملها. حسنًا، أتركك لأن لديكِ انشغالات كثيرة تتطلب اهتماماتك، ولكن أرجو منكِ تفهم قلقي على ابنتي كحال أي أم؛ ولكن قلقي أكبر بسبب تلك الخصوصيات التي أخبرتكِ عنها.

اتمنى لكِ ولأحبائك دوام الصحة.

وتفضلي بقبول فائق الاحترام،

ليبرا

شرعت نوريا في الرد عليها مباشرة،

صديقتي العزيزة ليبرا:

لا ضرر في تقديم هدية لأي أحد. وإذا لم تتفاجأ ابنتك عندما قدمتها لها الهدية، فهذا يعني تقبلها عن طيب خاطر. على أية حال، يجب أن تتفهمي أن الطبيعة تأخذ مجراها دائمًا، ومن ثم فإن شعورها بالانجذاب للرجال أمر عادي، وخاصة حينما لا تكون معتادة على وجودهم في محيطها. اشمليها برعايتك مثلما كنت تفعلين حتى الآن! وإذا لم يكن قد حدث لها شيء خطير حتى الآن، فلا يوجد ما يدعو لأن يحدث لها شيء في المستقبل.

كانت تود تصديق تلك الكلمات التي خطتها بنفسها، وأن المخاطر لا تزيد كلما كبرنا.

واهدئي، تعلمين أن الذُّرية تشكل مع المولود الأول خطًا عاطفيًا لا يجب قطعه، بل حمايته. إذا كنتِ بخير، فهي أيضًا ستكون كذلك. أرسل إليكما أحر تحياتي متمنية أن تسير الأمور كما تأملين.

لا تنسي الاستماع إلى برنامجنا، واكتبي لي وقتما تشائين، سيسعدني الرد عليكِ.

ما إن انتهت من كتابة خاتمة هذه الرسالة، حتى أخرجت الرسالة التالية.

سيدتي العزيزة:

أعلن أنه ليس من المعتاد أن يكتب إليكِ من هم من جنسي، وعلى الأقل من يمارسون مهنتي. حسنًا، أنا شرطي، ومن المفترض أنني تمرّست بحكم آلاف المعارك التي خضتها ضد الشر، إذا سمحتِ لي بهذا التعبير، إلا أن الأمر ليس كذلك، نكتسب أحيانًا أشياء معينة من العمل وتلازمنا للأبد. أود أن أحدثك عن صنف من النساء اللاتي قبل أن ينتحرن يتركن المنزل نظيفًا مثل صحن القربان المقدس بدون ذرة تراب، ولا يخلفن وراءهن أي قطعة ثياب متسخة. ولا أقصد ما تقع عليه العين فحسب، بل ما تراه الحماة أيضًا، كما تقول زوجتي. ورد إلى القسم أمسِ إخطار على عنوان مسكن جيراني. ساورني قلق كبير كما تتصورين، حين تخيلت أن الحادث قد يكون وقع في منزلي، إلا أن الأمر لم يكن على هذا النحو، مع أنه كاد يكون: كانت المرأة الملقاة على وجهها فوق سطح الطابق المسروق[1] هي جارتنا، امرأة مفعمة بالنشاط والحيوية. اعتادت زوجتي قضاء ساعات طوالًا معها، أما أنا فلم أدخل منزلها سوى مرة أو مرتين، وكما يُقال تركته آية في النظام والنظافة. ومع ذلك، تضخمت قائمة النساء اللاتي يتركن منازلهن تبرق كصحن القربان قبل انتحارهن. اعتادت جارتنا هذه كل مساء تناول فنجان قهوة مع قرص أوبتيلادون. ويبدو أنها كانت تتناول قرصًا آخر في الإفطار. كانت تقول: لكيلا أشعر بالألم من تحريك ذراعي

1. طابق فوق الأرضي ويكون مستقطعًا من الأرضي والأول، ويتميز بانخفاض سقفه وضيق حيزه (م)

وقدمي لساعات طويلة في منزل دون تيودوسيو حيث أشتغل عاملة نظافة. سأظل أذكر ضحكاتها المجلجلة، كانت تسخر بشدة من كل شيء. كانت تكنّ لنا مودة حقيقية، وتحكي لنا على سبيل الانتقام الساذج، المفارقات التي تحدث لها في منازل الأغنياء، كما اعتادت أن تطلق عليهم.

شعرت نوريا بالحزن من هذه الرسالة، إلا أنها لاحظت مدى احتياج الجار للتعبير عن مودته التي لم يستطع الإفصاح عنها لتلك المرأة في حياتها. أرسلت إليه بضع كلمات على سبيل التعزية، وطلبت منه أن يهتم بشكل خاص برفقة زوجته التي ستفتقد صديقتها كثيرًا، ثم تناولت رسالة أخرى، بدت على الأرجح برقية. كانت بدون استهلال، وتبدأ على النحو التالي:

لا يمكن أن تتصوري مكانتك بالنسبة لي. أؤكد لكِ أنه لولا صحبتكِ كل مساء لارتكبت جريمة بحق نفسي، ولكن أشعر بأنني أولد من جديد كلما استمعت لصوتك. أنتِ مرشدتي، الشيء الوحيد الذي يربطني بهذه الحياة. لن أستطيع أن أوفيك. شكرًا لعذوبتك وحكمتك وصبرك.

فكرت نوريا في العمل الاجتماعي الذي أخبرها به السيد والسيدة فرومنت. جمعت في الحال كل ما بعثرته فوق الطاولة: مفكرة ملاحظاتها، وقلم الرصاص، وقلم الحبر، وممحاة، ثم أعادت غطاء الآلة الكاتبة، ووضعت الرسالة الأخيرة في ظرفها، وبعد ذلك حفظتها في الصندوق وأخفته في الفتحة السفلية لغرفة المخزن. نفضت يديها وكأنها تتخلص من كل تلك الحيوات الغريبة عنها. ثم جلست بمنتهى الهدوء في المقعد، غمرها ضوء منتصف النهار مثل لوحات البشارة. شعرت بالرضا عن الأسلوب الذي تنجز به عملها، ولكن شعرت بالرغم من ذلك بالحاجة لاستنشاق هواء نقيٍّ؛ فشرعت في تبديل ثياب طفليها.

***

فكرت ما إن رأتهما في الحديقة، وسط الخضرة، في الأطفال المبتروي الأعضاء، ونظرت إلى ساعتها في الحال.

- ميرييا، هل تحبين أن نأخذ جولة بالترام؟

- نعم، مامي. أين سنذهب؟

- مشوار قريب.

- لا، قريب لا، أريد أن نذهب بعيدًا.

وصلوا في أقل من عشر دقائق إلى مكتب البريد. أخرجت المفتاح المربوط في شريط من حقيبة يدها، وانتابتها رعدة بمجرد أن فتحت صندوق البريد حينما رأت داخله ظرفًا كبير الحجم للغاية.

- مامي، ما هذا الصندوق؟

- إنها أشياء العمل، يا روحي. يتركونها لي هنا (أجابتها بينما تغلق قفل صندوق البريد.

مر عليها طريق العودة دهرًا؛ فقد انتابتها رغبة عارمة في رؤية المحتوى بأسرع ما يمكن، ولكن بدون أن تكون ميرييا إلى جوارها.

بقي الأطفال بمجرد دخولهم على السجادة حيث تركوا مكعبات الأحجية وعليها رسومات السيرك. أخذ الطفل يمرر القطع لشقيقته بينما تشكل هي برجًا. انفردت نوريا أخيرًا في حجرة النوم بتلك الأوراق، وبسطتها أمام عينيها، وما إن فعلت حتى تمنت لو لم ترها على الإطلاق.

13

صباح الأربعاء، دقت نوريا جرس منزل آل فرومنت، الكائن أعلى المختبر بثلاثة طوابق، حسبما توضح الرسالة. حبست أنفاسها محاولة السيطرة على أعصابها، وعندما لم تستطع أكثر من ذلك، شرعت في التنفس ببطء.

فتحت لها الخادمة فانبهرت من تلك الشقة: يختلط فيها ورق النباتات والزهور وغيرها من الديكورات المصنوعة من الحجر الطبيعي مع فسيفساء القطع الخزفية التي تزين الأرفف أمامها. تراصت تماثيل العديد من القديسين على أكثر من مذبح خشبي متنقل، فروع أزهار في مزهريات خزفية، كانت الأبواب من الخشب المشغول، ضاربة في القدم شاهقة الارتفاع، وتكررت الأشكال المعدنية نفسها على جانبي وحدات الإضاءة (الأباليك) بينما يعكس الخزف الضوء المتسلل عبر الزجاج الملون. بدا لنوريا أنها عادت في الزمن خمسين عامًا على الأقل. تخيلت أن هناك في الداخل تسير الحياة بصورة أكثر بطئًا وبالتحديد أكثر سكينة.

تبعت الخادمة حتى صالة تفضي إلى شرفة بانورامية تُرى من الشارع. خشيت لحظة ظهور السيدة فرومنت. انتشرت نباتات زينة كثيرة في المساحة بين العارضة السفلية وبداية زجاج النافذة، وفي الناحية اليسرى، بين النوافذ والشرفة المطلة على الشارع الجانبي، كان هناك قفص طيور من الأرض إلى السقف. اختلطت أصوات تغريد الطيور، وتمازجت نظرًا لأنها كانت من أنواع شديدة التباين. بدت وكأنها جوقة أوركسترا تضبط آلاتها استعدادًا لحفل موسيقي.

تمنت أنه أن كانت النية إخبارها بأنهم لا يريدونها أن تستمر في العمل معهم، أن يكون ذلك على الأقل بصورة موجزة. دخلت دونيا ليونور بينما كانت نوريا تنظر بإعجاب إلى الألوان الصارخة لريش زوج من ببغاوات الجواكامايو.

- عزيزتي، شكرًا على مجيئك. ما رأيك في كل هذا؟ إنه مثل الحياة في متحف. أنا متأكدة من أن منزلك أحدث بكثير. كيف حالك؟

انتفضت بمجرد أن سمعت صوتها قريبًا منها إلى هذا الحد، على مسافة شبر من كتفها الأيمن. فهمت لماذا لم تسمع صوت خطواتها حين رأت الخف الذي ترتديه؟ قالت بتردد:

- بخير...، شكرًا، وأشكركِ أيضًا على دعوتي.

قررت، عندما وجدت ربة عملها ملتزمة بالصمت، متابعة الحديث عن شيء غير ذي أهمية كبيرة، أو ليس له أية علاقة بما كانت تقوم به حتى الآن.

- أعيش أيضًا في منزل من تلك الحقبة ولكنه مقسم لطوابق مستقلة للاستفادة من قاعات الصالون الفسيحة، ليس كبيرًا إلى هذه الالدرجة، كما أنه ليس بهذا السوء.

- تفضلي بالجلوس! ماذا تودين أن تشربي؟ كأس ريكارد؟ (قالت دونيا ليونور بصوت بالغ الحيادية).

- نعم، حسنًا.

لم يسبق لنوريا تناول ذلك المشروب الكحولي من قبل، ولكنها وافقت إكرامًا لمضيفتها. في تلك اللحظة دخلت مدبرة المنزل، فطلبت منها دونيا ليونور المشروبات بأسلوب في غاية التهذيب.

- كما ذكرت لكِ في رسالتي، أرجو أن تغفري لي تأخر دعوتكِ. (لم تعرف نوريا مغزى ذلك على وجه الدقة). نسافر كثيرًا. إنه أمر مهم من أجل

مؤسستنا أن نلم بكيفية إنجاز العمل في بلاد أخرى، تعلمين أن الصناعة الفرنسية تعد قوة كبيرة، وبالنسبة لنا تعتبر باريس هي المرجعية، أكثر مكان نتعلم منه. هل سبق للكِ زيارة باريس؟

- لا، ذهبت إلى مايوركا فقط. (لم يساور نوريا أدنى شك في أنها كانت تختبرها قبل الدخول في الموضوع).

- مازلت شابة، والوقت أمامك. لكن يبدو من ردودك على رسائلنا أن لديكِ خبرة كبيرة.

غيرت مجرى الحديث نحو وجهتها المنشودة. وبدت هذه الجملة الأخيرة لنوريا نوعًا من التوبيخ فأجابتها بخجل:

- حسنًا، سيدة فرومنت (تنهدت)، الأمر ليس كذلك، معذرة لأني خيبت أملك. هذا يرجع ربما لكثرة قراءاتي. تلك هي هوايتي. وصل الأمر في بعض الفترات لقراءة كتاب كامل في اليوم.

- حسنًا، حسنًا. هذا أمر جيد للغاية. المرأة المثقفة أكثر جاذبية، مهما رفض البعض الاعتراف بذلك. سأخبرك لماذا يوجد رجال يدعون أنهم لا ينجذبون لهن: بسبب الخوف، لأنهم يعانون من عقدة الدونية أمامهن. في حالتنا، السيد فرومنت وأنا شريكان، قبل أي شيء. إننا، علاوة على ذلك، متزوجان فذلك أمر آخر، ولكننا نكون شركة، ومن ثم أقول عند هذه المرحلة ومع كل ما جرى: إنها غير قابلة للفض.

- أهنئكِ (أجابت نوريا دون أن تدري حتى الآن إلى أين سيفضي هذا الحديث؟).

- لا تصدقي! الأمر ينطوي على أسرار. وبدلا من تشييد قلاع في الهواء، يجب بناء لبِنات كل يوم. لا يعول عليّ زوجي العزيز كثيرًا داخل البيت.

لم تدر نوريا على وجه الدقة ماذا تقصد؟ ومع ذلك، اعتبرت أنه ليس

من الصواب أن تطلب منها أية إيضاحات بشأن موضوع خاص.

- وحضرتك، كيف تسير حياتك الزوجية؟ (تابعت دونيا ليونور ما كان واضحًا تمامًا لنوريا أنه تحقيق)

- حسنًا، زوجي ماكسيمو، رحالة. (انتابتها رعشة عندما ذكرت اسمه بصوت مرتفع، أكدت لها أن شعورها نحوه لم يعد بالقوة نفسها كما كان سابقًا، عندما تشاركا لأول مرة الفراش في فندق فرومنتور). ولهذا السبب نلتقي فقط عندما يعود من برشلونة. أثناء ذلك أتولى طول الوقت رعاية طفلينا. ولهذا أيضًا راقني كثيرًا تعاقدكم معي. (على ذكر هذه الكلمات، انتبهت نوريا إلى أنها في فترة الاختبار، علاوة على أنه بعد اختلاسها لرسالة وتزويرها لأخرى، فإن كل ذلك يمكن أن يتغير بالكلية). أود أن أقول، بخصوص الرد على الرسائل. أتمنى أن أكون قد أديت عملي على نحو جيد. (حاولت جس نبضها).

- نعم، عزيزتي، انظري! غرضنا في المقام الأول، ومعذرة لقول ذلك بهذه الطريقة المباشرة جدًا، هو بيع الكريمات. وتعتبر الاستشارات حول العناية بالجمال هي الأساس، تلك التي تتماشى مع هدفنا من هذا الشكل للبرنامج الإذاعي. أما بخصوص الأخريات، حسنًا، فكرنا في البداية أن نلغيها، ولكن عندما وجدنا الاهتمام الذي أثارته هذه الرسائل العاطفية في مستمعي الإذاعة، قررنا الاحتفاظ بها. مع حُسن إدارتها بالطبع. أراجعها، وأضيف، حتى لتلك التي تذاع، نصائح للعناية بالبشرة لم تكن مطلوبة. يتعين عليكِ القيام بنفس الشيء. سوف تخبرك ليليانا عن منتجاتنا بدقة أكثر. وسوف تتولى هي إجراءات كل ما يتعلق بسداد ثمن المساحيق المرسلة عن طريق الحوالات البريدية. بعد ذلك، يتعين عليكِ فصل تلك الرسائل التي يطلبون منك فيها إجراء تحليل للشخصية من خلال الخطوط كطلب ضمني عن الأخريات. لدينا خبيرة تفسر جيدًا مدلول تلك الرسائل وكيفية

الرد عليها وفقًا لطبيعة كل شخصية ومشاعرها. وفي هذه الحالات، وإذا لم يلتزموا بذلك، يتعين عليكِ تنبيههم أنه لكي يجري تحليل لخطوطهم إرسال أكثر من عشرين سطرًا مكتوبة بقلم حبر بسن من الصلب على ورق غير مسطر، مع الاسم والتوقيع في خاتمة الرسالة.

دونت نوريا ملاحظات في الدفتر بينما لم تكف دونيا ليونور عن الإيماء أثناء الحديث، وفي الوقت نفسه تسوية التنورة وبسط الشعر، وكأنها تود أن تعرف بمجرد اللمس كم شعرة لديها في كل خصلة.

- وماذا أيضا؟ فلنر! (تابعت السيدة فرومنت)، سيطلب منكِ كثيرون أن تردي عليهم من خلال رسائل، كما ستفعلين. ومع ذلك، إذا طلبوا منك إذاعتها في يوم محدد، فليكن جوابك أننا نعتذر لكثرة المراسلات التي تردنا أو شيء من هذا القبيل، وإذا ألحوا، يتعين عليكِ إضافة عبارة مثل «لا أستطيع إذاعة رسالتك العاطفية الرقيقة نظرًا لطبيعة محتواها». هكذا بكل وضوح. وإذا وجدت الأمر زاد عن الحد... فظيعًا بالنسبة لكِ، فتوجهي إذن إلى الأب بيلسيرميس، سيعرف كيف يوجهك لكي تردي بأفضل طريقة ممكنة. كما يمنع الرقيب أحيانًا، إذاعة بعض الرسائل ونضطر لملء الفراغ ببعض الموسيقى. يشتكون من تكرار خلفيات فرانتس ليهار[1] الموسيقية، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟ نسحب كل التبرعات التي يرفقوها في الظروف مسبقًا، ونجمعها وتتولى ليليانا توصيلها إلى المؤسسات الأكثر احتياجًا. أخبرك بذلك في حالة قراءتك لإشارة عنها. لا تخشي شيئًا بشأن مصير تلك الأموال! نفصل الطوابع عن الظروف ونتبرع بها إلى مؤسسة التبشير (Domund) تعرفين العمل الذي تقوم به الإرساليات التبشيرية في عالمنا المعذب هذا. من ناحية أخرى، أتمنى أن تشعري حقًا بالسعادة من كثرة الخير الذي تفعلينه من أجل الآخرين.

1. فرانتس ليهار (30 أبريل 1870 - 24 أكتوبر 1948) مؤلف موسيقي نمساوي مجري. عرف بتأليفه للأوبريات، التي كان من أشهرها الأرملة الطروب. (م)

انتابها في الحال شعور بالسكينة من خطاب دونيا ليونور، إلا أنه كان شعورًا عابرًا، لإدراكها أن الاستمرار يعني أيضًا تأكدها من مضيها، ربما بلا رجعة، نحو المجهول في قضية الأطفال المبتوري الأعضاء الرهيبة. شعرت بارتياح لأن هذا يعني بالنسبة لها أنهم لم يحصوا الرسائل، وبالتالي لم يعرفوا أنها اختلست واحدة منها. لهذا السبب فحسب.

– نعتبرك، سواء الأب بيلسيرميس أو نحن، شخصية لطيفة وفي منتهى الذكاء. نعتقد أنه سيكون لكِ مستقبل مهني باهر (أضافت).

أشعرت تلك الكلمات نوريا بالغبطة، لأنها وردت على لسان شخص يعتبر أن النساء يستطعن القيام بعمل أكثر من مجرد البقاء في المنزل انتظارًا لعودة أزواجهن كل يوم، وحتى في حالتها لم يكن الأمر على هذا النحو. أكدت دونيا ليونور أنه لا يوجد أي مانع من العمل يدًا بيد وعلى قدم المساواة مع الرجال، أو حتى أن يكون للمرأة حياتها المستقلة. لم يساور نوريا أدنى شك في أن كل سعة الأفق هذه مرجعها أسفارها المستمرة، وكذلك إلى عزيمتها. كانت امرأة متدينة، لاحظت ذلك منذ الوهلة الأولى، من طريقة تعاملها مع القس، حتى قبل أن ترى أسلوب ديكورات منزلها، إلا أن هذا لم يمنع تحليها بلمحة من خفة الدم.

تخيلت نوريا نفسها تحتسي ذلك المشروب هناك مع بورو نافاسكويس ومع دون أليكس، وقالت لنفسها ربما تأتي تلك الفرصة. تمنت أن تحدث، على الرغم من عدم معرفة السبب.

قالت السيدة فرومنت رافعة كأسها ناظرة حولها، وكأنها تتحقق من الرخاء الذي منحها المال إياه في حياتها:

– أتعرفين؟ لقد كنت شديدة الفقر. (لم تقاطعها نوريا). بدأ الرخاء مع ظهور أليكس. وقع في غرامي لأنني كنت جميلة، لهذا فحسب، لا يهمني الاعتراف بذلك. هناك فارق سنوات كثيرة بيننا، أتعلمين؟

كانا بالنسبة لنوريا من نفس العمر، ولكن لم تفصح عن ذلك لحسن الحظ: أوضحت لها ربة عملها أنه على وشك إتمام الخامسة والسبعين، في حين أنها لم تبلغ بعد السابعة والستين.

لم تستطع تحاشي التفكير في أنه بالرغم من تكريس كل طاقتها لذلك، يلاحظ على هيئتها أنها لم تعثر على نبع الشباب الدائم الذي تبشر به الإعلانات التي يكتظ بها برنامج إيلينا فرنسيس المستشار العاطفي برعايتها. كانت دونيا ليونور امرأة نحيفة، مترفة، لا تخطئ العين جودة ثيابها وأحذيتها، تتزين بساعة ذهبية والعديد من المجوهرات، إلا أن محياها تملؤه التجاعيد من كل نوع: مستقيمة، منحنية، غائرة، أخف حدة، من نفس درجة لون بشرتها، أخرى داكنة أكثر لتبدو ندوبا في اللحم، وفي بعض المناطق مثل الوجنتين وأسفل العينين تظهر عروقٌ داكنة الزرقة.

أنهت نوريا شرابها. ارتاحت لأنه بدلًا من التوجه إلى المائدة، قربت منهما الخادمة صينيتين عليهما مقبلات. قدرت أنه على هذا النحو سيستغرق الغداء وقتًا أقل.

- أتمنى أن تنال إعجابك، لقد أُعِدت توًا. الملفوفة في الورق المفضض محلّاة والتي في الورق الأبيض مملحة، سنتناولها مع نبيذ خيريث.

- كما سبق أن ذكرتِ من قبل، بعض الرسائل فظيعة، سيدة فرومنت (قالت نوريا فجأة وكأنها تريد أن تتأكد) تعاني نساء كثيرات من أمور رهيبة. أسوأ هذه الحالات هي التي تمس أبناءهن، هؤلاء الأطفال الذين يولدون مشوهين... (اختبرتها).

- هذا صحيح، نحن الذين أسعدنا الحظ بحياة رغيدة لا يجب أن ننسى أن الحديقة ليست كلها أزهار. أجد صعوبة في تجاهل تلك الحقائق. عشت مع والديّ في غرفة واحدة، لم يكن بها حتى فتحة تهوية، وانظري الآن هذه الشرفات، الصالة، التراس الذي يلف المنزل بالكامل، البانوراما...، من

هناك إلى هنا، بدون وسط.

- هل قرأتِ تلك الرسائل؟ (واصلت نوريا ضرباتها المتلاحقة).

- انظري! لا أحب الحديث عن ميزاتي، ولكن فلتعلمي أنني أتعاون بصفتي الشخصية مع الكثير من المؤسسات الخيرية! لا أقصد المال فحسب الذي يصل بفضل سخاء مستمعي برنامج المستشار العاطفي. أزور ملاجئ وأنا على دراية بكثير من المآسي. وأدرك أيضًا مدى أهمية الإيمان للمضي قدمًا. أعلم جيدًا ما أتكلم عنه. ولا يساوركِ أدنى شك في ذلك!

- لكن هناك حالات مروعة... (فكرت نوريا أن تريها ظرف الصور الذي تحمله في حقيبة يدها). حسنًا، قرأت البارحة... (توقفت بالتحديد وهي على وشك إضافة: في تقرير لشركة مستحضرات دوائية).. أن أمًّا وضعت طفلة ناقصة ذراعًا وساقًا. رفضت القابلة أن تقص لها الحبل السري، حتى تُقِر السيدة، التي اضطروا لإفاقتها بعدما فقدت الوعي، بأنها خرجت من أحشائها وأن يشهد على ذلك ثلاثة أشخاص حضروا واقعة الوضع، لكيلا تدعي فيما بعد أنهم غيروا مولودها في مستوصف الولادة. لم يخطر على بالي مطلقًا التفكير في أنّ الحبل السري هو بمنزلة تأشيرة مرور. سيدتي... لا أدري إذا كنت مهيئة لهذه الأمور. لا أعرف كيف أواسي إنسانًا عاني من فوره مأساة كهذه. لا توجد كلمات تجدي كترياق لذلك. (انتبهت على الفور أنها وقعت في الخطأ، لأن هذا قد يدفع دونيا ليونور لتصور أنها لا تصلح لذلك العمل. فآثرت الصمت).

- عزيزتي، لقد أصبحنا بالنسبة لأشخاص كثيرين بمنزلة مرشدهم الروحي، نورهم الهادي. إذا كانت مشيئة الله أن تكون هذه مهمتنا، فعلينا الاستمرار في هذه المهمة. بلا تخاذل. فكري في أن أمرًا مثل الذي أخبرتني به ليس معتادًا. حالة واحدة في المليون، إنه لأمر محزن، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل. تسلحي بالشجاعة وامضي قدمًا! سيكون ما تقولينه لهم، بالرغم مما

قلته، أفضل دومًا من لاشيء.

قدرت نوريا أنه إذا كانت ربة عملها تعتبر ذلك المولود حالة فردية، فلأنها تجهل وجود الكثير من الحالات الأخرى، بحسب ما قرأته في مستندات معمل المستحضرات الدوائية التي وصلت إلى صندوق بريدها. بالرغم من ذلك تسببت تفصيلة في إثارة شكوكها: نوهت بعملها المستمر مع الملاجئ. بالنسبة لنوريا، إما أنها تمارس العمل الخيري من بعيد، وإما أنها تكذب.

- أتعلمين أننا بدأنا بصالون تجميل؟ (أخرجتها السيدة فرومنت من تكهناتها بهذه المسألة البعيدة تمامًا)، ولم يكن هناك شيء أبعد من هذا العمل عن مجال زوجي أليكس، ولكن انظري! شيئًا فشيئًا، بدأ يرى إمكانياته، لأن هذا المجال المتعلق بالمساحيق لن يتوقف على الإطلاق؛ فالقبيحة تريد أن تصبح جميلة، والجميلة أكثر جمالًا. بالفعل، أقول لك الحقيقة عارية، فمثلما أن هناك طوالًا يوجد قصيرون، وبدناء ونحفاء، ويوجد جميلات وقبيحات، هكذا كان الحال دائمًا، وهكذا سيظل.

ابتسمت نوريا وشعرت بالسعادة لانتمائها إلى جماعة ممشوقي القوام.

- حياتي، كما أخبرتك سابقًا، كانت مثل حياة أية امرأة في هذه الرسائل. عانينا كثيرًا، والدايّ وأنا، من الجوع أثناء الحرب. أنقذه مرضه من الذهاب إلى الجبهة، ولكنه مات على أية حال. اشتغلت أمي بالحياكة ليلًا ونهارًا، ذهب نور عينيها لكي تشتري له دواء، اكتشفنا لاحقًا أنه لم يكن يعالجه بل يخفف آلامه فحسب، ولكن شيئًا أفضل من لا شيء. توفي من حمى التيفود بعد فترة وجيزة. كما تعلمين، كان من السهل الإصابة بها في الميناء. لم يكن بوسعنا فعل شيء. أصبحنا بمفردنا نحن الاثنتين. تصوري مدى سوء الحظ! لكن انظري! يجب عدم الاستسلام مطلقًا. كما أخبرتك أكاد أكمل السبعين من عمري، وظلت أمي على قيد الحياة حتى شهور قليلة مضت. تجاوزت

التسعين. آي، زوجي أليكس (ولم تكمل السيدة فرومنت تلك الجملة وكأنها أدركت أن زوجها أيضًا كبير في السن، ولكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها). لقد حالفني الحظ في كل شيء تقريبًا. والآن أخبريني، هل أنتِ مسيحية كاثوليكية؟

- نعم، بالتأكيد. (باغت السؤال نوريا).

- هل تذهبين إلى القداس؟ (ألحت دونيا ليونور).

- نعم، عندما لا يكون زوجي موجودًا خلال عطلة نهاية الأسبوع.

- من أين هو؟

- إيطالي.

- ياله من أمر مشوق.

تفاجأت نوريا من رد فعلها على هذا النحو.

- لا يلفت الأنظار كثيرًا، لأنه أمضى فترة طويلة هنا. لا أحد تقريبًا يعلم بالأمر. علاوة على أنه أسبن اسمه.

سمعت دقات ساعة ببندول في الطرف الآخر من المنزل، فوقفت السيدة فرومنت.

- حسنًا، عزيزتي، سعدت بقضاء هذا الوقت معكِ. يجب أن أنزل إلى المكتب. يروقني أداؤكِ. أتمنى أن تبقي معنا لسنوات طويلة (ابتسمت)، لأن هذا يعني أنه مازال أمامنا متسع من الوقت نحن الاثنتين معًا.

- أنا متأكدة أن الأمر سيجري على هذا النحو. أنتم قوم طيبون.

اصطحبتها دونيا ليونورحتى باب الشقة، وانتظرت في الردهة إلى أن أغلقت نوريا باب المصعد الحديدي من الداخل.

عندما مرت بطابق الميزانين تشممت عبق الكافور. كان باب المعهد مفتوحًا، ولكن ليس بما يكفي لكي تتحق إذا كان بورو نافاسكويس موجودًا

بالداخل. على أية حال، خرجت إلى الردهة. فاجأها صوت من خلف ظهرها.

- كيف سار الأمر؟ (كان بورو صاعدًا من القبو ممسكًا بحامل تراصت به عدة أنابيب اختبار). أخبرتني ليليانا أنكِ ستتناولين الغداء اليوم مع دونيا ليونور.

- نعم. لقد استمتعت كثيرًا بصحبتها. (كانت نوريا صادقة تمامًا لأن هذا ما شعرت به بالفعل).

- وهذا يعني أنكِ ستستمرين مع مراسلات برنامج المستشار العاطفي؟ (كان بورو حريصا على أن يتم ذلك).

- يبدو ذلك. (أخبرته وهي في منتهى السعادة).

- كم يسعدني! (احمر وجهها خجلًا من نظرة بورو المتفحصة). على الرغم من أن هذا كان متوقعًا. بحسب معرفتي بآل فرومنت، كنت أعلم أنك ستروقين لهم. (أضاف رافعًا التكليف بينهما، وراق نوريا أيضًا أن يخاطبها بهذه الطريقة لأول مرة). لكن أود أن تعلمي أيضًا أنه في مثل هذه الأمور الكلمة الأخيرة للأب بيلسيرميس.

- كان من الأفضل إذن أن تخبرني بذلك من قبل لكي أعرف كيف أتصرف، إذن لكنت وفرت الكثير من التوتر (أجابته).

تزايد شعورها بالثقة في التعامل معه أكثر فأكثر على الرغم من أنها لم تستطع الكف عن رفع الشعر المنسدل على جبينها لتعقصه خلف إحدى أذنيها، كانت اللازمة التي اعتادت تكرارها بكثرة. أزال الاثنان الكلفة في الحديث فيما بينهما بمنتهى التلقائية.

- يجب أن أنصرف لاصطحاب طفليّ، لكن أحتاج للتحدث معك مرة أخرى (قالت خافضة صوتها). إنه أمر عاجل.

- ماذا حدث؟ (سأل بورو بقلق. كانت الابتسامة قد فارقت نوريا).

- الجمعة (قالت) هل يمكنك الخروج مبكرًا؟ لا أريد العودة إلى منزلي متأخرة أكثر مما يجب. حتى ذلك الحين أريدك أن ترى هذه الصور (ناولته نوريا الظرف).

- هل يناسبك أن أنتظرك في كافيتريا سافوي؟

أومأت نوريا بالإيجاب وخرجت مسرعة في نفس اللحظة التي توقف فيها المصعد من خلفهما وفيه السيدة فرومنت. أتيح لها الوقت لتبلغ السلم المؤدي إلى المدخل قبل أن ينفتح الباب.

14

حل يوم جمعة ذلك الأسبوع سريعًا، ومعه فسحة حرية نوريا. وباتت تشعر بسكينة أكثر منذ ظهور أورسولا بفضل دورا بلومر في حياتيهما مجددًا. اعتبرت المرأة، أكثر من مجرد خادمة، مثالية، صندوق كنز يحوى الأشياء الثمينة، إمكانية الحصول على متنفس.

- ها هما. لا أدري ماذا تفعلين لهما؟ ولكنهما يستمتعان كثيرًا بصحبتك. (أخبرتها نوريا).

ودعتها أورسولا بابتسامة وسارعت بإغلاق الباب. لم يساور نوريا أدنى شك في أن تلك اللفتة ترجع إلى تعجلها في العودة لجهاز المذياع الذي كان ينبعث منه صوت مصطنع يقرأ إحدى رسائل مستمعات برنامج المستشار العاطفي الذي أصبحت مهتمة به بشكل كبير.

***

عقب استلام الصندوق من المختبر، التقت نوريا وبورو في تراس أول ميدان مطل على ساحة لاس رامبلاس. تبادلا التحية وسرعان ما استعجلها الكيميائي لكي تحكي له آخر المستجدات. كان آخر ظرف وصلها على الصندوق البريدي من الضخامة لدرجة أن نوريا حملته مطويًا داخل حقيبة يدها.

- أحتاج منك أن تقرأ هذا. (قالت وهي تناوله له).

أخرج بورو الرسائل المنسوخة على الماكينة من داخل الظرف وشرع في

قرائتها باهتمام شديد.

- أسوأ ما في هذا العقار المسبب للتشوه، وفقًا للمذكور هنا، هو أن أثره لا يزول بل ينتقل للنسل. وهذا يعني أن الخطر قائم من جرعة واحدة من تناوله لمرة واحدة، ويمكن أن يظهر في الجيل التالي أو الأجيال المتعاقبة. لم يثبُت ذلك كلية، ولكن هذا ما يُعتقد.

تعرف على الفور على خاتم معمل المستحضرات الدوائية، بمجرد الانتقال إلى الوثيقة التالية.

- أحد أصدقائي من المدرسة الداخلية يعمل هناك (قال متابعا تحديقه في تلك السطور).

كانت عبارة عن مذكرة داخلية تشير إلى أن بعض الأطفال ولدوا بتشوهات بشعة. وتفيد بأنه اعتبارًا من تلك اللحظة ستوضع هذه الحالات السريرية تحت الملاحظة. نظر إلى نوريا عندما وصل إلى الرسالة الأخيرة، ورأى لفتتها التي تنم على الألم.

- مازال هناك المزيد. انظر إلى هذا (ناولته نوريا بعض الصور). أحتاج العثور على أولئك الأطفال.

صدمته تلك الصور.

- نوريا، استمعي لي! أعرف شخصًا اعتقد أنه يمكن أن يساعدنا كثيرًا في هذا. على الرغم من...

جمعت نوريا الأوراق بعد أن راجعها بدون إغفال تفصيلة.

- هل ستساعدني؟ (ألحت).

- قلت لكِ. في كل ما تحتاجين. خاصة بعد أن رأيت هذه الصور...

- أشكرك.

- لا تشكريني! أنا أيضًا احتاج لمعرفة ما يجري. لا نستطيع أن نمضي

وكأننا لم نر شيئًا. تعالي، رافقيني! (أمسك بورو بيدها).

وعلى الرصيف المقابل، اعتبر المحقق أيضًا، أنه قد حانت اللحظة لإخراج الكاميرا من جيب سترته التي هي أكبر من مقاسه بنمرتين.

– لكن والآن؟ إلى أين؟ انتظر، حتى لا ننسى الصندوق! (لم تكن نوريا متأكدة أنها تفعل الصواب).

لم يفلت بورو يدها حتى عبرا إلى البولفار الرئيسي من ساحة لاس رامبلاس. ذُهل المارة على الجانب الآخر عندما رأوا شخصًا يصفق بمفرده. شعر جيوفري بالادري بأنه ارتكب خطأ بينما يراقبهما وهما يبتعدان.

استقل بورو ونوريا سيارة أجرة، وشعرا بالاسترخاء، كما لو أن ذلك من تأثير ذلك السقف المتحرك، الذي أظلهما وقرب أحدهما من الآخر في نفس الوقت.

– اهدئي! سوف نرى شخصًا تعرفينه.

– لا أعتقد. ستندهش أنني لا أعرف الكثير من الناس هنا في برشلونة بالرغم من السنوات التي أمضيتها هنا. ما أشد اختلافها عما كانت عليه عندما جئت إليها!

– من أين أنتِ؟

– من بيسبال. هل سبق أن زرت أمبوردان؟

– لا، عشت حياة رهبانية إلى حد كبير، ولكن منذ بضعة سنوات، عندما بدأت العمل، أحاول تعويض ذلك، بالتعرف على هذه المنطقة (قال بورو بواحدة من ابتساماته المتألقة).

– والآن بات من الصعب عليّ التعرف على الشابة التي كنتها. (حركت نوريا يدها من ناحية لأخرى وكأنها مروحة، ثم ضغطت جفونها بأصابعها). كم تغيرت الظروف! كنت أود عمل أشياء كثيرة...، لكن انظر! لقد حدث

عن المسار. ربما حين يكبر أبنائي...

- عيشي اللحظة، نوريا! لا تضعي خططًا طويلة الأجل إلى هذا الحد! من يدري؟ (قال بحزن شديد).

مرّا بعد ما يقرب من ربع ساعة داخل سيارة الأجرة، بمستشفى سانت بو وتابعا باتجاه حي لا ساجريرا.

أخبرها بورو، بعد نحو عشر دقائق بأنهما وصلا. كانا في سانتا كولوما تقريبًا. انحنت نوريا، بينما كان يدفع الأجرة، لكي ترى الخارج بصورة أفضل من نافذة السيارة. كان المبنى الذي توقفا أمامه كنيسة.

لفت انتباهها أن باب الدخول الذي بدا نفقًا، تعلوه فتحة تهوية زجاجية دائرية ذات عارضتين متقاطعتين على هيئة صليب، يشبه لوحة ساعة مستديرةً مُحيت منها علامات الزمن.

- هل سنعترف؟ (قالت محاولة تهدئة نفسها وإياه قليلًا).

- كما تشائين... (تابع بورو).

شعرت نوريا داخل المعبد أن البخور يلتصق بأنفها، وكأن يدًا تضعه فوقها لكي تجبرها على استنشاقه. تسمرت في مكانها. رأت بورو من ظهره يتقدم عبر الممر حاملًا صندوق الرسائل، وكأنه خُرجٌ مملوء بالطعام. بدا لها مهيبًا. لم تستطع، وسط تلك الأجواء، أن تتحاشى تخيله مرتديًا مسوح الكاهن. عندما بلغ المذبح، التفتت نوريا لتتأمل الهيكل الرئيسي: كان هناك نحو عشرين صفًا من المقاعد، وعليها ثلاث سيدات فحسب، وتفصل بينهن مساحات كبيرة يحركن شفاههن بالطريقة المتناغمة نفسها، بدون أن يصدر عنهن أي صوت، وكأنهن يتغنين بترنيمة تأتيهن من الخارج.

فتح بورو باب غرفة الصداري. عانقه الأب بيلسيرميس بحرارة كبيرة. كانا رجلين قويين في منتهى الفحولة. قد يتصور أي شخص أنهما أب وابنه،

لولا مسوح الكاهن. تسمر القس في مكانه حين رآها، ولكنه استجمع نفسه على الفور، وإن لم يكفّ عن التساؤل عن سبب تلك الزيارة، وبصفة خاصة عن سبب مجيئهما معًا.

- كيف حالك؟ (ثم أضاف لاحقا وكأنه غير متأكد من تذكر اسمها) نوريا؟

لم تدر على وجه الدقة كيف تحييه؟ وفي النهاية قررت مصافحته. لكن بورو أخذ بزمام الحديث:

- أيها الأب سابينو، إذا كنا قد جئنا إلى هنا، فذلك لأننا نحتاج الحصول على... مساعدتك في موضوع حساس.

- ما الأمر؟ سلفادور، هل ترغبان في تناول مشروب مرطب؟

تابع بورو.

- نحن بخير هنا، كلما زادت الخصوصية، كان ذلك أفضل.

- أنت تقلقني.

- الأمر وما فيه، يا أبتِ، هناك أطفال يولدون ناقصي طرف أو عدة أطراف.

بدا الاندهاش على القس.

- سلفادور، أنت تعرف، أفضل من أي شخص آخر، أنه لطالما كانت هذه المآسي موجودة، لأنك رأيتها في بعض رفاقك.

- هذه المرة مختلفة، يا أبتِ. يبدو أن هناك سببًا وراء ذلك.

- ولكن ماذا تقول؟ إن مجرد التفكير في ذلك يعد ضربًا من الجنون.

- يا أبتِ، لدينا تركيبة كيميائية وتقرير مفصل تقشعر له الأبدان أيضًا. وأسوأ ما في الأمر، أنه يبدو أن هناك حرصًا على ألا ينكشف الموضوع.

نظر إليه القس بقلق بالغ.

- إن ما تقوله خطير، سلفادور، هل أنت متأكد؟

- نحن شبه متأكدين، ولهذا نحتاج إليك. فكرنا في نيافتك لأن لديك معرفة عميقة بالمؤسسات الخيرية، مستشفى سان خوان دي ديوس، على سبيل المثال. يبدو أن عائلات كثيرة يتخلون عن أطفالهم لأنهم لا يتحملون رؤيتهم على هذا الحال. فهل يمكنك الاستعلام، ومعرفة هل وصلهم أطفال مثل الذين وصفناهم؟ سيخبرونك في الحال.

- نعم، هذا ما سأفعله (أجابه مهمومًا). اعتمد عليّ! ومع كل انشغالاتي التي تعرفها في الإبراشية وفي المدرسة الدينية، فإنني سأجد الوسيلة لتلبية ما تطلبه مني. تتفهمان، أنهم لا يتركون أي شخص يدخل هذه الأماكن، من أجل سلامة أولئك الأطفال البؤساء اللقطاء. سأطلب أسماء، وأسأل من أين أتوا، وأي شيء؟

- أشكرك يا أبتِ. لمرة أخرى، كنت أعرف أنك لن تتخلى عني. (قال له بورو معانقًا وأدركت نوريا أن ذلك كان بادرة امتنان عن معروف يرجع لسنوات).

15

سيدتي العزيزة:

ابني ليس من زوجي.

كان هذا مستهل أول رسالة تناولتها نوريا، وكأن المرأة التي كتبتها بحاجة لقذف تلك العبارة بملء فيها، بين الاستهلال والسطر الأول بدون مقدمات.

تزوجت من رجل يعمل في البحر. ولهذا السبب لا نتعاشر بشكل اعتيادي، ولكن عندما تأهبنا لتكوين أسرة، لم نتوقف طوال فترة تواجده على أرض ثابتة، على عادة قول البحارة. بالرغم من ذلك لم يفلح الأمر، وبعد إنفاق ثروة على الأطباء، بدا أنه لم يعد باليد حيلة، علمًا بأن زوجي أعطاني قدرًا كبيرًا من المال لكي أبحث عن أفضل المختصين، بينما رحل هو مجددًا، متمنيًا مثلي أن يحظى بالذرية بعد أن تجاوزنا سن الثلاثين والعمر يجري بسرعة أمام أعيننا. لم يكن أيٌّ منا يرغب في أن نبدو كجدين للطفل بدلًا من والديه، إلا أن الذرية لم تأتِ. أصبحنا أكثر هوسًا...، خصوصًا أنا. عشت في خيالات أرى نفسي فيها حبلى، أنظر لنفسي في المرآة وفي واجهات المحلات، وأبرز بطني، أجل، حينما لا يوجد أحد بالقرب مني. على عكس كل التوقعات، وعندما كنا على وشك الاستسلام، نجحت، ولاحظي، سيدتي، أنني لم أقل نجحنا. أخبرته من خلال الإشارات، بالنبأ السعيد، بمجرد أن رأيته على سطح سفينة الشحن التي يعمل عليها.

رسمت بيدي دائرة حول بطني. نزل من السفينة يكاد يجن من السعادة، ذهبنا للاحتفال في أحد الحانات. لم أذق للكحول طعمًا، لكن شرب هو لكلينا. الجيد في الأمر أن التواريخ تتوافق تقريبًا تقريبًا مع آخر إقامة له في قادش.

نظرت نوريا بصورة تلقائية لعنوان المرسل على الظرف.

نحن في منتهى السعادة، يا سيدتي، أخيرًا أصبحنا ثلاثة. ألاحظ الآن، على الرغم من أنه لم يعبر عن ذلك بنفس الحماسة، أن زوجي صار يحبه حتى أكثر مني. ننعم جميعًا بحمد الله بموفور الصحة. طفلي آية في الجمال. لدي صندوق صغير مملوء بأصداف البحر، يوجد أسفل منها كيسٌ ورقيٌّ استقرت بها رزمة من الأوراق المالية. المبلغ الذي أعطاني إياه زوجي من أجل العلاج الذي كان لابد منه. وتركناه للنهاية كحل أخير، لثمنه الباهظ مقارنة بباقي الحلول، إلا أن تصاريف القدر وفرت لي حلًا مجانيًا. فكرت في شراء هدية لزوجي البحار، ولكن إذا كانت باهظة الثمن، فسوف أضطر لتبرير من أين جلبت كل هذا المال. ربما أدعي أنني ربحت اليانصيب، لأنه بصورة ما، الأمر كذلك بالفعل. أو أشتري له، أفضل من ذلك، عدة هدايا بثمن أقل بدلًا من هدية واحدة.

إي، يا سيدتي، لا تقولي إننا من قادش، أو إن زوجي يعمل على سفينة، أو إن الطفل رائع، أو إنني قابلت هذا الطبيب اللطيف. من الأفضل ألا تقولي أي شيء، لا أدري لماذا كتبتُ لكِ. حسنًا، نعم أعلم لماذا؟ لأنني احتاج مشاركة أحد مدى سعادتي، رجاء اكتمي سري! فلا أريد أن يبث في المذياع. يراودني شعور بالندم أحيانًا، وبعد ذلك وكأني مجنونة، أتخيل أن إحدى صديقاتي تطلب مني بيانات الطبيب لتذهب إليه هي أيضًا. إي، لا أدري، إنها أمور تحدث.

أعتقد أنه من الأفضل أن أستمتع بسعادتي، أليس كذلك؟ ألا تعتقدين ذلك؟ وتناسي مشاعر الندم هذه. لا يمكن، أولًا وأخيرًا، أن تسير الأمور تمامًا على هوى الواحدة منا، ولكن بالرغم من ذلك، العبرة بالنتيجة. وتعتبر النتيجة في هذه الحالة جيدة للغاية: زوجي يحب الطفل بجنون وأنا مستمتعة كثيرًا برؤيتهما معًا. وسأقول لكِ شيئًا آخر: أعتقد أنه أصبح الآن يحبني أكثر.

ولكِ من نجمة البحار أحر التحيات.

مرفق لديكم طيه تبرع بقيمة خمسة وعشرين بيزيتا لصالح الأطفال الفقراء.

جعلت هذه الكلمات الأخيرة نوريا تبتسم. حصل الجميع في النهاية، وبالرغم من الخديعة على ما أرادوا. استلقت دافعة ظهر المقعد إلى الخلف ليستند على الساقين الخلفيتين فحسب، وتأرجحت عدة مرات. وكانت تدرك ما تعنيه تلك الحالة، ولكن بمقارنتها بالمآسي الكبرى التي تصطدم بها كل يوم، بدت لها مسألة أبسط.

قررت نوريا تهنئتها على طفلها (حدثت نفسها أنه لطالما كان ميلاد طفل سليم معافًى سببًا للسعادة، ولم تستطع تحاشي أن تقفز إلى ذهنها صور الأطفال المشوهين). ودت أن تقول لها إن طبيب النساء هذا يبدو لها محترف حقيقي، وكأنها قرأت تلك السطور بشكل عابر، متمنية لها أن تتمتع بموفور الصحة وأن تركز على تربية طفلها، وأن تجعل منه فتى صالحًا لعله يصبح في المستقبل ربان سفينة كما تتمنى من صميم قلبها. اعتبرت أن هذه العبارة الأخيرة نمطية للغاية، ولكن لم تغيرها، قالت لنفسها، قليل من الرقة لا يضير.

اختتمت ردها على الرسالة متمنية لها التوفيق في المراجعة التالية التي ستضطرها للجوء مرة أخرى لاستشارة ذلك الطبيب، الذي لطالما برهن

على استعداده الكبير لمساعدتها. وجدت داخل الظرف صورة للطفل. بدت لنوريا من مجلة إلا أنه لم يكن بجمال طفلها مارك.

تذكرت حينئذٍ تدخل الأب بيلسيرميس في الرسائل. فكرت أنه ربما سيستدعيها بعد تلك الرعونة للجلوس على كرسي الاعتراف. فلتجرب! سيبقى ذلك السر المتعلق بالطفل بينهما وبين القس. راقها هذا الشعور بالتقارب مع شخص على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لبورو. تمنت هي أيضًا أن يتواطأ معها؛ فإذا كان قد سمح بإرسال تلك الرسالة، فربما يعني هذا أنه ترك تلك الأمور لتقديرها، وأن مراقبته على البريد الذي يتم انتقاؤه بالفعل لم تكن بهذه الصرامة. في النهاية كانت الرسالة موجهة لشخص واحد وليس إلى كل كتالونيا، وهي على ما يبدو كل جمهور برنامج المستشار العاطفي على موجات إذاعة راديو برشلونة، فإذا كتبت إليها تلك المرأة من قادش، فمن المرجح أن ذلك يرجع إلى أنها قد سمعت بالبرنامج وبردوده على الرسائل من خلال أحد معارفها على غرار ما حدث في حالات أخرى. فكرت نوريا أيضًا في أن تراخي بيلسيرميس ربما يعني أنه انخرط جديًا مثلهم في مسألة الأطفال المبتوري الأعضاء.

يتمثل القاسم المشترك بين تلك القصص، الشريرة والأقل شرًا في أنها تسلط الضوء على الجوانب الخفية من مجتمع الاستعراض حيث تسود المظاهر، ويعرض فقط كل ما له بريق: النظام، والصيغة الرسمية التي ترويها كل يوم أحد نشرة جريدة السينما الوثائقية التي كل شيء فيها متألق، والشوراع، ورجال السياسة في مراسم الافتتاح، وابتسامات الأطفال كأنها إستراتيجية تهدف إلى التعتيم على المنفذ إلى كل ما تراه نوريا أمام عينيها المفتوحتين على اتساعهما أكثر من أي وقت مضى، والعليات، والأقبية في كل منزل وكل عقل حيث تخزن الأشياء الأقل قيمة، كل ما نحتاج لإخفائه عن الآخر. يُنتقى محتوى البرنامج الإذاعي بنفس المعايير. يقرؤون رسائل مثل

تلك التي تتناول قضية الشاب الذي يريد أن تكون له لحية مكتملة، تحث شابة على ألا تعصي خطيبها الذي لا يسمح لها بالتبرج، أو رسائل أخرى لمستمعين يسألون عن محل ميلاد أحد القديسين، أو يطلبون وصفات لإطالة الشعر أسرع، وغسول منشط لتنعيم البشرة. يتخلل كل ذلك فواصل تضمن إنشاد أشعار ومقاطع موسيقية طويلة، في الغالب، ومكررة من أعمال فرانز ليهار الموسيقية، مؤلف الأوبرات النمساوي المجري.

تردد صدى صوت سقاطة البوابة الرئيسية بمنزل مولاي حفيظ في جميع أرجاء الفناء والسلم ليُخرج نوريا من تأملاتها. أطلت من النافذة لترى إذا كان البستاني موجودًا بالقرب من سور حديد المدخل، ولما لم ترَ أحدًا لم تجد بدًا من النزول لتفتح بنفسها.

- سأصعد فورًا، ميريا. لا يغب شقيقك عن عينيك!

- نعم، يا مامي، لا تتأخري (قالت الطفلة بنوع من عدم الثقة كما لو أنها سترحل وستتركها بمفردهما).

عبرت نوريا المرجة الخضراء المعتنى بها بصورة فائقة وكأنها فراء حيوان وليس مجرد بساط أخضر.

- بورو، ماذا تفعل هنا؟ كيف عرفت عنوان مسكني؟

- اضطررت للتحري قليلًا بين أوراق السيد فرومنت. بالمناسبة، أتودين معرفة الملاحظات التي دونوها عنكِ في يوم المقابلة؟ لكن بالطبع، لا أستطيع أن أخبرك لأن هذه المعلومات سرية.

- نعم، لكن أنت تستطيع قراءتها. كما لا تستطيع إخباري إذا كانت هناك «*نوريات*» أخريات تحرزن الرسائل.

- كل شيء في توقيته المناسب. يجب أن نذهب إلى هذا العنوان. (ناولها بورو ورقة).

- الآن؟ وأبنائي؟

- فليأتوا!

- لا أدري.

جعلته نوريا ينتظر في البهو. داعب بورو الكرة التي تتوج حديد الفرندة اللامع، وأخذ ينظر إلى كل شيء وكأنه في متحف. نزلت نوريا على الفور، واستقرت في سيارة الأجرة حيث كان ينتظر زميلها في العمل.

- مرحبًا، سنيور ميكو (قالت ميرييا).

- هذا مرتجل بالفعل (خاطبته نوريا وهي جالسة والطفل في حجرها).

- أخبرني الأب بيلسيرميس بأن نذهب إلى هناك قبل أن يندموا على استقبالنا.

- هل هو أبوك؟ (سألته الطفلة).

- إلى حد ما، يا صغيرتي. (ثم وجه خطابه إلى نوريا مرة أخرى): عثر في أحد الملاجئ على طفل بالمواصفات التي أخبرناه به.

16

وصلوا بعد أكثر من خمس دقائق بقليل عبر جادة وادي الخليل. نبهها بورو:

- ملجأ وقف آل ريباس.

رأت نوريا خمسة عنابر مصفوفة يتميز أوسطها بمنحوتة، تنتصب فوقها ساعة يعلوها جرس. تعتبر الإبراشية المركز المحوري وتتكرر حولها مبان متماثلة يمينًا ويسارًا. يوجد أمام الكنيسة ملعب كرة قدم، وبه مدرجات حجرية على كل جانب.

- لم يوفق الأب بيلسيرميس في جعلهم يكشفون له عن الجهة التي جاء منها الطفل. لا أعتقد أننا سنكون أكثر حظًا.

- يمكننا التفكير في أمر ما، لن نرحل خاويَي الوفاض.

خاطب بورو، بمجرد وصولهم إلى بوابة الاستقبال، شخصًا كان يقرأ إحدى روايات رعاة البقر من تأليف سيلفر كين[1].

- الأب بيلسيرميس اتصل ليخبركم بقدومنا.

نظر الشماس إليهما، وبعد ذلك إلى الأطفال، ثم نظر في الحال إلى دفتر التسجيل.

1. فرنسيسكو جونزاليس لديسما، (1927 - 2015) كاتب إسباني من برشلونة نشر أكثر من ألف قصة مصورة تتناول مغامرات رعاة البقر وكان يوقع باسم مستعار هو سيلفر كين (م)

- هذا صحيح. تفضلي معه، أما الأطفال فلن يدخلوا. (رفع سماعة لإجراء اتصال داخلي).

ظهرت راهبتان. عرف بورو من مسوحهما أنهما من أخوية راهبات المحبة.

- سيبقى الصغيران معي. لا نسمح بدخول أطفال من الشارع إلى مراكزنا. (بدا غريبًا بالنسبة لنوريا حديث الراهبة عن طفليها بهذه الطريقة). يجلبون الأمراض. النظافة هنا بالغة الأهمية، هذا بالإضافة إلى التطعيمات.

- حسنًا، لن نتأخر (قالت نوريا وكأنها متيقنة من ذلك).

قادتهما الراهبة الأخرى إلى مكتب كبيرة الراهبات. كانت الحجرة مكسوة ببلاط منقوش بزهور كبيرة. والأثاث مصقولًا بعناية لدرجة أنه يشع بريقًا وكأنه من المعدن وليس من الخشب. كان هناك مذياع طوله نصف متر موضوع عليه دمية ترافق نوعًا من الجنيات. تساءل بورو إذا كانت تلك المرأة تستمع أيضًا لبرنامج المستشار العاطفي الذي يقدم برعاية آل فرومنت. عُلق بعرض الجدار إلى آخر الحجرة علم إسبانيا ومن فوقه صليب يعلوه صورة فرانكو. يكمل ديكور المشهد بعض الصور والمزهريات التي تحوي ورودًا طبيعية وبعض الكؤوس الرياضية. عقب المصافحة، اصطحبتهم مديرة الملجأ في جولة عبر القاعات. جميعها تحت إشراف راهبات العذراء المقدسة.

قالت نوريا بدون أن تتمكن من السيطرة على نفسها وهي تنظر إلى اللافتة المتكررة في كل قاعة:

- إنه ملجأ أيتام.

- هذا صحيح، لكي يعلموا أن لديهم أمًا خالدة لن تتخلى عنهم، وسوف ترعاهم من السموات. (قال بورو متنهدًا).

شاهدا أيضًا اللوحات معلقة على حوامل الرسم حيث يرسم الأطفال، خرجوا إلى ممر عرضه خمسة أمتار على الأقل، حيث توجد أقواس على الجانب المؤدي إلى الحديقة الرئيسية، مقاعد، ستائر متوسطة الطول وأسقف مموجة.

- سنصل في الحال إلى مكان الأطفال حديثي الولادة. (قالت الراهبة، ولكن قبل ذلك فتحت بابًا). انظرا! قاعة الأنشطة (كان يبدو عليها الرضا عن وضع ذلك المبنى وعمله. علاوة على ذلك، وعلى عكس نوريا، لم يكن يبدو أنها في عجلة من أمرها على الإطلاق.

أطلوا على قاعة مليئة بمقاعد كنسية وتنتهي بخشبة مسرح. كانت الإبراشية التي رأوها من الشارع، أكثر زخرفة وأبّهة مما هو متوقع بالنسبة لملجأ. كانت جميع تماثيل الشخصيات المقدسة صغيرة الحجم، وكأن الغرض من ذلك أن يتمكن الأطفال بهذه الطريقة من أن يروها مماثلة أكثر لهم.

قطعوا حجرتين مليئتين بالدواليب والسحارات وبعد ذلك حجرة النوم ذات أسرة معدنية مطلية. كانت كثيرة إلى حدّ يوحي بأن القاعة التي تضمها بلانهاية. الحال نفسها في حجرة الطعام مع الطاولات، تكفي الواحدة منها سبعة أفراد. يوجد أيضًا صالون حلاق. بدا غير ملائم، وأغرب من ذلك ما قالته تلك المرأة:

- نجري هنا عمليات استئصال اللوزتين، وهكذا لا يدرك الأطفال ذلك إلى أن يصلوا.

- ولكنهم يخبرون بعضهم بعضًا (قال بورو بحكم خبرته عن الإقامة في تلك الأماكن).

- نعم. ولكن عندما يصابون بالتهاب اللوزتين نحضرهم وهم لا يعرفون إذا كانوا هذه المرة سيقصون شعورهم أم سيستأصلون لوزاتهم. بعد ذلك بعض اليود، والبوظة المثلجة، وفي غضون بضعة أيام يعودون أفضل مما كانوا.

دخلوا للاغتسال في المطبخ. ذلك المبنى بلا نهاية: مازال متبقيًا جناحان آخران، للمغسلة وقاعة الكي، والغلايات... رأوا حجرة الطبيبة عندما فتحت الراهبة الباب التالي. يوجد بها ميزان، لوحة اختبار شنيلين لقياس

حدة الإبصار، عدة أرفف مرصوص عليها بعناية أدوات الجراحة وخزائن إسعافات أولية ذات أبواب زجاجية. تطل نوافذ حجرة الرعاية الطبية على بستان مترامي الأطراف يتزودون منه. تضايقت نوريا عندما رأت ميريبا تعدو بجوار الساقية، بالتحديد عند بدايات خطوط زراعة بعض الخضرة. أمسكت بيدها على الفور الراهبة الموكلة برعايتهما. وذعرت حينما لم تجد مارك معهما. جذبها بورو من الكم عندما اقتربت راهبة أخرى تحمل طفلًا مستدير الوجه ملفوفًا في منشفة.

- تفضلا. هذا هو الرضيع الذي أخبرنا الأب بيلسيرميس أنكما ستأتيان لزيارته. أخبراه أنهم سوف يحضرون لنا طفلًا آخر الأسبوع القادم حدث له الأمر نفسه تقريبًا. إنه محتجز الآن في مستشفى الولادة لأنهم ظنوا أنه وُلد ميتًا من حالة الضعف التي كان عليها. وانظروا كيف انتبهوا إلى أنه مازال يتنفس! حينما ركل أحد العاملين، بدون قصد، الدلو الذي كانوا قد وضعوه أسفل سرير أمه، وجدوا حينئذٍ أنه يتحرك.

- أخبريني، أيتها الأخت. على مدار كل تلك السنوات هل سبق أن رأيتِ شيئًا كهذا؟ (سألها بورو بينما يتجه الأربعة إلى مكتب كبيرة الراهبات).

- أنا هنا منذ فترة ما بعد الحرب، وأود أن أقول لك إنها أول مرة يحضرون فيها طفلًا بهذه الحالة. لا أدري ماذا سنفعل معه ومع الذين سيأتون على شاكلته عندما يكبرون، أين سنضعهم؟ يشق الجميع تقريبًا طريقهم. نحن سعداء بنجاحاتنا، ولكن من يدري - فتحت بابًا يحمل لافتة شديدة التقشف مكتوبًا عليها «الإدارة».

- أيتها الأخت دروسيلدا، اكشفي الطفل لكي يرى هؤلاء السادة مأساته.

وضعته فوق المنشفة في وسط مكتب كبيرة الراهبات. باستثناء الجذع لم يكن لديه أي جزء سوي؛ فبدلًا من الذراعين نبت له في الأكتاف نوع من الزهور اللحمية، يرتعش إصبعان في إحداها أما الأخرى فلم يكن بها أية

أصابع. كانت إحدى قدميه شبه مكتملة النمو ملتصقة بالفخذ والأخرى لم يكتمل نموها، وتكاد تكون إلى داخل الجسد.

أدارت نوريا رأسها، فيما يشبه رد الفعل العكسي، لأنها لم تتحمل النظر إليه. جذبها بورو نحو صدره بينما لم يستطع الكف عن التفرس فيه. خاطب المديرة قائلًا:

- أيتها الأخت، لا أدري إذا كان الأب بيلسيرميس قد أخبركِ بأن مهمتنا ذات طابع علمي. (كان قد تمكن من استعادة رباطة جأشه قليلًا). لهذا الغرض أجدني مضطرًا لأن أطلب منكِ أن تسمحي لي بالتقاط صورة.

- تفضل! ليس هناك أي ضرر على الإطلاق.

أخرج آلة تصوير سوداء تحمل لوحة معدنية على شكل معين من المعدن منقوش عليها علامة أجفا. تحاكي الأجزاء غير المعدنية بها جلد التمساح.

- إنها من أجل تقرير نقوم بإعداده. آمل أن يكون بحثنا مفيدًا لكم في المستقبل.

- كل ما من شأنه مساعدة هذا المخلوق المسكين... أخبرنا طبيب المستشفى، أن نموه بدون أطراف سيتسبب له في مشكلة إضافية أخطر، فعلى ما يبدو نحن نضبط حرارة الجسم من خلال الذراعين والساقين، وبناء عليه انظر: هذا الصغير يشتعل من الحمى.

أمسكت الراهبة بيد بورو ووضعتها على صدر الطفل. أرادت فعل الشيء نفسه مع نوريا، ولكنها تمنّعت. لم تكن تقوى على لمسه. كانت متأكدة أنها لو مست بشرته لذرفت دموعها. أما بورو فضغط على جفنه السفلي بإبهامه والسبابة.

- حسنًا أيتها الأخوات، هذا كل شيء حتى الآن. نحن في غاية الامتنان لموافقتكن على استقبالنا. آمل أن نتمكن جميعًا من التوصل لعلاج لهذه الآفة.

(كان يود قول المزيد). لا يسعني إلا تهنئتكن على عملكن. نشأت في مكان مشابه لهذا. لقد عاودني حنين الذكريات. نظرت إليه نوريا بحنان. فكرت أنها لم تسأله مطلقًا عن تفاصيل كثيرة عن حياته.

- سؤال أخير فحسب من فضلك، أيتها الأخت (قال بورو)، ماذا تعرفن عن والدي هذا الطفل؟

- حتى لو كنت أعرف، لا أستطيع تزويدك بتلك المعلومات. حاول أن تستوعب أننا في بعض الأحيان نسجلهم بأنفسنا لدرجة أنه حتى السجل المدني لا يعرف بوجودهم.

- أستوعب. ولكن هل جاء من هنا، من المدينة؟ (ألحّ).

- كما قلت لك، إنه أمر لا أستطيع الإفصاح عنه.

- لكن لديكن سجلاتكن (تدخلت نوريا).

- بالطبع وبالتفصيل، ولكن أكرر لكما أن الأمر سري.

تبادلت نوريا مع بورو نظرات الإحباط. خاطبت نوريا المديرة قائلة:

- أيتها الأخت، أدرك أنه من منتهى سوء الأدب، وأرجو أن تغفري لي ذلك، لكن أود أن تخبريني بمكان الحمام. سيكون من الأفضل لي أن أنعش نفسي قبل رحيلنا. أشعر بتوتر كبير.

- حسنًا، الأمر لا يستدعي (قالت بينما تومئ بإشارة إلى إحدى مساعدتيها لكي ترافقها).

تبعت نوريا واحدة من الراهبات وتظاهرت بالتعثر عند مرورها إلى جوار بورو. أمسكها على الفور لكيلا تقع على الأرض.

- نوريا، هل أنتِ بخير؟

- احصل على هذ العنوان بأي طريقة (همست نوريا في أذنه قبل أن تنفصل عنه). لا شيء. لقد انزلقت قدمي. (قالت بعد ذلك بصوت مرتفع).

رآها بورو تخرج في منتهى الارتباك.

- لا تقلق! أمر طبيعي أن تتوتر، بمجرد أن تنتعش وتحصل على بعض الهواء النقي ستشعر بأنها أفضل (أخبرته المديرة).

- نحتاج لمعرفة من أين جاء هذا الطفل.

فتحت المديرة فمها لتجيبه لكن، سمعوا في تلك اللحظة صراخًا. خرجت الراهبات عدوًا. تظاهر بورو بالجري أيضًا خلفهن، ولكنه عاد أدراجه.

انفجرت نوريا في نوبة صراخ وأخذت تضرب في الوقت نفسه باب الحمام بكل قوة.

- لا أستطيع الخروج! أنا هنا! أخرجوني من هنا! اكسروا الباب! افعلوا شيئًا! سوف يلدغني! آآآآآه. إنه ضخم. أين أنتم؟

التفت بورو بحذر نحو الممر. تردد. حاول استعادة رباطة جأشه وفتش في أدراج طاولة المديرة. عثر في إحداها على حافظة ملفات. أخرج بعض الملفات، إلى أن عثر على ملف مكتوب عليه «سجل المقبولين». تزايدت نبرة اليأس في صرخات نوريا أكثر فأكثر:

- سأموت! لقد التف على ساقي!

نظر بورو إلى الخارج مرتبكًا. لم يكن يدري إذا كان يتعين عليه الإسراع لنجدتها. بحث سريعًا بين الأوراق إلى أن عثر من التاريخ على ضالته، التقط قلم رصاص وورقة، نقل المعلومات، وبعدما أعاد كل شيء إلى مكانه خرج عدوًا نحو نوريا. سمعها تقول في تلك اللحظة:

- آه نفسي سينقطع!

أبعدت كبيرة الراهبات الراهبة الأحدث سنًا التي كانت تضغط بقوة على مقبض الباب: دعيني أنا. (بعد أن ابتعدت لمسافة متر، انقضت على الباب بكل قوة جسدها. زحزح وزنها الذي يقترب من المئة كيلو جرام

الباب سنتيميترًا واحدًا بالكاد من إطاره ليعود مرة أخرى لموضعه ويظل مغلقًا). هل أنتِ بخير؟

- لا يا أختاه. ألتزم الصمت لأن الثعبان ينظر إليّ. يتحرك الآن. يمر بين ساقيّ. لا أستطيع أن أتحمل أكثر. اقضوا عليه!

- دعيني أساعدك (قال بورو وهو ينضم إلى المديرة).

انقض الاثنان على الباب وسمعوا قرقعة الخشب. وانفصل القفل بالمسامير. كانت نوريا متكورة على نفسها في أحد الأركان وتحيط ركبتيها بذراعيها.

- أين هو؟

- انظري ذيله. لقد فرّ إلى فتحة الصرف بالحمام! كدت أموت من الخوف.

نظر بورو نحو فتحة الصرف ثم إلى نوريا.

- هيا يا عزيزتي! لم يكن شيئًا. يكثر حدوث مثل هذه الأشياء في قلب الريف. ألا ترين أنه يوجد الكثير من السواقي، لابد أنه زحف من فتحة الصرف. لقد رحل. (قالت لها كبيرة الراهبات بينما تربت على رأسها التي وضعتها على كتفها. تشي هذه الحركة بأنها اعتادت على التعامل المستمر مع أطفال).

رحلت الراهبات الأخريات. وحملن الطفل معهن.

- سأرافقكما بنفسي حتى باب الخروج.

قالت المديرة للبواب عندما وصلوا إلى بهو المدخل:

- لقد تسللت حية. من الأفضل أن تتحقق من بالوعة ذلك الحمام وباقي الحمامات بالمرة.

أومأ البواب بالإيجاب مندهشًا، وذهب صوب الحمامات وهو ينظر بأسى إلى الشطيرة التي ترك نصفها على الطاولة.

- هل أنتِ على ما يرام حقًا؟ (سألتها المديرة بقلق).

- نعم، لم يحدث شيء (قالت نوريا بخجل حينما رأت انزعاج تلك المرأة) مجرد الخوف.

نظرا، بعد أن خرجا إلى الشارع وصافحاها مودعين، إلى ساقي ميرييا وجواربها المشغولة يدويا، وحذائها، وأسلوب تحريك يديها. بدوره كان مارك يرد على بادرات الحنان من جانب الراهبة بكلمات مكسرة.

- هيا بنا ميرييا! سنرحل. شكرًا، يا أختاه، على الاعتناء بهما. لقد كان لطفًا كبيرًا منكِ. (قالت نوريا وهي ترفع الصغير بين ذراعيها).

كانت سيارة الأجرة نفسها تنتظر عند الباب. التفتت نوريا إلى بورو بمجرد أن استقر الأربعة بالداخل، وسألته:

- هل استطعت معرفة من أين جاء الرضيع؟

- نعم. (قال بورو وهو يخرج من جيبه الورقة التي دوّن بها العنوان). لكن أخبريني المرة القادمة حينما تقدمين فيها على شيء كهذا. كدت أصدقكِ وأضيع كل شيء.

- لم يكن ممكنًا أن ننصرف خاويي الوفاض. ياللطفل المسكين! ما أصعب ما ينتظره! بوسعي تخيل شعور أمه عندما رأته. إذا كنت أنا قد تأثرت إلى هذه الدرجة....

- من، يا مامي؟ ماذا حدث؟

17

عند منتصف النهار، أبلغ بورو، ليليانا بأنه لن يعود لمعمل مستحضرات التجميل بعد الغداء. انتظر نوريا منذ الخامسة تمامًا أمام مصنع نسيج (كان باتلو) ولم تأتِ إلا بعد الموعد بنصف ساعة. كانت في غاية الانفعال ووجنتاها مشتعلتان.

- معذرة على التأخير، اضطررت لتسليم الرسائل قبل المجيء. لا أعلم كم من الوقت سنتأخر هنا ولم يكن بوسعي المجازفة لربما ترحل ليليانا مبكرًا. كيف شرحت الأمر لآل فرومنت؟

- لا تقلقي! (قال بورو ناظرًا إلى توهج خديها، وضغط تنورتها المحبوكة على ساقيها، والشعر السابح في الهواء، وشفتيها. فسألها على الفور لقطع السبيل على تلك الأفكار، عن صندوق الخطابات.

- تركته في المنزل قبل المجيء. هيا بنا!

أومأ بورو بالإيجاب، واتجها إلى محطة ماجوريا. تراصت على مقربة من جادة جران بيبا أكواخ مشيدة من صناديق البضائع على الأرض الترابية بأسقف من الأسمنت الليفي أو الكارتون المكسو بالجلد. كان بعضها أكثر صلابة لأنها أقيمت فوق الركام. يعبر أمام تلك البيوت المتهالكة الكثير من النساء والأطفال يحملون الدلاء. اصطف إلى جوار صنبور عمومي نحو عشرين شخصًا. أظهر لهم بورو الورقة وبها الاسم والعنوان الذي نقله من مكتب كبيرة الراهبات بملجأ وقف آل ريباس.

- نعم، يا رجل، إنها ثيبيليرا، ابنة أخت ماريا، ستعود بمجرد أن تنطلق صافرة المصنع. انتظراها هنا إلى جوار المصطبة! (قالت مشيرة إلى برميل سولار مشطور من منتصفه ومقلوب لأسفل). إنه آخر خُصٍّ في هذا الطريق.

لم تقل نوريا شيئًا، منذ أن توغلا في خضم ذلك البحر من البشر، وكأنها متواجدة في عالم آخر تجهل لغته.

- هناك أماكن أسوأ (قال بورو، بعد أن لاحظ قلقها) أسفل مكب نفايات قلعة الجبل عندما تمطر يسقط كل شيء فوق رؤوسهم. ولا أدري إن كنت سمعتِ بمنطقة سوموروسترو، بين مستشفى الأمراض المعدية ومصنع غاز ليبون. يعيش سكان ذلك الحي العشوائي الملاصق للشريط الساحلي تحت رحمة التقلبات الجوية. انظري! على العكس من ذلك، البساتين هنا...

كان الأطفال يركضون حولها حفاة بوجوه متسخة وثياب رثة.

- يعيش آخرون في كهوف مليئة بالبق عند الجادة التي تقسم طريق الامتداد الحضري. (سمع بورو صوت حوافر حصان فجذب نوريا من ذراعها ليبعدها كي تمر عربة الجر المحملة بأوعية التخزين. بعد ذلك لم تفلت يدها. كانت بحاجة إلى التشبث به لكي تشعر بأنها قادمة من مكان آخر حقيقي، ولكن مختلف تمامًا). يهرعون عندما يثور البحر لكي يلتقطوا الأشياء التي يجرفها إلى الشاطئ لكي يشيدوا منازلهم.

مرا بجوار بركة آسنة بين الصنبور العمومي والمنزل الذي يبحثان عنه. أخرجت نوريا منديلًا من حقيبة يدها ونثرت عليه عطرًا من زجاجة ذات بخاخ صغير للغاية. قربته من أنفها ثم ناولته لبورو.

- لا، لا تقلقي! أنا معتاد على أي شيء. يسمونها برك التيفويد. (نظر إلى الطريق الذي تركاه وراءهما، وخُيّل إليه أنه شاهد رجلًا ذا حلة داكنة يختبئ خلف سور أحد الحقول.

فكر في الذهاب إلى هناك، لكن لم يكن يريد إزعاج نوريا، التي بدأت تتكلم أخيرًا:

- لم أكن أعرف أن هناك أشخاصًا يعيشون هكذا في مدينة برشلونة نفسها، كم من الأحلام دفنت هنا، أليس كذلك؟ كم من البشر جاؤوا ليحققوا التقدم وعلقوا وبالكاد يجدون القوت الآن. (نظرت نوريا إلى الماء الآسن) كثير من الناس لا يعلمون. ليست أماكن محببًا النظر إليها. بعض هذه الأحياء، مثل (كان كلوس)، مخبأة وسط ركام الحجارة، وهنا بدؤوا هدم الكثير من هذه الخِصاص لإعادة توطين سكانه. لحسن الحظ أنها لم تمطر، وإلا تحول هذا المستنقع إلى أوحال. انظر! هل تعتقد أنها ستكون هي؟

شردت نوريا مع صوت جيتار. ونظرت إلى المرأة التي تسير باتجاههما. توقفت أمام بائع سمك ظهر على يمين الطريق، وبعد أن دفعت له مقابل لفة ورقية مضت في الاتجاه نفسه.

- أتدرين بماذا أخبرني الأب بيلسيرميس؟ (تابع بورو حينما أدرك أن عليهما مواصلة الانتظار). بأنه يوجد هنا في (ماجوريا) شخص يطلقون عليه الكتالوني. تخيلي! يبدو أنه الوحيد الذي لم يأت من خارج الحي.

- كيف تعرف كل ذلك؟

- هل أدهشتك؟

ثبتت نوريا نظراتها على عينيه التي بدت زرقتهما لانهائية.

- لا، إلا أنك أثرت فضولي (أجابته وهي تضم كتفيها لأعلى[1]).

- سبق أن أخبرتكِ بأنني كنت طالبًا بمدرسة دينية داخلية. أعلم الكثير عن الأعمال الاجتماعية، وكيف يعيش الآخرون، وعن الفقر، وعن

---

1. تعدّ هذه الحركة تحديدًا جزءًا أصيلًا من لغة الجسد في الثقافة الإسبانية، وتظهر في مواقف كثيرة متباينة (م)

الاحتياجات الإنسانية، وعن الصدقات، وعن معاناة الآخر التي يجب ألا ندير ظهورنا لها، عن... لقد درست اللاهوت تقريبًا بدلًا من الكيمياء.

- يربكني أنك أمضيت طفولتك وشبابك في مؤسسة دينية. لا أستطيع تصور كيف يمكن أن تكون؟ حدثتني بالكاد عن نفسك.

- لا يوجد كذلك الكثير لأحكيه. لا يوجد شيء خارج المألوف. هناك الكثير منا مروا بتلك الظروف. (أجابها بورو بنوع من الأسى).

- حسنًا، ولكن ليسوا جميعًا مثلك. أنت لا يبدو عليك... (قالت نوريا وهي ترمقه بنظراتها من أعلى لأسفل).

- وماذا يبدو علي؟ (قال مقتربًا من نوريا، فابتعدت بدورها خجلًا وابتسم بورو).

- أود أن أقول إنه ليس لهذا الغرض، فالأب بيلسيرميس رجل وسيم أيضًا.

- أيضًا؟ تقولين إذن إنني أبدو لكِ رجلًا وسيمًا؟

- لم أقل هذا بالضبط.

- أتدرين ما يثير فضولي في المقابل؟ (سألها بورو).

هزت نوريا رأسها بالنفي.

- لماذا قبلت سيدة مثلك العمل في برنامج المستشار العاطفي؟

خلّف هذا السؤال لدى نوريا انطباعًا، أنه مجددًا، ومثل كل مرة، تسأله عن ماضيه، يغير بورو الموضوع.

- تقول ذلك مستنكرًا أو كأنه بالنسبة لك أمر وضيع. تعدّ الكتابة بالنسبة لي مهنة كريمة.

- لا أقصد ذلك. أقصد مكانتك، مع هذا المنزل، القصر...

- أعتقد أنني لم أفكر في الأمر مرتين لأنني كنت أود دائمًا تكريس نفسي للأدب، وأرى أن التشبث بهذه الرسائل، والإحساس بها بكل هذا العمق، وتقديم حل لها، وتوجيه الكثير من المشاعر التي تنقلها إليّ، كل ذلك هو وسيلة لتقاربي مع تلك المهنة.

- أهذا ما تريدين؟ لم أكن أتصور ذلك (سأل بورو باهتمام بالغ).

- هذا صحيح بالفعل. كنت أتمنى ذلك أكثر من أي شيء في العالم، إلا أنني لم أجرؤ أن أطرحه على والديّ. لأنه كان سيبدو بالنسبة لهما نزقًا جديرًا بالبوهيميين والمهووسين، وبالأثرياء الذين ولدوا وفي فمهم ملعقة ذهب، والميسورين المتاح لهم ترف البطالة.

- مساء الخير، أخبروني أنكما تبحثان عني (خاطبتهما سيدة لم يرياها وهي قادمة).

التفت الاثنان في الوقت نفسه ونظرا إليها بفضول كبير. كان شعرها معقوصًا بشريطتين متدليتين لأسفل ويتوسط رأسها عُصابة من القماش بها دوائر باللونين البرتقالي والأصفر.

- الأمر يتعلق بطفلك (أخبرها بورو).

- هل أنتم من الملجأ الخيري؟ (سألتهما منزعجة).

- نود الحديث معكِ عن الصغير، ولكننا لا نعمل هناك... بل في مختبر. نعتقد أنه بوسعنا مساعدتكِ.

- لا أعتقد أن أي أحد يستطيع. لا أدري إن كان هناك من هو أكثر بؤسًا. تفضلا! (أزاحت الستارة التي تتخذها بوابة لمسكنها. كانت حجرة مربعة، وهناك زهور بلاستيكية في عدة زجاجات، سريران وطاولة، وأشياء قليلة أخرى. قربت المقعد الوحيد من نوريا). كما تريان، لا يمكن أن يقلقنا أن نتعرض للسرقة، وهذه امتيازات ألا تمتلك شيئًا.

- لا تكلفي خاطرك، أنا بخير. هل لديكِ أية فكرة لماذا ولد طفلك هكذا؟ هل حدث لكِ شيء أثناء الحمل أو الوضع؟ هل فعلوا لكِ شيئًا؟ خاطبتها نوريا بطريقة مباشرة تمامًا.

نظرت إلينا ثيبيليرا لعدة ثوان بنوع من الريبة.

- بوسعكِ إخبارنا بما ترينه ملائمًا. نحن لسنا ضدك، لا تقلقي! (حاول بورو تهدئتها).

- أترون هذا؟ حسنًا، نحن خمسة. خالاي، وطفلاهما وأنا. نحن من جواديكس[1]. لم يمضِ عليّ عام هنا وحملت من أحدهم كان يؤدي الخدمة العسكرية في برشلونة. لهذا يطلقون علي لاثيبيليرا. كان يتردد على المكان، ولما كان يرتدي زيًا موحدًا ولكن ليس من الحرس المدني، التصق بي اللقب. كان يدعوني لتناول شيء في حانة «سول إي سومبرا». وتملص بمجرد أن أخبرته بما في بطني. قال لي ومن يدري ممن؟ انهارت الدنيا فوق رأسي. أتعلمان ماذا يعني ذلك؟ لم أذق طعم النوم. نعم، انكفأت على العمل في المصنع. هناك لا يكترثون لحالك ما دمت تنتج. يتعين علينا عقص الشعر لكيلا يختلط بنول الغزل. هذا هو كل ما يهم. ألا تقع حوادث، لأجلهم وليس لأجلنا. (شرعت في نزع ملقط الشعر ووضعها على الطاولة. رسم شعرها المنسدل إطارًا حول وجهها فزادها جمالًا). ومالذي تريدان معرفته؟

- إذا كان يوجد في عائلتك... (بدت له كلمة سوابق مرضية بالغة التعقيد).. حالات مشابهة.

- لا، لا أحد منا، جميعنا كاملون مكتملون. علاوة على أنني لم أفعل شيئًا. (غطت وجهها بكفيها). ظللت أعاشر الجندي حتى لاحظ تكور بطني. خلاصةالقول أنني لم أستطع البقاء حُبلى... ولكن يبدو أن هذا هو سبب العلة التي أصابت الطفل.

---

1. بلدة في غرناطة جنوب إسبانيا

- لقد زرنا طفلك ونحن هنا لأننا نريد مساعدتك بصفة خاصة (قالت لها نوريا). أخبرينا ماذا تريدين وسوف نحققه لكِ؟

- لا تفارقني كوابيس عملية الوضع من بشاعتها. لم يكن هناك سبيل للانتهاء. لم يستطيعوا إخراجه من أحشائي، ضغطوا على رأسه بالملقط، وبعد ذلك بآلة شفط، ولكن بلا جدوى، بينما أنا أتمزق أكثر فأكثر. وضعوه أمام عيني عندما خرج... أخبروني بعد ذلك لأنني فقدت الوعي. مثلما رأيتماه، فلاداعي إذن أن أشرح لكما شيئًا. لديه الرأس فحسب مثل باقي الأطفال، حتى جسده مشوه، وباقي الجسم وكأن الوقت لم يسعفه لكي ينمو. لديه عينان رائعتان، هذا صحيح، تشبه عيني الجندي. أخبرت من في المستشفى أنني لا أستطيع تحمل مسؤولية ذلك المخلوق، وكيف ستتمكن من المضي قدمًا إذا كانت حتى يدياه غير مكتملتي النمو، وكيف سيساعدني عندما أتقدم في العمر، إذا قدر لي ذلك. ووافق خالاي، أعلم أنهما شعرا بارتياح عندما أخبرتهما بأنني لم أحضره إلى الخصّ كنت في حالة سيئة للغاية.

لم يشأ بورو أو نوريا مقاطعتها. اعتبرا أن التنفيس عن نفسها في حد ذاته يعد أول مساعدة يمكن أن يقدماها لها.

- أخبروني في المستشفى أنهم سيبحثون له عن ملجأ. وأنه على هذه الحال لن تتبناه أية أسرة، مع وجود الكثير من الأطفال اللقطاء الموجودين ولا ينقص أجسامهم أية أعضاء. أما أنا، فانظرا! ماذا سيكون من أمري؟ وكأنني ارتكبت جريمة، رحلت على الفور وجرحي لم يلتئم. لا أعلم كيف استطعت ركوب الحافلة حتى المنطقة الحرة، عند مصنع (سيات)، والوصول إلى هنا.

- هل تعانين من أية أمراض؟ هل أخذتِ تطعيم التيفوييد، الجدري...؟

- آه، بالطبع لا. أنا سليمة تمامًا. وهذا هو الذي نجّاني. أتمتع بصحة جيدة. أريد أن أنسى فحسب، أنساه. فليغفر لي الرب! لكن لا أستطيع رؤية ذاك الطفل مرة أخرى.

- هل كنت تشربين أثناء الحمل؟ هل فحصك أي طبيب؟

- طبيب المستوصف هنا لأنه مجاني. ورب ضارة نافعة، لأنه كما سبق أن أخبرتكما، منذ أن هجرني الجندي (لم تذكر اسمه وكأنها تتمنى بهذه الطريقة أن يتلاشى) لم يبارحني الدوار، فبالكاد أسير، كنت أقع كثيرًا وأفقد الوعي. كان يتعين علي السير متشبثة بالجدران. انظري! رآني الرجل على هذه الحالة من الإعياء الشديد لدرجة أنه أعطاني بعض أقراص الدواء.

- وهل هي معكِ؟ هل تبقى لديك منها؟ (سألتها نوريا بانزعاج شديد).

- أعطيتهم لأخرى تعاني مثلما كنت أعاني. لا أستطيع الاحتفاظ بأية أدوية هنا بسبب ابني خاليّ. يأكلان أي شيء، وحتى إن خبأت شيئًا، فإنهما يعثران عليه أيضًا. (شرعت في غسل الذراعين والإبطين والعنق بقطعة قماش قديمة كانت تغمرها في ماء طبق غسيل).

- وهل ستخبريننا بمكان صديقتك؟ هل تعرفين إذا كانت قد وضعت بالفعل؟ (سألتها نوريا مجددًا).

- إنها من نفس مصنعي. بالطبع لا. مازال أمامها مدة. أصبحت في منتهى البدانة لدرجة أنني أتصور أنها ستلد توأمين. مسكينة! ما ينتظرها؟ يالها من مشقة! (كانت تهز رأسها من جهة لأخرى مغمضة العينين).

- نعم... سيكون الأمر شاقًا عليها (قالت نوريا بأسى). نود أن تسدي لنا معروفًا، أخبريها بأننا نريد رؤيتها.

- حسنًا، متى شئتما، إذا جئتما ساعة خروج المصنع فسأعرفكما بها.

- كان لطفًا منك استقبالنا (قالت نوريا). نشكرك. هل بوسعنا أن نفعل شيئًا من أجلك؟

- نعم، نعم، أود أن أطلب منكما... لربما تتصوران... لا أدري، بما أنني لا أخرج، أعتقد أن جهاز راديو سيؤنسني كثيرًا. هل ستحضرانه لي؟ (حينئذٍ

خفضت صوتها). يوجد فتحة في الجدار خلف التقويم. يمكنني إخفاء الراديو بداخلها.

- لا تشغلي بالك! سنحضره لكِ (قال بورو). ونشكرك على ما أخبرتنا به.

لاحظ بورو أثناء ابتعادهما أن نوريا تتنفس بصعوبة.

- لاحظت انزعاجك وأنتِ تسألينها. ربما كان يتعين عليّ المجيء بمفردي. ألّا أحضرك إلى هنا. يبدو عليك التأثر الشديد.

- بورو، سوف نمر على مكتب البريد. إنه أمر يتعلق بما قصّته علينا...، ذكرني موضوع الأقراص بالرسالة التي بعثتها تلك المرأة على صندوق البريد. تحدثت عن مهدئات، عن تأثير مهدئ....

- نعم، ولكن إذا كان ما تناولته هذه الفتاة المسكينة أقراصًا من أجل الحمل، فلا يمكن أن تكون السبب لأنها لا تتجاوز المشيمة. يعلم جميع الأطباء هذا. وإلا لما أعطوها إياها.

- ومع ذلك، أحتاج إلى الذهاب. تعال معي أرجوك. أحتاج لمعرفة إذا كان هناك شيء آخر في الصندوق قبل وصول ماكسيمو إلى المنزل.

أوقفا سيارة أجرة ووصلا في الحال.

- أعطيني المفتاح من فضلكِ وانتظريني هنا. إنه رقم 177؟ (قال بورو فيما يتحقق من الرقم المنقوش عليه).

- نعم، تفضل! (واستندت إلى نافذة السيارة).

رجع في الحال وفي يده مظروف.

- هل أفتحه؟

- نعم واقرأه! حسنًا، لا. سنراه فيما بعد (قالت تفاديًا لأن يسمعهما السائق). كما أننا سوف نترجل قبل المنزل؛ فماكسيمو على وشك الوصول.

قالت نوريا بمجرد توقف سيارة الأجرة قبل ناصيتين من منزل مولاي حفيظ:

- نحتاج لمعرفة لماذا حدث لهن ذلك؟ ماذا فعلوا بتلك المخلوقات داخل بطون أمهاتهم لكي تولد هكذا؟

ركزا على الرسالة. لم يكن مدونًا عليها شيءحتى اسم المرسل. كانت منسوخة على الآلة الكاتبة. أرادا التهام سطورها مرة واحدة وكأنها ليست نصًا، بل بطاقة معايدة يمكن مطالعة صورتها في عجالة.

صديقتي العزيزة:

كما ترين لا أكتب لكِ بخط يدي لأنني لا أريد أن يتعرف أحد على خطي؛ فقد يعرضني هذا لمشكلة كبيرة، من شدة توتري لم أدرك ذلك إلا الآن، لذا أرجو منكِ تمزيق رسائلي السابقة، أو حتى أحرقيها. لن أقول إننا نلعب بالنار- لأن هذه ليست لعبة على الإطلاق، إن ما سأورطك به لاحقًا أمر في منتهى الخطورة، ولا أريد أن يقع في الأيادي الخطأ. فلنفعل ذلك إذن من فضلك! بحق محبة أغلى شيء عندك. أرجوكِ. حسنًا: السيد الذي أقيم معه علاقة حميمة يريد وضع نهاية للقاءاتنا، وتمكنت من إقناعه بالعدول عن ذلك، ولكن لا أدري حتى متى سنستطيع أن نلتقي؟ إنه متأثر للغاية. أخبرته بأنني ألاحظ عليه الحزن، ولا أريد منه سوى أن يدعني أساعده، ولكنه يكرر أنها تخيلات من جانبي. لا أستطيع إخباره بأن هذا غير صحيح، بأنني سمعت محادثته الهاتفية، بأنني تلصصت على مفكرته، ونسخت التقرير الذي يحتوي على تلك التركيبات واستخدمت آلة نسخ الرسائل الخاصة به. لا يمكنك تصور المجهود الذي بذلته لمحو أي أثر للحبر من أسطوانة الماكينة. استغرق مني ذلك ساعات طوالًا. هذه ليست حياة. أكرس الوقت كله تقريبًا لهذه القضية. بوسعي المواصلة بصعوبة

بالغة، ولكن من المهم الاستمرار حتى النهاية. الأمر وما فيه أنه يؤكد لي أنه شديد الامتنان لأجل كل العواطف التي منحته إياها، ولكن الآن يتعين عليّ الابتعاد عن طريقه، وسوف يعطيني كل ما أريد، ولن يعوزني شيء، ولكن فلتتوقف لقاءاتنا! أما أنا، فمن ناحية أود الاستمرار معه، بدافع التقدير الذي أكنه له، ولكن لن أخفي عليكِ أن اهتمامي الأساسي في هذه المرحلة يرجع إلى رغبتي في معرفة كل هذا الذي يجري للأطفال المبتورين، مهما كلف الأمر، وحتى لو بتروا ذراعيّ وساقيّ. هل ستصدقينني إذا قلت لكِ إنه من معرفتي به، أن هذا السبب الثاني هو الدافع أيضًا وراء رغبته في التخلص مني؟ يفضل أن يحرم من رفقتي على تعريضي للخطر. يوجد هنا أمر خطير، ومع أنني لا أعدّ نفسي شخصًا فضوليًا، فإنّ هذا شأن آخر ولن أتراجع حتى أعرف الحقيقة كاملة. ربما بدا لكِ اقتراحي متناقضًا ولكن بما أن الموضوع يتطور على هذا النحو الخطير، من الضروري أن نتقابل بأسرع ما يمكن. ننتقل من التعامل الرسمي إلى الخطاب المباشر مرة واحدة، والكف عن مخاطبتك بصيغة التوقير عندما أكتب إليكِ، وأن تعرفي من أنا؟ إنكِ الشخص الوحيد الذي أستطيع الوثوق به. لربما بدا لكِ غير منصف أن أضعك بين المطرقة والسندان، لكن أعتقد أنه لا مفر من أن تشاركيني معاناتي. إنها تصيبني بالغثيان. سأضطر للذهاب للطبيب لكي يصف لي مهدئات، شيئًا يخفف التوتر العصبي، لا أدري. لا أعلم بمن ألوذ في هذه اللحظة. ساعديني، أنا يائسة. وأمر آخر: أتمنى ألا تغيري رأيكِ بي عندما نتقابل. هذا كل شيء.

بعد ذلك وجدا قائمة بيانات: أماكن، تواريخ والكثير من الأسماء شعرا بحرقة في العيون.

- نوريا هل ستدعينني آخذ التقرير أيضًا؟ أريد تحليله على مهل.

- حسنًا، بورو، يجب عليّ الانصراف الآن.

- هل أنتِ أفضل؟ هل ترغبين في أن أرافقك؟

- لا، لا، لا. أنا بخير (قالت له وهي تبتسم بصعوبة).

شعرت نوريا بسعادة لتوديعها بورو هناك، لأنها عندما وصلت المنزل، لاحظت من فوقها نظرة محاكم التفتيش التي رمقتها بها دورا بلومر من النافذة.

18

تيقن ماكسيمو خلال عطلة نهاية الأسبوع من أنه علاوة على غيابها، بدت نوريا منفصلة تمامًا عن الواقع. فقرر الالتصاق بها كظلها، تنتابه الرغبة في معرفة سبب شرودها. يسيطر عليه يقين بأن المفتاح الذي عثر عليه سيفتح الطريق نحو الحقيقة. أما هي فكانت تتمنى حلول يوم الإثنين أسرع لكي يرحل ماكسيمو. إلا أنه لم يرحل في الصباح كعادته، بل ظل في المنزل لما بعد الخامسة مساء.

- كل ما هنالك، أن لدي إجازة (كان هذا هو التفسير الوحيد الذي قدمه). ألست سعيدة؟ تقولين دومًا إنني أقضي وقتًا قليلًا هنا. انظري! اليوم بالعكس.

في تلك الأوقات، كلما طال وجود زوجها زادت معاناة نوريا أكثر فأكثر. اكتشفت وجود شيء آخر، عندما خبأت آخر ظرف مرسل في الصندوق. لم تتح لها فرصة الاتصال بـ بورو لتخبره.

انتابتها رغبة عارمة في الخروج فورًا بمجرد رحيل ماكسيمو، نظرت إلى الساعة وإلى طفليها في التوقيت نفسه وأدركت أنها لا تستطيع أن تترك منزلها الآن. إلا أنها تركت باب الشقة مفتوحًا، وصعدت إلى العلية. خشيت أن يغلقه تيار هواء فجأة. خرجت دورا على الفور، وسألتها إذا كان بوسعها أن تطلب من أورسولا المرور لبرهة للبقاء مع مارك وميريا، وإذا كانت تسمح لها باستعمال هاتفها.

- بورو، أنا نوريا.

- ما الخطب؟ (سألها منزعجًا، بنبرة صوت تكاد تكون غير مسموعة. أجاب مباشرة لأن ليليانا لم تكن في مكانها).

انتبهت نوريا لتكرار غيابات ليليانا.

- لا شيء على وجه الخصوص، وربما نعم، لا أدري. أريد أن تسدي إليّ معروفًا آخر (أضافت بدون أن يقول هو شيئًا). غدًا سوف آتي متأخرة قدر الإمكان، هل بوسعك انتظاري؟ أود المجيء حين لا يكون هناك أي أحد في المركز. هل أتسبب في تقويض أي خطط؟

- حسنًا. (لم يعرف بورو ماذا يضيف أكثر من ذلك. لاحظ أنها متوترة وفي عجلة من أمرها.) سأكون هناك، تعالي وقتما تستطيعين.

أخذ الوقت يمر بطيئًا على نوريا منذ تلك اللحظة. أكثر بكثير من الوقت خلال أيام السبت والأحد وذاك الإثنين.

***

دخلت الثلاثاء بعد الظهيرة القاعة ذات الأعمدة بمكتب البريد، وتظاهرت بالوقوف في الطابور. لم يكن من الصعب عليها الاستعلام عن الحي أو مكتب البريد التابع له صندوق بريد الشخص الذي يراسلها. رغبت في الانعتاق من الانتظار الذي يقتضيه تسليم البريد وتسلمه. لم تكن تعرف إذا كان ممكنًا عمل ذلك بتلك الطريقة أم أن القواعد تحظر ذلك، ولكن فضلت عدم السؤال. اقتنعت بأنه كلما قلّت الأشياء التي تربطها بالأمر كان ذلك أفضل. حملت في يدها الرسالة التي تفيد من خلالها بقبول موعد تلك المرأة. أخبرتها أيضًا أنها ستأتي برفقة الشخص الذي ساعدها على فك رموز التركيبات وتحليل التقارير. لم تذكر أن بورو قرأ أيضًا رسائلها. كان يتعين عليها وضع الورقة في اللحظة التي تكون متأكدة فيها أن أيًّا من

الموظفين أو العملاء منتبه لها. خطر على بالها التظاهر بأنها تفتح باب صندوق الخطابات وكأنه خاص بها، إلا أنها تركت مفتاحها معلقًا في رقبة القديس نيكولاس، وفي الوقت نفسه لم تكن تريد المجازفة بأن يلاحظوا أنها ليست الشخص الذي اعتاد أخذ البريد من ذلك الصندوق. في النهاية اكتشفت طريقة وسطًا: تظاهرت وكأنها اكتشفت فجأة تمزقًا في الجورب. فاستندت بيد إلى حائط صناديق الخطابات، تحديدًا فوق الباب المقصود، بطريقة تمكنها مع لف معصمها قليلًا بصورة تجعل الرسالة تنزلق من فتحة الحديد العليا لباب صندوق الخطابات المنقوش عليه رقم مراسلتها. في الوقت نفسه، مررت يدها فوق نسيج النايلون بأسى شديد، وكأنها لم تكن مجرد بضعة غرز محلولة بل ندبة كبيرة في ساقها. انتبه بالكاد العملاء والموظفون لتلك الحركة المعتادة. تظاهرت نوريا بالإصابة بالفزع من هذا الحادث الطارئ؛ فغادرت مكتب البريد على الفور.

اقترحت في الخطاب، وفقًا لما اتفقت عليه مع بورو، أن يلتقوا أمام سانتا ماريا ديل مار السبت المقبل الساعة الحادية عشرة صباحًا.

***

تسوقت قليلًا، ووصلت إلى المعمل في المساء. وضع بورو الورقة التي وجدها داخل الصندوق، تحت مصباح وحدة إضاءة فوق طاولة ذات قوائم من الصلب الذي لا يصدأ.

أخبرت دورا بلومر بأنها ستتأخر تلك الليلة لأن لديها اجتماعًا مع مالكي مركز مستحضرات التجميل، اللذين عادا توًا من السفر وسوف يرحلان مجددًا في اليوم التالي. وإذا كان بوسعها أن تسدي إليها هذا المعروف الضخم، فهي بحاجة لأن تبيت أورسولا في منزلها لكيلا تكون مرتبطة بتوقيت محدد. «حسنًا، عزيزتي»، أجابتها مالكة المنزل بنبرتها الحذرة المعتادة.

هاتفت ماكسيمو في المساء. وبالرغم من ذلك، أوصت جارتها أن تخبر زوجها، إذا اتصل مجددًا، أن تخبره بأن الرقم خاطئ، وإذا ألح، ألا ترفع السماعة. أدركت أنها لا تستطيع في تلك اللحظة المجازفة بأن يعرف ماكسيمو مرة أخرة أنها كانت في الخارج. «حسنًا (قالت دورا مرة أخرى). لكن تذكري! أن من يدفع لي هم شركة المناجم العامة».

«نعم، سيدة بلومر، لا تقلقي». افترضت أنه ربما يتعين عليها أن تخبرها بشيء لكي تدفعها لعدم الوقوع في الخطأ والتفكير في أشياء غريبة بشأنها بسبب كثرة خروجها ودخولها.

عاد تفكيرها إلى المختبر حيث يقوم بورو ببسط تلك الورقة وكأن علامات طيها تحول دون قراءتها.

- تتحدث عن مادة، مركب كيميائي، بالتأكيد، فلنر! إذا كانت هي نفسها التي ظهرت في التركيبات، فسأشرع في العمل على الفور. هل تحدثتِ مع أحد آخر عن ذلك؟

- لا. لا يعرف بهذا أحد سواك. (عاد تفكيرها ينصب مجددًا على جارتها).

- حسنًا، دعينا لا نعلق على الموضوع مع أحد! علاوة على أنني أقوم بمقابلة تلك القائمة بالأسماء والعناوين التي أعطيتني إياها، فلنر إذا كنا سنستخلص دليلًا منها! ومن الممكن أن تقتصر تلك التقارير على تفصيل الحالات المعروفة وعلى بحث أسبابها.

تحدثت عن هذه الحالات مع السيدة فرومنت، حالة الرضيعة التي رفضوا قص حبلها السري لحين اعتراف الأم بخروجها من رحمها، وعن حالة طفل الدلو... وأدركت من رد فعلها أنها لا تعرف شيئًا.

سأل نوريا، بعد بقائه صامتًا لبضع لحظات بينما يتابع الحملقة في الورقة:

- هل تحبين الحبَّار؟ (ارتبكت نوريا). سوف نتناول القليل منه مع

جعة مثلجة، خبز والقليل من المايونيز. ما رأيك؟ القصد، أنه عندما تعودين فسيكون طفلاكِ قد أخلدا للنوم. وتلك المرأة تحسن رعايتهما...

رفعت كتفيها إلى أعلى، كانت تفتقر إلى الإرادة الكافية للمعارضة.

***

لم يتبعهما جيوفري بالادري عند خروجهما من المركز لأنه كان في حانة (بي) أمام ماكسيمو ثفرا.

من شدة هواجسه لمعرفة ماذا يجري لنوريا، قرر زوجها البقاء تلك الأيام في برشلونة. قام بتجميع عدة مواعيد حتى لا تتعطل الأعمال. وأوحى لها بما يجعلها تظن أنه في الخارج، حيث كان يريد الإيقاع بها على حين غرة، وتفنيد أكاذيبها.

لم يغير هو والمحقق الموضوع عندما أحضر النادل كأس الويسكي الثاني للتاجر المتجول.

- هكذا إذن! تقول إنك ستأتي في يوم بعينه، ولكنك ستبيت بالفعل قبل ذلك ببضعة ليال في برشلونة، ومثلما تفعل الآن، ولعدة أيام لاحقة أيضًا (قال بالادري. فندم ماكسيمو لإخباره بذلك، لمجرد سماعه يكررها).

- أعمل كثيرًا، أقطع في بعض الأسابيع أكثر من ثلاثة آلاف كيلومترًا. أذهب إلى بيرين مرة في الشهر ولا يضاهيني أحد في ذلك.

- وماذا تفعل بالتحديد؟ (سأله لكي يحفزه)

- أنا مدير مبيعات.

- وماذا تبيع؟ (ألح).

- معادن. ولكن لا أحملها في الحقيبة (قال ثفرا مازحًا). أعقد الصفقات فحسب. أزور أماكن التنقيب وبعد ذلك أضع الكربونات، الكاولين، التلك، أكسيد التيتانيوم، الجير، الليثيوم، سلفات النحاس، البوتاس، اليود... (بدا

أنه لن يتوقف أبدًا عن ذكر المعادن). في الحقيقة، أتولى مسؤولية توزيعها، لدي بيان حصري بموقع إنتاج كل معدن، وكم كيلو جرامًا أو طنًا يستخرج والزمن المحدد لذلك، وأحاول تفادي انقطاع الإمداد. أتعامل في أغلب الأحوال مع التصنيع الحربي أو الصناعات الدوائية. تعدّ بعض العناصر المعدنية مكونات السواغ[1] التي تدخل في تركيبات الكبسولات وأقراص الدواء...

- إذن، فنحن نتناول أحجار؟ (تابع بالادري).

- بالفعل... لا أقصد أن تلك المواد الثانوية تعتبر شوائب لهذه المشتقات المعدنية، وليست زائدة عن الحاجة، بل تضاف إلى المستحضر الدوائي ذاته. (أوضح).

- لكي تثرون. وهكذا تسلبون مالنا عندما نذهب إلى الصيدلية، وندفع أكثر عن طيب خاطر مقابل شيء لأنه أكبر حجمًا.

- تقريبًا. عندما تتناول قرص دواء، تمثل المادة الفعالة جزءًا ضئيلًا منه، أما الباقي فهو...

- حشو (أكمل المحقق). وهل هناك تأكيد أنه لا يسبب شيئًا؟

- لسنا متأكدين تمامًا، لكن حسنًا، قد يسبب بعضها آثارًا جانبية لبعض الأشخاص، مثل كل شيء هذا لا مفر منه، ماذا بوسعنا أن نفعل؟

- الضربة التي لا تقتلك، تقويك (قال بالادري رافعًا كأسه).

- وكل هذه الأسئلة حول عملي، ما الغرض منها؟ هل هناك ما ينبغي أن أقلق بشأنه؟ (حان الدور إذن على ثفرا لكي يغير الموضوع).

- أمهلني بعض الوقت! زوجتك تتعامل مع جارتكم، وبالمناسبة فهي حسنة المظهر للغاية (قال بالادري برضا، فقد توافرت لديه بيانات كافية

---

1. وفقًا لعلم الصيدلة، تعد السواغات المواد الإضافية في المستحضرات الدوائية بجانب المادة الفعالة (م)

لحساب فاتورة أتعابه).

- دورا. إنها مالكة منزلنا.

- نعم، أعرف ذلك. (كذب بالادري لكيلا يفتضح أمره لأنه استعلم فحسب عما يتعلق بمحيط مركز التجميل). لكن... (توقف. اقترب ماكسيمو من الطاولة، وحينئذٍ قرر إضافة قليلٍ من الإثارة): لدينا المدعو بورو.

- ومن يكون هذا؟

- إنه الكيميائي، نافاسكويس. يجب ربط التفاصيل، هذا هو مفتاح كل شيء. أحيانًا يكون ما يبدو شديد البعد الأكثر قربًا لأننا ننظر إليه من طرف النقيض، هل أوضحت؟ (أضاف بلهجة توعوية وكأنه يرغب في ترويضه وفقًا لفنون التحري، كما يحلو له تسميتها).

- وماذا عنه؟ (بدا أن ماكسيمو يتجاهل نصيحته حول أسلوب منطقة الأمور).

- حسنًا، يتقابلان. (ضم بالادري كتفيه ورفع كفي يديه إلى أعلى وكأنه يخبره بأمر محتوم).

- عندما تذهب يوم الجمعة؟ (طرح ثفرا أسئلة محددة ليحض المحقق على الحديث).

- وبعد ذلك. (كانت المعلومات التي لديه قليلة لدرجة أنه قرر إعطاءه إياها على جرعات ضئيلة قدر الإمكان.

- بعد ذلك أين؟ (عاد ماكسيمو ليسأله بانفعال شديد).

- حسنًا في الأنحاء. لديهما، على ما يبدو، ركن مفضل في تراس مقهى سافوي، مع أنهما ذهبا في اليوم السابق حتى كولون. (قرر بالادري عدم ذكر جزئية أن طفليه كانا بصحبتهما). كما رأيتهما في أحد أحياء الأكواخ العشوائية.

- ثم؟

- هكذا إذن، المعتاد. (كان يعلم أنه كلما تكلم أقل، ثارت ثائرة زبونه).

- حسنًا، يكفي كل هذا التشويق. ما هو هذا المعتاد؟ (سأله بانفعال شديد).

- في البداية طلبت واحد ماء فيشي، كمقدمة لشيء ما، ثم طلب هو كأس مارتيني، لا أعلم إن كان جافًا أم لا؛ عند منتصف الكأس يطلق ضحكة؛ في يوم آخر، يطيل نظره أكثر من اللازم. يتحدثان ويتحدثان. تعلم ما يقوله الكلاسيكيون.

- حسنًا لا، لا أعلم (قال ماكسيمو ضجرًا من كثرة التسويف).

- إنه أمر قديم للغاية: لمعرفة إذا كان اثنان في حانة، متزوجين أم على العكس من ذلك عاشقين أو رفيقين عاطفيين، يجب التركيز فحسب إذا كانا لا يكفان عن الكلام أم توقفا. لا تخطئ أبدًا.

- وتزعم لي أن نوريا والمدعو نافاس، حسبما ذكرت اسمه، عاشقان؟

- لا، لقبه نافاسكويس. يجب تدريب الذاكرة، ثفرا... (أنّبه وكأنه الدرس الثاني حول طريقة استخلاص الاستنتاجات الصحيحة). ولا أزعم شيئًا. براهين، البراهين هي صميم عملي، أنا محترف. إذا جازفت، فسأخسر مصداقيتي بالكامل، وهي كبيرة، ولكن...

- لكن، ماذا؟

- لدي حاسة شم. ويوجد شيء هنا. هذا هو كل ما أخبرك به. لدرجة تشابك أيديهما لعبور الشارع، واحتضانها لتفادي عربة جر. يبدو أنها مجرد مساعدة، لكن أمهلهما بعض الوقت! (حاول بالادري إثارة حفيظته وكأنه كلب صيد ليوقفه بعد ذلك بتلك الأمور المبهمة).

- أنت مخطئ، بالادري. أنت مخطئ في كل شيء كل شيء. أنت لا تعرف زوجتي، ولكن ربما تفكر هكذا تحديدًا لأنك لا تعرفني. أنا أكفي

امرأتي وزيادة. هذا أمر أنا متأكد منه.

بدا أن جيوفري بالادري على استعداد لمواصلة توجيهه بشأن أسلوب إجراء التحريات، وكان في الوقت نفسه عازمًا على معرفة كل ما يمكن عنه لتفنيده: من أين جاء بكل تلك العنجهية، وموقفه المتحدي، وأسلوبه في التصدي للعالم وكأنه يعرف كل أسراره.

لا يشعر المحقق بأي ميل على الإطلاق إلى الأذكياء، وأقل من ذلك في عمله كتحرٍ، لأن هذا كان سيجبره، وكأنه في منافسة، على بذل جهد أكبر، لكيلا يتخلى عن حذره في أية لحظة لأنه حينئذٍ سيكون هو المراقب، وينكشف أسلوبه.

- هي وهو، نوريا وبورو. (قرر أن سماع اسمها مقترنًا باسمه قد يزيد التأثير المحبط على ماكسيمو، لم يكن يريد التخلي عن فرضيته بشأن الخديعة، على الرغم مما قاله الآخر). لا يمكن أن يقدما لي كل البيانات، أنت أيضًا يجب أن تسهم بشيء. لقد أفادني كثيرًا ما أخبرتني به.

- ليس هناك شيء، هذا ما أؤكده لك. دعك من التعلق بذلك الموضوع! وأخبرني ماذا يفتح المفتاح! تعلم أنني لا أستطيع البقاء في برشلونة لتجربة أنواع الأقفال الموجودة في المدينة كافة. هذا ما أريد منك القيام به. دعك من مسألة الخيانة! فهي لا تجرؤ. وبصفة خاصة: لا تضيع وقتي! لأنه ثمين للغاية، كما يوجد الكثير من المحققين، أو الهواة أمثالك.

بدا واضحًا استياء ماكسيمو حتى بالنسبة لنفسه، لأنه كان من اتخذ قرار بدء تحويل شكوكه إلى يقين عندما قرأ إعلان مكتب (جي. بي)، الحرفين اللذين يشيران إلى جي. بي. الجالس أمامه، الممثل الوحيد لما بدا أنها وكالة من فرد واحد لا يوجد بها حتى سكرتيرة، أو مساعد، أو أي أحد على الإطلاق، بينما كان هو من يجيب دائمًا على الهاتف. على الرغم من أنه كان يفضل أن يكون الأمر على هذا النحو تقريبًا: أن يعلم أقل عدد من الناس بما يفترض

أن نوريا تخفيه.

استعاد ثفرا رباطة جأشه، وأدخل يده في سترته فتراجع جيوفري بالادري إلى الخلف. خاف أن يخرج موكله مسدسًا ليقضي عليه لعدم كفاءته، ولكنه بدلًا من السلاح أخرج بين أصابعه ورقة نقدية، وتركها على الطاولة وضرب عليها بكف يده، وفي الوقت نفسه قال له:

- سوف نلتقي، لكن إذا لم تجلب لي شيئًا في المرة المقبلة: قضي الأمر (c'est fini). تراجع المحقق إلى الخلف مجددًا من تأثير الصدمة. نظر إلى كأسه، كانت نصف ممتلئة، أفرغها في جوفه دفعة واحدة ورج الثلج لكي يقترب النادل. طلب منه كأس ويسكي أخرى، بينما أخرج مفكرة قديمة للغاية، بغلاف أسود وصفحاتها شديدة الإصفرار. وأخذ يدون كل البيانات عن تلك القضية، التي كانت مشابهة إلى حد كبير، حتى الآن، لأي قضية أخرى.

19

اجتاز ماكسيمو ميدان سان خوسيه أوريول، لم يكن بوسعه أن يكون في المنزل في تلك الأوقات بعدما قال إنه لن يعود إلى برشلونة حتى الجمعة. تذكر محادثة اثنين من زملاء العمل حول شقة بعينها عندما وصل إلى ساحة سان أجوستين. دفع البوابة الخارجية ودق الجرس. فُتح باب المدخل في الحال. تدلى من مدخل الردهة سلك سميك، كفيل برفع أوزان ضخمة. فاحت في الأجواء رائحة نفاذة لزهر البتشولي. يرى بعض الناس هذا العطر مثيرًا ومحفزًا جنسيًا في بعض الأحيان، أما هو فكان يعد نفسه صاحب ذوق أكثر رقيًا حتى بالنسبة للروائح؛ فقد اعتاد على روائح عطور باهظة الثمن؛ فبدت له تلك الرائحة مبتذلة.

كانت في انتظاره امرأة أربعينية تدخن سيجارة من مبسم، وكأنها ظلت عالقة في العشرينيات، وقفت مستندة إلى حلق الباب.

- يالك من وسيم! (كانت المرة الأولى التي تراه فيها).

نحاها جانبًا بدون أن ينظر إليها وجلس فيما يشبه قاعة انتظار، يوجد بها مشرب تتراص عليه زجاجات الخمر. قررت مالكة المكان أن تتركه برهة ليهدأ بينما يحتسي شرابًا. أرسلت له بعد ذلك إحدى أنيساتها، هكذا كانت تطلق عليهن، وتسميهن أحيانًا بطريقة أكثر غرائبية «وصيفاتها»، لتقف خلف حاجز خشبي قابل للطي يفصل الحجرة عن الممر.

أخذ ماكسيمو يتابعها بلا مبالاة وهي تتأود خلف الحاجز السميك.

رددت همسًا لحنًا خاطئًا لمقطوعة فلامنكو وهي تلقي بقطع ثيابها فوق الإطار الخشبي. أظهرت من خلفه ذراعًا، ثم ساقًا، تظاهرت بأنها تختبر ماءً لا وجود له قبل الاستحمام. ابتسم ماكسيمو بلا رغبة حقيقية. دق الجرس في تلك اللحظة وأطل من المدخل جيوفري بالادري. لم تكن قد مر نصف ساعة على وداعهما.

وضع ماكسيمو راحة يده فوق جبهته ضاغطًا بالسبابة والإبهام على جانبي وجهه وهو يطأطئ رأسه مجددًا.

- صديقي بورتماريس، يالها من مفاجأة سارة (جلس المحقق إلى جواره وهو يربت براحة يده على ساقه بقوة أقل بكثير من تلك التي ترك بها ماكسيمو الورقة المالية فوق طاولة حانة (بي) منذ وقت وجيز)

- ماذا دهاك؟ ألم تعد تتذكر اسمي؟ ماذا تفعل هنا؟ هل كنت تتبعني؟ (غمغم الإيطالي).

- بالطبع أتذكر، صديقي بورتماريس، ولكن... (خفض صوته فجأة لدرجة أن ثفرا سمعه بصعوبة بالغة). هنا من الأفضل ألا يعرفوا عنا أكثر مما نريدهم أن يعرفوه. على الأقل الزبائن. أما بالنسبة لهن فلا يكترثن. نادني جودو، جودفريدو! ولم أتبعك، أنا صديق قديم للمنزل.

لم تبدِ المرأة التي استقبلتهما أدنى اهتمام بمشهد هؤلاء الاثنين وهما يتحدثان، حيث تعالت ضحكاتها المجلجلة، بينما كانت تجالس سيدين بينهما شبه مذهل على أريكة وثيرة في الغرفة المجاورة المفتوحة على تلك التي يشغلها ثفرا وبالادري.

- حسنًا إذن؟ سأله المحقق.

- إذن، ماذا؟ (ردد ماكسيمو السؤال بضيق أكبر من الموقف، من الاتفاق معه وبصفة عامة مما يجري).

- أسألك إن كنت هضمت الطعام؟ (خاطبه جيوفر، جودفريدو في هذا السياق لمزيد من السخرية).

- لم أتناول عشائي. (لم يرغب ثفرا في مواصلة هذا الأسلوب).

- أعلم ذلك، بورتماريس، أعلم ذلك. (بدا بالادري متقمصًا لدوره تمامًا). أقصد ما حدثتك عنه في حانة (بي). أرى أن حدسك لم يخطئ بقدومك إلى هنا، لا ينقصك الآن سوى وضع اللمسة الأخيرة. هل ترغب في أن تشارك في (أديلايدا)؟ سيخلق هذا صحبة وحميمية، عهدًا بين رجال حقيقيين.

أطلت المرأة بالكامل من خلف الحاجز الخشبي، وحيت جيوفري. لم يتبق عليها من الثياب سوى ثلاث نجمات مثبتة بعناية في تاج من الريش وضعته فوق رأسها.

- الوداع وحظًا طيبًا. (قال بالادري وهو يتناول يدها. بدت تلك المرأة رفيقته العاطفية الطبيعية من شدة التشابه الجسماني والعمري).

التفت قبل اجتياز الممر للتحقق من أن ماكسيمو يركز بصره على الاتجاه الذي كان يتوقعه وأضاف:

- لا تعكر مزاجك، يا رجل! الزوجة لشؤونها، وهؤلاء للشؤون الأخرى، اسألني أنا!

***

دخل ماكسيمو ثفرا عندما نزل إلى الشارع أول فندق صادفه. سألته امرأة بدت على النقيض تمامًا من تلك التي فتحت له باب الشقة الأخرى، وعلى عكس البهرجة المنبعثة من مدخّنة السجائر ذات المبسم، بدت هذه عجفاء وترتدي ثياب الحداد، سألته:

- هل تنزل بمفردك؟

- لن أتأخر كثيرًا في الرحيل، ومن ثم لا تتقاضي أجرة الليلة كاملة. (قال ماكسيمو ثفرا).

- السعر ثابت، سواء نزلت طول اليوم، أو لساعة واحدة أو مع ثلاثة

نزلاء. ها قد عرفت، في المرة القادمة استفد أكثر من نفقاتك.

لم تكن لديه رغبة في الجدال. صعد السلم وارتمى على الفراش. لم يتمكن من النوم بسبب ضوضاء صرير أسرّة الغرف المجاورة، مما أتاح له التفكير أكثر.

***

استلقت نوريا، بعد مصافحة أوروسولا، التي قبَّلت فور رحيلها، الورقة المالية فئة الخمس والعشرين بيزيتا التي أعطتها إياها، ولكن لم يغمض لها جفن. فكرت عدة مرات فيما كتبته. ربما أخطأت بسبب اندفاعها؛ فقد أعطت تلك المرأة التي تعتزم مقابلتها الكثير من التفاصيل، ليست بيانات محددة مثل أين تسكن؟ عمرها أو اسمها، بل بشأن طبيعة عملها، فقد وقعت على أنها التي أرسلت إليها عينات مستحضرات التجميل على صندوق بريدها، وغيرها من التفاصيل. قلقت لخرقها تعهد السرية، ولكن بررت لنفسها أنه لم يكن بإرادتها بل فرضته خطورة الموقف. انتبهت توًا إلى أن صناديق الخطابات كانت مفتوحة على الجانب الآخر من الحائط، ومن ثم فإن أيًا من الموظفين الذين ينقلون حقائب البريد وصناديق التصنيف قد يلاحظ على الفور وجود ورقة ملقاة بدلًا من رسالة في ظرف أو طرد. وتأكدت من أنه سيسحقها وكأنها فراشة ميتة، بمجرد أن يراها عندما يضع البريد في أي من صناديق الخطابات الأخرى. سمعت في تلك اللحظة صوت المفتاح في القفل؛ فانتفضت مفزوعة وهرعت نحو باب الشقة. قال متظاهرًا بأن كل شيء طبيعي:

- مرحبًا بامرأتي الساحرة. ما رأيك في هذه المفاجأة؟

- ماكسيمو، هل فصلوك؟ (قالت نوريا ملتاعة، لأنها لم تعرف على أي وجه تستقبل وجوده هناك في تلك الساعة، في حين أنه أخبرها أنه لن يعود قبل الجمعة).

- على الإطلاق. لقد ألغوا بعض جولاتي الخارجية، فعدلت وجهتي لكي أنجز زيارات هنا أولًا. سأرحل السبت إلى الشمال.

- ستضطر لتناول إفطار من نشاء الذرة (زلابية) (خاطبته بنوع من الضيق لأنه لم يخبرها مسبقًا).

- لديك أكثر من ذلك بالتأكيد. (فتح ماكسيمو أحد خزائن المطبخ بقوة فوقع وعاء زجاجي على الأرض).

- بابي، بابي. ما أجمل عودتك بهذه السرعة! (قالت ميريبا التي استيقظت على هذه الضوضاء).

نظرت نوريا إليهما، وإلى نفسها وفكرت أنهم العائلة نفسها كما كانوا في الماضي، لكن ظاهريًا فحسب.

بعد الإفطار، قال لها ماكسيمو إنه سينام قليلًا؛ فسألته إذا كان سيزعجه أن تكتب على الماكينة. فأجابها:

- لقد أمضيت الليل كله في القيادة، ومع حالة التعب التي أنا فيها... من الأفضل تأجيل ذلك لوقت آخر.

اضطرت نوريا للانتظار لحين خروج ماكسيمو في واحدة من زياراته لكي تستطيع متابعة الرسائل. كان يتعين عليها تسليم ذلك الصندوق الذي تخفيه في الجزء السفلي من خزانة المطبخ واستلام صندوقين آخرين. وكانت بحاجة لإحراز تقدم بأسرع ما يمكن؛ فقد تراكم عليها عمل كثير متأخر إذ لم يكن بوسعها أثناء نومه إلا أن تقرأ بعض الرسائل فحسب وتدون بعض الملاحظات يدويًا. كانت أول رسالة سحبتها كانت مرسلة من رجل، يحمل الجزء السفلي من الظرف خاتم الشركة مع تاريخ الاستلام ومساحة بيضاء لكتابة تاريخ الرد. وصف المرسل نفسه بأنه شاب «عشريني»، خطأه الوحيد هو الوقوع في غرام إحدى خادمات المنزل. كانت فتاة في مثل سنه، ووصفها بأنها «كائن راقي، مثال للفضيلة، روح مرهفة الحس، من المؤسف أن تفنى في

تلك الأعمال المنزلية التي لا تتطلب سوى النزر القليل من المهارات».

لم ينتب نوريا أدنى شك في تصنيفه تلك المهام على هذا النحو لأنه لم يسبق له أن مارسها على الإطلاق. قال إن الفتاة الحسناء «اضطرت للرحيل لأن أسرتها فقدت كل شيء، صودرت ممتلكاتهم نتيجة لفشل تجارة الأب الذي تركهم محطمين وغارقين في الديون لآخر عمرهم». لتعويضها عن كل هذه المآسي -قالت نوريا بينها وبين نفسها: وربما لكيلا تلحظ التغير في الطبقة الاجتماعية- كان يستضيفها في حجرته ليلًا، نعم ليلًا أيضًا وكنتيجة لتكرار تلك الليالي حملت. قرر عندما تأكدا التوجه لمقر الحكم، كما تطلق والدته على المكتبة، لكي يزف إلى أكثر امرأة يخشاها نبأً يفيد أنه سوف يهديها حفيدًا. حسب وصفه، نظرت إليه أمه «وكأن عينيها ستخرجان من محجريهما، وتحتاج للنظر لأعلى للحيلولة دون ذلك. نظرت عوضًا عن ذلك إلى الأمام وإلى السقف. سأخبرك لكي تُكوِّني فكرة شاملة، بأنه بالرغم من أنني رجل، فإن السيدة أمي كانت يجب أن تكون عسكريًا ومن جيش الغزاة».

لم تجبه بشيء سوى أن يصطحب الفتاة، وأن ينزل السلم وينتظراها أمام باب المنزل، وسوف تطل هي عليهما من الشرفة. انتظر الاثنان هناك لفترة طويلة إلى أن قامت سيدة البيت، بمساعدة خادمة أخرى بربط حقيبتين بحبلين وأخذت تدليهما من الشرفة حتى لامستا الأرض. أخذ كل واحد منهما حقيبته. نفضت الأم يديها ثم أومأت إلى الخادمة لكي تغلق باب الشرفة الزجاجي المطل على طريق تصطف فيه أشجار الحور. كان هذا آخر مشهد انطبع في ذهن ابنها عن تلك المرأة التي طلب مساعدتها. ثم إنه عرف، عن طريق أحد أشقائه الكبار، أنها أخبرت الجميع ساعة الغداء أنه منذ تلك اللحظة نقص عدد أفراد الأسرة واحدًا وحظرت عليهم أن يذكروا اسمه في حضورها، ووصل الأمر إلى حد تهديد كل من يتجرأ على الاتصال به بأي شكل من الأشكال، بالحرمان من الميراث.

«لم يقل أبي شيئًا، حسبما أخبرتنا خادمة أخرى، ظل يتناول حساءه وكأن كل ذلك مجرد بيان رسمي لا يحتمل أية معارضة» اختتم تلك القصة التعيسة.

اعتبرت نوريا أن المثالي في تلك الواقعة أن الشاب، على عكس المعتاد، لم يتنكر للفتاة عندما اكتشف حملها، بل يبدو أنه وقع في غرامها وأراد الزواج منها. وعلى الرغم من أن الفتاة لم تكن من أصول متواضعة، يبدو أن الأم لم تكترث لهذا الجانب البالغ الأهمية بالنسبة لمفهومها الطبقي عن العلاقات الإنسانية، فلم تأخذها بهم شفقة على الإطلاق.

تمنت لهما نوريا حظًا وفيرًا، لم يساورها أدنى شك في أنهما سيحتاجان إلى أطنان منه، واقترحت عليه ألا يخطر على باله محاولة إقناع أمه في الوقت الراهن. وأنه ربما حين يولد طفله، سيكون هو أفضل حجة لإقناعها، إلا أن ذلك مازال أمامه عدة أشهر.

خطر على بال نوريا فكرة العودة إلى ذلك المنزل حُبلى، وأن ذلك كله كان مجرد حيلة لإنقاذ أسرتها من الموقف العصيب الذي وقعت فيه، ولكنها لم تشأ التعمق في تلك الظروف، كما لم ترغب في أن تنقل إليه أية شكوك حول أبوته، وهو الشعور الذي عبر عنه بكل فخر، وكأن ذلك نقله فجأة لمصافّ الرجال. رجحت نوريا تلك الفرضية استنادًا إلى معلومة تشير إلى ذلك، وكأنه قبل الانهيار الذي لحق بالأسرة، كان لديها رفيق عاطفي تقضي معه أوقاتًا طويلة وتركها بلا مقدمات بمجرد أن علم بالعثرات المالية التي ألمت بوالدها، على الرغم من أنها كانت أصعب لحظة في حياة الفتاة وأكثر وقت تحتاج فيه إليه. بدا وكأن مرسل الرسالة يقوم بدور ساعي بريد، مجرد ناقل لأحداث تتحدث عن نفسها، ويستطيع أي شخص أن يراها بكل وضوح. أي شخص، سواه.

دُوّن على المظروف ملخص محتوى الخطاب بكلمات قليلة، متسارعة، لم تعرف نوريا إذا كان خط الأب بيلسيرميس: «ابن ذوات يتسبب في حمل خادمة، ولكنه يبقى معها فتطردهما أمه من المنزل».

انقضى الصباح بالكامل، وبعد تناول الأربعة الغداء معًا، عادت للقراءة والرد على المزيد من الرسائل، بينما استلقى ماكسيمو على الأريكة. وجدت رسالة سيدة ثمانينية استهلتها بالعبارة التالية: «عرفت ذلك اليوم أن زوجي سيتوفى بعد أن رأيت أثناء تناول الإفطار معه لون أظافره يتحول إلى القرمزي». تصورت نوريا أنها اعتبارًا من تلك اللحظة ستواصل التأسف الشديد على ترملها، لكن اتضح أن ما روته كان تعبيرًا عن ارتياحها. عندما انتبهت لنذير الموت، شعرت العجوز بالبهجة وهي تبحث عن مفتاح مقبرة أسرتها. لدرجة أنها أوضحت في الرسالة أنه كان يتعين عليهم إزالة الزجاج عن شاهد القبر لإضافة اسم زوجها. أخرجت بعد ذلك ورقًا حريريًا من صندوق يحتوي على مجموعة من الزهور المطرزة شغلتها خلال الشهور الأخيرة لكي تضعها في مزهريات الخزف بالمقبرة. تركت كل شيء على طاولة المدخل ثم دفعت زوجها للاستلقاء وساعدته على النهوض من على مقعد المطبخ.

ذكرت في رسالتها أنها كانت مستعدة ألا تترك فراش موته حتى يرحل. أدرجت تعبيرات غير ملائمة، مثل كيف كانت تتحسسه من آن لآخر لتتحقق من أنه فارق الحياة و«تيبس مثل قطعة القديد».، وأكدت أنه تأخر كثيرًا، وكأنها تنتظر الترام. وذكرت أنه ظل حتى الرابعة عصرًا، على الأقل. بدا وكأنها تتحدث عن موعد تأخرت عنه. ذهلت نوريا عندما قرأت أنها ذهبت تبحث عن طبيب لكي يصرح بالدفن، وانتهزت الفرصة لشراء تذكرة طيران لكي تسافر في رحلة الأسبوع التالي إلى جزر الكناري.

اختتمت الرسالة قائلة إنها تخلصت أخيرًا من ذلك النير، وإنها توسلت إلى الله أن يمد في عمرها لسنوات كثيرة لكي تستمتع قليلًا، بعد الشباب والطاقة والأمل التي سلبها منها ذلك الخسيس الذي كان يزداد قوة يومًا بعد يوم فاضطرت لأن تساعده قليلًا لكي يلحق بالرب في الأمجاد السماوية. أعادت نوريا قراءة السطور الأخيرة عدة مرات لكي تتأكد من أنها تعني

ما بدا واضحا: إن العجوز تعترف بأنها قتلت زوجها. وهو عمل خطير يتناقض مع الشفقة الظاهرية التي تستشف من فقرات أخرى، إلا أن الخاتمة لم تدع أي مجال للشك:

انظري يا سيدتي، لا أعلم متى سأنتقل إلى العالم الآخر أم أنني سأظل باقية في هذا العالم لوقت طويل، ولكنني على يقين أن أي بائس آخر لن يعكر عليّ ما تبقى من حياتي. سوف ألقي عبوة العسل المسموم للنمل لأنه لم يعد في منزلي نملة واحدة كما لن تدخل منزلي أية حشرة اعتبارًا من الآن. تودعك امرأة تحررت بالفعل من عبءٍ ثقيل.

اعتبرت أن المعاناة أصابتها بالاضطراب، وكأن موته بعد سنوات طوال قضتها معه كما تقول، كان بمنزلة صدمة كبيرة لم تتحملها، وتتوهم أنها اشتركت في مصرعه. تذكرت نوريا، على النقيض من ذلك، أن هناك أشخاصًا ينتابهم الغضب عندما يترملون، وكأن شريك حياتهم تركهم بمحض إرادته، أو في هذه الحالة، ربما كان حقيقيًا وقامت القاتلة بمشاركة الجريمة، وفضلًا عن ذلك، بهذه الطريقة، مدركة أنها بسبب عمرها لن تدخل السجن إذا افتضح أمرها. كان من الصعب عليها أن تكتب إليها، إلا أن هذا كان عملها. إن لم تقدم لها التعازي، فستبدو كأنها تقر تلك الوحشية. قررت التركيز على القضية الأساسية. ستتمنى لها صحة جيدة، وأن تعثر على صديقات خلال الرحلة البحرية إلى الجزيرة، وهذا لكيلا تفكر أنها لم تقرأ رسالتها بالاهتمام الكافي، ستوصيها بعدم الزواج مرة أخرى، حتى لو كان على متن السفينة كلارك جيبل[1] نفسه، وغمز لها بعينيه. اختارته بالتحديد لأنها اعتبرت أن ذلك الممثل يعد بالنسبة لتلك المرأة، نموذج الرجل الوسيم

---

1. نجم سينمائي أمريكي (ولد في قادش 1901 جنوب إسبانيا، وتوفي عام 1960 في لوس أنجلوس) من أشهر نجوم العصر الذهبي للسينما الأمريكية ومن أشهر أفلامه «ذهب مع الريح»، وكان يعتبر في زمنه مرجعية للوسامة والفحولة (م)

الناضج الذي قد تنجذب إليه نظرا للعصر الذي عاشت فيه شبابها، علاوة على أنها تذكرت أنه قد توفى منذ بضع سنوات.

كانت مستغرقة تمامًا في الرد على تلك الرسالة، لدرجة أنها لم تنتبه إلى وقوف ماكسيمو خلفها وقراءته للكلمات من فوق كتفيها.

– من توفي؟

– أحد جيران والديّ. كان طاعنًا في السن. كنت أنقل تعازيّ للأرملة (ردت نوريا على الفور).

– حسنًا، يالها من نصائح تقدميها إليها!

– وماذا كنت سأقول لها؟ الأقوال المعتادة؟

– لا شيء، لا شيء، كما تشائين (قال ماكسيمو وكأن الموضوع لم يعد يعنيه). هل يوجد ثلج؟ (اتجه إلى البار الموضوع في الأثاث، عبارة عن رف متحرك في نفس الخزانة بجوار الرف الذي تحتفظ فيه بالآلة الكاتبة ذات النوع أوليمبيا، وصب لنفسه كأس ويسكي دي واي سي الإسباني) هل أسعدكِ قدومي؟ هل تعرفين في أي شيء فكرت؟ في أن نتصرف وكأنه يوم الأحد.

– ولكن... (أرادت نوريا أن تخبره بأنه مازال أمامها الكثير من الرسائل لكي ترد عليها، لكنها تمالكت نفسها. انتهزت الفرصة لتدير مفتاح المذياع. كانت قد قررت ضبط الإيقاع الذي تحرر به ردودها على الآلة الكاتبة مع ما تسمعه في البرنامج، إلا أنه بدا لها في تلك اللحظة نوعًا من الإزعاج).

– سنذهب الآن لتناول العشاء في أي مكان.

– مع الأطفال.

– لا، يمكنك أن تتركيهما في عهدة مالكة منزلنا مثلما تفعلين عندما لا أكون موجودًا (قال وهو يشير بذراعيه لأعلى).

20

كانت الرسائل مضغوطة بقوة داخل الصناديق، لدرجة تناثر العديد منها في الهواء، أحيانًا بمجرد تناول واحدة. وبدلًا من الرد على خمسين ضاعفت ذلك العدد مرتين. كانت تجيب في دقائق قليلة على من يسألونها عن يوم قديس بعينه أو عناوين بعض المؤسسات. كما أشارت إلى عدة قصائد عثرت عليها على الفور في مكتبتها. احتفظت بالعديد من دواوين مختارات الشعر الإسباني والعالمي.

عندما استعدت يوم الجمعة للخروج بدون طفليها، لأنها تصورت أن زوجها سيبقى معهما، عرض هو اصطحابها إلى المعمل.

- سأترك السيارة في أي مرآب قريب ونتسكع حتى شارع بيلايو سيرًا على الأقدام.

- لا، ماكسيمو، لا يهم. سأذهب بالحافلة. وهكذا لا تضطر ميرييا ومارك للخروج.

- لكن، يا امرأة، إذا كان هذا جيدًا لهما. يحتاجان لمحفزات تجذب انتباههما. تعرفين ما يقوله علماء النفس الحديث. سأصطحبك.

- كما تشاء (اعتبرت نوريا أنها إذا أصرت على الرفض، فسيبدو سلوكها أكثر إثارة للشك).

- سوف نرحل، أيها الصغار.

- إلى أين، بابي؟

- سنصطحب ماما لتسليم بريدها التجاري. (خاطب ميريبا وكأنها تتفهم المصطلح).

- عند السنيور ميكو؟

تغيرت سحنة ماكسيمو، عندما طرحت ابنتها هذا السؤال، وشعرت وكأن الغضب أعاد رسم ملامحه لدرجة بات مستحيلًا معها على نوريا أن تتعرف عليه، إلا أنها لم تنظر إليها، بل أجابت بهدوء على الطفلة:

- لا، يا عمري، هذا في حديقة الحيوان (أرادت نوريا إنهاء تلك المحادثة).

***

فتحت لهم ليليانا الباب.

- هذا هو زوجي، ماكسيمو ثفرا (قالت نوريا على عجل).

لم يسبق للسكرتيرة أن رأتها من قبل بهذه الصرامة. كانت نظرتها مصوبة للأرض وجسدها شبه محني.

- أهلًا، يا آنسة. (قالت ميريبا، التي على عكس والدتها، لم تغير شيئًا من سلوكها الودي).

نظر ماكسيمو إلى ليليانا مبتسمًا، ولكن بشكل عدواني، وكأنه يود غوايتها بالقوة، فارضًا نفسه عليها. كان بورو واقفًا في الآخر إلى جوار أحواض صنابير المعمل. ترك وعاء بلاستيكيًا مستطيلًا هناك على أحد الحوامل الخشبية، واجتاز الصالة في الحال. لم يرغب أن تُؤوَّل نظرته إلى نوريا بأي شكل من الأشكال. وهكذا قرر المداراة. علاوة على أنها سارعت بخفض رأسها على الفور. طفا المشهد على إيقاع موسيقى فيكتور هربرت وكأنه فضاء مسرحي ناطق أو حلقة من مسلسل يحظى بإقبال جماهيري كبير. سأله ماكسيمو وهو يتلفت حوله:

- وحضرتك رئيس كل هذا؟

- لا، بالطبع لا، هذا آخر ما يخطر على بالي. أنا مجرد موظف لدى السيد والسيدة فرومنت. أتولى مراقبة الجودة. (شعر بضيق لتعرضه للاستجواب والتحليل).

- ماكسيمو، أقدم لك بورو نافاسكويس (شعرت نوريا أنها مضطرة للتدخل).

جفل زوجها عند سماع الاسم وكأن كف المهندس الكيميائي نقلت إليه شحنة كهربائية.

- حسنًا، حسنًا جدًا. (قال ليداري ذلك بعد أن سحب يده فجأة).

- حسنًا، جئت فحسب لإحضار الرسائل. (أرادت نوريا الخروج من هناك بأسرع ما يمكن).

- لحسن الحظ أنكِ جئت بهذه الصحبة الطيبة. اعتبارًا من الآن سيكون هناك أكثر من صندوقين، وسوف يوصلون لكِ الرسائل حتى المنزل، ولن تكوني مضطرة حتى للمجيء. (قالت ليليانا).

امتنت نوريا كثيرًا لتلك المداخلة الشديدة التلقائية والتي أضفت نوعًا من الطبيعية على ذلك الموقف.

- عظيم جدًا! هذا يروقني بالفعل (قال ماكسيمو بمنتهى الصلف)، انظري كم التنقلات غير الضرورية التي ستوفرينها!

استجمع كل قوة نظرته، وكأنها سلاح، ثم استدار مواجهًا بورو. استوعب الكيميائي تمامًا هذا التحذير.

- شكرًا، نحن راحلون (قالت نوريا محاولة أن تبدو لا مبالية وهي تنظر إلى ليليانا وبورو وكأنها لن تراهما مرة أخرى).

فكر زميلها بالطريقة نفسها، ولهذا السبب أضاف على الفور:

- سيدة ثفرا، السيدة ليونور رجتني أن أعطيكِ هذا الظرف أيضًا. أخبرتني أنكِ ستعرفين فحواه.

- شكرًا، شكرًا. دمتم بخير، وإلى اللقاء قريبًا... أتمنى (قالت بصوت يكاد يكون غير مسموع، وكأنها تتمنى أمنية).

***

عادوا بعد أقل من نصف ساعة إلى المنزل. فقالت نوريا لماكسيمو فجأة بتوتر كبير، إنها نسيت أن لديها موعدًا مع مصففة الشعر في الغد. وأنه إذا احتاج شيئًا، فليخبر أورسولا.

- لا احتاج مساعدة من أحد لرعاية أطفالي. وينبغي أن يكون هذا حالكِ أيضًا. الغرض هو الخروج (قال الجملة الأخيرة من بين أسنانه، إلا أن نوريا استوعبتها تمامًا).

كانت قد اتفقت على موعد مع السيدة صاحبة الرسائل في الحادية عشرة في سانتا ماريا ديل مار.

يوم السبت، سمعت وهي ماتزال عند ناصية شارع لاييتانا مع شارع بلاتريا أجراس كاتدرائية لا ريبيرا، الاسم الشعبي للكنيسة، عوضًا عن كاتدرائية برشلونة. حاولت السير أسرع، ولكن الكعب الدقيق لم يمكنها من ذلك. اقترب منها بورو بمجرد أن وصلت إلى الميدان.

- وصلت متأخرة، لكن في الحقيقة استطعت المجيء لفترة وجيزة. ماكسيمو لا يرفع عينه عني. لا أدري، بورو. وكأنه يعرف شيئًا.

- على رسلك، اهدئي! لم تأتِ بعد. إنكِ تتفصدين عرقًا.

- نعم، إنها مسافة طويلة سيرًا على الأقدام من موقف الحافلات.

ناولها بورو منديله.

- لا أريد أن يتسخ من تبرجي. لم أحمل حتى منديلي.

- احتفظي به! (لم يكف عن النظر في كل الاتجاهات). إنها الحادية عشرة والربع. يبدو أن زوجكِ لم يستلطفني كثيرًا.

- لا تقل هذا! إنه هكذا مع الجميع (ثم غيرت الموضوع): ماذا لو أن هذه السيدة شعرت بالندم؟ هل تعتقد أنها ستأتي؟

- لا أدري. التواصل عبر البريد شيء، لكن المواجهة المباشرة شيء آخر مختلف تمامًا في مسألة بالغة التعقيد كهذه. أخبرني الأب بيلسيرميس أنهم سلموا رضيعًا آخر. ولكن ليس في ملجأ ريباس بل في ملجأ سان خوسيه، بالقرب من كاتدرائية العائلة المقدسة. يجب أن نذهب بأسرع ما يمكن.

- غدًا. الثانية عشرة، سيكون ماكسيمو قد رحل.

- حقًا؟

- ماكسيمو سيرحل اليوم. وسأكون حرة منذ ذلك الحين. (أخبرته وهي تتنهد بارتياح).

لم تتوقف أعينهما عن التفرس في جميع النساء اللاتي يعبرن أمام درج الكنيسة. كان بورو وهي متقاربين للغاية لكي يتمكنا من سماع بعضهما بعضًا وسط كل هذه الضوضاء من حولهما. انتابت نوريا رعدة، وكأنهم أمسكوا بها من ذراعيها وأخذوا يهزونها، وانتبه بورو لحركتها.

- لقد بدأ عرقك يبرد، تعالي! (أحاطها بذراعه وجذبها نحوه).

شعرت نوريا بالسكينة. ولم يزعجها أن تكون على هذا النحو معه. رأت أنها كانت بحاجة إلى تلك اللفتة، تلك الحماية. ظلت تشعر بعينين في ظهرها وكأنهما إصبعان يدفع بهما شخص رأسها من الخلف. بدون أن تنفصل عن بورو، أدارت عنقها بصعوبة نحو شارع تونديدورس. كان هناك رجل على الناصية، سرعان ما تراجع خطوة إلى الوراء وتوارى بظهره في أحد الأزقة. توافر لدى نوريا الوقت الكافي لكي تلاحظ، عندما تحرك، أن البدلة كانت

واسعة للغاية عليه. كما لفت نظرها، بالإضافة إلى ذلك، درجة لمعان الشعر الفضي، تفصيلة أخرى: النظارة تتدلى على ياقته، مثبتة بسلسلة معدنية براقة.

أثناء ذلك، كان بورو ينظر إليها بميل في اتجاه شارع اسباديريا.

- نوريا، يجب أن نرحل، هناك رجل يراقبنا من هناك (قال وهو يشير إلى الأمام)

- هناك رجلان يراقباننا. رأيت رجلًا آخر توًا.

لاحظا، لأنه لم يكن يفصلهما عن ذلك الشخص الثاني سوى عشرين مترًا، فكه العريض، عينيه الآسيويتين، الأنف المستقيم، الشفاه اللحيمة، الشعر الأشقر الذي يلفه وكأنه هالة تدرك بالكاد، لأنه محلوق بالموسى، ومع ذلك كان ينمو بقوة وبشكل أكثر كثافة، بدرجة ضخمت بنية جمجمته، التي ارتفعت لنحو مترين عن الأرض. كانت ذقنه مشقوقة لنصفين، وهالات سوداء كبيرة حول عينيه، وعظام وجهه بارزة وحادة. لهذا أدركا لماذا شُلت حركتهما في وجوده. رماهما بنظراته، ثم راوح النظر إليهما وإلى الزاوية التي اختبأ فيها الآخر.

- هل سيطلقون علينا النار؟ (تساءلت نوريا مرتعشة).

- هنا مستحيل (قال بورو بصوت مبحوح ومد لها يده). يتعين علينا التفكير في كيفية الفرار. الأفضل بالنسبة لنا في الوقت الحالي، أن نظل محاطين بالناس. كلما زاد عدد الشهود، كان ذلك أفضل.

- شهود، يا بورو؟ على ماذا؟ على مصرعنا؟ في أي ورطة زججنا أنفسنا؟ إنهم أشرار.

- نعم، إنهم حفنة قتلة. هذا يوافق هيئتهم تمامًا (قال بورو بفم مغلق وكأن اللذين ينظران إليهما لديهما القدرة على قراءة الشفاه).

قرر الشخص المختبئ عند الزقاق بشارع توندیدورس الظهور وفي تلك

اللحظة شرع الآخر في السير ببطء في اتجاهها. عندما أصبح قبالتهما، نظر إليهما بوقاحة وكأنه يتحداهما، بصق على الأرض ثم تابع السير في الشارع الذي كان فيه الرجل الآخر. سارا بالإيقاع نفسه، ولكن يفصل بينهما نحو عشرين مترًا وكأنهما دميتان تحركهما المفاتيح نفسها. اقتربت نوريا من الدرج وجلست.

- أنا في منتهى الخوف. لقد كان فخًا. لا توجد أية امرأة. أرادا اجتذابنا للإيقاع بنا لأننا عرفنا هذا الموضوع. وقد رأونا الآن وعرفوا من نكون.

- نعم. يبدو أن بحثنا لا يروقهما كثيرًا. ولكننا لسنا في وضع يسمح لنا بالتفكير. انتظريني! سوف اتصل بشركة سيارات الأجرة لكي يقلونا من هنا تحديدًا.

- لا تتركني بمفردي! لا ندري إذا كانا قد رحلا.

- سأعود في الحال. هذا أفضل.

الجزء الثاني

21

لم تستطع نوريا تحويل بصرها عن عداد سيارة الأجرة. قرأت فوق الأرقام التي تتبدل«أجرة الرحلة». طلب بورو من السائق التوقف عند جادة الماركيز دي ارختنيرا. عندما ترجل، انتظر ابتعاد السيارة لكي يتابع عبر جادة كولون متجهًا إلى حيه.

وصل بعد أقل من ربع ساعة إلى ميدان بوكيريا. رشم علامة الصليب، عندما وصل بعد عدة خطوات أمام أقواس كنيسة القديس أجوستين ذات الأسوار الحديدية. مد بصره نحو الفراغات التي بدت خلية نحل من الحجر، أضفت مع الأعمدة مسحة فقر على تلك الواجهة. اجتاز بعد ذلك عتبة البهو، وبحث عن عزاء في لوحة الفريسكا التي رسمها الفنان الكتالوني كلاوديو لورنسالي[1]. مسّد ذراعيه الاثنتين في الوقت نفسه، وهو ينظر إلى تلك اللوحة التي عرفها منذ صغره، وكأنه يود أن يمحو عنهما نظرة هذين الرجلين. لم يكن يرغب في إظهار الكثير من الخوف أمام نوريا.

خرج على الفور وحاول تناول شيئًا، طلب سمكًا مقليًا، تناول منه قطعتين بالكاد. طلب من النادل أن يلفه له، وخرج من البار ومعه لفة الورق المشمع على مبعدة قدر المستطاع من جسمه تفاديا للبقع.

ما إن دلف إلى العقار الذي به منزله، حتى انفتح الباب الأيمن عند

---

1. كلاوديو لورنثالي سوجرانييس، برشلونة (1814 - 1889) يعد من أهم فناني إقليم كتالونيا وباعث نهضتها التشكيلية من خلال أعماله التي تنتمي للمدرسة الرومانسية (م)

اجتيازه الطابق الأول. حيته جارته من خلال دخان مبسم السيجارة.

- نفاسكويس، كيف حالك؟ فلنر متى ستشرفنا بزيارة!

رأى خلفها فتاة تناهز الخامسة عشرة، لم تكن ترتدي سوى حمالة صدر من النايلون وحزام خصر وجوارب حوافها موشاة عند الفخذين بالدانتيل. ابتسمت له على الفور.

- ابقَ حقًا. تناول كأس نبيذ حلو معنا. فكما تعرف في هذه الأوقات لا يوجد الكثير من الزبائن (قالت أصغر الفتيات). أليس كذلك؟ (سألت ربة عملها وكأنها أدركت توًا أنها تمادت في تلك الدعوة لمنزل لم يكن منزلها).

- ستقضي وقتًا طيبًا أكثر من أي مكان. أؤكد لك هذا، كما سنقدم لك سعرًا خاصًا لأنك جارنا (شجعته دونيا ريتا. نظر الاثنتان إحدهما إلى الأخرى وانفجرتا في الضحك).

- يا له من عرض مغرٍ! أنتِ تعرفينني (خاطب بورو مالكة ذلك المنزل). أنا رومانسي وأريد الوقوع في الحب.

- إذن، ستقع في غرامنا في الحال (تابعت الفتاة الشابة) بمجرد أن تجربنا، أليس كذلك، دونيا ريتا؟

- أتسير كل الأمور على ما يرام؟ (سألهن بورو لتغيير دفة الحديث).

- المعتاد. سكير يتجاوز حدوده، آخر يمارس سخافته، من لا يريد الدفع لأنه لم يقبض راتبه بعد، ولكنه دائمًا يقول هذا بعد الـ... لحسن الحظ أن لدينا دميان. (لطالما بدا ذلك الشخص لبورو فريدًا من نوعه، وكأنه طفل كبير ووحش في الوقت نفسه. فكر أنه ربما بسبب تلك السمات، لن ترتجف يده، أو يتشتت ذهنه إذا اضطر لفرض النظام في سجل حسابات دونيا ريتا بذلك الأسلوب المباشر). يحب البنات بجنون، ولما كان بالإضافة إلى ذلك بتولًا بوازع ديني، فلسنا مضطرين لأن ندفع له من لحمنا، تفهمني طبعًا.

- بتولًا؟ (أصابته تلك الصفة المغرقة في التثاقف بدهشة كبيرة). أي أنه ليس متزوجًا؟ وما علاقة هذا بالموضوع؟

- هذا ما أقوله دومًا (قالت جارته وهي تزم شفتيها لكي تسحب بقوة أنفاس الدخان). يؤكد أنه لا يريد معرفة أنثى. هو أدرى. تتفهم بالنسبة لنا، يسدي إلينا معروفًا. يقول: إنه يريد عندما يكبر أن يصير قديسًا، لأن المسكين لا يعلم أنه كذلك بالفعل.

- حسنًا، أستأذنكما.

- لأن هذه رغبتك. (انفجرتا في الضحك مجددًا).

- لا أستطيع التوقف عن العمل، دونيا ريتا (قال بورو).

كانت شقة الكيميائي في الطابق الأخير تتكون من حجرة واحدة فسيحة للغاية ومرتبة بعناية، ملحقًا بها مطبخ اقتصادي يكاد يكون غير مستخدم على الإطلاق، سرير لفرد واحد أسفل سقف العلية، مكتب بأرجل معقوفة، وأدراج بمقابض مطعمة بالصدف. يستخدم قطعة الأثاث هذه كخزانة لأنفس الأشياء لديه. توجد في الركن أباجورة عليها النقوش نفسها التي للحاجز الخشبي الذي يراه كلما كان الباب الذي توقف أمامه قبل برهة مفتوحًا.

أما أغلى مقتنياته فهي كتبه، نباتاته وكيبلر، قطة باللونين الأبيض والبرتقالي، يترك لها نافذة الشقة الوحيدة مفتوحة لكي تتجول فوق الأسطح المحيطة بالفناء الداخلي. ويجدها دائمًا كلما عاد في المكان نفسه على السجادة، فوق شكل هندسي مستدير ومن حوله مثلثات، يشبه الشمس، يشعرها بالدفء؛ فهو مشغول من الصوف. يعتقد المهندس الكيميائي أنها تتولى نوبة الحراسة حتى تراه يظهر عبر الميدان. بدت له القطة عندما فتح لها لفافة الورق المشمع وبها بواقي السمك المقلي فوق إفريز النافذة، الكائن الأكثر امتنانًا على

وجه الأرض. داعبها بورو فيما تواصل هريرها. لاحظ بطنها. راقه أن تلك القطة التي يطلق عليها في تلاعب لفظي اسم كيبلر، سيصبح لديها ذرية[1].

***

دخلت نوريا منزلها. تضع على رأسها وشاحًا من الحرير البراق ملونًا بدرجات الأخضر والأزرق، أهداها إياه ماكسيمو قبل بضعة أسابيع. تعللت بأنها مازالت مضطرة لارتدائه لبضع ساعات أخرى لكي تتضح التموجات أكثر. رفعه من عند العنق ثم قرصها هناك قائلًا:

- يا سلام! سأضطر إذن لكي أغادر دون أن أرى النتيجة؟ هل صبغت شعرك أشقر مثل جين هارلو[2]؟

- بالطبع لا، مجرد غسيل وتجعيد، وقد وضعوا لي بكرات لكي تضفي عليه سُمكًا أكبر.

- بكرات (كررها).

في تلك الظهيرة، عندما رحل ماكسيمو، حبست نوريا نفسها في الحمام، وفتحت الرسالة التي أعطاها إياها بورو في اليوم السابق عندما ذهبت إلى المعمل مع عائلتها. لم تكن قد تمكنت بعد من قراءتها بسبب كثرة الانشغالات نتيجة لوجود ماكسيمو والذهاب إلى ميدان سانتا ماريا وما حدث هناك. كان تقريرًا آخر، ولكن لم يكن يحمل هذه المرة شعار شركة المستحضرات

1. يوهانز كيبلر (27 ديسمبر 1571 - 15 نوفمبر 1630)، عالم رياضيات وفلكي وفيزيائي ألماني كان أول من وضع قوانين تصف حركة الكواكب بعد اعتماد فكرة الدوران حول الشمس كمركز لمجموعة الكواكب من قبل كوبرنيك وجاليليو. المفارقة هنا أنه لم ينجب (م)

2. جين هارلو (3 مارس 1911 - 7 يونيو 1937) ممثلة أفلام أمريكية وأيقونة للجنس في الثلاثينيات من القرن الماضي. وكانت تُعرف باسم «القنبلة الشقراء» توفيت بشكل مفاجئ بسبب الفشل الكلوي عن عمرٍ يناهز 26 عامًا. (م)

الدوائية بل وزارة الداخلية، ويُقرأ أسفل شعارها: «الإدارة العامة للصحة والتفتيش العام على الدواء»، وفيما يلي التقرير.

تكمن الميزة التي تجعل هذه المادة الفعالة تتفوق على غيرها من المركبات المماثلة من عائلة مسكنات الباربتيورات، مثل البنتوباربيتال، في أنها تخلو من الأعراض الجانبية. وقد استبعدت الشركتان السويسريتان سيبيلين ولينسكس تسويقها. ولم توضح أسباب الرفض. ربما ترجع لاهتمامات أخرى.

استحوذ مختبر شركة أورلانتا في النهاية على الترخيص. شغل رئيس مجلس إدارتها منصب نائب مدير معهد الجدري والبحوث الفيروسية في كراكوفيا، بولندا. ويبرز من بين إنجازاته اكتشاف المصل المضاد للتيفود. اتجه لاحقًا لدراسة خصائص وتطبيقات البنسلين.

توجد إفادات -نسخ من كل ما أرسل، بالإضافة إلى قائمة عناوين- بأنه أرسل عن طريق هذه الشركة أكثر من أربعين ألف رسالة إلى أطباء ألمان لكي يقوموا بالتوصية بالمادة التي هي موضوع هذا التقرير. لا توجد تقارير عن التسمم الدوائي للعقار.

ما إن انتهت نوريا من قراءته، حتى شرعت في إزالة العرق الغزير. نثرت قليلًا من عطر مايروجيا. تشممت إبطيها مجددًا. مسحت بعد ذلك بقطعة قماش مبللة على وجهها وكأنها تود محو الهالات السوداء وتعديل شق فمها. دخلت الفراش، تقلبت عدة مرات، ولما وجدت أن النوم مستحيل، نهضت من الفراش واتجهت إلى غرفة المعيشة. جلست على المقعد الهزاز، وفتحت كتابًا للكاتبة البرشلونية كارمن كورتس بعنوان «المجهول». قرأت دفعة واحدة، حتى الساعة الخامسة صباحًا صفحاته المئتين والخمسين حول حياة رجل عاد إلى منزله بعد عشر سنوات قضاها في أحد سجون السوفييت.

استيقظ طفلاها بعد نحو ساعتين، على وقع جلبة الأواني في المطبخ. قدمت لهما الفطور، ثم تركتهما بعد ذلك فوق سجادة الحجرة حيث اعتادا اللعب، أعدت لنفسها فنجان قهوة بالحليب، واستعدت لمتابعة الرسائل. تنفست نوريا الصعداء حينما وصلت لنهاية الأولى. فكرت بعد ذلك بصورة أوتوماتيكية في بورو وماكسيمو. وجدت أنهما شديدا التباين والاختلاف وكأنهما النهار والليل في كل شيء. لم يكن الكيميائي يتعمد فرض شخصيته مثلما يفعل زوجها، الذي تخصص دائمًا في الاستعراض لكي يرى الجميع هيئته وسلوكه. على العكس، كان بورو يدع، سلوكه، أعماله، تصرفاته الحكيمة تتحدث عنه. وحتى من الناحية الجسمانية كانا شديدي الاختلاف: عينا المهندس الكيميائي لونهما أزرق فاتح، شعره كستنائي، أما ماكسيمو فشعره ولون بشرته داكنان بدرجة أكبر بكثير، لدرجة أن هذه السمة انعكست على صوته. علاوة على عضلاته المفتولة والتي تبدت في صلابة ذراعيه وساقيه. أخبرها عندما تعرفت عليه بأنه يمارس هوكي الساحة على الرغم من أنها لم تره مطلقًا يمارس تلك الرياضة. فكرت بالنسبة لجسم زميلها في المعمل أنها لا تعرف سوى ما تسمح الثياب بتخمينه. تصورت نفسها معه، مع بورو، على شاطئ لا برثلونيتا في فصل الصيف، وقررت كبح جماح تفكيرها.

22

دلفت نوريا في الحادية عشرة صباحًا إلى منزل دورا لتطلب من أورسولا مرافقة طفليها لبضع ساعات.

- مرحبا، أورسولا. هل كل شيء على مايرام. لقد أعددت يخنة لحم العجل بالخضار، وتصورت أنه يمكن أن تأكلوا أنتم الثلاثة، وإذا رغبت دورا فقدمي لها أيضًا طبقًا.

- ياه، لحم! فليباركك الرب! حتى المضع لم أعد أتذكره.

- لا تقولي هذا! يا امرأة. فلتعلمي أنه متوفر هنا أيضا طعام جيد لكِ ولطفليّ على حد سواء!

- بالتأكيد، أنا أتحدث عن منزلي، بدأ الآن يدخل نزر من الطعام لحجرة الخزين بفضل إحسان الآنسة بلومر إلي. ولكن اليوم، ولأنها ليست موجودة فلم أفكر في تناول أي طعام، علاوة على أن اللحم لا يُرى عندها كثيرًا. أليست هذه هي الحقيقة؟ مع كل ما لديها من مال. أنا قادمة في الحال.

ارتدت نوريا على الفور الثياب التي كانت قد حضرتها في الليلة السابقة. وبمجرد أن دخلت أورسولا أعطتها بعض التعليمات الأخيرة بشأن طفليها، وخرجت إلى الشارع. تركتها الحافلة أمام مكتب البريد ذي الأعمدة والطاولات المستديرة. عندما فتحت صندوق البريد الخاص بها، مررت يدها بداخله عدة مرات، وكأنها تستطيع بهذه الطريقة أن تُنبتَ به رسالة أو طردًا أو أي شكل آخر من أشكال المراسلات تكون قد خطر على بال المرأة

التي لم تحضر موعد ميدان سانتا ماريا. كانت تنتظر اعتذارًا، تفسيرًا، سببًا يهدئها ويجعلها تعتقد أنها كانت حقيقية.

رآها جيوفري بالادري من ظهرها أمام جدار صناديق البريد، ولكيلا يلحظه أحد، اختلط بالواقفين في الصف. لم يكترث بالالتفات خلفه، حين غادرت نوريا المبنى. خاطب المخبر السري إحدى الموظفات ملوحًا بنسخة المفتاح التي صنعها له ماكسيمو. كان يتدلى من الحلقة المعدنية قطعة من الورق المقوى تحمل رقم 77:

- أود معرفة إذا كانت لدي مراسلات.

- فلتذهب بنفسك! (أجابته بدون أن تلتفت إليه).

في تمام الساعة الثانية عشرة، كانت نوريا أمام البوابة الرئيسية لملجأ أيتام سان خوسيه، الكائن في رقم 388 بشارع بروفنسا. كان مبنى شديد التكدس: يقسم عمود رأسي نوافذ الطابقين الأرضي والأول ونوافذ مستطيلة في الطابقين الثالث والرابع زخارفها في غاية البساطة. لم يكن بورو قد وصل بعد. خافت أن يكون قد أصابه مكروه أمس في الطريق إلى منزله. أقلقها أيضًا التفكير في ماكسيمو وإحتمالية ظهوره في أية لحظة. في الماضي، عندما كان يرحل عن برشلونة، كانت متأكدة مما تفعل، ولكن بدأت الشكوك تداهمها منذ أن أصبح ملاصقًا لها.

- نوريا تعالي! (فزعت نوريا إلى أن رأت بورو، خارجًا من ملجأ الأيتام)

- أنهيت إجراءات استقبالنا. هذا يعد إنجازًا. جعلوني أوقع على كم كبير من الأوراق. كما قدموني أيضًا إلى والدة الطفل. جاءت لإرضاعه.

خاطبها بورو، مبتسمًا فحسب، على الرغم من أنه لم يبتهج لمرأى شخص هكذا من قبل:

- ألاحظ عليكِ الإرهاق.

- هل استطعت أن تنام؟

- سوف نتحدث لاحقًا. اتبعيني! أخبروني بأن هناك طبيبًا ألمانيًا تقدم بطلب مكتوب لفحص الرضيع. يجب علينا أن نبذل قصارى جهدنا لنعرف من هو.

اجتازا ثلاثة ممرات يغمرها الضوء تطل على الحديقة في كل واحد منها شرفات متكررة على نطاق واسع ذات أقواس وأعمدة خارجية. أشار بورو إلى امرأة شديدة الضآلة، ترتدي ثوبًا رماديًا بأزرار، جالسة على أحد المقاعد المتناثرة على امتداد أكثر من أربعة أمتار في كل محور من محاور تلك الممرات:

- إنها هي.

كان ذيل الثوب يصل إلى أسفل ركبتيها، وترتدي حذاء ضخمًا، رجاليًا تمامًا. أبعدت رضيعها عن صدرها، حينما رأتهما قادمين من بعيد، وزررت الفستان على عجل.

- أقدم لكِ نوريا سومبورت، زميلتي في المختبر. أشكركِ على بقائك للتحدث معنا.

- لا داعي للشكر. هكذا أبقى لفترة أطول. أنا لا أعمل اليوم. إنه يوم الراحة الوحيد لدي. باقي الأيام أمكث ما يتيسر لي من وقت. أسكن في الجوار. (أجابتهما بصورة متقطعة، بهذه الجمل المقتضبة التي يبدو أنها حفظتها من كثرة ترديدها).

ابتسم الطفل برضا. كان وجهه مستديرًا وشفتاه بارزتين وضيق العينين. لم يكن ممكنًا رؤية تفاصيل جسمه من أسفل الوشاح.

- كما ترين، أنا لا أستطيع تحمل واحد ويوجد هنا سبعون. على الرغم من أنه بالطبع، لا أحد منهم مثله. (تنهدت). يحسنون رعايته، ولكن أعضاءه الناقصة...

- على الأقل ليس يتيمًا، فأنت لديه. هل يمكنني السؤال عن زوجكِ؟ (قالت نوريا).

- إنه لا يريد المجيء. لا يستطيع تحمل رؤية الطفل. وضعت في منزل شقيقته لأن حماتي تعيش هناك، وليس لدينا إمكانيات للذهاب إلى المستشفى. منعتاه، شقيقة زوجي وأمها من حمله. قالا له إنه يجب تجنب اللمس، بسبب الميكروبات. أما أنا فقد حرمتاني من مجرد رؤيته. خبأتاه لثلاثة أيام تحت منشفة. أخبرتاني مارجاريتا الأم والابنة أنه يتعين عليّ الراحة، وبالفعل كنت في شبه إغماء، وفقدت الكثير من الدماء. حضر طبيب ذات يوم وسألهما عن حالتي. سمعتهم يتهامسون. قال لهما: إنه لا يوجد سبيل آخر سوى مواجهة الموقف.

- وهل عرضوا عليه الطفل؟ (سأل بورو)

كانت المرأة تحتضن الطفل بذراعها الأيمن. فوضعت يدها اليسرى على الجانب نفسه من وجهها وقلصت عينيها ووجنتيها.

- كان هذا أسوأ ما في الأمر. طلب الطبيب من حماتي وشقيقة زوجي إحضار سيور جلدية، حبال، أسلاك، ما يتوافر لديهما. طلب مني أن أضع ذراعي بشكل متقاطع، وقيدهما إلى حديد ظهر الفراش. ثم قيد قدميّ بحبل إلى قوائمه. لم أكن أرغب أن أرى نفسي على هذا النحو، وهو يخبرني أن أهدأ فحسب. من شدة الضعف لم أجد بي قوة لكي أرد عليه. (تابعت بشكل متقطع حديثها بصوت متهدج وكأنها استعادت تلك اللحظات. تعطي انطباعًا أمام الشرفة هناك بكأنها أصبحت فوق صخرة بعد أن جرفها سيل المرارة ذاك). مرر حبلًا أسفل صدري وآخر فوق ساقيّ.

فكرت نوريا أنه بالإضافة إلى حالة طفلها، تتشارك هذه المرأة مع تلك التي تعيش في خصاص ماجوريا، الحاجة للتعبير عن كل ما يضيق به صدرها.

– لم أعرف لماذا فعلوا بي ذلك؟ كان شيئًا فظيعًا! والطفل يبكي ولا يلتفتون إليه. وأنا أسألهم، فتتظاهر كلٌّ من مارجاريتا الابنة ومارجاريتا الأم والطبيب بأنهم لم يسمعوني. ولم يكن زوجي بالمنزل. كنت أعلم بالفعل أنه لن يتأخر في المجيء وقد عولت على ذلك. ناولت شقيقة زوجي الطفل إلى الطبيب وكأنه جوال (قالت وهي تصوب نظرها نحو وجه طفلها السعيد): «تفضل!» سمعتها تقول له. لم أستوعب كل هذه المسرحية. وضعه الطبيب على حافة الفراش، وبدأ ينضو عنه القماط ثم رفعه من ساقه الوحيدة لكي أراه. رفعه هكذا، وكأنه...، لا أدري. «ولم يكن هذا فحسب كل مصابه؛ فلم تكن لديه ذراعان أيضًا». (ربتت نوريا على كتف المرأة عندما انفجرت بالبكاء. توقفت دمعة على منتصف وجهها. بدت كشظية زجاج). تصور أقاربي أنني فقدت عقلي، وتصرفت على هذا النحو: صرخت حتى بُح صوتي، وتسببت لنفسي في جروح غائرة من احتكاك الحبال، الطبيب نفسه عالجني منها خلال الأيام التالية أثناء تردده عليّ. (تحسس بورو رسغه الأيمن، نهض وتطلع عبر زجاج النافذة). حاولوا إيقافي (تابعت والدة الرضيع) إيقاف استمرار تدفق الدم من الجروح، ظللت أضرب برأسي في الوسادة من جانب لآخر حتى خارت قواي. ثم جاء زوجي، ولم تكن بي طاقة لأتحدث معه، رأى المشهد ورحل صافقًا الباب. عاد بعد يومين من الغياب. ظل يشرب في الحانات. هذا ما حكاه لي فيما بعد. ولكن لم أدرِ بشيء لأنني فقدت الوعي في الحال.

أخذت نوريا تداعب بإصبعها وجنة الطفل. استجدت كلمات تشجيع مثل الردود التي ترسلها.

– أتدرون؟ في البداية تملكني غضب شديد تجاه زوجي. وكأنه المسؤول. مسكين. إننا في قارب واحد... من ناحية أخرى، تلقى نصيبه من المعاناة. مع كل شوقه لأن يرزق بطفل. يقول لي الآن: «اذهبي، اذهبي! لتريه ثم أخبريني!». أعلم أنه يظل يبكي في المنزل، بينما أنا هنا. انظرا إلى الطفل! يبدو

كمومياء من كثرة اللفائف. أتدرون فيما أفكر؟ أنه عندما آتي إلى هنا صباح يوم أحد، سيقترب مني أحدهم بمجرد دخولي بينما يهتف عدة أشخاص في الوقت نفسه: «معجزة، معجزة، الطفل مكتمل، نبتت له ذراعان ولديه ساقان»! لدرجة أنني أحلم بذلك. ولكن لا، آتي يومًا بعد يوم وهو على حاله! ويكفي أنه مازال على حاله ولم يتدهور.

اعتدلت نوريا وأخذت تنظر إلى لوحة أمامها. انتهزت الفرصة لتخرج منديلًا معطرًا من حقيبة يدها وضغطت به فمها المرتجف. انهمر دمعها مدرارًا، وكأنها نتيجة لذلك الضغط. حاولت تهدئتها. امتننت لبورو لبقائه مع المرأة.

- أخبرني (سألته هي) حضرتك متعلم؟ ما عملك؟ أخبروني أنكما من أحد المعامل.

- هذا صحيح...

- مارينا، اسمي مارينا.

- درست الهندسة الكيميائية (أجابها بورو).

- وهل تؤمن بالله؟ (يؤمن بورو بالله الذي أنقذه) أعلم أن هذا يبدو تجديفًا (خفضت المرأة صوتها)، لكن في هذه اللحظة أومن أكثر بالشيطان. نرى أعماله، بالرغم من بشاعتها.

ودت نوريا لو تلتفت إليها، لتخاطبها وكأنها المستشارة العاطفية التي تتقمصها في الخطابات وتقول لها ألا تفقد الإيمان، بل تعتبره خير عزاء، لكن لم تستطع. تسمرت أمام تلك اللوحة التي يظهر فيها إبراهيم على وشك التضحية بولده.

- أتدرون ماذا قالوا لي؟ إنني لو كنت وضعت في مستشفى، لخنقته القابلة بنفسها. يبدو أن هذا ما فعلوه مع إحدى الحالات. أطفال آخرون

يتركونهم في الهواء الطلق طوال الليل لكي يصابوا بالتهاب رئوي، أو بعد أن يقطعوا الحبل السري لا يعقدونه لكي يموتوا من النزيف. يقولون للأم بكل بساطة: إنه ولد ميتًا. لكن الآن أفضّل ألا يكون الأمر كذلك. سنرى ما سوف نفعله، لكن في الوقت الحالي... إنه حيّ.

كان وقع وصف ما يفعلونه مع آخرين من أولئك الأطفال على نوريا كضرب المعاول. ولكنها استمرت في كتابة الرسالة الوهمية التي قد توجهها إليها وكأنها لم تلتق بها هناك، بل باعتبارها واحدة من اللائي يراسلونها، ستخبرها بأنها لا يجب أن تيأس، إزاء محنة مثل تلك تختبرنا كبشر، وبأن هذا التشوه جسدي فحسب، وبأن تتحلى بالصبر، وبأن... لكن أدركت أن المسكنات لن تجدي نفعًا في مواجهة أمر بتلك الفظاعة.

استدارت نوريا، اتجهت نحو المقعد مرة أخرى، جلست إلى جوارها وعانقتها بقوة وهي تحتويها هي والطفل في الوقت نفسه. توقفت حينئذٍ عن محاولة السيطرة على دموعها.

- بورو، أنا آسفة، بورو. سامحني! لم أعد أستطيع أكثر من ذلك. (ثم خاطبت مارينا): لماذا لا تبحثون عن أحد ليساعدكم بشأن الطفل وتأخذونه من هنا؟

- بسبب زوجي. كنت لأفعل ذلك عن طيب خاطر، ولكن هو... أخشى أن يدمن الشراب إذا أخذته معنا.

- وهل فكرتِ في ماذا يمكن أن يكون سبب ولادته هكذا؟

- أخبروني بأمور كثيرة؛ كل شخص له رأي مختلف. أنه من الممكن أن يكون بسبب آشعة إكس، أو لتناول لحم ضأن فاسد. أنا ليس لدي أي رذائل و...

- تكلمي! هل هناك شيء آخر؟ (حثها بورو).

- أشعر بالخجل، لكن يقولون إنه يمكن أن يكون أيضًا بسبب وضع الجماع.

حينئذٍ طرحت نوريا السؤال الذي دفعهما للمجيء حتى هناك:

- أثناء الحمل، هل فحصك طبيب ذات مرة؟

- قبل أن أعرف أنني حبلى. شعرت بوعكة، أصابني الوهن؛ فأعطاني بعض الأقراص لكي يزول عني، ولكي أنام بصورة أفضل. أخبرني بأنه أمر عصبي. بالطبع، بعد ذلك، عرفنا السبب، إنه كان بسبب حملي، لكنني لم أخبره مرة أخرى.

تبادلت نوريا وبورو نظرة قلق. سألها بورو:

- بالمناسبة، هل تتذكرين اسم تلك الأقراص؟

هزت رأسها بالنفي. ودت نوريا لو تسألها، مثلما فعلت مع الفتاة في الحي العشوائي، إذا كانت تحتاج إلى شيء، إلا أنها لم تستطع.

- سوف نعود لرؤيتك في يوم أحد قادم. (استطاعت فحسب أن تمنحها ذلك الوعد).

- أشكركما على الاهتمام. (أجابت هي).

أمسك بورو بذراع نوريا حتى باب الخروج، واتجها نحو موقف الحافلة. قالت:

- هي أيضًا تناولت بعض الأقراص، مثل ثيبيليرا.

- يوجد شيء مشترك بينهما (قال بورو). لكن لا يجب أن نتسرع.

- لم أتسرع. هذا ما تقوله التقارير: تتحدث عن مهدئات، عن دواء مشابه لعقار الباربيتوريكوس...

- وتفيد أيضًا بأنه ليس له آثار جانبية، وأنه لا توجد تقارير حول

احتوائه على سموم. لا نستطيع نسيان ذلك.

- وتلك التقارير حول آثاره الجانبية، هل هي نهائية؟

- هذا بالتحديد ما يجب أن نستعلم عنه. وإذا ما كانت مزورة...

أخبرها بورو وهي توشك على صعود الحافلة:

- نوريا، أشكرك على قيامك بما كنت أود عمله منذ أن بدأت في الكلام ولم أجرؤ على القيام به. أشكرك على عناقك لها.

- كان عناقا باسمنا نحن الاثنين. (أجابته).

23

ذهب بورو إلى حانة ساندور بميدان كالبو سوتيلو لمقابلة لورنثو مونتاوريول، صديقه من المدرسة الداخلية، ويعمل لصالح المختبر الذي قرؤوا تقريره. تعرف عليه على الفور إلى جوار إحدى الطاولات المنخفضة المستديرة المغطاة بمفرش أبيض يكاد يصل إلى الأرض. اقترب منه النادل حاملًا زجاجة مارتيني على صينية. قال بورو:

- اجعلهما اثنتين!

- سلفادور! (قال لورنثو بينما نهض لمعانقته).

- أراك في أحسن حال، لورنثو. مر وقت طويل!

- للغاية. أسعدتني مكالمتك. كنت أود رؤيتك. أتمنى أن نلتقي أكثر... لكن أخبرني، كيف تسير أمورك؟ هل لديك رفيقة عاطفية؟

- مما أرى، أنت لا تتغير (قال بورو ضاحكًا). لا، لا ليس لدي رفيقة عاطفية.

- أتدري، فيم أفكر أحيانًا؟ أن القساوسة جعلونا نشاهد الكثير من الأفلام التي لم تفد في شيء على الإطلاق مما دسوه في عقولنا. ولم تفد في شيء بسبب الرقابة، بالطبع، وليس بسبب غياب الرغبة.

- حسنًا يبدو أن من نمارس عليه الرقابة الآن هو أنفسنا (قال بورو) انفجر الاثنان في الضحك.

- حسنًا، وكيف حالك أنت، وكيف حال العمل في أورلانتا؟ سمعت أن أحوالهم جيدة للغاية.

- ولهذا السبب جعلتني أجيء. (ضحك لورنثو متظاهرًا بالغضب). لتفك عقد لساني. أرى بالفعل عناوين الصحف، خريج مدرسة دينية وراء القضبان. هل تتخيل الفضيحة؟ سيتهمونني بالتجسس الصناعي!

- على الإطلاق. مستحضرات التجميل والأدوية أمران مختلفان.

- لا أعلم إذا كان الاختلاف إلى هذا الحد. تعلم، بورو مدى إعجابي بالجمال، وبصفة خاصة الجمال النسائي... لكن هل تفكر حقًا في دفن مستقبلك بين المساحيق؟

- لا تبدأ. أعلم أنك تتصور أنه عمل غير جاد، لكنني أفضله على الطموح والجشع اللذين يعدّان محور حياة شركات الدواء.

- يا رجل! ليس إلى كل هذا الحد. المدرسة الدينية أثرت فيك بكل تأكيد. ليس هناك ما يضير في كسب المال. لم نقطع على أنفسنا عهدًا مع الفقر.

- ليس هناك ما يضير في مراكمة الثروة مادام أن هذا لا يكون على حساب أذى الآخرين.

- لن تلقي عليّ موعظة الآن حول أخلاق الشركات. يكرر عليّ الأب بيلسيرميس هذا التأنيب كلما التقينا.

- لا، اطمئن! لم آت لكي أعظك بشيء، بل لأرجوك لكي تساعدني.

استعاد لورنثو جديته فجأة.

- ماذا حدث؟

- أمر في منتهى الخطورة.

- هل لديك مشاكل مع رؤسائك؟ يقول الجميع إن أحوالهم متيسرة للغاية بسبب برنامج المستشار العاطفي، الذي يمتلكانه، وإنهم يبيعون

كريمات التجميل أكثر من أي وقت مضى. من سوء حظنا أننا لا نستطيع أن نفعل الشيء نفسه مع الأقراص. حسنًا، يعلن عن بعضها بالفعل في المذياع، مثل أقراص أوكال.

- لا، ليس لديّ أية مشاكل معهما، إنهما يحسنان معاملتي. من المحتمل أن بعض المنتجات التي نصنعها لا تقلل التجاعيد وليس لها أي تأثير على الإطلاق أكثر من مجرد العلاج الوهمي، أو الإسهام في رفع المعنويات، ولكن هذا لا يؤخذ في الاعتبار، على النحو الذي تقصده.

- لا مزيد من الكلام في هذا الموضوع، لأنه إن سمعتك كل تلك السيدات العجائز حولنا تتحدث هكذا عن نتائجها، فسوف تواجه حياتك الكثير من التعقيدات (خاطبه لورنثو بنبرة خفيضة للغاية).

- لا أعتقد. هن أيضًا يعرفن ذلك في أعماقهن (قال بورو ضاحكًا). على الأقل لا يسبب أي من المنتجات التي نصنعها أعراضًا جانبية. وتعد هذه ميزة كبيرة مقارنة بمنتجات أخرى. في الحقيقة، لا أعرف من أين أبدأ. واقع الأمر أنني حصلت على هذا التقرير الوزاري، الصادر عن الإدارة العامة للصحة وبالتحديد التفتيش العام على العقاقير الدوائية (قال وهو يضعه على الطاولة).

تناوله لورنثو وشرع في قراءته باهتمام.

- لا أريد مشاكل. بالنسبة لي عملي يعجبني. تفضل. (قال وهو يعيده إليه).

- أعلم ذلك، وأنت تعلم أنني لم أكن لأفعل على الإطلاق شيئًا يجلب لك المشاكل. كل ما أحتاجه هو أن تخبرني باسم المادة الفعالة المشار إليها في هذا المستند. هذا فحسب.

نظر إليه لورنثو بارتياب.

- لن أقول من أين حصلت على المعلومات. يمكنك الوثوق بي.

- حسنًا، الأمر ليس سرا على الإطلاق. إنه التيلامون. وإليك معلومة إضافية أيضًا: يقول هذا التقرير إنه غير سام. ها قد عرفت، إذا كان هذا ما يقلقك. يمكنك تناول نصف كيلو جرام من الأقراص ولن يحدث شيء. ليس مثل الباربيتوريكوس الذي يفرط الكثيرون في تناوله بلا حذر.

- أصبت. هذا بيت القصيد.

- أمضينا سنوات كثيرة معًا. أنا أعرفك.

- وإذا قلت لك إن له بالفعل آثارًا جانبية وإن هؤلاء... أوغاد؟

- بالتأكيد لا. تعلم أن الشائعات مغرضة دائمًا، وخاصة إذا كانت الشركة تحقق أرباحًا في البورصة. تنهار الأسهم من أقل شائعة. سوف أخبرك بأمر: كل هذا يرجع إلى المنافسة. هناك توقعات أنه في غضون بضعة أشهر، ستتفوق مبيعات التيلامون في ألمانيا على الأسبرين. هذه هي خلاصة الأمر.

- لماذا إذن، رفضته معامل أخرى، تحديدًا سيبيلينا ولينسكس؟

- هناك آلاف الأسباب: بدءًا من تغيير في الإستراتيجية التجارية، مرورًا باكتشاف عقار مماثل، أو أمور تتعلق بالسوق. كما تعلم أن أورلانتا أسسها صناع عطور، ويقول آخرون صناع صابون، قرروا تغيير مجال الأعمال. يبحث الناس دائمًا عن الشمس التي تدفئ أكثر وهذه الشمس هي الذهب. لا تنسَ ذلك.

- وجود الشائعات لا يعني أن الأمر غير حقيقي، أحيانًا تتأكد في نهاية الأمر. لقد تلقينا رسائل...

- أهذا إذن ما كنت تقصده؟ تتحدث عن كيسلر (قاطعه لورنثو) لا تقل لي إنك ستعير هذيان مجنون هامبورج هذا اهتمامًا! هل راسل معملك

أيضًا؟ ذلك الشخص فقد صوابه بكل تأكيد. على الرغم من أنه بلغ الجنون بالفعل. (قال مازحًا).

- هل تعتقد ذلك؟ (انتبه بورو إلى أنه بشكل عرضي تمامًا جعلته تلك الجملة العابرة يحصل على المعلومات التي كان يتمناها).

- أقول لك: إن عقله لا يمكن أن يكون سليمًا. إذا سمعت المهازل التي يتفوه بها...، أقلها أن التيلامون سُم خالص. ماذا يمكن أن يعرف طبيب أشعة بعيادة في إيبندورف عن المركبات الكيميائية؟ يقول آخرون إن أشعة إكس، مجال تخصصه، شديدة الضرر، إذا انحدرنا إلى ذلك.

- لا أعتقد أن هذا الشخص سيتجرأ على الحديث هكذا بدون براهين. وصوله إلى هناك، يعني أنه يتمتع بمكانة مرموقة.

- إنه حاقد على أورلانتا. من المحتمل لأنهم رفضوا لها شيئًا، أو لم يسر اتفاق تجاري بينهما على ما يرام؛ فأراد الانتقام. لا تنخدع! تحرك الجميع الدوافع نفسها. كلما استوعبت ذلك مبكرًا، كان أفضل. ستكون أقل سذاجة.

رفع بورو كأسه مع لورنثو في نفس الوقت، إلا أنه توقف في منتصف النخب. تسمرت عيناه على البركة في منتصف الميدان. كان الرجل نفسه الذي بصق تجاهه هو ونوريا بعد أن رمقهما بنظراته في ميدان سانتا ماريا، يقف هناك متحديًا. تتبع لورنثو نظراته.

- هل تعرفه؟

- لا. ولكنه يتعقبني منذ عدة أيام.

- يالوجه ذلك الرجل! أيها النادل، الحساب هنا. هيا بنا.

نهضا في الحال بعد دفع الحساب، وشرعا في السير بسرعة كبيرة. كان لورنثو يسير إلى الجانب المواجه للداخل من الرصيف؛ فلم يرَ عند الدوران

مع الناصية، القدم التي مدها الشخص الذي كان يراقبهما خارج المحل الذي اختبأ به. تعثر لورنثو، شعر بضربة في جانبه وسقط على الأرض. التفت بورو وهرع لمساعدته عندما سمع الجلبة. نفض صديقه سترته وتحسس جيوبه.

- بورو، المحفظة، لا أجدها.

- ربما تركتها في الحانة، من الاستعجال.

- لا أنا متأكد أنني أخذتها.

- إذن ينبغي أن تكون في مكان ما هنا، ربما سقطت منك بسبب وقوعك. (خاطب بورو مجموعة الفضوليين الذين أحاطوا بهما) هل رأيتموها؟

لم يجبه أحد.

***

اتصل بورو، تلك الليلة، في الطريق إلى منزله، بالسنترال من إحدى الكبائن ليسأل عن رقم هاتف عيادة إيبندورف.

- هل تقصد مستشفى هامبورج الجامعي؟

- نعم (قال بورو متمنيًا أن يكون الحي الوحيد أو أن يكون على الأقل هو المقصود. ظل عاقدًا أصابعه أثناء انتظاره استعلام عاملة التليفون من القائمة الدولية).

- هذا هو. اكتب عندك! (قالت بعد مرور بضع ثوان. بعد الإنصات إليها، طلب بورو منها أن تعيد عليه كل الأرقام ببطء، حفظها وبمجرد دخوله إلى المنزل، وقبل مداعبة أجاتا كيبلر، دونها على ورقة.

- يوم الإثنين، عندما نزلت ليليانا لتناول القهوة، وأغلق السيد والسيدة فرومنت باب المكتب عليهما، اتصل بنوريا في منزل دورا بلومر وطلب من مالكة منزلها معاودة الاتصال به بعد عشر دقائق.

- نوريا يجب أن تأتي بأسرع ما يمكن. أو أن أجيء أنا، كما تشائين. يجب أن أطلعك على شيء في غاية الأهمية.

- سنبحث عن مكان قريب من هنا، لكن في منزلي لا.

- هل تعرفين مكان حدائق لاتماريتا، سوف أنتظرك من ناحية شارع باسيو سان خيرباسيو، مع امتداد شارعك.

- في السابعة.

24

تبع جيوفري بالادري، نوريا عندما توجهت إلى هناك مصطحبة مارك في عربة الأطفال وميرييا في يدها. تصور المخبر السري، بمجرد أن دخلت المتنزه أن ذلك هو مكان الموعد. ربض على الناصية السابقة، عند بداية شارع مالوكير. اصطفت بالجوار أشجار ضخمة مزهرة.

- رحلت أورسولا في التوقيت نفسه، لأنني لم أخبرها. لقد فكرتَ في الأمر متأخرًا.

- مساء الخير، سيد ميكو (قالت الطفلة).

- كيف حالكِ، يا صغيرتي؟

- أنا كبيرة.

- أكبر من شقيقك (أجابها بورو).

- يمكنك السير على الرصيف لكن لا تبتعدي. أو إذا شئتِ سمحتُ لكِ أن تنزهي مارك. (ثم خاطبت زميلها): كما ترى، ليس لدي الكثير من الوقت.

- سأخبرك على الفور، إلا أنني لم أرغب في ذلك عبر الهاتف. لا يمكن مطلقًا معرفة من قد يسمع. (كان بورو في غاية الانفعال، ولم يكف عن الإيماء والتلويح طوال فترة إطلاع نوريا على المحادثة مع صديقه لورنثو، ولم يفت ذلك الانفعال على بالادري).

- ربما كنت محقة في شكوكك بشأن الأقراص التي تناولتها مارينا و ثيبليرا، المرأة من الحي العشوائي.

- أنت تثير مخاوفي. ألم تقل لي إن ذلك غير ممكن؟

- نعم، لكن، انظري! بعد إجراء ذلك الاختبار، ذهبت إلى صيدلية، وأخرجوا لي كل الأدوية التي تحتوي على التيلامون كمادة فعالة. لا يمكنك أن تتخيلي كمية المنتجات التي تحتوي عليه! يوجد بينها أقراص لعلاج القيء أثناء الحمل. اشتريت علبة من كل عقار لتحليلها.

- يا إلهي! بورو. إذن، هل كذب التقرير عندما ذكر أنه غير سام؟

- لا أدري. يعتقد لورنثو أن ما يذكره التقرير صحيح، إلا أنني لا أدري كيف أفكر. حدثني عن طبيب أشعة في هامبورج يقول إن التيلامون سم. إذا تأكد ذلك...

- يجب أن نتحدث إليه (قالت نوريا بانفعال).

- لقد قمت بذلك بالفعل؛ ولهذا جعلتك تأتين على وجه السرعة. اسمه فاريك كيسلر وهو إسباني. لحسن الحظ، لأنني لا أعرف عن الألمانية إلا القليل. أعرف أسماء بعض العلامات التجارية فقط، وأدوات المعمل ولا شيء أكثر من ذلك.

لم تفت على المخبر السري تفصيلة واحدة من المشهد.

- هل هو إسباني واسمه فاريك كيسلر؟ (سألته نوريا مندهشة).

- هذا صحيح، أجداده من ناحية الأب ألمان، ورحل إلى هناك بعدما أنهى دراسته في بلد الوليد. انتهزتُ فرصة بحثهم عنه في المستشفى للاتفاق على الطلبية ربع السنوية مع موظف آخر من هناك. نطلب دائمًا أدوات وقطع غيار من عدة دول. يثق بي السيد والسيدة فرومنت كثيرًا ولن يبديا أي اعتراض ما لم أتجاوز الميزانية؛ فانتهزت فرصة أنني كنت بحاجة لبعض

العدسات، دون الاكترث إلى بلد منشئها.

تطلعت نوريا إلى طفليها. كانا خلف ظهرها. اقتربت ميريبا بعربة مارك من شجرة، وتظاهرت بأنها اصطدمت بالجذع. وفي اللحظة الأخيرة أمسكت باليد وسحبتها للخلف. كان الطفل يضحك كثيرًا وهي أيضًا.

– ميريبا، تعالي إلى جوار سور النباتات. تلك اللعبة خطرة. تعالي! سوف نرحل على الفور. وماذا قال لك عن التيلامون؟ (سألت بورو ملتفتة له مجددًا).

– ما سبق وأخبرني به لورنثو من قبل. أنه سم. في المقابل، وعلى عكس رأي زميلي، لم يبد لي مجنونًا على الإطلاق، بل شخصًا في منتهى الحكمة. في الحقيقة، كان في منتهى الود، وأحسن معاملتي. لا أعرف ماذا سيكون رأي السيد والسيدة فرومنت بشأن سعر المكالمة، ولكنه يستحق، لدرجة أنني مستعد لأن يخصموه من راتبي إذا لم يصدقوا أنها كانت لطلب أدوات فحسب. وفقًا لرأي كيسلر إن أقراص القيء أثناء فترة الحمل هي التي تسبب التشوهات.

نظرت إليه نوريا بهلع.

– هل هذا هو ما أخبرك به؟ بهذه الكلمات؟

– قال إنه إذا كنت أريد أدلة، يمكنني مقابلته في مؤتمر طبي سوف يعقد في مونبلييه في غضون بضعة أيام.

– وهل حدثته عن الحالات هنا؟ عما نعرفه؟

– نعم، ويقول إنه لم يعرف بانتشاره بهذه السرعة الكبيرة، وإن هناك تعتيم تام، ويعتقد أنه يتم تضييق الخناق عليه حاليًا في ألمانيا، لدرجة أن زملائه هناك لا يعرفون شيئًا مما يجري في دول أخرى، ومن ثم، لاستباق آثار العقار الطبي، أرسل كأجراء وقائي تلك الرسائل إلى جميع فروع أورلانتا.

- يا إلهي. وهل يوجد هناك الكثير من الأطفال المصابين؟

- نعم، على ما يبدو. أخبرني أنه توجه إلى المقر الرئيسي لمعمل التصنيع، بعد أن طاف بالكثير من القرى الألمانية خلال العديد من عطلات نهاية الأسبوع، ورد عليه ممثلوها أن استنتاجاته خاطئة، وأن هذه التشوهات ترجع إلى عوامل بيئية.

- وهل هذا محتمل؟ (سألت نوريا وهي تعاود الالتفات نحو طفليها).

- أنا على علم بدراسات تتحدث عن نبتة، اسمها ملفوف الظربان. إذا أكلت منه النعاج الحبلى، تتعرض أجنتها لكثير من التشوهات. لكن أؤكد لك أن ذلك الذي رأيناه لا علاقة له على الإطلاق. حسب قوله، هناك حالات كثيرة، علاوة على أنها تحدث للبشر. (لوح بورو بيديه بأسلوب يبدو وكأنه يحاول إيقاف الآفة). أما كيسلر فقد حاولوا إقناعه بأن الكثير من هذه التشوهات يرجع لاستخدام منظفات أو الإشعاع، وهددوه كذلك بإيقافه عن العمل، وأسوأ من ذلك، الإيحاء له بأن الأمهات أنفسهن كن المتسببات في تلك العاهات لأبنائهن بسبب محاولتهن الإجهاض وعدم التمكن من ذلك. لقد تجاهلوا الموضوع تمامًا.

- لكن إذا كان هذا صحيحًا، فإن الأمر يكون أكثر قسوة هكذا. إن عدم رغبتهم في الاعتراف بالأمر في منتهى الخطورة. (تذكرت نوريا كيف عاشت فترات حملها، بين الشك والرجاء أن يولدوا أصحاء). كان من الممكن أن أتناول أنا أيضًا أي دواء. إنها مجرد صدفة بحتة.

- ومازال هناك ما هو أكثر من ذلك. قالوا لنساء أخريات عندما وضعن إنها عيوب خلقية، على الرغم من إصرارهن على أنه لا توجد سوابق لذلك في أسرهن. ووصل الحال بشركة الدواء الادعاء في دفاعها أن بعض الأمهات هن المتسببات في هذه التشوهات، لأنهن حملن بعد تجاوز الأربعين. أي شيء إلا الاعتراف بالتبعات.

شرع جيوفري بالادري في السير نحوهما. قطع في البداية الطريق المائل المؤدي إلى شارع مالوكير، ثم تابع السير في الطريق كأي واحد من المارة. كانت الساحة المقابلة للمكان الذي يتحدث به بورو مع نوريا كبيرة للغاية، يشغلها مبنى ضخم ذو خمسة أزقة. عندما وصل المخبر السري إلى الناصية الأخرى، عبر الساحة، واقترب أيضًا من السياج الحديدي للحديقة من الجانب الذي كانا فيه.

- لطالما كان من الصعب تصور الشر الذي يرتكب عن وعي وإدراك.

- أما أنا فلا يساورني أدنى شك في أن هناك أشخاصًا دافعها الوحيد هو الجشع. أعرف مختبرات تشتري براءات اختراع أدوية لأنه ليس لها أي آثار جانبية.

- إذن، فلا فائدة منها؟ (سألته نوريا مندهشة).

- ليس لها أي تأثير على أجهزة الجسم (تابع بورو بأسلوب أكثر تقنية). يخترعون لها خواصَّ، ويقررون بكل بساطة ما يمكن أن توصف لأجله. توجه إلى العقل أكثر من الجسد.

- وهل هذا قانوني؟ هل ذلك ممكن؟

- بالتأكيد، كل شيء قانوني. أحيانًا قانوني أكثر من اللازم. تسجل الشركة مثل غيرها في السجل التجاري، وتستوفي كافة المسوغات المالية والإدارية. في حالة أورلانتا، يدعمها هنا ضامنون مهمون، أعترف بأن بعضهم أعضاء بارزون للغاية في العديد من الإدارات الوزارية. لقد استعلمت بالتفصيل. تظهر الكثير من البيانات في الورقة التي تحتوي على الأسماء، التواريخ والأماكن التي تلقيتها الأسبوع الماضي.

في تلك اللحظة، التفتت نوريا إلى طفليها، ورأت كيف ارتطمت عربة مارك بالشجرة دون أن تتمكن ميريبا من إيقافها. وطار الطفل منها. وفي

ثانية، رأت نوريا، رجلًا ظهر من العدم وسمعت في الوقت نفسه، صرختها الصادرة من حنجرتها تخنقها. هرول بورو أيضا مندفعًا نحو الممشى، إلا أن الشخص الآخر كان أسرع. كان بكاء مارك يمزق نياط القلوب. حمل الرجل ذو الحلة الأكبر بمقاسين، والشعر الفضي والنظارت المعلقة بسلك معدني لامع، الطفل بين ذراعيه وهو يجهش بالبكاء وكأنه على فراش من مسامير. خاطبها جيوفري بالادري وهو يناولها طفلها:

- كان على شعرة. إما أن يقتله الارتطام أو يُدهس، أو كلاهما معًا.

ما إن أصبح الطفل بين ذراعيها حتى انهارت نوريا. جلست به على الأرض، مستندة إلى جدار الحديقة، وأخذت تحتضنه بقوة. انفجرت ميريا أيضًا في البكاء. أمسك بورو بالطفلة واحتضنها.

- اهدئي، لم يحدث شيءٌ. هل مارك بخير؟ هل به أي جروح؟ (سألها بورو ملتاعًا).

تمكنت من الإيماء بالإيجاب فحسب بدون أن تتوقف عن معانقة طفلها. انهمرت دموعها بلا توقف فيها وضعت يدها على فمها محركة رأسها في كل اتجاه.

- كل شيء على مايرام، من حسن حظكم أنني تدخلت في الوقت المناسب. هل رأيتم رد فعلي؟ الخبرة عامل مهم. حينئذٍ انتبهت نوريا وبورو إلى بالادري ونظر أحدهما إلى الآخر مذعورين؛ فقد تعرفت نوريا عليه.

- خذا حذركما أكثر. (قال المخبر السري على عجل، واستدار راحلًا في الاتجاه المضاد لمنزل نوريا).

جلس بورو إلى جوار نوريا واحتضنها بقوة، محاولًا تهدئتها.

- بورو كان من الممكن أن أفقد ابني. كنا نتحدث عما يجري للأطفال الذين تنقصهم أذرع وسيقان، وكان من الممكن أن ينتهي الحال بطفلي مثلهم.

وذلك الرجل هناك. لم أتصور مطلقًا أنه قد تسعدني رؤيته. ألم تتعرف عليه؟ إنه الذي اختبأ خلف الزقاق ما إن انتبهت لوجوده هناك، في ميدان سانتا ماريا ديل مار. هل تعتقد أن يكون القائمون على شركة أورلانتا قد أرسلوه؟

- لا أعلم، لكن من الأفضل أن نرحل (قال بورو ناظرًا إلى الجهة التي رحل منها الآخر).

ابتعد جيوفري بالادري. من ناحية، لام نفسه على تدخله، لكن في الوقت نفسه، اعتبر أن أي شخص كان سيتصرف بنفس الطريقة. يروقه أيضًا الشعور بأنه بطل، خاصة وأنه طوال حياته لم تتح له سوى مناسبات قليلة للقيام بأعمال من ذلك النوع. في البداية تملكه الغضب لتعريض المهمة بالكامل للخطر، كما يحلو له أن يطلق على أعمال التحري الخاصة به، بينما هي لا تخرج عن عملية تقفي أثر (تلصص)، لا أكثر من ذلك. بعد ذلك، قال لنفسه إن الاقتراب من أضلاع المثلث الأخرى لم يكن سيئًا على الإطلاق.

25

قرر بورو، بمجرد الانتهاء من تهدئة نوريا، السفر إلى المؤتمر الطبي في مونبلييه. أخبره كيسلر بأنه سيحضر ولا يريد إهدار الفرصة. سيقول للسيد والسيدة فرومنت إن ذلك المؤتمر يعد فرصة جيدة لتأهيله، وإنه سيلتقي بأكبر المرجعيات العلمية في العالم، وبأطباء يطبقون تقنيات مبتكرة للغاية، ويوجد بينهم مختصون في الأمراض الجلدية، وإذا قدم لهم عينات من منتجات المختبر، فقد يدعمونها بالحجج العلمية بمجرد أن يختبروها.

***

وصل مونبلييه بالقطار ليلًا، عشية المؤتمر. نزل في فندق متواضع، ولكن لطيف للغاية، تديره شقيقتان توأمتان، تنظران إليه وتبتسمان في الوقت نفسه، وكأن كل إيماءاتهما متزامنتان. ارتدى صباح اليوم التالي أفضل ثيابه وذهب لحضور أولى ندوات المؤتمر. كانت تدور حول نوع من الطفيليات غير المعروفة، حتى الآن على الأقل، ليس بالنسبة له فحسب بل لكثير من الحاضرين الذين ارتسمت على وجوههم الدهشة. رأى في الصفوف الأمامية المحاضرين الذين سيتحدثون في اليومين التاليين. قرر مصافحة الطبيب في الاستراحة أثناء تناول القهوة مع كعك البريوش الفرنسي. كان رجلاً ممتلئًا، قدر أنه في الأربعين من عمره، كثيف الحاجبين وعريضهما، مصفف الشعر بعناية إلى الخلف، بالرغم من ارتفاعه فوق جبهته لفت انتباهه عندما شرع في الاقتراب منه وقفته المتأملة، وهو سلوك جدير بشخص اعتاد أن يزن ما

يسمع وما يقول. استقبله بابتسامة ودود وصادقة.

- دكتور كيسلر، أنا بورو نافاسكويس، هاتفتك من برشلونة وتحدثنا عن حالات تشوه حديثي الولادة.

- من الجيد أننا تمكننا من الالتقاء بهذه السرعة (قال بأسلوب في غاية الظرف).

- لقد جئت إلى هنا خصيصًا من أجل هذا الغرض. (تلفت بورو حوله). لم أستطع الانتظار. أتصور أنك ستقضي اليوم بطوله مع مضيفيك، إلا أنني أود، إذا لم تكن مرهقًا للغاية، أن نتحدث قليلًا الليلة. يجب أن أعرض عليك بعض المستندات. إذا لم يكن لديك مانع، سأنتظرك في مقهى لاسبلاناد في بولفار ساريل. لا ينبغي عليك إبلاغي. سأتواجد في العاشرة. إذا توافرت لديك الهمة فتعال! وإن لم يكن، فسأحاول إذن أن أراك غدًا.

- أنا معتاد على معارك أكثر أهمية من البقاء هنا للاستماع إلى زملائي. أعتقد أن بطارياتي تحتمل لاثنتي عشرة ساعة إضافية على الأقل. ستجدني هناك.

- شكرًا، دكتور كيسلر. ما سأخبرك به يمثل بالنسبة لي أهمية كبرى. سبق أن نوهت لك عنه.

- وهو كذلك بالنسبة لي أيضًا. لا يساورك شك في ذلك. والآن استمتع بمداخلات العديد من النوابغ المجتمعين!

صافحه كيسلر وابتعد نحو مجموعة من الحاضرين يتضاحكون بجوار باب القاعة.

***

نحو الثامنة مساء، كان بورو نافاسكويس جالسًا إلى إحدى الطاولات الملاصقة للنافذة الزجاجية الخارجية بالمقهى الذي واعد فيه الألماني المولود

في مدريد. أراد تناول العشاء قبل وصول الطبيب الذي تصور أنه يحتاج إلى ساعتين بعد ذلك للتحرر من التزاماته. ابتهج برؤيته داخلًا، وقبل الموعد بنصف ساعة.

– ياله من مكان لطيف للغاية، سيد نافاسكويس!

– نعم، كنت أعرفه من قبل. جئت في شبابي لشراء بعض العطور وكنت أمر كثيرًا بباب المقهى. واندهشت للغاية لأنه مازال موجودًا.

– لسنا عجائز إلى هذا الحد، سيد نافاسكويس.

– نادني بورو، من فضلك!

– اتفقنا. أرني تلك المستندات! كما سبق أن أخبرتك عبر الهاتف، لم أكن أعرف أن هذه القضية تؤثر في دول أخرى. وصلت رسائلي متأخرة.

أخرج بورو المستندات وناوله إياها.

– وصلت إلى مختبر مستحضرات التجميل الذي أعمل به. تقوم هذه الشركة برعاية برنامج إذاعي للاستشارات العاطفية شهير للغاية يتلقى مئات الرسائل أسبوعيًا. تتولى زميلة لي الرد كتابيًا على بعضها نظرًا لأن الرقابة لا تسمح بإذاعتها أثناء بث البرنامج. وبدأت تتلقى، بالإضافة إلى قصص الخيانة الزوجية، وزنا المحارم والعنف بكل صوره، رسائل من سيدة أكدت أنها استمعت إلى محادثة يتكلم خلالها مسؤول كبير عبر الهاتف عن أطفال يولدون غير مكتملين.

رفع كيسلر تقرير وزارة الصحة.

– أورلانتا... (نطق مختص الأشعة ذلك الاسم بنبرة مختلفة إلى حد ما، إلا أنها تشي بنوع من الإدانة يمكن فهمه مهما كانت اللغة. تنهد بعد ذلك). ذهبت تحذيراتي أدراج الرياح، إنها الآن مجرد حبر على ورق. لقد أرسلتها إلى جميع مكاتب المختبر، بفروعه، والعلامات التجارية التي

يروجون للعقار لديها بعد شرائه، وفي كل الأحوال، كانت النتيجة واحدة على غرار المقر الرئيسي في ألمانيا: تجاهلوني. وصلتني من الموظفين أنفسهم تعليقات حول ممارسات سيئة، ولكن لا أحد يجرؤ على رفع صوته. أثبتنا علميًا أن التيلامون، هذا العقار الذي يوصى به للحوامل، هو الذي يسبب التشوهات. وبعد الكثير من البحث لم يعد لدينا أي شك.

- لكن إذا كان ذلك قد أُثبت، فلماذا لا يسحبونه من السوق؟

- الأمر ليس بهذه البساطة، يا صديقي. أورلانتا لن تعترف مطلقًا بذلك.

- لكن ينبغي عليهم تعزيز التجارب الطبية التي تثبت أنه عقار آمن لكي يتمكنوا من الحصول على الترخيص الحكومي وتسويقه. هكذا تسير الأمور على الأقل في إسبانيا.

ابتسم كيسلر بمرارة.

- يقولون في المقر الرئيسي ببلدة شتولبرج إنهم أجروا الاختبارات، إلا أن هذه المستندات فقدت أثناء عملية نقل أو احترقت. لا يتذكرون على وجه التحديد ماذا حدث لها.

- لكن لا يفيد بشيء ادعاء أن هذه التجارب المعملية قد أجريت إذا لم يكن هناك مستند إثبات على ذلك. بدون هذه الدراسات المسبقة، من الممكن سحب العقار من السوق.

- لن يحدث. لا تتسم شركة أورلانتا تحديدًا باللعب النظيف. فقد سبق لهم تدبير خدع مماثلة. أجروا ذات مرة تجارب لعقار جديد على قطط جعلها تشعر بتحسن لسبب بسيط، هو أنهم لم يعطوها شيئًا. ومع ذلك، عبؤوا عشرات المستندات في صورة تقارير، أرسلوها إلى جميع مقار المختبرات الدوائية في الخارج، وهي نفسها التي أبعث إليها بالرسائل ويحتقرونها.

- لكن هذا أمر في منتهى الخطورة (قال بورو غاضبًا). لا تتوافر عندما

تكون المستحضرات الطبية جديدة، كاشفات كيميائية مناسبة لتحليلها. تعد صناديق مغلقة. ويصبح الأمر بمنزلة عرضها للبيع وأخذ البيانات بعد ذلك. التجريب على البشر.

- يؤسفني أن أقول لك إنه هكذا تسير الأمور في كثير من الأحوال هنا في أوروبا. أنت تعلم كم الأبواب التي يمكن أن تفتحها رزمة نقود معتبرة. أؤكد لك أن في الولايات المتحدة آليات الرقابة أكثر صرامة بكثير. لا يستطيعون التصرف هناك بالطريقة نفسها.

شعر بورو بالخزي.

- لاحظ أنه إذا كان الأمر بالفعل على هذا النحو فإنه يوجد في بلادي وحدها أربعة عقاقير طبية تحتوي على هذه المادة الفعالة!

- أحضرت أيضا قائمة بجميع الأسماء التي يسوق بها في إسبانيا (قال بورو مشيرًا إلى المستندات التي يمسك بها كيسلر في يده). وكم حالة مصابة سُجلت لديكم؟

- 352 حالة، لكن هذا في منطقتنا وحدها، تحسب على المنطقة التي أجرينا بها الأبحاث. ويبدو من أخبارك أننا مازلنا أبعد ما يكون عن رؤية حجم المأساة بالكامل.

- ياللمخلوقات البائسة! شعر بوطأة الإحباط تثقل كاهله. وهل عُرف متى ولد أول مصاب؟

- نعم، في الـ25 من ديسمبر/ كانون أول 1956 في شتولبرج. كان ابن طبيب أورلانتا المسؤول عن إضافة المذاق إلى عينات التيلامون. كان متحيرًا هل يختار طعم الليمون أم البرتقال، فقرر أن تكون زوجته هي من تقوم بتذوق كبسولة من كل نوع. وكانت حبلى، ولك أن تتخيل الباقي.

أغمض بورو عينيه محاولًا استيعاب هذه المعلومات.

- أتفهم شعورك. تابعنا نمو أول أطفال وصلوا إلى قسم الأشعة، بعضهم ماتوا في غضون ساعات قليلة من ولادتهم، والبعض خلال أسابيع بعد ذلك لمعاناتهم من مشاكل داخلية. كما سجلنا أيضًا الكثير من حالات الإجهاض. أثبت فحص الأجنة عدم قابليتهم للحياة لأسباب عديدة. اعتدت الذهاب مع زميلي كونراد سنغر يوميًا بعد الانتهاء من دوام المستشفى وأثناء عطلات نهاية الأسبوع محاولين معرفة أسباب تلك المآسي. ترددنا على السيدات اللاتي وضعن أطفالًا بهذه الحالة، وبقينا إلى جانبهن طوال الوقت الذي سمحوا لنا به كنا نود معرفة كل شيء حول عادتهن: ماذا تناولن أثناء فترة الحمل حين شعرن بألم الرأس، وفي أي توقيت. ساعدناهن على تذكر أحداث غير عادية: سفريات للاحتفال في مناسبة بعينها، أي تغيير في عاداتهن حتى ولو ليوم واحد.

- وهل كلهن تناولن التيلامون؟

- كان هذا الشق الأصعب إثباته لأن بعضهن تناولن كبسولة واحدة فقط بعد شهور طويلة وما عدن يتذكرنها. أما ما وضعنا على المسار الصحيح فكانت حالة مجموعة من الأمهات الشابات المصابات اللاتي يعملن في مصنع صمامات محركات، وضعوا لهن بجانب أحد الجدران طاولة عليها كبسولات لآلام الرأس على كل شكل ولون في أوعية، عبوات، زجاجات، وأخرى حرة... كانت كل واحدة تتناول ما تتصور أنه يحسن حالتها، ثم يتحدثن عنها فيما بينهن. لم يعرفن حتى اسم الدواء أو آثاره. أردن التخلص من الصداع فحسب لكي يصمدن طوال يوم العمل. تحققنا من أن التيلامون كان ضمن تلك الأدوية.

- وأورلانتا، ماذا قالوا عندما عرضتم عليهم كل هذه البراهين؟

- قالوا، عندما أرسلنا لهم نتائج فحوصاتنا مع نسخ من كل الأوراق، إنهم أجروا أيضًا التدقيق الخاص بهم، وإن بعض النساء المتضررات كن عاهرات يمثل أطفالهن لهن عائقًا عن العمل؛ ولهذا السبب حاولن التخلص

منهم قبل أن يولدوا، إلا أن محاولتهن لم تسر على ما يرام. شكلت الشركة عندما تواصلنا معهم لجنة لتفنيد هذه المعلومات.

– لكن مازال يولد أطفال على هذا النحو سواء في ألمانيا أو في إسبانيا. أي دليل أكثر من ذلك يريدون؟

– الأمر غير مهم بالنسبة لكل من هازنكليفر وربينر، ملاك أورلانتا. كل ما يعنيهما تكديس المال، مهما كان الثمن بصرف النظر عن المنتج.

– إنه جشع إجرامي، ليس عندي اسم آخر أصف به ذلك.

– هذا صحيح. زار صديقي كونراد سنغر ما لا يقل عن مستشارين قانونيين أرسلتهم شركة الدواء. كانوا يعرفون أنه سيكون ذلك الصباح بمفرده في المعمل. توجهوا إلى قاعة الاجتماعات، وتلوا عليه التهم التي سيواجهها إذا لم يتخل عن تلك التحريات التي وفقًا لهم لن تسفر عن شيء.

– وهل تخلى عنها؟

– على العكس تمامًا. أنا على قناعة بأنهم رحلوا ولديهم انطباع بأن زميلي يعاني من اضطراب نفسي لأنه لم يفتح فمه، ولم يصدر عنه أي رد فعل. ظل يستمع إليهم وعندما انتهوا، نهض وصافحهم واحدًا واحدًا، بصورة فهموا منها أنه يعلن نهاية اللقاء. أغلق المكتب على نفسه وما إن جئت، وقبل حتى أن يحكي لي شيئًا مما حدث، سلمني مسودة المقال بكل نتائج بحثنا، مصممًا على نشره بأسرع ما يمكن في مجلة «تايندالير» (Tyndaller). لم يستسلم للترهيب. عاملهم بمنتهى الإقصاء واللامبالاة وأنا متأكد أنه أربكهم. حمل كل منهم حقيبة مستندات. جاؤوا محملين بالحجج، ولكنه لم يتح لهم فرصة عرضها أو طرح أي منها.

– إنه تصرف في منتهى الشجاعة من وجهة نظري (قال بورو).

– إنه شخصية فريدة. صحيح إنه لا يدري شيئًا عن أمور الحياة اليومية،

ولديه بالكاد حياة اجتماعية، إلا أنه نجل واحد من أبرز العلماء المرموقين هناك. يمول هو نشاطنا بينما أتولى أنا أمور الحياة اليومية، ونشكل معًا تحالفًا جيدًا. يمثل اسم عائلته بالنسبة لي ضمانة. يحمينا، فلن يتجرؤوا على التخلص منا هكذا بكل بساطة.

- لماذا تقول هذا؟، هل هددوكما؟

- اتصلنا بنصف أطباء ألمانيا لكي نحيطهم علمًا بآثار التيلامون، ونحذرهم لكيلا يصفوه لمريضاتهن الحوامل. ولأن المختبر كان يهدي العقار للأطباء، أصبحوا هم من أكثر المتضررين، ورزق الكثير منهم بأبناء مصابين بمتلازمة تفقم الأطراف. انتشرت الشائعة كالنار في الهشيم. وتعكر مزاج أورلانتا. يرابط مخبر سري أمام منزلي. لا يعمل وفق ورديات لأنه الشخص نفسه دائمًا. شخص ذو هيئة شريرة.

- ألست خائفًا؟ (سأله بورو، مفكرًا في واقعة ميدان سانتا آنا ديل مار وتراس حانة ساندور مع زميله لورنثو مونتاوريول).

- أكذب عليك لو قلت لا، لكنني أعتبره نوعًا من الحافز، بمثابة تأكيد لنا أننا على صواب. هدفنا الآن هو حالات المناطق الريفية. كلما زادت عزلتهن زاد خطر ظهور حالات أطفال كهذه. زودوا هذه المناطق بجرعات كثيرة. وبعد الأنباء التي جئت بها من إسبانيا، بات واضحًا لدي أننا في سباق مع الزمن؛ ولهذا أريدك أن تحتفظ بهذا. (شعر بورو، عندما أخرج كيسلر من جيب سترته الداخلي أنبوبًا من الورق المقوى بحجم بوصة تقريبًا لكي يحتفظ به، بالتقدير لثقته فيه، وفكر أن هذا يرجع لحاجته لنشر ما يجري في ألمانيا بأية وسيلة كانت). لا تفتحه الآن! إنها لفافة ورق طولها نحو مترين، عبارة عن نسخة تحتوي جميع الحالات المسجلة. ستجد رسومات على شكل مسارات في أماكن محددة لهذا الجدول، وفقًا للمواعيد التي تناولت فيها كل أم الكبسولة الملعونة أثناء فترة الحمل. لدينا آلة ميكروفيلم لكي نخزن

السجلات بهذه الطريقة. تتفهم أنني لا أستطيع أن أطلعك على ذلك.

- لن تفيدني بشيء لأنني لن أفهمها.

- مهما يكن. لا نستطيع المجازفة في هذه الأوقات بارتكاب أي خطأ، سواء كان جسيمًا أو تافهًا، الأمر سيان، لأننا حينئذٍ سنكون في موضع الاتهام. كلما تحلينا بالشفافية سنغر وأنا، كان ذلك أفضل. نحتاج للمحافظة على مصداقيتنا وإلا خسرنا كل شيء. تستوعب أيضًا أنني يجب أن أنقل إليك كل هذا. لا ضرر على الإطلاق في أن تحمي ظهرك. إذا حدث لي شيء... (قدم له كيسلر ظرف صور).

فحص بورو تلك الصور الشديدة الشبه بتلك التي شاهدها هو ونوريا في برشلونة.

- هذا ما يبيعونه: بتر أطراف. لا أستغرب أن يكون بين شركائهم متخصصون في الأطراف الصناعية. وهكذا يبقى كل شيء طي الكتمان.

ظل بورو صامتًا نظره مثبتٌ على تلك الصور. لم يرَ إلا حالتين حيتين، بالإضافة إلى الصور، لكن كانت هنا عشرات، كان تكبيرًا بشعًا. والعامل المشترك بينها جميعًا هو الابتسامة.

- أتعرف ما هو التيلامون؟

أومأ بورو بالنفي، بدون أن يتمكن من تحويل بصره عن أولئك الأطفال.

- إنه إشارة إلى الأطلسي، الشاب العملاق الأسطوري، مثل أطلس الذي يفترض أنه يحمل الكرة الأرضية فوق كتفيه. ما رأيك؟ أطلقوا اسم نموذج الكمال الإغريقي على هذا السم.

- يجب أن نعمل على نشر ذلك. يجب إيقافهم بأية طريقة.

- هذا ما نحن بصدده، يا صديقي. آمل أن يصنف على أنه سم في أسرع وقت. ولكن إلى أن نحصل على دعم الحكومة وقيامها بسحبه من السوق،

يجب علينا توخي الحذر. اندلعت حالة من الهستيريا في ألمانيا. هناك الكثير من النساء الحوامل يسافرن من المدن الكبرى إلى السويد ويتوسلن أن يجهضوهن بأسرع ما يمكن، لأنهن يتصورن من شدة الفزع أنهن سيضعن مسوخًا، وبعض من تلك الحالات لم يتناولن التيلامون على الإطلاق.

لاحظ بورو أن نظرة حزن بدت في عيني فاريك كيسلر.

26

قطع بورو بالكاد بضعة أمتار حتى فندق لاجلانتين الذي تديره التوأمتان المتزامنتان. كان على وشك الاصطدام، عندما انعطف من الناصية السابقة على الشارع الذي يقع به فندقه، بامرأة تحت عمود إنارة تمسك بسيجارة مطفأة. ابتسمت له بفم منفرج على اتساعه قبل أن تحييه. خاطبها قائلًا:

- معذرة، لا أستطيع إشعال سيجارتِك.

- (Êtes-vous sûr? Moi, je crois que vous pouvez.[1]) هل أنت متأكد؟ أعتقد أنك بالفعل تستطيع (أجابته بنبرة متهدجة للغاية).

تذكر بورو لغة دراسته في المدرسة الدينية.

- معذرة (كررها)

أسرع الخطا إلى أن وصل إلى باب البناء المطلي بالأزرق الفيروزي، والتفت من هناك لكي يرمقها. كانت قد تدثرت بمعطفها. أعاده هذا المشهد إلى طفولته. شعر بالحزن يعصف بقلبه من الداخل. تجرد من الثياب في غرفته بأسرع ما يمكن بعد أن أحكم إغلاق النافذة. لم يكن يرغب في أن يطل على ماضيه. بسط بورو الجدول الذي كان في الأنبوب الأسطواني الذي سلمه له كيسلر. لولا محتواه لما كان ليساوره أدنى شك في أنه عمل فني: خط الملاحظات الأنيق، الرسم الهندسي للكبسولات، التخطيط المنضبط والدقة في التحديد... تذكر كلمات مختص الأشعة عندما اصطحبه في سيارة الأجرة:

1. وردت بالفرنسية في النص الأصلي (م)

«أعتمد عليك في الحفاظ على هذه البيانات. ندين بذلك لهؤلاء الأطفال. يجب أن نجتهد لكي يعلموا عندما يكبروا أن بعضًا منا تصدى لمآسيهم، وأننا ناضلنا من أجلهم. افعلها يا صديقي! عملك أنت وزميلتك جاءني في الوقت المناسب وعلى غير انتظار».

حفظ بورو اللفافة في جرابها، إلا أنه لم يعد قادرًا على فتح ظرف الصور مجددًا. استلقى في الفراش وشرع في البكاء لأجل العقوبة مدى الحياة التي حُكِم بها على أولئك الأطفال، وبصفة خاصة من جزعه الشديد بسبب تحققه من أن مملكة الشر لا حدود لها ولا رادع.

***

عندما وصل ماكسيمو إلى المنزل، كان أول شيء فعله إهداء ابنته دمية بفمها (لهّاية)، وكانت ترتدي سراويل متطابقة مع قلنسوتها التي تنتهي بجورب. تمنت نوريا ألا يمكث للحظة واحدة بمفرده مع الطفلة، ألا يسألها عن شيء، لخشيتها أن تحدثه عن بورو وحادثة مارك. حوّل ما يجري في حياتها إلى مسرحية هزلية، على الرغم من أنه كان بسبب مسألة قهرية خارجة عن إرادتها. طال الوقت الذي تقضيه صامتة في حضوره أكثر وأكثر في كل مرة. فضلت صمتها على الكذب، ومع ذلك، لم تستطع التخلي عن الشعور بالذنب. مر عليها مجددًا اليومان اللذان قضياهما معًا كدهر. اشتاقت، إزاء طاقة ماكسيمو الفائضة عن الحد لرفقة بورو. استشعرت الحرج لإدراكها مدى تغير مشاعرها بصورة أكبر في كل مرة. لم تستطع كبح شعورها بالسعادة عندما رحل ماكسيمو. نهضت في الحال. كانت الساعة ماتزال الخامسة صباحًا، إلا أنها كانت عازمة على البدء في الرسائل بأسرع وقت. أرادت الإنجاز قدر المستطاع، لتتوافر لديها بضع ساعات حرة لمقابلة بورو عندما يعود من مونبيلييه. بررت لنفسها بسرعة هذه العجلة: إنه مجرد اهتمام بمعرفة كيف سارت الأمور بينه وبين كيسلر.

أخرجت نوريا الصندوق من الجانب السفلي لخزانة المطبخ، وشرعت، بينما فنجان قهوة الإفطار مازال في يدها في الرد على الرسائل.

أود أن أحكي لكِ شيئا مازال يرن في أذني منذ صغري. كانت هناك خلال الفترة القصيرة التي ذهبت فيها إلى المدرسة، معلمة أكن لها الكثير من الإعجاب، كنت أعشقها، كانت جميلة للغاية، لم أر في حياتي امرأة مثلها. كانت أمي والجارات يعانين من العمل، وانحنى ظهر بعضهن في سن مبكرة. فلم تشبهها أي واحدة في القرية ولو قليلًا. اعتدت لأيام كثيرة البقاء في الفصل بعد انصراف الأطفال. كنت أكبرهن سنًا، لذا كنت أساعدها في ترتيب الدفاتر ومسح السبورة. كنا نتحدث كثيرًا. تصورت أيضًا أنها تعتبرني صديقتها بالرغم من صغر سني. اعتادت الآنسة جيرمينا، وهذا اسمها، بالإضافة إلى قضاء تلك الفترات معي، التنزه مع السيد الكاهن حتى الغابة القريبة، لكن حتى أطرافها فحسب، لم يتوغلا فيها مطلقًا. ربما تتساءلين، كيف تسنى لي أن أكون واثقة كل هذا الحد من ذلك؟ من أنهما لم يدخلاها، سوف أخبرك إذن: لأنني كنت أتلصص عليهما، كان شغلي الشاغل في كثير من الأماسي ملاحقتهما بدون أن يرياني، وهو ما أزعج أمي التي لم تكن تعرف أين أنا.؟ أخبرتني الآنسة جيرمينا ذات مساء أنه يتعين عليها إرسال هدية إلى الكاهن وأن أمر على منزلها في السادسة، قبل بدء صلاة المسبحة. طلبت منها أن تسلمني ما يتعين عليها تقديمه للقس؛ فابتسمت بطريقة غريبة. اذهبي! وهذا كل شيء. ولا تشغلي بالك بأي شيء آخر! هكذا قالت لي. وسرعان ما استقبلني السيد الكاهن بمنزله وكان غارقًا بالكامل في الظلام، وتفوح منه رائحة الشيخوخة. أدخلني قاعة بها طاولة متنقلة وخزانة في أحد الأركان، بقيت واقفة هناك، في منتصف الحجرة. قرّب مقعدًا وجلس أمامي، وشرع في مداعبتي وهو يقول، إنه على الرغم من الظلام، فأنا جميلة للغاية، تمامًا

مثلما أخبرته جيرمينا. تحسس ذراعي في البداية، ثم اعتصر صدري، وبعد ذلك وضع يدًا بين ساقيّ بينما قيد ذراعي بالأخرى. فانفجرت في البكاء وتحررت منه. لم يفعل شيئًا لإيقافي، سوى أن صرخ في وجهي قائلًا إنني سوف أعود في يوم آخر، وأكثر من ذلك سوف أفعل ذلك بكامل إرادتي. ولكن هذا لم يحدث. طلبت لأمي في الليلة نفسها أن تخرجني من المدرسة وإنني سأعمل لكي أساعد في المنزل. وبالرغم من استغرابها ذلك، فهي لم تظهره لي. رأيت، اعتبارًا من اليوم التالي، الصباح مثلما سيظل مفروضًا عليّ طيلة حياتي. مر وقت طويل على كل ذلك، وصدقيني إن قلت لكِ إنه لم يزعجني كثيرًا لمس السيد الكاهن، فهو رجل أولًا وأخيرًا، بقدر شكي فيما فعلته بي، من كانت في ذلك الوقت، كل شيء بالنسبة لي. لماذا، يا سيدتي؟ ظللت أسأل نفسي كل هذه السنوات. هل قدمتني قربانًا له لأنها كانت مغرمة به؟ ومن ثم عجزت عن الفهم، ومازلت لا أفهم حتى الآن. أعلم أن لديكِ الكثير من المراسلات التي يتعين عليكِ الاهتمام بها، وأن هذه قصة قديمة للغاية مثلي، ولكن ربما لعِلة ما لم أستطع أن أنسى. مازالت مشتعلة بداخلي لدرجة أنها أول شيء يخطر على بالي كل صباح، وآخر ما أفكر فيه قبل النوم. لماذا، يا سيدتي، تصرفت معي هكذا مَن كنت أكن لها كل تقدير؟

لم يكن لدى نوريا همة ولا طاقة لاقتراح مبررات. كان سلوكًا شريرًا شاذًا في منتهى الانحراف، لدرجة أنه بالرغم مما حدث للطفلة، لم تستطع تصديق نية المعلمة. ربما كان الكاهن قد صدها هي في البداية ولهذا قررت، بطريقة خبيثة وغير مباشرة، الشعور بيديه ونفسه، حتى ولو كان من خلال تلك الطفلة المسكينة. حفظت تلك الورقة داخل الظرف. شعرت بتكدير شديد. وردت على تلك المرأة بأنها كانت كائنًا في غاية البراءة عندما وقع كل ذلك، وإذا كانا قد استخدماها كدمية، تقاذفتها، تلك المرأة، المعلمة،

والشخص الآخر، القس، فهذا يجعل منها مجرد أداة، ومهما بدا الأمر فظيعًا، فإنه في الوقت نفسه يعفيها من أي ذنب، وأنه مثلما حدث معها، كان من الممكن أن يحدث مع أية طفلة أخرى، ولكن إذا وقع الاختيار عليها بالتحديد فذلك لأنها الأجمل والأذكى، وهاتان الخصلتان هما الهبتان اللتان منحتها إياهما الطبيعة، كانتا وبالًا عليها.

شجعتها نوريا على الحديث عن حياتها في الوقت الراهن في الرسالة القادمة، إذا كانت قد رزقت بأطفال، إذا كانت سعيدة. أخبرتها بأنه لا يوجد شيء يحول دون تعثرنا بأشخاص غير مرغوب فيهم، ولكن يتوقف علينا بنسبة كبيرة اندمال الجروح التي أصابتنا.

قالت إنها ستشعر بالرضا من داخلها إذا تلقت خطابًا آخر من المرسلة نفسها، لأنها ستكون علامة على أن مجرد قراءة رسالتها كان بمثابة عون لها. لم تجد جدوى من التقليب في شيء حدث منذ سنوات بعيدة كما أنها واثقة من أن تلك السيدة قد حذرت أطفالها، هذا إذا كانت قد رزقت بأطفال، لكي يحموا أنفسهم من المنحرفين مثل أولئك الذين عانت منهم.

***

عاد بورو إلى برشلونة صباح اليوم التالي. فضل العودة بأسرع ما يمكن عقب إنجاز مهمته الوحيدة في مونبيلييه لكي يلتقي بنوريا في تراس مقهى سافوي. نهض لمعانقتها بمجرد أن رآها قادمة. شعرت نوريا بقوته. لم يرغب أيًا منهما في إخفاء عاطفته بسبب لم الشمل. وهناك، أمام كأسي مارتيني، أطلعها على الفور على انطباعاته.

- كان دكتور كيسلر في منتهى اللطف. اتفقت معه، عندما يعود من زيارة أسرته في مدريد، إن توفر له وقت كافٍ أثناء مروره من هنا في طريقه إلى هامبورج، أن نتقابل لبضع ساعات.

- هل عرض عليك البراهين التي أخبرك في الهاتف أنها بحوزته؟ هل كان يحملها معه؟

- نعم. وهي معي الآن. يجب أن نحافظ عليها.

- أين هي؟ هل هي معك في المنزل أو في المعمل؟

- في الوقت الحالي، بعضها معي وبعضها الآخر أحتفظ به في المنزل، ولكن يجب أن نقرر أين سنخبئها (قال بورو بصوت خفيض وهو يتلفت حوله لكي يتأكد من أن ذلك الرجل الذي تبعهما في المرات السابقة لم يكن في الجوار) سيكون من الأفضل في خزانة أمانات بأحد البنوك.

كما أطلعها بورو سريعًا على كل ما دار بينه وبين كيسلر. اغرورقت عيناها بالدموع وكأنهما من زجاج. وأخذت تعدل وضع خصلات شعرها من جانب إلى آخر لتستكين خصلة كبيرة وراء أذنها. شعرت باستياء شديد من الوصف الذي قدمه بورو للأطفال المصورين والمتطابق تمامًا مع حالة الأطفال الذين عايناهما بنفسيهما والذين رأوهما في صور أخرى، وذعرت حين أخبرها بأنهم يراقبون كيسلر وزميله عن كثب أيضًا لأنها تذكرت الواقعة التي جرت لمارك، وتصورت أن ذلك الرجل الذي تلقفه بذراعيه كان من الممكن أن يأخذه ويهرب به.

- يا إلهي، يا بورو. أخشى على طفليّ

- لن نسمح بأن يمسسهما سوء. (جذبها بورو نحوه واحتضنها). مع ذلك أقول: لكِ أيضًا إن هذا يجب ألا يخيفنا. هذا هو ما يريدون، أن يعيقونا بهذه الطريقة.

أسندت نوريا رأسها إلى صدره.

- لا يمكنني التوقف عن التفكير في أن مارك وميرييا كانا من الممكن أن يولدا هكذا: بدون أذرع، بدون سيقان...

احتضنها بورو بقوة أكثر. لم يعد يهمها أن يراهما أحد. في تلك اللحظة لم يعد يهمها أي شيء. وسألته:

- هل يناسبك أن أرى مستندات كيسلر هذه الجمعة في المعمل؟

- أعتقد أن الأمور تغيرت. انتظري حتى أتصل أنا بكِ! لا تأتي! كلما بقيتِ بالمنزل، كان ذلك أفضل. راقبي من هناك! وبصفة خاصة، لا تدعي أحدًا يدخل! أخبري بذلك كلا من دورا و...

- أورسولا. ولكن، لماذا؟ من الأفضل أن نكون معًا في ذلك. (قالت نوريا باستغراب).

تحاشى بورو نظرتها.

- منحني السيد والسيدة فرومنت اليوم إجازة. لن أعود إلى العمل حتى الجمعة.

- يمكنني المرور بمنزلك إذا كنت، تفضل هذا (قالت هي وحينئذٍ انتبهت إلى أنها لا تعرف حتى الآن أين يسكن المهندس الكيميائي).

- لا، ثقي بي! حقًا، سوف أتصل بكِ الإثنين. لا تفعلي شيئًا قبل ذلك! ركزي في الرسائل! فالذين كتبوها يحتاجونك أيضًا.

- نعم، بالتأكيد، ولكن ليس إلى هذا الحد مثل هؤلاء الأطفال. لا يمكننا السماح بأن يولد المزيد بهذه الصورة. هل أنت بخير؟ هل حدث لك شيء آخر في مونبيلييه لم تخبرني به؟

- لا. إنه موضوع عائلي (قال بورو بينما يرفع ذراعه مناديًا النادل).

لاحظت نوريا أنه يرتدي في معصمه دعامة عريضة للغاية. فقالت وهي تقبض على يده اليمنى التي أمسكت بها فجأة:

- ما هو الذي لا أعرفه؟

فوجئ بورو بالقوة التي جذبته بها نوريا. تحرر منها على الفور تحسس

سير الساعة، وكان عريضًا مثل دعامة المعصم.

- هذا لا دخل له بالموضوع. اعتدت الذهاب للسباحة. قبل رحيلي ذهبت إلى حوض سباحة لا برثلونيتا. عند خروجي استندت بالخطأ على الحافة الإسمنتية؛ فالتوت يدي للخلف. قلد الحركة براحة يده إلى أعلى وأصابع يده منفرجة.

شعرت نوريا بعدم ارتياح لأنها لاحظت أنه لم يكن صادقًا. كشفه انزعاجه، الطريقة التي تحدث بها وكأنه يرتجل تلك العبارات. نظرت إليه وهو يدفع للنادل وشعرت بدوار. خشيت من أن تكون قد أخطأت في تقديرها وألا يكون على هذا القدر من الشفافية مثلما تصورت، بل وأكثر من ذلك، تمنته.

27

صعد بورو نافاسكويس منحدر جبل المونجويك[1] الجنوبي بالكامل. مر داخل المقبرة بجوار قبر الشاعر جوان سالفات-باباسييت وفكر في زهور وشفاه تحديدًا، شفتي أمه. كان متأكدًا من أنه تلقى قبلًا أكثر من أي طفل في العالم بالرغم من قصر المدة التي أمضاها معها. تذكر دفئها في الفراش، كما تذكر أيضًا، حز الحبل المستمر حول معصميه الذي قيدوه به إلى السرير نفسه.

تيقن مجددًا، عندما رأى أمامه الصورة الفوتوغرافية البيضاوية المحاطة بإطار ذهبي التي تجمع والديه، من أن الضوء الذي تشعه كان خير دليل على أنها كانت امرأة لم يوجد لها نظير، شديدة الجاذبية. حدث نفسه قائلًا: ربما كانت هذه الميزة السبب الرئيسي لشقائها. كان المهندس الكيميائي مقتنعًا بأنه لو لم تلفت الأنظار كل هذا القدر، لو لم تكن ملامحها في غاية الكمال، ولم ينضج جسدها على هذه الصورة، لاختلفت حياتها، وحياته. وخلافًا لذلك فهو ينظر إلى والده في تلك الصورة وقد بدا نحيلًا. يبرز من وجهه الحاجبان والشارب، وكأن باقي الملامح شبه مخفاة، خلف ظلال كل هذا الشعر.

توجد خلفه واحدة من أشهر منحوتات المقبرة، تصور أمًا راقدة على فراش موتها بينما يتسلقه طفلها الحديث الولادة. ووفقًا للنص المنقوش على

---

1. من المعالم الرئيسية لمدينة برشلونة، يوجد به منزل المعماري الشهير جاودي، ومقابر يهود ترجع للقرون الوسطى وأيقونة أوليمبياد 1992، ويقال أن أصل الكلمة من مقطعين جبل اليهود (Monte de Judíos) (م)

الضريح، توفيت تلك المرأة بسبب حمى النفاس أو فترة ما بعد الولادة، كما يطلق أيضًا على هذا النوع من الأمراض. لم يتسم النصب الجنائزي بالواقعية، لأن أي طفل خرج للنور توًا لا يستطيع إنجاز عمل بطولي كهذا، إلا أن هذه الصخرة المنحوتة كانت مؤثرة بشدة لدرجة أنه لم يكن يتحمل النظر إليها.

نظر بورو مجددًا إلى ابتسامة أمه، بريق عينيها الذي لا يضاهيه إلا بريق قرطيها. كانت تقول له في كل مرة يندسان فيها في الفراش، ويلتحفان الغطاء نفسه: صغيري.

ذات يوم، بدلًا من أمه، جاء رجل آخر، يرتدي مسوحًا. لم يكن بورو يعرف حينذاك ما هي هذه الثياب، أو من يكون الأب بيلسيرميس. دعاه هو أيضًا «الصغير». واصطحبه معه إلى المدرسة الداخلية وتولى رعايته.

شعر بورو ذلك الصباح بعد سنوات طويلة لاحقًا، هناك في المونجويك، في التوقيت نفسه تقريبًا عندما نزل على ركبتيه ليصلي، بشخص يضع يده على كتفه. قال له الكاهن:

- هيا بنا!

كان الأب بيلسيرميس. يعرف أن ذلك الشخص الذي مازال يعده ربيبه، يأخذ مثلما اعتاد مع حلول كل ذكرى سنوية، اليوم إجازة ويقضيه هناك. ومع أنه تخطى مراهقته، وشبابه، وأصبح رجلًا ناضجًا بالفعل، ولديه عمل جيد، فلم يكن يريد أن يتركه وحده في أوقات مثل تلك لأنه يعرف أن الزمن لا يشفي من الحاجة للرفقة وللمشاركة، وإلا فقد يتحطم الإنسان إن بقى وحيدًا.

وضع بورو أيضًا يده على كتف القس، وفكر في والده الذي طارد حظه في لعب القمار، وأحيانًا في أماكن في منتهى الحقارة، ومن ثم لم يتبق لأمه سوى ما يعينها على البقاء على قيد الحياة فحسب، وبسبب شفقة الكاهن عليه، وجد بورو السبيل للمضي قدمًا ومستقبلًا واعدًا.

- فكر، يا بني! أنها في مكان آخر. وأنها تنظر إلينا من هناك. كن على يقين من ذلك!

- أعلم يا أبتِ.

نهض، وكانت عيناه تملؤهما الدموع. سارا حتى باب الخروج. أبطأ بورو خطاه، أراد تأخير لحظة عبور البوابة. وضع الأب بيلسيرميس يده فوق كتفه مجددًا وشجعه على مواصلة السير:

- فلنتمشَ! سوف يفيدك السير.

ابتسم بورو حينما تذكر كيف اعتاد الأب بيلسيرميس الدفاع عن التدريب البدني قائلًا إن فوائده لا تقارن بأي شيء آخر، بما في ذلك التغذية الجيدة. ساوره الشك منذ نعومة أظفاره أن تأكيده الشديد لهذا كان من أجل إلهائه عن الجوع.

- لا أريد أن أعطلك يا أبتِ، أعلم أن لديك الكثير من الالتزامات.

- أريد البقاء معك. أنا فخور بك للغاية، وأنت تعلم ذلك، وتعلم أنني أخصص هذا اليوم بالكامل لك إكرامًا لأمك.

- لقد أنقذتني، يا أبتِ.

- حسنًا، وأنت أيضًا قمت بواجبك. لا يقتصر الأمر على الرغبة في إنقاذ شخص، ولكن أن تكون لدى هذا الشخص أيضًا الرغبة في الصمود على قيد الحياة.

- لم يكن سلوكنا جيدًا كما ينبغي في المدرسة الداخلية. كنا حفنة من الأشقياء. هل تتذكر حينما كنا نخفي جميع مسوحكم وأنتم نيام؟ (ابتسم المهندس الكيميائي لأول مرة منذ الصباح).

- أطفال، أولًا وأخيرًا. لدي خبرة بالكثير منكم. وأنت تعلم ذلك. لكن سلفادور، دعنا من ذلك الآن. من معرفتي بك، أشك في أنك حزين

اليوم بسبب ذكرى وفاة والدتك فحسب، هل أخطأت؟

أشاح بورو بنظره.

استغرق منهما الطريق حتى شارع كاردينال كاستانياس، خلف سوق لابوكيريا، أكثر من ساعة. سأله القس عندما أصبحا بالقرب من ميدان سان خوسيه أوريول، إذا كان يشعر بتحسن فأومأ بورو بالإيجاب.

- سأدعوك للغداء في حانة (بي) ولهذا أحضرتك حتى هنا. أعتقد أنك اكتفيت من التدريب.

جلسا إلى الطاولة الأقرب من مدخل الحانة.

- أشكرك.

- لا داعي للشكر، يا بني. هناك أعمال أفضل وأسوأ، وعملي ضمن الجيد منها.

- لكن الدعوة عندي (قال بورو).

- هل تريد شراء مرضاتي مقابل إخباري بما لا تريد أن تحكيه لي؟ أنت تعرف أنه لا يمكن رشوتي. (ابتسم الأب بيلسيرميس مداعبًا شعره على غرار ما كان يفعل معه وهو صغير. وكأن السنوات لم تمر).

شعر بورو أن ظهور هذا الرجل كان أكبر معجزة في حياته. وكلما تقدم في العمر، ترسخت في وجدانه قيمة حمايته له، وكأنه على شفا الهاوية، بحر الظلمات الذي غرق فيه بوفاة أمه، فتح له شخص بوابات أحد القصور. ولهذا السبب، تركز جل طموح المهندس الكيميائي في بلوغ مكانة تتيح له أن يفعل لكثير من الأيتام مثل ما فعله معه ذلك الإنسان المفرط في الكرم. كان بورو على قناعة بأن القدر فتش عنه هو بالتحديد، عن طريق نوريا، لكي يوقف انحرافات التيلامون الرهيبة. كان متأكدًا من أن الأب بيلسيرميس سيساعده مثلما اعتاد أن يفعل حتى ذلك الوقت، كسد منيع أمام أي حدث

طارئ، مأساة أو قوة من قوى الطبيعة، وكأن لا شيء يستطيع الصمود أمام طاقته وإيمانه.

***

جاء لورنثو مونتاوريول متأخرًا ذلك المساء إلى منزله بعد العمل في مختبر أورلانتا، ولاحظ بمجرد أن فتح باب شقة عزوبيته رائحة غريبة، مُسكِرة.

كان أول ما شاهده من غرفة الاستقبال محفظته فوق طاولة حجرة المعيشة. لم يجرؤ على التقاطها. توقع أن يشعر بها باردة، ولكن خلافًا لذلك شديدة السخونة، وكأن اليد التي وضعتها هناك مازالت قريبة. نظر من خلال الستارة شبه المفتوحة إلى الشارع ثم استدار على الفور لأنه فكر أن من أحضرها إلى هناك، مستفيدًا من العنوان الذي يظهر في مستنداته، قد يكون بكل بساطة مازال موجودًا داخل الشقة، متربصًا له.

بحث حوله عن شيء يصلح للدفاع عن النفس. التقط من أحد أركان حجرة المعيشة من بين الخزانة والنافذة، قضيب حديدي يستخدم لرفع المظلة الخارجية وخفضها. يتجاوز طوله المتر. اتجه أولًا نحو خزانة الحائط في الممر. كان يتسع لأكثر من شخص. فتح باب الشقة على مصراعيه، قبل التحقق إذا كان هناك أحد بداخله. ثم ألصق أذنه بالخزانة وحرك بابها الخشبي من المقبض قليلًا. قرر تركه مغلقًا. ذهب إلى حجرة نومه. كانت سماعة الهاتف الموضوع على الطاولة مرفوعة. التقط السماعة. منتظرًا سماع أي صوت، أمر، إلا أنه تكرر فحسب الصوت المستمر والآلي الذي يشير إلى وجود حرارة في الخط. التفت إلى الفراش؛ فلاحظ أثر جسد تسبب في هبوط منتصفه.

دخل المطبخ. كانت الرائحة المسكرة هناك أكثر حدة. تشمم خزانة المطبخ، نظر في كل الأرفف. فتح الثلاجة وراجع الأطعمة واحدًا واحدًا. كانت رائحة كريهة لا تشبه شيئًا سبق أن شمه من قبل، سواء الجبن أو

السمك أو الفاكهة الفاسدة. نظر في سلة القمامة أسفل حوض الغسيل. لم تكن به مخلفات عضوية، بعض الأوراق فحسب ولا شيء أكثر من ذلك. كان قد أخرج الليلة السابقة كيس القمامة معقودًا بإحكام.

التفت حينئذٍ فرآها هناك. توسطت طاولة المطبخ سلة فاكهة من البللور المزخرف مقسمة لعدة أطباق موصولة بقضيب معدني من الصلب الذي لا يصدأ. تدفق من أعلاها الأصغر حجمًا، دم ينسكب فوق الأطباق الأخرى، وكأنها نافورة زينة مصغرة. فاضت الكتلة الدامية وتدلت من الأجناب. اكتسبت في العديد من المناطق درجة لون تتراوح بين الأخضر والرمادي الداكن. وشكلت في مناطق أخرى تكوينات تشبه الفطر، أما الخيط الوليد من منتصفها فاتخذ درجة الأبيض الحليبي، في تناقض أكبر مع اللون العقيقي الداكن لباقي النسيج المحاط بأوردة داكنة الزرقة. نظر إليها من أعلى ولم يشأ لمسها كما لم يحتج لذلك، ليعرف أنها مشيمة بشرية.

28

وجد بورو طاولته في معمل مستحضرات التجميل مغطاة بالملاحظات المكتوبة بخط يد ليليانا تتضمن رسائل مكالمات هاتفية. نحاها بورو جانبًا، وعقب التأكد من عدم وجود أحد بالقرب منه، أخرج أنبوب الورق المقوى المبروم الذي أعطاه كيسلر له في مونبيلييه.

احتفظ بجانب مفاتيح المنزل بمفاتيح الخزانة التي يحفظ بها المواد السامة في المختبر، وكان فيها أيضًا كافة المستندات التي أعطتها له نوريا. فكر أنه يصلح بصفة مؤقتة، وقبل الذهاب إلى البنك، كأفضل مكان، بجانب منزله، لإخفاء نتائج أبحاث العلماء في ألمانيا.

أخرج التقارير التي رتبها في حافظة مستندات كانت فوق الطاولة غير المرتبة بجانب رسائل المتصلين المجهولين. أراد نسخ عدة أسماء من مستندات الوزارة. شعر بالتوتر حين شرع في جمع كل شيء ليعيده إلى مكانه. شيء ما جعله يشعر بالانزعاج. التقط تلك الملاحظات بيديه، وقربها من عينيه، ثم وضعها واحدة إلى جانب الأخرى تحت عدسة الميكروسكوب ليرى خطوطها بصورة مكبرة، وبالفعل لم يعد لديه أدنى شك.

حفظ واحدة من تلك القصاصات مع إحدى الرسائل، بعد تأكده من إغلاق الخزانة بإحكام، وغادر معهد التجميل صافقًا الباب. نزل إلى شارع بيلايو وشرع في الركض. وصل إلى شارع بالميس، ثم عبر من الجادة التي تقسم عموديًا حي الامتداد المركزي، واصل حتى اجتاز الساحة، ثم قرأ

لافتة شارع سان خيرباسيو دي كاسولاس إلى أن وصل جادة بونانوفا. حمل تين الورقتين في يده، وفي أقل من نصف ساعة بلغ منزل نوريا. كان نور نافذتها مضاءً. قرر اختبار قدرته على التصويب ببعض الحصى المدبب أسفل السياج الحديدي.

كانت تقرأ إلى جوار النافذة رواية أجاثا كريستي «قطة وسط الحمام». تركتها فوق الطاولة المتنقلة مفتوحة الغلاف مثل طائر كارتوني ونظرت لأسفل. اعتدلت فجأة وتذكرت كلمات بورو حينما رأت هيئة شخص خارج المنزل. لا ينبغي أن تفتح لأحد. ومع ذلك وصلت بمنتهى الحذر إلى دهليز المدخل ثم إلى بوابة الحديقة. وانتابتها فرحة غامرة عندما أدركت أنه هو. لم يقل أيٌّ منهما شيئًا، ولهذا السبب سُمع صوت لهاث بورو أعلى. سمعت نوريا قبل دخول منزلها صوت إِغلاق باب جارتها في الطابق العلوي؛ فقررت أنه يتعين عليها التحدث مع دورا بأسرع وقت.

جلس بورو، بمجرد أن أصبحا في الداخل.

– لم أرغب في قرع الجرس.

– سوف أحضر لك ماء.

– الخط. جئت من أجل خط الرسائل (وأظهر لها الأوراق).

نظرت إليه نوريا، ولم تفهم منه شيئًا.

– أعلم من هي، نوريا. أعلم من يكتب الرسائل، من هي عشيقة ذلك الرجل الذي تشير إليه على أنه رجل نافذ للغاية. انظري! (قال وهو يضع قصاصة الورق متضمنة الرسالة الهاتفية).

– ما هذه الملحوظة؟

– لا يوجد سوى رقم هاتف، اسم، والساعة التي اتصل فيها ذلك الشخص عندما كنت في مونبيلييه، ولكنني لم أحتج لأكثر من ذلك. إنها

الشخص نفسها.

- نعم، يبدو ذلك (قالت وهي في غاية الاندهاش بينما تقارن بينهما). كيف عثرت على هذه الورقة؟ من أين حصلت عليها؟

- إنها ليليانا، يا نوريا. هي التي كتبت تلك الرسالة الأولى وأرسلت بعد ذلك باقي الأدلة. لا أدري لماذا لم أدرك ذلك بهذا الوضوح من قبل. أنا معها كل يوم. تصل الرسائل ظاهريًا إلى برنامج المستشار العاطفي لكي يعطوها إليكِ، إلا أن الأب بيلسيرميس لم يكن يراها. ولماذا؟ بالطبع لأنها تدسها في الصندوق في اللحظة الأخيرة. أرادت ألا يقرأها أحد سواك. بالإضافة إلى الرسائل التي نسختها على... لا يعرف كل الناس استخدام آلة نسخ الرسائل. تركيب المرسام في الأسطوانة، وتدويرها لعمل نسخة. إنه أمر بالغ التعقيد.

- وأنا نوريا المختارة من قبلها من بين كل (النوريات) الكاتبات.

- نعم، أنتن مجموعة على الأقل. بالإضافة إلى رجلين أيضًا. يوجد نشاط كبير حول الرسائل، جمعها، تسليمها... ولهذا أعطوكِ موعدًا في آخر لحظة يوم الجمعة. يبدو أنه كان لديهم أكثر من مكان شاغر.

- ولهذا طرحت عليّ كل تلك الأسئلة عني وعن عائلتي. ويبدو أنني تركت لديها انطباعًا جيدًا، إلا أنها أرادت التعرف عليّ أكثر قبل أن تضع هذا الموضوع بين يديّ. ينبغي أن تكون في منتهى اليأس لكي تتصرف على هذا النحو الوثوق في سيدة لا تعرفها (قالت نوريا). لكن، لماذا لم تأتِ في الموعد؟ أتفهم رغبتها في عدم الحديث في المختبر... أتعتقد أنها ندمت؟ أم أنها ذهبت إلى هناك وهربت بمجرد أن رأت هذين الرجلين؟ هل هددوها؟

- سيكون من الأفضل طرح كل هذه الأسئلة عليها.

دخلت نوريا الحمام، بللت عنقها بماء بارد، ونظرت إلى نفسها في المرآة مستندة بيديها الاثنتين على جانبي الحوض. خطر على بالها مجددًا اسم ليليانا

وكأنها بحاجة لتكراره لتدرك مغزاه. كانت تلك الكلمة صدًى، واستدعاء وإنذارًا في نفس الوقت.

- يجب أن نضيق عليها الخناق (خاطبها المهندس الكيميائي عندما خرجت).

نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة. هو أيضا كان مرتبكًا.

- جئت عدوًا لأنني كنت أريد إخبارك بأسرع ما يمكن.

- مازلت لا أستطيع التصديق (قالت نوريا). لم يخطر على بالي في أية لحظة أن تكون هي. كنا نعرف أنها من هنا، ولكن شيء أمر من ذلك. يبدو أنها عانت كثيرًا.

- يمكن أن ينجينا الرب من أي شيء إلا الصدفة. نتصور أن الشيء الأكثر إثارة يحدث في الجزء الآخر من العالم، بينما المؤكد أنه يمكن أن يقع على بعد أمتار قليلة، وأحيانًا على الجانب الآخر من جدار منزلنا، وأحيانًا أخرى بدون حتى أن يوجد هذا الفاصل الضئيل.

- علينا التحري عمّن ترافقه. من هو... عشيقها؟

- لهذا تتحاشى الأب بيلسيرميس (قال بورو بكل ثقة).

- وما علاقة ذلك؟

- يعرف بعضهما بعضًا منذ سنوات. تتصرف معه في غاية اللياقة، واللباقة والتهذيب، لكنه يسبب لها شعورًا بالذنب. تتصور أن باستطاعته اكتشاف زناها بمجرد نظرة إليها. لن نخبر بيلسيرميس بشيء مؤقتًا.

ذهبت نوريا إلى المطبخ وعادت بكوب ماء من أجل بورو. شربه جرعة واحدة.

- ماذا تعرف أكثر عنها؟

- لطالما كانت شديدة التحفظ معي. حدثتني فحسب عن شقيقة لها في

مدريد، وأنها تحب ارتداء ثياب أحدث موضة، وأشياء قليلة من هذا القبيل. تصورت أن تحفظها هو ضرب من الخجل، لكن أتفهم الآن أنها لم تكن ترغب في مزيد من الحميمية.

- في المقابل، كانت منفتحة للغاية معي. لدرجة أنها أخبرتني بأنها لم تنجب أطفالًا لأنها لم تعثر على الشخص المناسب (تذكرت نوريا). لا تستطيع إنجابهم من رجل متزوج. خسارة كبيرة أنها لم تعثر على رجل مثل...

- هل كنتِ ستقولين مثل ماكسيمو؟

- لا، يا بورو. لم أكن سأقول ذلك (قالت بصدق). أتعرف أين تسكن ليليانا؟

- لا أعرف، لكن قريبًا من المختبر، لأنها تأتي وتنصرف سيرًا على الأقدام. ومع الكعب العالي.

ترك بورو الكوب الزجاجي المزخرف الذي كان ممسكًا به في يده وكأنه بحاجة للإمساك بشيء واقترب منها.

- هذا أمر أكثر أهمية منا نحن، منّا جميعًا.

- أعلم... (صمتت نوريا لبضعة لحظات). ولهذا... (ترددت)، ولهذا أحتاج للتأكد من أنني أستطيع الوثوق بك قبل المضي قدمًا.

- ماذا تقصدين؟ (سألها باندهاش)، بالتأكيد يمكنكِ الوثوق بي.

- لا، يا بورو، لا أستطيع إذا كذبت عليّ. لا أحتمل الأكاذيب. أمقتها، ولهذا أنا في غاية الاستياء من نفسي بسبب سلوكي مع ماكسيمو. هناك أشياء كثيرة لم أخبره بها...

- لكن لماذا تتهمينني أنا، يا نوريا؟

- أخبرتني بأنك لن تذهب يوم الجمعة للعمل بسبب موضوع عائلي. لكنك تغير الموضوع... كلما حاولنا التحدث عنك، وعن ماضيك. ينتابني

شعور بأن هناك أشياء كثيرة، لم ولن أعرفها.

- لم أكذب عليكِ مطلقًا في أي شيء. ليس من طبعي، ولا أفعل ذلك معكِ فحسب.

- إذن؟

- كانت ذكرى وفاة أمي... وذهبت إلى المقبرة. كم أود زيارتها في مكان آخر، ولكن ليس ممكنًا. (تهدج صوته). كانت أكثر إنسان أحببته. لا أعرف كيف استطعت العيش بدونها.

- أنا آسفة، يا بورو، سامحني. يؤسفني ما حدث لك. لكن لم أكن أرغب في الاحتفاظ بذلك داخلي. (جلست نوريا إلى جواره).

- لا تشغلي بالك! لكن لا أستطيع تحاشي ذلك، لأنها قصة حزينة للغاية. كنت طفلًا صغيرًا حين توفيت.

احتضنته نوريا بقوة كبيرة وقالت:

- أنا آسفة. أعتذر لك عن سؤالي.

29

انتظرت نوريا حتى الساعة العاشرة صباحًا لكي تصعد إلى شقة دورا. حينما رأتها مالكة منزلها متأنقة، عرفت على الفور ماذا تريد:

- تصورت أن صناديق الشركة يحضرها لكِ ذلك الموزع بالدراجة النارية.

- نعم، هذا صحيح، لكن يجب أن أخرج لشأن آخر.

- نوريا، فكري جيدًا فيما تفعلين! لا تعثرين على رجل مثل ماكسيمو كل يوم. بعض النساء لا يجدنه مطلقا. فكري كيف تعيشين وما يمكن أن تتكبديه بسبب خطأ بسيط! سيكون الثمن باهظًا مقابل شيء لا يعدو أن يكون مجرد... أنت تعرفين أن هناك أشياء لا نقدّرها إلا عندما نفقدها.

- لا أتصرف بهذه الرعونة. لا أريدك أن تفكري بي على نحو سيء (قالت نوريا بنبرة متوسلة). تعلمين مدى امتناني لك على اهتمامك وأتفهم أنني مدينة لكِ بتوضيح لأجل كل ما فعلته معي ومع طفليّ، وسوف أقدمه لكِ. لكن قبل ذلك ساعديني لمرة أخرى. أرجوك.

- أجد نفسي مضطرة لأن أقولها لكِ، نوريا، ذاك الدخول والخروج... في منتهى الطيش، وأخيرًا في منزلك.

- أعلم تمامًا أنه منزلك وصدقيني إذا قلت لكِ: إنني ما كنت لأفعل أي شيء يضر بكِ. إن بورو مجرد زميل.

- معظم النار من مستصغر الشرر.

- لا تقولي هذا! أرجوك. ستتفهمين كل شيء عندما أشرح لكِ.

- مامي (نادتها ميرييا من أسفل)

- أنا قادمة على الفور، يا عمري.

- سأطلب لأورسولا أن تنزل، بمجرد أن تأتي. (وافقت دورا في النهاية).

- أشكرك. (آلمتها بشدة شكوك مالكة منزلها. لم يكن حكم مالكة المنزل عليها في صالحها، وإن كانت، في الوقت الراهن، لا تستطيع ضحده. انتابها شعور متزايد أن العلاقة بينهما أصبحت غير متكافئة بصورة أكبر).

***

غادرت نوريا الحافلة زائغة البصر. شعرت بالإنهاك بعد تلك المحادثة. استنشقت عبير الكافور عند بسطة السلم قبل قرع جرس معهد مستحضرات التجميل. أصبحت تجتاز بسرعة أكبر في كل مرة البهو والسلالم الشديدة الكآبة. ضخَّم الفناء الداخلي صوت عدة أجهزة مذياع تبث برنامج المستشار العاطفي. فتحت لها ليليانا. نظرت إليها نوريا بصورة مختلفة. قالت السكرتيرة:

- نحن وحدنا بورو وأنا. وقد تحدثنا بالفعل.

- ليليانا. (أمسكت نوريا بيدها بينما اقترب المهندس الكيميائي منها). لماذا لم تخبريني أنه أنتِ؟

- لا تنظرا إلي هكذا. لا يحق لكما الحكم عليّ لأنكما لا تعرفان عني سوى القليل. جئت إلى هذه المدينة وعمري تسع سنوات، وكانت شقيقتي في الحادية عشرة. جئنا مع أمي ولم يكن لدينا أي شيء، يتيمتان بلا أب لأنه قتل في الحرب، ولكن رب ضارة نافعة: أشخاص لم نكن نعرفهم من قبل وساعدونا كثيرًا. تدين عائلتي ببقائها على قيد الحياة لسلوكيات من هذا النوع، من جانب هؤلاء الذين لم يتعللوا بالظروف الرهيبة على الجميع في

فترة ما بعد الحرب الأهلية[1]، لكي يعيشوا لأنفسهم فحسب. لن أنسى هذا ما حييت. ولهذا أرجوكم أن تنحوا جانبًا أحكامكما المسبقة وأن تحاولا أن تتفهما.

- على أية حال، مع وظيفة كهذه، ليليانا، لا أدري ما حاجتك للقيام بشيء من هذا القبيل؟ (خاطبها بورو).

- أتعني غير المحترم؟

- لا أقصد ذلك.

- الأمر في منتهى البساطة، أعمل سكرتيرة مختبر مستحضرات تجميل بناء على توصية من هذا السنيور. (نظرت إلى نوريا). لقد منحني كل ما لديّ.

- سنيور (ضغطت نوريا على تلك الكلمة) يخدع زوجته ويغض الطرف بينما يولد هؤلاء الأطفال المساكين مشوهون. ليليانا، أنت تستحقين شخصًا أفضل بكثير. الأمر لا يقتصر على الحالة الاجتماعية فحسب. إنها مسألة فعل الخير.

- لا، نوريا، دون خيرونيمو... (لاذت بالصمت بعد أن ذكرت اسمه وكأنها لم تكن ترغب في ذلك).

---

1. اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية صيف عام 1936 بسبب انقلاب عسكري قاده الجنرال فرانكو ضد حكومة الجمهورية المدنية المنتخبة واستمرت الحرب بين الفاشيين والجمهوريين اليساريين ثلاث سنوات راح ضحيتها ما يقرب من ثلاثة ملايين مواطن بين قتيل ومصاب ومنفي ومعتقل ومختفٍ. أدى الانقلاب إلى طرد إسبانيا من عصبة الأمم، وبعد الحرب العالمية الثانية التي لم تشارك فيها إسبانيا لم يعترف المجتمع الدولي بنظام فرانكو، فصارت إسبانيا خارج المنظومة الدولية من عام 1939 إلى عام 1949 فيما يعرف بفترة ما بعد الحرب الأهلية، حيث عانى الشعب من قمع ودكتاتورية وفقر في الداخل وإنكار دولي في الخارج، ووصلت معدلات الفقر والجوع والمرض في إسبانيا إلى أعلى مستوياتها. لم يعترف بالنظام إلا بعد قبول فرانكو التعاون مع الولايات المتحدة في صراع الحرب الباردة وبناء قواعد عسكرية أمريكية على الأراضي الإسبانية. (م)

- لعلك لا تقصدين السيد أولارابوس، مسؤول الإدارة الإقليمية لوزارة التجارة؟ (سألها بورو غير مصدق).

أومأت ليليانا خجلًا. فسألت نوريا:

- من هو؟

- إنه وكيل وزراة التجارة، خيرونيمو أولرابوس (أوضح لها بورو).

- إنه انسان طيب للغاية. وقد ساعدني كثيرًا.

- بدون مقابل. (لم تستطع نوريا تفادي قول ذلك). أؤكد لكِ، ليليانا، كان بوسعك الحصول على أي رجل، أي رجل تشائين: شاب، أعزب، ولكنك ترافقين سرًا رجلًا مسنًا.

- ليس عجوزًا. إنه أكبر منا بخمسة عشر عامًا فحسب. (وشت نبرة صوت السكرتيرة بتبرمها من نوريا).

- ليليانا، اعذريني. أنا متوترة للغاية. لم أقصد إهانتك.

- نوريا، أعلم أنكِ مستاءة، كلنا كذلك. أردت ألف مرة إخبارك بأنها أنا، لكنني لم أعرف كيف. وازداد الأمر صعوبة علي مع الوقت. شعرت ذلك المساء حينما جئت للمقابلة بأنني وجدت حليفة لي، ومع الوقت تأكد لي ذلك. (التفتت لمخاطبة بورو). إذا ظهرت هذه القضية للنور بسببنا، فلن يكون أمامنا سبيل للاختباء. ولكن، أرجوكم، أن نترك دون خيرونيمو جانبًا.

- ولكن دوره محوري، ليليانا (قال بورو). أقدر مدى الألم الذي عانيته قبل أن تخبرينا بالأمر حتى ولو بدون الكشف عن هويتك.

- لقد اصطدمت بكل ذلك. وفعلت ما بوسعي. قبل ظهور السيد أولرابوس لم تكن حياتي جيدة بهذا القدر. لم أشأ الكتابة لشقيقتي لكي أطلب منها نقودًا. منعني كبريائي. ولا يبدو لي من الإنصاف أن أتخلى عنه، بعد أن حصلت على هذا الوظيفة الثابتة. أشعر بالامتنان ولا أريد أن يفكر أنني

قمت باستغلاله. بصورة ما، نحن اثنان من الغرقى. كنت أتمنى أن أكون امرأة أخرى، أمامكما على الأقل. أكن لكما تقديرًا كبيرًا، لكِ نوريا، بالرغم من الوقت القصير الذي عرفتكِ فيه. لقد كنت دائمًا حنونة معي وطفلاكِ رائعان. أحسدكِ عليهما. لكن افهماني! لا أريد أن أتسبب لدون خيرونيمو في أي أذًى.

- ألهذا لم تأتي إلى موعد سانتا ماريا؟ من أجله؟

- كنت قريبة للغاية، وصلت حتى جادة بورن، لكن فزعت عندما رأيت هذين الرجلين الشريرين، أحدهما يسير خلف الآخر، وكأنهما لا يعرفان بعضهما بعضًا، على الرغم من شدة تشابه أسلوبيهما. شعرت بخوف شديد.

- إذن كان بوسعك تحذيرنا (قالت نوريا).

- كان بوسعي عمل أشياء كثيرة. أنا آسفة. آسفة على أنني ورطتكما في هذا (ردت عليها ليليانا).

- والرسائل؟

- لا تعرفين مدى ارتياحي لقيامك باستئجارك لصندوق البريد حتى لا تقع ردودك في أيادٍ أخرى.

- لكن رسائلك كانت مسجلة. تحمل طوابع وممهورة بأختام. كيف فعلت ذلك إذا كانت الرسائل لم تبرح مكانها؟

فتحت ليليانا درج المكتب وأظهرت لهما ممحاة:

- فعلتها بهذه. محفور بها علامات. وأضغط بها بعد غمسها في قليل من حبر الختامة فوق الطابع. ولهذا الأرقام ممسوحة بنسبة كبيرة. أحتاج مساعدتكما للوصول إلى نهاية كل هذا. أصبح التقرب من دون خيرونيمو أكثر صعوبة. يبدو شاردًا.

- ليس أمامنا سبيل آخر سوى الاستمرار، وكلما أسرعنا، كان ذلك

أفضل. حدثني الأب بيلسيرميس عن حالة أخرى (قال المهندس الكيميائي). وُلد الطفل هذه المرة لأسرة ثرية. ولكن المأساة مضاعفة لأن الأب انتحر بتناول أقراص بعد ساعات قليلة من وضع زوجته. لم يستطع تحمل الأمر.

- سأحاول مقابلة دون خيرونيمو مجددًا بأسرع ما يمكن. رحل في آخر لقاء بيننا مضطربًا للغاية. سمعته وأنا أرتدي ثيابي، وبالرغم من أنه كان يتحدث همسًا في الهاتف، يذكر الضغوط التي يتعرض لها بعض زملائه. أعتقد أنه مهما حاولوا، لن يتمكنوا من إخفاء هذا الموضوع لوقت طويل.

- علمت من تحرياتي عن طريق وزارة الداخلية (تابع بورو)، أن كبار المسؤولين من وزارة الصحة هم من يتعاملون مع الموضوع عن قرب. يتحكمون في كل ما يتعلق بالاستهلاك. ربما ضايقهم أن يعرف شيئًا لا يعنيه.

- أتعتقد أنه معرض للخطر؟ (سألت نوريا منزعجة). من المحتمل أن يكون أيضًا ضحية أخرى لهذه المؤامرة. يعدون في وزارة الصحة قوائم بما يباع في الصيدليات ويتعين على أصحاب الصيدليات إرسال تقرير إحصائي بصفة دورية. ومن المحتمل أن زملاءه لا يعلمون ذلك. وأرجح أكثر أنهم يعلمون ويتجاهلون، ولكنّ هذا ليس بدون مقابل.

- أتقصد أنهم يرشونهم لكي يتمكنوا من عمل شيء بهذه البشاعة مع ضمان الإفلات من العقاب؟ (قالت نوريا بانزعاج شديد).

أومأ بورو واتجه نحو الخزانة التي احتفظ فيها بكل ما أعطاه له كيسلر. قرر أنه من الأفضل عدم إخراج صور الأطفال. فتح الأنبوب الأسطواني من الورق المقوى، ليدركوا من الورق المطوي أمامهم الذي يتضمن كافة إثباتات طبيب الأشعة وزميله ضخامة أبعاد تلك الكارثة. نظروا إلى ذلك التقرير البياني ولم يساورهم أدنى شك في إنه بمثابة خريطة حرب.

30

استيقظت نوريا مبكرًا للغاية لكي تعمل قليلًا في الرد على مراسلات برنامج المستشار العاطفي، إلا أن ابنتها ظهرت فجأة في غرفة المعيشة. أعطتها، لكي تنشغل عنها عقب الانتهاء من إفطارها المكون من حليب بالشيكولاتة مع الكعك، بعض ثياب الدُّمى الخاصة بها التي كانت منشورة. وضعت بعد ذلك الرسائل على الطاولة لترد على أكبر عدد ممكن. حاولت عدم التورط قدر المستطاع، وتوفير طاقتها. أرادت مقابلة سيدة ملجأ سان خوسيه مرة أخرى، مثلما وعدتها، إلا أنها لا تستطيع الذهاب سوى الأحد. لم تتمكن من التركيز. وبالرغم من ذلك لم تكفّ عن محاولة مواساة مراسليها، ولكن بصورة آلية، سطحية. وكأنها تكتب الكلمات المتوقعة فحسب، تلك التي تتكرر بصورة أكثر تأكيدًا، واعتادت سماعها في المذياع كل مساء.

أجابت قبل منتصف النهار على نحو ثلاثين رسالة، وقرأت المزيد أيضًا. حدثتها في واحدة منها، سيدة من جورليث، بمدينة بيثكايا[1] عن زوجها، صياد يقضي وقتًا أكثر في الصيد في بحر الشمال مما يقضيه في بيته، قالت إن حياتهم متيسرة، وإنه يبذل قصارى جهده، ويعود في كل مرة بشرته مشدودة أكثر ، وأكثر سمرة و«كأنها جلد طبلة». حكت أيضًا أنه عطوف على الجميع، طيب للغاية مع أطفالهما، وأنهم يحترمونه كثيرًا في الأخوية الدينية، إلا أنها ترى أحيانًا أحلامًا، يظهر فيها هو في منزل آخر، به مطبخ من الخشب

1. مدينة بإقليم الباسك شمال شرق إسبانيا (م)

يسبح في النور، لدرجة أنها وصفت الستائر المطرزة. يتحدث هو النرويجية، وبعض اللغات الأخرى، «يتحدثها بصورة جيدة للغاية، يا سيدتي» (قالت). استشفت نوريا مدى الإعجاب الذي تشعر به تجاه زوجها. «انظري! أخشى أن يبقى هناك ولا يعود من إحدى هذه السفريات».

نصحتها نوريا أن تنظر إليه كما اعتادت دومًا، لأنه يلاحظ عليها في كل مرة شعورها المتزايد بأنه أصبح أجنبيًا بالنسبة لها، بما في ذلك تغير هيئته ولكنته. ومن ثم تخشى في النهاية أن يصير غريبًا عنها وعن أسرتها.

كانت هذه أكثر الرسائل التي قرأتها غرابة، علاوة على ذلك، تعين عليها أن تضيف، كما أوصتها دونيا ليونور، عدة نصائح عن الجمال، بالرغم من أن تلك المرأة لم تطلبها ونظرًا لأن الرسالة كانت من خارج كتالونيا، تعين عليها تعويض عدم تمكن السيدة من الاستماع لإعلانات مستحضرات التجميل عبر المذياع.

قرأت بالإضافة إلى هذه السطور، رسالتين أخريين، تسأل في واحدة منهما، فتاة شابة حديثة السن عن أفضل وسيلة لتفادي الحمل قبل الزواج، فردت عليها كما في حالات أخرى مماثلة بالعبارة المكررة: بالانتظار حتى الزواج.

حدثوها في رسالة أخرى عن امرأة تستمني الرجال في المترو، وتغطي يدها بجاكيت، إلا أن رنين الأساور يفضحها، لم تتفهم بوضوح الغرض من هذه الرسالة، ماذا يريد صاحب الهوية المجهولة الذي يريد الوشاية بها؟ وافترضت، أنه ربما تكون هي نفسها للحصول على بعض الشهرة، أو لمجرد الرغبة في الاستعراض. قررت أن ترد عليها بإيجاز. كانت متأكدة من أن السيد والسيدة فرومنت سيتفهمان ذلك.

حدثتها امرأة في الرسالة التالية عن زوجها، النزيل بمصحة نفسية، وكيف دأبت على زيارته يومًا بعد يوم. كما يشيد الجميع بإحسانها وإنكارها للذات، وتكريس حياتها من أجله، وكيف أصبح هو شغلها الشاغل، لأنهم

لا يعرفون أنه بمجرد أن يصبحا بمفرديهما، تبدأ في توبيخه على كل تصرفاته، قراراته السيئة، وحماقاته التي وفقًا لها، أوصلته إلى هناك. «وسوف أستمر على هذا المنوال»، (قالت لها). «لا تتكبدي عناء الرد عليّ، سيدتي العزيزة» اختتمت الرسالة.

خلفت هذه السطور مرارة في حلق نوريا. انتابتها رغبة في التدخل، إخطار تلك المصحة، التي ذكرت اسمها، بشأن سلوك زوجة أحد المرضى. إلا أنها كانت واثقة من أن ذلك الرجل سيفيق في واحد من لقاءاتهما وسوف يتخلص منها إلى الأبد، بالكلمات فحسب، بالتأكيد، مثلما اعتزمت هي أن تفعل.

ومع أن المرسِلة لم ترغب في الحصول على رد، تناولت نوريا ورقتين ووضعت بينهما ورقة كاربون، ثم دستها في أسطوانة آلتها الكاتبة ذات النوع أوليمبيا. قرأت بعد ذلك رسالة أخرى:

«سيدتي، لا تروقني النساء في أي شيء على الإطلاق، أي شيء أي شيء، وأخشى أن أكون منحرفًا. وفي حالة هذه الفرضية، ماذا يجب أن أفعل؟».

عثرت عندما تأهبت لإغلاق الصندوق، على رسالة سيدة تخبرها بأن زوجها يرافق امرأة أخرى، ولكن بدون إخفاء ذلك، في وضح النهار. وقد أكد لها حينما عاتبته لكي يترك تلك السيدة، أنه لم يعد مسيطرًا على إرادته لأنه تناول طعامًا أو شرابًا قدمته له تلك المرأة جعله لا يستطيع إخراجها من رأسه، وأنه من شدة هوسه بها عرض على زوجته أن يعيشوا جميعًا معًا: هو والمرأتان وأطفالها. هددها بانتزاع الأطفال منها واصطحابهم إلى منزله الجديد إذا لم تقبل هي أيضًا الذهاب. «إن أصبحت تحت سقف واحد معهم فستقتلني الغيرة. لقد وصلت إلى طريق مسدود» (اختتمت الرسالة).

***

أفرغت نوريا محتويات درج الأدوية فوق الطاولة نفسها التي تستخدمها

في الكتابة في غرفة المعيشة. تطوف برأسها، منذ أن رأت التقرير الذي أعطاه كيسلر إلى بورو، أسماء الأدوية التي تحتوي على التيلامون، كتحذير شديد الخطورة. ظلت تفكر كل يوم في القيام بذلك، إلا أنها كانت تتراجع على الفور لأن الخوف من تأكيده كان يشلها.

جاء بورو إلى منزل نوريا في موعده بالضبط: في تمام الساعة الثالثة، مثلما طلب منها في الهاتف. أخبرها أنه لن يمكث طويلًا، نظرًا لأنه يريد أن يريها شيئًا. اعتزمت إذا ظهر ماكسيمو أن تقول له إنه جاء لكي يوصل لها الرسائل، على الرغم من أنها لم تكن ترغب بأي حال من الأحوال في حدوث ذلك.

- ما هذا، نوريا؟ (أشار إلى علب الدواء).

- إنها كل ما لدي بالمنزل. بعضها أعرف الغرض منه، وبعضها الآخر لا. من فضلك، أود أن أطلب منك أن تصنفها لي، يوجد الكثير من الكبسولات، اسم بعضها غير واضح.

- هل تناول الطفلان منها؟ ماذا جرى؟ (انزعج المهندس الكميائي).

- أعتقد أنني تناولت التيلامون.

انقض زميلها على الأدوية، بمجرد أن قالت ذلك.

- شعرت في أكثر من مناسبة باكتئاب شديد. فلجأت إلى هذه الحبوب لأنني اعتقدت أنها ستهدئ أعصابي. (لم ترغب في إخباره عن الدوار الذي أصابها في المرة السابقة عقب الحديث معه). وهكذا، كان تأثيره مشابهًا لعقار الباربيتوكو، الذي سبق أن علقنا عليه في التقرير (فصلت بعض الأقراص وأخرجت أخرى من عبوتها الكارتونية). ومع أنه ليس له نفس الأعراض الجانبية، لا يصلح للأشخاص الذين يعانون من الهزال، أو الحساسية أو من الربو، على أية حال لا أعتقد أن حالتك أيٌّ منها. (تابع بورو الفحص. التقط أولًا عبوات المنتجات التي عرفها على الفور، فصل بعد ذلك قطارتين،

ثلاث زجاجات دواء شرب وشرائط الأقراص التي لم يعد اسمها مقروءًا لتلف مغلفاتها). لا أعرف ما هذا. سوف أقوم بتحليله، وسأخبرك بمجرد أن أعرف. علاوة على أنه يبدو مؤكدًا أن العَرَض الجانبي الوحيد هو الذي نعرفه. لا يمكن أن يحدث لكِ شيءٌ حتى لو تناولتها كمسكن (أخبرها المهندس الكيميائي. داعب شعرها بإصبعين أولا ثم قربهما من وجهها لتتبع الأثر الذي تركته دمعة أسفل عينها اليمنى). يجب أن تهدئي. إنكِ تعانين بدنيًا بسبب كل هذا. لا يساورني أدنى شك في ذلك.

- وإذا حملت مرة أخرى؟

فكر في أول مرة رآها وكيف لفت معطفه الأبيض انتباهها؟ لم تكن تعرف عنه الكثير حتى الآن، وما من سبيل للتغلب على تحفظه تجاه ماضيه. أشعره وجودها بالارتياح وسط كل ذلك الحزن، بالإضافة إلى عمله، بسبب تيقنه من العثور على إنسان نبيل، لا يعرف اللف أو الدوران، أو هذا على الأقل، ما تمنى اعتقاده بكل ما أوتي من قوة.

شعر بورو بضعفها. احتضن خاصرتها وجذبها نحوه لكي يقبلها. لم تغلق نوريا عينيها، بل فتحتهما على اتساعهما للتعويض عن الكلمات التي نفدت منها. رأى بورو الدهشة في نظرتها، فقرر الرحيل قبل أن تفيق منها.

- غدا سأتصل بكِ لأطمئن عليكِ. استريحي!

31

توقف بورو لبرهة، في تلك الليلة نفسها، عندما هم بالدخول إلى بنائه، وابتعد بعد ذلك نحو ظلال الزاوية المقابلة بميدان سان أجوستين من ناحية شارع المستشفى. رأى من هناك الشخص الذي خرج توًا من الزقاق. قدر أنه في عمره نفسه تقريبًا، ولكن البدلة جعلته يبدو أكبر. كان شعره يلمع وأزرار أساور قميصه كذلك وكأنها ثلاث نقاط تجمعت في خط مستقيم في لعبة سيجة مضيئة. بدا بالنسبة للمهندس الكيميائي شديد التأنق على ذلك الزمان والمكان؛ فهو يرتدي ثوب الأعياد في غير أوانه، ولكن بطريقة شديدة التعمد، وكأنه يريد تأكيد الفرق بينه وبين أولئك الذين لا يستطيعون التأنق على هذا النحو. تتلخص الرسالة التي لا تحتمل لبسًا التي يوصلها ماكسيمو ثفرا لأي شخص يقف في طريقه في كلمة واحدة: الانتصار. فكر بورو في ثيابه، التي يشتريها من محل الملابس المستعملة (نوبيدادس)، في كنزاته ذات فتحة الرأس المثلثة باللونين الأبديين إما العنابي أو الأزرق البحري، في ستراته الصوفية ذات الأزرار والجيبين، والقمصان المتشابهة، والتي يوفق بينها جميعًا بسراويل من قماش الترجال. إنه المحل نفسه الذي اعتاد الذهاب إليه منذ صغره مع والدته. ومع أنه لاحظ، لسنوات طويلة، الأسى على إيماءات المالكة، فإنه لم يستطع الكف عن الذهاب إلى هناك، وكأنه مجبر على مواصلة طقس من الطقوس. الفرق بينه وبين والدته أنه لم يكن مضطرًا للشراء بالتقسيط. رأى أجاتا كيبلر على البساط، بمجرد أن دخل المنزل؛ شرعت القطة في الهرهرة وهي تنهض. استخدمت ساقي سيدها جسرًا تمر من أسفله

مرة تلو الأخرى. اضطر بسبب حجم بطنها للمباعدة أكثر بين قدميه في كل مرة. سيحتفظ بجميع هررتها، يعلم أنه لن يستطيع التخلص منها. سيكون عملها مفيدًا في ذلك الفناء لأن الفئران تشعر فيه بالأمان للغاية بين رائحة مواسير الصرف، والرطوبة الأبدية، وبقايا الطعام التي يعثرون عليها. علاوة على أن هناك سببًا آخر: لم يكن بورو يستطيع فصل أم عن صغارها، وسيان عنده في هذه الحالة أن تكون حيوانات.

***

طلبت نوريا من أورسولا قبل وقت كافٍ أن تقضي ليلة الأربعاء في منزلها لأنها تفكر في العودة متأخرةً. لم تعد دورا تخفي تباعدها عنها، وكأنها تفضل أن تشيح ببصرها في اتجاه آخر والتظاهر بأنه تربط بينهما علاقة تجارية فحسب، من خلال الإيجار. لهذا السبب، تعهدت لنفسها مجددًا، بأن تجري مع مالكة منزلها الحوار المعلق في أقرب فرصة لكي تبدد شكوكها.

دخلا إبراشية الراعي الصالح بعد أن طرق بورو براحة يده المفتوحة لعدة مرات على البوابة الكبيرة. التقيا هناك مباشرة، ولم ينظر أحدهما إلى الآخر، مع أنه مرت عليهما بضع دقائق. قال بورو بدون مقدمات:

- إنهم يطاردوننا يا أبتِ.

- ماذا يعني أنهم يطاردونكما؟ هل أنت متأكد؟ (سأله القس. لوحظ القلق على نبرة صوته).

- إنهما رجلان. أصغرهما سنًا يبدو أجنبيًا. رأيناهما لأول مرة في ميدان سانتا ماريا.

- تخشب الأكبر سنًا حينما رآنا (أضافت نوريا) وتوارى خلف ظل أحد الأزقة. وبصق الآخر علينا.

- لكن، كيف يعرفون بأمركما، إذا كنا لم نقل شيئًا لأحد؟ (سألهما الأب

بيلسيرميس).

– لم نقل شيئًا، لكن فعلنا أشياء كثيرة: تحدثنا مع العديد من الأشخاص، راهبات، أمهات... لدينا مستندات (قالت نوريا بانفعال شديد).

– أي نوع من المستندات؟

– أدلة تدينهم بشدة لأنها تثبت العلاقة بين عقار التيلامون والأطفال الذين يولدون مشوهين.

– هذا أمر يجب أن توضحاه لي بالتفصيل. (قال القس وهو ينظر إليهما بنتهى الصرامة).

استمع إليهما الأب بيلسيرميس دون أن تفوته أية تفصيلة. وأدرك من ملاحظة إيماءاتهما، وكيفية تبادلهما النظرات والطريقة التي يكمل بها أحدهما الجمل التي بدأها الآخر، أن هناك شيئًا أكبر من تلك المأساة الفظيعة يربط بين نوريا وبورو.

– ربما يمكننا التوجه إلى موثق عمومي والإدلاء ثلاثتنا باعتراف رسمي. لا يهم كم سيكلف، لا اعتقد أنه سيكون كثيرًا، ولكننا سنحمي أنفسنا بهذه الطريقة وفي أسوأ الأحوال لو جعلونا نختفي، فلن يذهب ما اكتشفناه هباء (قالت نوريا بعد انتهائهما من إحاطة القس بآخر التطورات). على الرغم من أنهم لن يتجرؤوا عليك يا أبتِ، فإنني أخشى على صغاري. إنهم...

– أول شيء يتعين عليكما القيام به هو التحدث للشرطة (قال القس).

– لا نستطيع يا أبتِ، مع تورط أشخاص مثل دون خيرونيمو أولرابوس فلن يفيد ذلك في شيء.

– هل قلتِ أولرابوس؟ صديق السيد والسيدة فرومنت؟ ما علاقته هو بكل هذا؟ (قال القس مندهشًا).

– له دخل أكبر بكثير مما تتصور نيافتك.

- تعلم بورو، أنني كاهن اعتراف زوجته.

- أعلم ذلك، ولكن أخشى يا أبتِ، أن الأمر مؤكد بالفعل، إنه متورط في كل هذا. أما هي فلا أعتقد أنها تعرف شيئًا. لكن يتوقف نسبيًا على دون خيرونيمو إيقاف ترويج المادة التي تتسبب في تلك التشوهات الرهيبة. ساعدنا يا أبت، لكي يحظروها (توسل إليه بورو). إنهم يعرفون ويغضون الطرف.

- أحتاج إلى تلك الأدلة، المستندات التي حدثتماني عنها.

- إنها في خزانتي في المعمل. لم نشأ إحضارها ربما...

- بورو (قاطعته هي)، هل لديك مانع في أن تحضرها بنفسك؟ أعتقد أنه من المهم للغاية أن يراها الأب بأسرع ما يمكن. بالإضافة إلى... أنني سأنتهز فرصة انتظارك لكي أعترف.

راود بورو شعور بأن نوريا ترغب في التخلص منه، لأن هذا لم يكن توقيت الذهاب لإحضار المستندات. نظر إليها بعدم ارتياح. أراد منعها من القيام بذلك. لم يرقه على الإطلاق انتقاؤها لمربيه من بين جميع البشر الذين كان بوسعها اختيارهم لكي تصارحه بالحقيقة.

أشاحت نوريا بنظرها على الفور بعيدًا، عنه وتابعهما الأب بيلسيرميس بقلق.

- تعالي هنا يا ابنتي! (خاطبها بينما اتجه إلى كرسي الاعتراف).

اعتصر بورو قبضتي يده حتى غرس أظافره في راحة كفه وقال:

- سأنتظر إذن في آخر الكنيسة. سنعود سويًا، إذا لم يكن لديكما مانع. (لم يعرف بورو لماذا على وجه التحديد، ولكن على الرغم من عدم تمكنه من منع حدوث ذلك، فضل البقاء هناك، وكأن هذا قد يؤثر في نوريا).

بدأت عندما استقر الكاهن خلف الستار:

- انظر يا أبتِ! أنا لا أرى زوجي كثيرًا (ترددت هنا قبل أن تخبره):

حضرتك تعلم أنه تاجر رحالة. لا تصدق أن ذلك بسبب عمله. (لم ترقها الجملة الأخيرة، منعها توترها من التعبير بصورة أكثر دقة).

- اهدئي! وأخبريني!

- حسنًا... إذن، على الرغم من أن مهامي تبقيني منشغلة كثيرًا، اضطر كلما بقيت بمفردي، لأن أدير المذياع، أتحدث مع خادمة جارتي، أذهب للتسوق أو أخرج مع طفليّ إلى الحديقة. لا أحتمل الاستماع لصوت رأسي. أخشى ارتكاب أية حماقة.

نظر الأب بيلسيرميس إلى المقعد الأخير حيث جلس بورو.

- إنه أمر طبيعي، أحيانًا تنتابنا -نحن معشر البشر- تلك الأحاسيس. من الممكن أن تدفعنا الوحدة للبحث عن ملاذات غير ملائمة. هل لديك أهل آخرون؟

- نعم، لكن بعيد، في لابيسبال. ولكن هذا لم يكن مشكلة على الإطلاق، نتحدث كل أسبوع ولم أشعر مطلقًا مع ماكسيمو بأنه ينقصني شيء.

نظر بيلسيرميس من جديد نحو بورو.

- وماذا تغير إذن، يا ابنتي؟

- لا أدري يا أبتِ، لم أعرف رجلًا آخر سوى زوجي. وهو يراعيني على أكمل وجه، ويحضر كل أسبوع هدايا لي وللأطفال، ويوفي بذلك دائمًا. يمكنك القول إننا أثرياء. إنه يكسب أموالًا طائلة، ولا ينقصني شيء...

- لكن...

أخذ نفسًا عميقًا وانتظر أن تتابع نوريا. لم يشأ استباق الأحداث، مفضلًا أن تتحدث هي، إدراكًا منه أن ذلك هو الأجدى لترتيب الأفكار، وبصفة خاصة عن الروح.

- لكن تملؤني الشكوك لأن...

- لأن ماذا، يا ابنتي؟

نظرت نوريا في اتجاه مكان زميلها السابح في الظلال. تتبع بيلسيرميس مسار عينيها، فأومأ برأسه حينما أدرك العمق الذي بلغته العلاقة بينهما في ذلك الوقت القصير. قالت نوريا هامسة:

- الأمر يتعلق ببورو. نيافتك تعرفه منذ زمن بعيد.

- أعرفه منذ نعومة أظفاره، نعم، إنه في منزلة الابن بالنسبة لي (اكتسب صوته نبرة فخر).

رأى بيلسيرميس الكثير من الصغار البؤساء الموسومة نظرات عيونهم بحكم الضياع، لكن على أية حال، تولدت لديه، إلى جانب الشعور بالأسى بسبب تلك المواقف، القناعة بأنها كانت إرادة الرب. على العكس من ذلك، لا يمكنه، عندما يرى بورو وآخرين مثله، تحاشي الانسياق وراء نوع من التفاخر مفكرًا في أن هؤلاء يعتبرون إلى حد كبير صنيعته هو. خاطبها بنبرة حاول أن تكون محايدة قدر المستطاع، مستشعرًا نوعًا من الخوف مما قد تخبره به نوريا لاحقًا:

- لكن أعتقد، يا ابنتي، أنكِ وجدت تلك الإجابة داخلك بالفعل.

أومأت برأسها تعبيرًا عن الأسف.

- لا، يا أبتِ، لا أدري ماذا يجب أن أفعل؟ أكتشف عيوبًا أكثر فأكثر في زوجي، يتحدث بطريقة عصبية للغاية، كما أنه شخص مسرف بشكل مبالغ فيه، أتعلم؟ إنه ينفق أموالًا على الثياب أكثر مني ومن طفليه مجتمعين.

- هذا بسبب مهنته. فهو بحاجة لأن يترك انطباعًا جيدًا، لا تكوني ظالمة! إنه رجل عظيم بكل تأكيد.

- أعرف، يا أبتِ، إلا أنني لا أحتمل تلك التفاصيل. فيما مضى كان يعذبني بقاؤه في المنزل ليومين فحسب، والآن اعتبر أنها نعمة.

- ابنتي!

- معذرة، يا أبتِ، لكنها الحقيقة. سيخنقني إذا بقي لمزيد من الوقت. إنه شديد... الثقل.

- تعقلي نوريا! الصبر من الفضائل المسيحية الأساسية. ليس من السهل استيعاب الآخرين، لقد تزوجته.

- لكن المشاعر تتغير وهو يريد دائمًا... وأنا بالفعل... (وتركت الجملة معلقة).

- أنتِ زوجته، إنه أمر طبيعي، بالإضافة إلى أنه في الخارج طوال الأسبوع.

- لا تسئ فهمي يا أبتِ! لقد منحني ماكسيمو أفضل ما لدي في الحياة: طفليّ. لا أستطيع العيش بدونهما، لكنني أؤكد لك أنني أستطيع العيش بدون ماكسيمو. كنت أتحمل فيما مضى بشكل أفضل، لكن منذ أن تعرفت على... (لم ترغب نوريا في ذكر اسم بورو مجددًا).

- لا يستطيع الإنسان أن يفرق ما جمعه الرب. تعلمين ذلك.

- أعلم، يا أبتِ، ولكن...

- لا توجد استثناءات. ابحثي عن أية إغراءات! ستجدين بكل تأكيد. لا أحد كامل، فكري في مميزات وضعك. فهما أولًا وأخيرًا يومان في الأسبوع تقضيهما معه، ولديكِ وضع اجتماعي جيد، يحتاج طفلاكِ لأب.

أدهشها الطابع العملي لذلك الرجل. فبرغم معرفتها بأسلوب تفكيره، من خلال بورو، والذي وصفه المهندس الكيميائي بأنه حداثي، لم تكن تنتظر أن ينصحها بتلك الطريقة.

- لكن، يا أبتِ، هذا ليس كل شيء. لقد تبادلت القبل مع بورو وقد أفعل ذلك مجددًا.

- نوريا! لا يمكن أن تنسي في أية لحظة وضعك كأمرأة متزوجة. لم أقصد ذلك عندما تحدثت عن إغراءات (بذل مجهودًا هائلًا وهو يقول لها ذلك، بدلًا من القيام والذهاب لتوبيخ بورو مثلما كان يفعل عندما كان طفلًا ويرتكب عملًا صبيانيًا).

- أعلم، يا أبتِ. وأشعر باستياء. لا أدري، كان بمنزلة تهاونٍ، اندفعت، لكن ذلك لم يضايقني على الإطلاق، وهذا أسوأ ما في الأمر. لدرجة أنه بدا لي فعلًا عاديًا، المفترض أن يحدث في علاقتنا. معذرة، يا أبتِ، أعلم أن ما أخبرك به فظيع، لكن أرجوك، امنحني الغفران! سأكون في غاية الامتنان لك.

- الأمر لا علاقة له بالامتنان. الاعتراف من الأسرار السبعة المقدسة التي أنا مسؤول عنها. ولا تنسي أن الزواج سر آخر.!

- نعم، يا أبتِ، معذرة. وفوق ذلك أنا أنانية؛ فبالرغم من كل هذه المأساة التي نعرفها، أحدثك عن نفسي، ولا يوجد أي وجه للمقارنة بين الاثنين.

- ليس بوسعنا اختيار ما يشغل بالنا. أستوعب ذلك. وصلي! صلي كل يوم من أجل تلك المخلوقات التي ينتظرها مستقبل قاسٍ!

- بقي أمر آخر: هل ستتحدث مع السيد أولرابوس عندما نعرض عليك تلك المستندات؟ أنا حقًا في غاية الأسف، ولكن لا يوجد أدنى شك: إنه متورط في كل هذا.

لم يجب بيلسيرميس. لمحت نوريا يده تتحرك أولًا من أعلى لأسفل ثم من اليسار إلى اليمين. قسم بتلك الطريقة إلى أربعة أقسام تلك النافذة الصغيرة، التي فتحها لها على مصراعيها للتنفيس، وكأنها بدلًا من هذه الطاقة الصغيرة جلست أمام البحر واستنشقت لعدة مرات الهواء المتشبع بالشمس واليود.

غادر الأب بيلسيرميس كرسي الاعتراف، وقطع الكنيسة في أربع خطوات. سار بسرعة شديدة بدرجة حركت الهواء المحبوس في المعبد. لم يكن بورو هناك، عندما توقف عند آخر صف مقاعد. نظرت نوريا حولها، لم يكن هناك أي أثر للمهندس الكيميائي. سألت نوريا بقلق:

- هل حدث له شيء؟

ابتسم الأب بيلسيرميس وتذكر بحنين كيف كان بورو يختبئ في صغره لتجنب أي توبيخ.

- اهدئي! لا داعي للقلق. يبدو أن كل ما هنالك أنه فجأة انتابه الخوف مني.

32

دلفت نوريا في اليوم التالي إلى القاعة البيضاء بمعهد مستحضرات التجميل تنتابها الرغبة في التحدث مع بورو. أمسكت السيدة فرومنت بيدها بمجرد أن رأتها.

- تعالي يا عزيزتي! لدينا زيارة. حضر صديق لزوجي. تناولي معنا فنجان قهوة! لست في عجلة، أليس كذلك؟

- مرحبًا، دونيا ليونور. تسعدني رؤيتك. كنت أود الكتابة إليكِ لأشكركِ على الغداء.

- على الرحب والسعة، نوريا. سوف نكررها.

تعمل ليليانا ملتصقة بجهاز المذياع على تصنيف كومة ضخمة من الخطابات. نظرت فزعة إلى نوريا حينما رأتها تدخل. اندهشت نوريا من رد فعلها. استجوبتها بنظراتها، إلا أن السكرتيرة عادت للانهماك في عملها عندما فتحت دونيا ليونور باب المكتب. كان هناك شخص آخر بالإضافة إلى السيد فرومنت والأب بيلسيرميس.

- نوريا، العزيزة. (حياها دون أليكس، وكأن معرفتهما تتعدى مجرد علاقة عمل بالإضافة إلى كونها عن بعد وبمسافة كبيرة). كيف حالك؟ (لم ينتظر أية إجابة ومن ثم تابع في الحال). كنا نتحدث عن أحوال البرنامج الجيدة، يتزايد مستمعوه يومًا بعد يوم. في البداية، حينما أطلقناه، كان يصل إلى جيل كامل من النساء، انضمت إليهن الآن بناتهن، وهذا ينعكس على

المبيعات، أليس كذلك، خيرونيمو؟

انخلع قلب نوريا عندما سمعت ذلك الاسم. نظرت إلى الأب بيلسيرميس، فأومأ برأسه بشكل غير ملحوظ لتأكيد شكوكها. استوعبت حينئذٍ سلوك ليليانا. تابع دون أليكس غير عابئٍ بقلق نوريا:

- نصدر الآن إلى فرنسا، معقل مستحضرات التجميل بفضل تعاون الوزارة.

- نوريا سومبورت (تدخلت السيدة فرومنت)، السيد هو دون خيرونيمو أولرابوس، وكيل وزارة التجارة عن برشلونة.

- تشرفنا (قالت مشددة على مخارج ألفاظها).

- ندين بقدر من نجاحنا إلى رسائلك البالغة الرصانة والاعتدال والحكمة (أضافت دونيا ليونور). كتاباتها في تزايد مستمر.

شعرت بأنها غير قادرة على التعليق بشيء. كم تمنت لو أن بورو كان موجودًا هناك. خاطبها دون خيرونيمو أولرابوس قائلًا:

- من فضلك، اجلسي معنا قليلًا!

ترددت نوريا، لم تدر ماذا يتعين عليها أن تفعل؟ هل تعتذر أو تبقى؟ فنظرت إلى الأب بيلسيرميس، وحينما أومأ برأسه، جلست على المقعد الموجود بجواره.

- كنت أقول لكم: إنه حان الوقت لكي أترك منصبي لشخص آخر (عاود توجيه حديثه إلى السيد والسيدة فرومنت).

- ولكنك انضممت إلى الحكومة مؤخرًا، كما يقولون. مستحيل بأي حال من الأحوال. نحن بحاجة إليك. (أجابه دون أليكس بانفعال شديد).

تطلعت نوريا إلى الأب بيلسيرميس مجددًا.

- لا أظن، إنكم تقومون بعمل جيد. هذه هي بطاقة تقديمكم.

ستستمرون بالمستوى الجيد نفسه بدوني. علاوة على أنكم تعلمون ظروفي الشخصية...

ابتسمت نوريا مجاملة، ولكنها شعرت بعدم ارتياح حينما فكرت في زوجته المشلولة، وفي رحلاته المستمرة إلى لوردز. على النقيض من ذلك، بدا لها جذابًا، أكثر بكثير مما تخيلت. أسود الشعر مرجل بكمية وفيرة من الكريم، وتفوح منه رائحة كولونيا الحلاقة، وتتسم ثيابه بأناقة كلاسيكية للغاية، وكأن هذه الثياب لم يشترها مطلقًا، بل آلت إليه بالميراث.

- وحضرتك، أخبريني، هل تجدين ما تقومين به شيقًا؟

كانت نوريا واثقة من أنه يخاطبها على سبيل المجاملة فحسب، وكأنه يؤدي واجبًا كبيرًا، وفقًا للقواعد التي تنص على أنه حينما تجلس إلى مائدة أو تكون في موقف مشابه يجب عليك تخصيص للمدعو الجالس على يمينك، القدر نفسه من الوقت للجالس على يسارك.

- يروقني كثيرًا هذا العمل. يتيح لي الكتابة، وهو ما شغفت به دائمًا، فضلًا عن أنني أقوم به من منزلي. أنا في غاية الامتنان لكما. (قالت وهي تتطلع إلى دون أليكس ودونيا ليونور).

- أعلم أنه يتم تلقي مئات الرسائل ويذاع القليل منها فحسب. إنه أمر مؤسف... ماذا يحكون لكِ في تلك الرسائل؟

دخلت ليليانا في تلك اللحظة حاملة صينية القهوة. تسمرت في مكانها عند سماع ذلك السؤال.

- عن كل شيء. (تابعت نوريا. أدركت بوضوح أن تلك كانت فرصتها لمواجهته). يكتب أشخاص مختلفون للغاية. وأكثرها تأثيرًا رسائل أمهات الأطفال الـ...

نظرت إليها ليليانا، وفهمت هي من نظرتها أنها تتوسل إليها ألا تستمر.

انتبه الأب بيلسيرميس لذلك.

- ورسائل الأكثر ضعفًا والأكثر بؤسًا (تدخل القس وتنفست ليليانا الصعداء). جاءت كلمات السيدة سومبورت بمثابة الترياق لكثير من الأمهات اللاتي يعانين، غالبية من يبعثون بتلك الرسائل من النساء.

حسنًا، جيد للغاية، فلنستمر على هذا النحو! يجب أن نستمر من أجل رفعة هذا البلد بين الأمم. يجب أن يسهم كل واحد بما يعرف لكي نتقدم معًا نحو الهدف نفسه.

انتابها إحساس إثر هذه الشعارات أن دون خيرونيمو اعتبر الحديث انتهى، على الأقل معها. لم تتناول أي فنجان من الصينية التي أحضرتها ليليانا وظلت واقفة.

- معذرة. مضطرة لاصطحاب طفليّ (قالت لهم، ونظرت إلى القس قبل الخروج. لم يرقها مقاطعته لها).

- سعدت بلقائك، آنسة... (خاطبها السيد أولرابوس. لم يتذكر لقبها وهذا جعلها تشعر بنوع من الارتياح).

- أنا أيضًا يجب أن أنصرف. واجباتي تناديني (اعتذر القس لينصرف). سيد أولرابوس، إذا احتاجتني زوجتك، فلا تتردد في إبلاغي! وإذا لم يكن يضايقك، أود التحدث معك قبل انصرافك (أضاف).

- من دواعي سروري. أشكرك، يا أبتِ. وقتما تشاء.

انتهزت ليليانا الفرصة لتخرج خلف القس ونوريا. نظرت نوريا إليها بدون أن تستطيع تفادي التفكير أنه خلال كل تلك الزيارات التي قام بها القس لزوجة دون خيرونيمو، كان العاشقان يلتقيان.

- أتعرفين أين بورو؟ هل هو مريض؟ (سألت نوريا السكرتيرة حينما لم تره في أي مكان. هزت ليليانا كتفيها).

- لا تقلقي يا ابنتي! أتوقع أنه سيظهر بمجرد أن أرحل أنا (قال الأب بلسيرميس أثناء مروره بجوارهما). ليليانا، أعتقد أن بيننا حديثًا معلقًا (خاطبها بمنتهى الجدية).

- نعم، يا أبتِ (أجابت بخجل). وأشكرك. (أضافت مشيرة بإيماءة خفيفة برأسها نحو مكتب السيد والسيدة فرومنت.

- سوف أنتظرك (قال بإصرار).

أومأت ليليانا بالإيجاب، وخرج القس على عجل. أفاد حضور تلك المحادثة نوريا في تأكيد الرأي الذي كونته عن ذلك الشخص منذ الوهلة الأولى كان شديد الذكاء لدرجة أنه بالإضافة لاستيعابه لنساء مثلها من أول نظرة، كان يتنبأ بسلوكهن. كما كان يتمتع بقدرة على الحدس، جعلتها تبدو أمامه بمشاعرها تجاه بورو، كتابًا مفتوحًا، وهذا ليس لمجرد اعترافها له.

خرجت نوريا خلفه، رأت عندما وصلت إلى فناء المدخل، الأب ينعطف مبتعدًا إلى اليمين في اتجاه لاس رمبلاس، بينما يصل بورو من الاتجاه المعاكس. قررت تحذيره لأنها لم تكن تريد أن يقول شيئًا عما حدث في صالة منزلها، أو حتى يلمح إليه من بعيد. كان الأفضل لكليهما أن ينسياه.

- السيد والسيدة فرومنت لديهما زيارة. ومهما خمنت، فلن تحزر من يكون الزائر

- دون خيرونيمو أولرابوس (قال بصورة تلقائية).

- نعم (أجابت نوريا بإعجاب).

- إنه جزء من عمله: المرور بين الفينة والفينة على الشركات والتحدث مع ملاكها، وجمع أي نوع من المعلومات. وعمل مسح حصري لكل شيء، غالبية الوقت الذي يقضونه في مكتب وكيل الوزارة يمضونه في كتابة التقارير. يوجد في ذلك المكتب تلال من الأوراق، داخل الخزائن، وفوق

المقاعد، وحتى على الأرض (تابع هو). وقد جاء من قبل في مناسبات سابقة، ولكن لم تكن لدي بالتأكيد أدنى فكرة أنه كان يتقلد منصبًا رفيع المستوى أو حتى (وخفض صوته) أنه على علاقة بليليانا.

- لم يكن كما توقعت.

- وماذا توقعتِ أن يكون؟ أكثر قبحًا، أم أكبر سنًا؟ (لم يستطع بورو تحاشي الابتسام).

- أخبر دون أليكس ودونيا ليونور أنه يريد ترك منصبه، وأنه بالرغم من الوقت القصير الذي قضاه لم يكن ذلك هو العمل الذي يعتزم أن يكرس له عمره، كما يتعين عليه الاعتناء بزوجته المريضة.

- بالتأكيد، بالتأكيد، وأن الندم يحرمه من النوم. لم يقل ذلك. يعتمد على مكتبه منح تراخيص الاستيراد. ولو لم يصرحوا بالتيلامون، لما انتشر هنا. يمكنهم حظره بنفس الطريقة التي أباحوه بها، ولكن لا، بدلًا من ذلك يدققون في تنفيذ الاتفاقيات التجارية مهما كان محتواها، وسيان لديهم إذا كانت لبيع الرمان كفاكهة أو قنابل يدوية.

- بورو، نستطيع منع ذلك. إنه هنا بالداخل، إنها فرصتنا لمواجهته، وإجباره على منع التيلامون.

استدارت نوريا وشرعت في السير تجاه المعمل، إلا أن بورو أمسكها من خصرها وثبتها بقوة. سرت رعدة في جسم نوريا.

- لن نجني شيئًا بهذه الطريقة (همس في أذنيها). سوف ينكر كل شيء، وسيدافع رؤساؤنا عنه، وسيضعنا هذا في موقف بالغ الحساسية. أنا متأكد أن ليليانا ستحقق نتائج أفضل.

تحررت نوريا من ذراع بورو ونظرت إلى شفتيه. اتجهت ببطء نحو باب البهو الداخلي. لم تكن تعلم إلى أي مدى ستخرج منتصرة أو مهزومة من

تلك المعركة التي تخوضها ضد الرغبة.

***

رفعت نوريا طفلها، مرغت وجهها في خديه، بينما تجذبها ميرييا من تنورتها بدون أن تقول شيئًا، مطالبة بجرعتها من الحنان. اقترحت أورسولا تحضير شيء قبل انصرافها، إلا أنها لم تكن لديها شهية. قالت لابنتها:

- حالًا. انتظري حتى أتركه!

- أنتِ لا تعرفين كم الأشياء التي قمنا بها (قالت لها الطفلة). أورسولا تعلمني الحياكة.

- حسنًا، كم أنا سعيدة بذلك، يا حلوتي، أنا لا أعرف. بعد ذلك أنتِ ستعلمينني أنا. هل ستوافقين؟

- سوف أحيك لدمياتي أثوابهن. انظري ثوب المضيفة هذا الذي في المجلة! سوف نحيكه معًا، أورسولا لديها الأزرار، والعرى، وكل المستلزمات.

ابتسمت نوريا.

- العرى تصنع، ولا توضع؛ إنها ثقوب طويلة. انظري! مثل هذه (قالت وهي تريها السترة بعد أن خلعتها).

كان غرضها في يوم الجمعة ذاك، ألا يتولد لدى ماكسيمو انطباع عندما يدق جرس الباب، أنها وصلت توًا من الخارج.

33

اتصلوا ببورو هاتفيًا في وقت مبكر للغاية، وقد أبلغته بالاتصال إحدى فتيات دونيا ريتا. طلب منها المهندس الكيميائي أن تنتظره بأسفل لأنها لم تكن تريد أن تبرح عتبة الباب، ولم يكن هو يريد إدخالها. ارتدى ثيابه في أقل من دقيقتين والتقط سماعة الهاتف:

- آلو، مَن؟

- كيسلر. أنا في مدريد. وأتمنى ألا أغادر هذا البلد مطلقًا. ولكني مضطر للعودة الآن، إلا أنني بالفعل، لست متعجلًا. يمكنني تغيير مساري، لأنني سأذهب أولًا إلى فرانكفورت، وهكذا ستكون الرحلة من برشلونة أكثر مباشرة بالنسبة لي.

- هل ستعود بالسيارة؟

- هذا صحيح. حسنًا، ستدعوني خلال يومين على الطعام الذي وعدتني به.

- سيكون من دواعي سروري. هل سارت الأمور على ما يرام؟

- سوف أخبرك. إلى الملتقى إذن.

- أنا في انتظار حضرتك، في انتظارك (وجد صعوبة في التحدث إليه على هذا النحو)، في ميدان بلاثا كتالونيا يوم الإثنين الساعة الثانية. إذا شئت بحثت لك عن مكان لتنزل به.

- أشكرك، لكن أنا تصرفت في هذا الأمر.

- إلى اللقاء. رحلة سعيدة.

انتبه بورو نافاسكويس حين وضع سماعة الهاتف إلى أنه محاط بثلاث حوريات، كما تطلق عليهن دونيا ريتا.

- هل سيأتي أحد أصدقائك؟ سوف نعامله كملك (خاطبته مالكة المكان التي استمعت للمحادثة الهاتفية).

لم يجب عليهن نافاسكويس. لا محل في رؤوس تلك النساء للرفض، ربما عانوا من رفضه لهم فحسب، ويكفيهم ما تحملوه من واحد. لا يستوعبن، بسبب مظهر الرجال الذين يترددون عليهن، أنه يوجد بينهم من لا يتسطيعون دفع مقابل خدماتهن.

- أشكرك. لا أدري إن كنت سأقوم بتركيب هاتف في يوم من الأيام بسبب حسن ردكن على المكالمات. إذ لا توجد حجة أفضل من تلك لأراكن. (شعر بورو بأنه مضطر لمجاملتهن بتلك الكلمات، على الرغم من أنه أضاف على الفور): بالنسبة للمرتين التي أتلقى فيهما اتصالًا كل عام...

- نحن أيضا تروقنا رؤيتك. تعلم ذلك بالفعل. وكان سيروق المسكينة والدتك، لو رأت ما صرت إليه.

كانت دونيا ريتا واحدة من أبناء الحي. يعلم الجميع طبيعة عملها. لا تعبث مع أحد ما لم يعبث معها. اتخذت من هذا شعارًا لها. حظيت بالاحترام، لأنها كانت تعرف، حتى أفضل من الشرطة، خبايا أزقة الكثير من شوارع برشلونة، وكانت مطلعة على أغوار السلوك الإنساني الذي قد يصيب الكثيرين بالدهشة. بات واضحًا لديها تمامًا بعد أكثر من عشرين عامًا في المهنة، أنه لا يكاد يوجد شيء على الإطلاق كما يبدو من مظهره.

خيم الصمت على مأساة عائلة بورو هناك. مر على ذلك أكثر من ربع

قرن. انتقل بورو للإقامة على مسافة مربعين من المكان الذي عانى فيه في صغره، ثم قرر العودة عندما أنهى دراسته في المدرسة الدينية الداخلية، بعد حسم أمر عدم الانخراط في سلك الكهنوت. وأيده الأب بيلسيرميس في ذلك القرار أيضًا، بدون تردد. رأى ذلك الرجل أنه إذا لم يكن الشغف الديني كامنًا داخل الإنسان، فمن غير المجدي محاولة زرعه فيه لأن المحصلة ستكون رجل دين مزيفًا.

ظل بورو في ذلك البناء، قريبًا، وفي الوقت نفسه بعيدًا، بمسافة كافية، عن الحجرة التي قضى بها الساعات الطوال بمفرده. كان متأكدًا، من أن الطفل المقيد بالحبال، التي لم يستطع تمزيقها، بداخل عقله، سيظل باقيًا بين الظلال.

***

نحو الساعة الثامنة، لاحظ بورو وهو يوشك على وضع المفتاح في باب معهد مستحضرات التجميل، أنه كان شبه مفتوحٍ. اعتاد رؤساؤه النزول بعد الإفطار. نحو الساعة العاشرة.

سمع نحيبًا. ورأى على الفور ليليانا تضع رأسها بين يديها، ومرفقاها على الطاولة. اعتذر لأنه وجدها على هذه الحال:

- كان الباب مفتوحًا.

- لقد جاء.

تلفت حوله خشية أن يكون أحد الرجلين اللذين يراقبانها.

- كان دون خيرونيمو هنا منذ قليل. (قالت ليليانا، فشعر بورو بالارتياح)

- مبكرًا هكذا؟

- نعم، كنا قد اتفقنا على أن نلتقي في السابعة. كما توقعت، أراد أن يقول

لي إنه لا يريد أن نتقابل. (عادت ليليانا للانتحاب من جديد ولكن بصورة أخف مما سمعه عند دخوله). سيرحل. أخبر السيد والسيدة فرومنت بذلك بالفعل في المكتب. على الرغم من أنني كنت أتصور أنه يقصد التخلي عن منصبه فحسب. لم أطق سماع المزيد.

- تقصدين أنه يهرب.

- أخبرني أنه سينتقل حاليًا للإقامة في فندق صغير بالقرب من مصحة لوردز. أعلم أنني سأفتقده. لقد ساعدني كثيرًا، وهذا أمر لا أستطيع إنكاره.

- يالها من طريقة للتكفير عن ذنوبه، يختبئ بدلًا من مواجهة الأمر. من يدري ماذا عرضوا عليه في المقابل؟

- لابد أنهم ابتزوه، بالتأكيد، لن يخبرني بذلك مطلقًا، ولكن من السهل تخمينه. لهذا أشعر بكل هذا الاستياء. إنه رجل صالح، لكنه يريد التخلص مني بأية طريقة. ينتابني شعور بأنني كنت شاهدًا على كل هذا بدون أن نتبادل أية كلمة عن الموضوع.

- سيطالبونه بالتأكيد بأموال لكيلا يفضحوا صفقاته. سيبتزونه. دائمًا ما تسير الأمور على هذا النحو فيما يبدو.

- لكنه لم يقم بالخداع، هذه مهمة آخرين. كان عليه غض الطرف فحسب.

- سيان، ليليانا، يتساوى معهم في الجرم للتقصير.

- يقول إنهم هددوه بفضح علاقتنا، لهذا أبكي، أبكي على حالي تحديدًا. سيفصلونني، بورو. لم يخبرني من كانوا، لكنني متأكدة أنهم أولئك الأشخاص الأشرار الذين رأيتهم في جادة البورن وأنا ذاهبة للقائكم. لم نتقابل منذ نحو شهر، بالرغم من إلحاحي، لكن يبدو أن ذلك المخبر جمع أدلة، لا أدري كيف حصل عليها. كما أخبروه بأنهم سيطلعون زوجته على كل شيء. يقول إن

قلب زوجته لن يحتمل، ولهذا السبب سيرحلان.

- وماذا عن الأطفال الذين مازالوا يموتون؟ والذين يولودون مشوهين؟

- لم أخبره بشيء عن ذلك. لم أجرؤ. أنا آسفة. لا يسعنا الآن سوى الرجاء أن يفعل من سيعينونه في منصب وكيل الوزارة شيئًا.

- ليليانا، إذا كانوا سيغيرونه، فهذا بالتحديد لكيلا يعترض بديله ولا يفعل شيئًا.

34

قبلت كلٌّ من نوريا وليليانا عن طيب خاطر دعوة بورو لتناول الطعام مع فاريك كيسلر. كانت لديهما رغبة قوية في التعرف عليه. عندما اقتربتا من لوحة الفيسفساء التي تتوسط ميدان بلاثا كتالونيا، كان بورو هناك بالفعل. وصل قبل الموعد بنحو ربع ساعة، رغبة منه في القيام بدور المضيف على أكمل وجه. وما إن انتهى الثلاثة من تبادل التحية، حتى رأوا الطبيب قادمًا بصحبة امرأة شقراء، فارعة الطول وممشوقة القوام ترتدي ثوبًا محبوكًا على جسدها، وحذاء من الجلد الصناعي اللامع أبيض اللون طويلًا يصل إلى مابعد الركبة. قالت ليليانا:

- تبدو كموديل من مجلة البوردا.

تقدم بورو لبضعة خطوات فحياه كيسلر.

- الصديق نافاسكويس، كيف حالك؟ يا لها من مدينة رائعة! أقدم لك ميرخا، رفيقتي العاطفية. إنها سويدية. تعلم كم يحب الإسكندنافيون بلادنا. لهذا ترافقني، من أجل هذا فحسب. (وغمز له بعينه لكي ينتبه للمزحة).

- تشرفنا، سيدتي (قال بورو).

- الشرف لي (أجابت بابتسامة عريضة. قالت ميرخا هذه الكلمة الوحيدة ببطء شديد، وكأنها تتحمل مشقة كبيرة مع كل مقطع. كانت تحمل آلة تصوير فوتوغرافي من نوع ياشكا اليابانية معلقة في معصمها).

- نوريا سومبورت زميلتي في معهد مستحضرات التجميل، وهي التي

ترد على رسائل البرنامج الإذاعي المستشار العاطفي (قال بورو وهو يقدمها إليها). أما ليليانا فهي سكرتيرة السيد والسيدة فرومنت. لولاها ما كنا علمنا شيئًا عن قضية حديثي الولادة مبتوري الأطراف.

برز جيوفري بالادري بوضوح من بين الحشود في الميدان، وقد لاحظوه على الفور. تسمر بورو في مكانه في البداية، ثم اتجه نحوه. أمسكت نوريا بذراعه، إلا أن زميلها انتفض بقوة. وخاطب المحقق:

- اتركني وشأني، لقد فاض بي. ماذا تريد؟ إنك حتى لا تتخفى.

انتهزت ميرخا الفرصة لالتقاط صور للميدان وبعد ذلك ركزت عليهما.

- أنت تعرف ما أريد، نافاسكويس. إذا كان وجودي يزعجك فذلك لأن لديك الكثير لتخفيه. افتح عينيك! ستشكرني في يوم من الأيام على هذه الكلمات.

لوح بورو بقبضته. توقف أحد الكناسين لمشاهدتهما وكأنه عرض فني.

- إهدأ، إهدأ! لم يحدث شيء، ليس محظورًا مشاهدة الحمام والمارة. وإذا كانوا مثل تلك، فإنها متعة (خاطبه مشيرًا إلى ميرخا).

- سوف أبلغ عنك الشرطة.

- نعم، هيا إذهب إلى قسم الشرطة! يعرفونني هناك بما فيه الكفاية.

- أكرر عليك ذلك. دعنا وشأننا!

ابتعد بالادري بمجرد أن شرع فاريك كيسلر في التوجه نحوهما.

- يالها من ميزانية ينفقها أصحاب شركة الأدوية لإبقائنا تحت المراقبة! كان من الأجدر بهم استخدامها في إجراء تجارب على ما يطرحونه في الأسواق (قال له الطبيب).

- لم أعد أحتمله أكثر من ذلك. أعتقد أنه يلاحقني أربعًا وعشرين

ساعة في اليوم. إنه لا يطاق. يخرجني عن شعوري.

- صديقي بورو، دعنا لا نفقد هدوءنا! وقوعنا في مشكلة ترغمنا على الابتعاد عن طريقهم، وهذا لن يفيدنا على الإطلاق، ولكن سيفيد أورلانتا أكثر.

- نعم، معك حق.

- هذا أفضل. أين سنتناول الطعام؟

- حجزت طاولة في مطعم بمنطقة برثلونيتا. هل سبق لك زيارة الميناء؟

أومأ كيسلر بالنفي.

- سيروقك المكان. لكن سنضطر للذهاب في سيارتي أجرة.

- نعم، لكن فلنلتقط صورة للذكرى أولًا لكي يروا في ألمانيا هذا الضوء.

اصطفوا وتقدمت رفيقة دكتور كيسلر العاطفية لتقف أمامهم. ساروا بعد ذلك في اتجاه الجانب الأيمن من لاس رامبلاس، ووصلت في الحال السيارتان اللتان يحتاجونهما.

نظرت ميرخا من نافذة المقعد المجاور للسائق. كانت قد جلست إلى جوار السائق، لكي تريح ساقيها بشكل أفضل من المقاعد الخلفية.

اتجهوا إلى الممشى، ما إن وصلوا إلى حي البحارة. أخبرتهم نوريا أن طبيبًا ألمانيًا عرض إجراء جراحة لأحد الأطفال الذين تفقّدوهم في ملجأ أيتام سان خوسيه، بحسب ما أبلغتهم كبيرة الراهبات. قال كيسلر وهم يدخلون المطعم:

- من يدري من يكون؟ امنعوه إذا كان الأمر بأيديكم! وإذا أعطيتموني اسم المكان الذي يوجد به ذلك الطفل، أستطيع الاتصال به أنا أيضًا.

بدا في منتهى التناقض، ضوء الساحل، بريق طقم المائدة، وروعة مذاق المحار وفواكه البحر مع كل ما يؤرقهم. كان مضيفهم مرحًا، لطيفًا، أو على

الأقل تظاهر بذلك.

- بدأت العمل في ألمانيا كمترجم، مقدم فقرات إعلانية، ومدبلج أفلام... وليس أقل من ذلك. من كان سيعترض. يبدو أنهم كانوا بحاجة إلى كثيرين للقيام بتلك الأعمال لأن هتلر كان قد أعدم كل الأجانب تقريبًا. كما قُتل أيضًا الكثير من الأطباء في الحرب؛ ولهذا استطعت دخول مستشفى هامبورج مبكرًا نسبيًا.

كانت نوريا وبورو وليليانا مستمتعين بالإنصات إليه.

- اشتريت السيارة من دخلي هذا بالإضافة إلى مدخراتي، واتضح لنا فيما بعد مدى أهميتها لأبحاثنا. أتاح توافر وسيلة مواصلات خاصة لزميلي كونراد سنغر ولي، حرية الانتقال في كافة أرجاء المنطقة.

- يعد استمرار ميلاد أطفال متفقمي الأطراف، بعد كل الجهد الذي بذلتماه، أمرًا لا يغتفر (قال بورو محبطًا).

- لا يجب أن ندع الإحباط يهزمنا، وخاصة بعد ما اكتشفناه. (خفض كيسلر صوته كثيرًا): أمر له علاقة بترخيص براءة اختراع التيلامون. إنه اكتشاف قد يؤدي لتدمير أورلانتا نهائيًا. لم يعد متبقيًا سوى الحصول على المستند الذي يثبت ذلك.

نظر كيسلر في رد فعل تلقائي إلى خارج المكان. كان يوجد في واجهة المطعم حوض أسماك به روبيان وكركند (لوبستر)، ومن فوقه النظرات الباردة للرجل الآخر الذي رأوه في ميدان سانتا ماريا.

- إنه هنا مجددًا.

- يبدو هذا الرجل الآخر أكثر خطورة. (قال كيسلر). لن يتركونا مطلقًا سواء ليلًا أو نهارًا. سيطلقون خلفنا دائمًا واحدًا من زبانيتهم لتخويفنا. سواء كنا في ألمانيا أو فرنسا أو ههنا كما هي الحال الآن.

التفت الجميع ورأوا الشخص الذي ينظر إليهم من الخارج. أومأ إليهم كيسلر لكي يقتربوا أكثر.

- تعرفت في هامبورج، أوائل سنوات ما بعد الحرب على سيجفريد باخاراخ، سائق ميليفا، امرأة ساحرة، يشرفني الاحتفاظ بصداقتها إلى الآن. سأرسل إليها إحدى الصور التي التقطناها اليوم لترى كم هي جميلة برشلونة! كنت في ذلك الوقت أتنقل بين مجموعة من السيدات، بعضهن مسنات وغالبيتهن أرامل. اعتادت ميليفا استقبال أصدقائها في قصرها المتعدد الصالونات التي ظلت بصورة استثنائية على حالها لم تمس، مثلما حدث معها شخصيًا، وكأن القنابل وشظاياها قررت تفاديهم. يوجد بالقصر مطبخ هائل به ركن للمخبوزات، كان سائقها، شخصًا يجيد سبع صنائع مثلي، يصنع فيه الخبز. ويحصل بفضل اتصالات هذه السيدة على الدقيق والخميرة... من الميناء مباشرة. كان يعجن في بعض الأيام أكثر من خمسين كيلوجرامًا، يتخاطفها أصحاب المحال من يده. وبهذه الطريقة، كان يوصلها نهارًا من مكان لآخر وليلًا يهتم بمهنته التي مارسها حينما كان يعيش في سلام. تشاركنا أوقاتًا طويلة خلال تلك السنوات. حكى لي أمورًا فظيعة. لا يمكن تصورها، لها ارتباط وثيق بما نعرفه عن ترخيص براءة اختراع العقار الطبي. يكمن هنا السر الذي سيوقع بأورلانتا، كما أخبرتكم.

- لديكم، كونراد وسيجفريد وأنت، بالفعل أدلة مؤكدة. أما الموعد المحدد، فهذا سيكون... (قالت ميرخا بإسبانيتها المتعثرة والتي لم تفلح في العثور فيها على الكلمة التي تنقصها).

- ستكون الضربة القاضية. هذا صحيح. وهناك المؤتمر الذي دعوا إليه لكي يسخروا من حججنا. يعرفون أننا نبحث في مسألة الانحرافات القانونية، وفيما هو أسوأ من ذلك: في منشئها، وأنهم لن يستطيعوا منع الفضيحة لفترة طويلة. وإذا كنت لم أطلعكم على الوضع بدقة في الوقت

الراهن، فذلك من أجل سلامتكم. أعتقد أنه من الأفضل لكم ألا تتعرضوا لمزيد من المخاطر إلى أن يظهر كل شيء للنور. يدرك أصحاب المختبر ذلك، كما يعرفون أيضًا أن هذه نهايتهم.

- لن أنجب أطفالًا إذن في تلك الظروف (قالت ميرخا فجأة، ولم يساور الباقين أدنى شك في أن تغيير الموضوع على هذا النحو يستهدف ألا يطرحوا على فاريك المزيد من الأسئلة).

- وهذا ليس من فراغ. إنه حال الكثيرين في ألمانيا. أعتقد، بعد كل ما رأيت، أن اللاتي يجازفن بذلك إنما يفعلن لأنهن لا يعرفن هذه الحالات؛ تحمل إحداهن بجنين بصحة جيدة ثم تصيبه التشوهات أثناء الحمل بسبب عقار طبي... ولا يقتصر الأمر على الشكل الخارجي، الكثير منهم يولدون بمشاكل في الجهاز الهضمي، خلل في وظائف البنكرياس... وهناك الكثير من الأمور الأخرى.

- وهل انتهى كونراد سنغر من المقال؟ (سأله نافاسكويس).

- كتبه ذات مساء، ولم تستغرق المراجعة منا أكثر من أسبوع. تعين عليه تجميع كافة المعلومات فحسب، وصنع ملخصٍ، وإعادة صياغته. سرد كل شيء، منذ بداية تسويق التيلامون تجاريًا قبل خمس سنوات، وآثاره، والحالات المسجلة لدينا. كل شيء مدعوم بالبيانات. دقة علمية مطلقة.

- وماذا قالوا لكم؟ (ألح بورو).

- أجابتنا لجنة تحرير مجلة تايندولر بأنهم سينشرونه ما إن تتوافر لديهم مساحة. يبدو أنه ليس لديهم فكرتنا نفسها عما تعنيه الطوارئ الطبية (قال كيسلر).

- هل تعتقد أنهم تعرضوا أيضًا للتهديد؟ (سألت نوريا بقلق بالغ).

- هذا محتمل. أو على الأقل تم شراؤهم (قال كيسلر، متجهًا بنظرة قلقة

نحو رفيقته العاطفية مجددًا). لهذا كانت فكرة جيدة أن تأتي معي.

- لماذا؟ لأننا لن ننجب أطفالًا؟ (قالت أيضًا بالإسبانية).

- لا، ميرخا، ليست هذه هي القضية، بل لأنهم يعلمون أننا معًا، وأخشى أن يصيبك سوء. ها قد رأيتِ: لقد وضعوا رجلًا في ساحة بلاثا كتالونيا وآخر هنا.

- ألا يستطيع من يسعون لتحقيق العدل مثلكم أن تكون لهم حبيبات؟ (قالت مازحة).

اعتبر فاريك عدم لياقة بحق الجميع الرد عليها بالألمانية، لذا قرر المتابعة بالإسبانية على الرغم من الطبيعة الخاصة للمحادثة.

- أنتِ لست عشيقتي مهما حاولت، أنتِ صديقتي، مساعدتي، وأكثر حتى من مجرد رفيقة عاطفية. لهذا أعرض عليكِ ما أعتبره أكثر عقلانية. لا أريد الآن أية نقطة ضعف (كعب أخيل). لا أستطيع السماح بذلك.

تبادل كلٌّ من ليليانا ونوريا وبورو النظرات. ساد الصمت بينهم. لم تستطع نوريا تحاشي التفكير في طفليها.

- أستطيع حماية نفسي، فاريك. بالإضافة إلى أنه ليس بوسعنا اختيار كل شيء وأنا لا أستطيع اختيار البقاء بدونك. (ابتسمت). أين يمكنني العثور على شخص يجمع بين أفضل ما في إسبانيا وأفضل ما في ألمانيا؟ لكي أتركك يجب عليك أولًا أن تجد لي بديلًا. وهذا مستحيل.

ابتسم كيسلر، على الرغم من أنه لم يستطع إزاحة هذا القلق الجاثم على صدره.

- هيا فلنلتقط آخر صورة!

35

حصل جيوفري بالادري على صيد ثمين، فأراد إطلاع ماكسيمو ثفرا على كل ما رآه في ساحة بلاثا كتالونيا. شعر بالرضا لأنه اتفق عبر الهاتف على تقاضي مبلغ محترم. حددا مكان اللقاء في حانة (بي).

- تجري أمور كثيرة من وراء ظهرك، يا صديقي، لا أريد قول إن كل الأمور تجري من راء ظهرك (قال له المحقق على سبيل التحية. تضايق ماكسيمو من أن يدعوه بـ«صديق» إلا أنه لم يكن مستعدًا للاكتراث بالتفاصيل).

- فلنذهب إلى شقة دونيا ريتا، بالادري! ليس لدي الرغبة في البقاء هنا.

قطعا في أقل من خمس دقائق تلك المسافة القصيرة التي لا تتجاوز أربعمائة مترٍ. تقدم ماكسيمو، بمجرد أن فتحت لهما المرأة التي تدخن سيجارة بمبسم.

- اتركي لنا قاعة نتحدث فيها على راحتنا! نريد البقاء على انفراد، في البداية على الأقل.

بدا لبلادري أن موكله يتصرف بأريحية أكثر من المرة السابقة التي رآه فيها هناك.

- كما تريدان.

- أخبرني بورتماريس (غمز له بعد مناداته بهذا الاسم) هل أحضرت المعلوم؟

كان يسير ويداه خلف ظهره، ينظر إلى اللوحات الإيروتيكية المعلقة على الجدران.

- انظر إلى هذه مع ثلاثة!

- هذا يتوقف على ما لديك من أجلي (قال ماكسيمو ضجرًا من سلوكه. نظرًا لما وصلت إليه الأمور كان كل ما يريده فحسب أن ينتهي كل ذلك بأسرع ما يمكن).

- حسنًا، كما أخبرتك، السيدة زوجتك، لا تشعر بالملل عندما لا تكون موجودًا. (أخبره المحقق عن أولئك الذين التقوا يوم الإثنين لتناول الغداء). كان يجب أن ترى الشقراء، تحفة. يصل طول ساقيها إلى عنقي. (أطلق ضحكة مبتورة). خصلات شعرها، خصرها، كل شيء لديها طويل ونحيف. لفتت الأنظار بثيابها الملتصقة بجسدها وحذائها الأبيض من الجلد الصناعي المصقول، البالغ الطول لدرجة أنه يصل إلى ما فوق ركبتيها.

- بالادري، هل لديك شيءٌ من أجلي؟ أراد ماكسيمو تولي إعادة توجيه مسار الحديث.

- نعم، بالتأكيد، وأشياء كثيرة. لا تفقد أعصابك! (يدرك المحقق أن تلك كانت مباراة مصارعة ذراعية، سيفوز فيها من يقاوم أكثر)

- هل عرفت من أين المفتاح الذي أعطيته لك؟ (سأله ماكسيمو بنفاد صبر).

- من مكان مثير للغاية: صندوق بريد خاص تتلقى فيه امرأتك مراسلاتها. دونت لك العنوان والرقم (قال مقربًا منه ببطء شديد قصاصة الورق).

- أي نوع من المراسلات؟ رفع ماكسيمو نبرة صوته الاستجوابية أكثر فأكثر.

- لا أدري. كان الصندوق خاويًا في كل مرة ذهبت فيها.

- هذا لا يساوي ما تطلبه (قال ماكسيمو بنبرة أكثر تهديدًا). أعد لي المفتاح! لم يفدني بشيء إعطاؤه لك! يالها من مضيعة للوقت!

- بورتماريس، أين أخلاقياتك؟ (خاطبه وهو يسلمه المفتاح بعد تأكده من الاحتفاظ بالنسخة التي صنعها في جيبه). من المؤكد أنك تستخدم مع زبائنك أساليباأفضل. أحذرك من أنك لن تتخلص مني بسهولة على هذا النحو. أعطني ما تدين لي به!

- انظر، بالادري، أنا لا أدين لك بشيء.

- أنت مخطئ. بسبب الجري خلف نوريا تلقيت تهديدات من ذلك الشخص الذي يلاحقها.

- أي شخص؟ المهندس الكيميائي؟ (قال ماكسيمو متحفزًا ضده).

- لا، إنه شخص يتبعهما في كل مكان، لو رأيت مدى عدائيته، سوف تستوعب لماذا أخشى على سلامتي. أنت زججت بي في هذا، وسوف تعطيني المال الآن لكي أتمكن من الإفلات.

- لا تبالغ!

- لست أفعل. لو كنت تلقيت نفس التهديدات مثلي في ساحة سانتا ماريا ديل مار، لما قلت ذلك. لا أعرف على وجه التحديد ما الذي زج نفسه فيه ذلك المدعو نافاسكويس، هذا حقيقي، وأنت محق فيه، ولكن لدي ما يكفي من المعلومات للتأكيد أن هناك شيئًا خطيرًا وضخمًا وراء كل هذا. لست من الرجال الذين يتركون الأمور في منتصفها، بل أواصل دائمًا حتى النهاية، لكن أنفي ينبئني بأنه يتعين علي التنحي جانبًا هذه المرة. (نظر إليه ماكسيمو متشككًا). بدلًا من النظر إليّ هكذا، من الأفضل أن تحترس لعل الأمر يطولك. بالإضافة إلى أن هناك أطرافًا دولية متورطة. (حذره بالادري).

- نعم، أنا على سبيل المثال، أحدها، بما أنني إيطالي. (وانفجر في الضحك).

- لا، لا مع الألمان.

لم يلحظ ماكسيمو الهلع الذي انتاب المحقق لأنه لم يعرفه.

- الأمر انتهى (C'est fini)، انتهينا. كفى! (وهكذا أنهى عمله).

- أعلم أنك تتحدث لغات، لا داعي للتبجح بذلك أمامي. سأختفي بمجرد أن تعطيني مالي. وسوف أعطيك خدمة إضافية مجانية، احترس من الألمان! فهم لا يتورعون عن شيء.

- أنت مثير للشفقة، أليس في مخيلتك أفضل من ذلك. أشك أصلًا في أن تكون محققًا. وداعًا، بالادري، ولن أتمنى لك حظًا سعيدًا لأنه من الواضح أن الحظ يهرب منك، وسيبقى الحال على ما هو عليه.

- لن أبرح هذا المكان حتى تعطيني ما هو من حقي. (اعتدل بالادري).

- حقك؟ حقك أن أضربك ضربًا مبرحًا. هل تريد المزيد؟

- الثلاثة الآلاف بيزيتا حقي، ولا تهددني!

دوّت قهقهة ماكسيمو ثفرا مجلجلة لدرجة أنها ترددت في ممرات منزل دونيا ريتا.

- لا أحد يعبث معي (حذره المحقق). أنت تافه ضعيف، تعتقد أنك تملك الكثير، ولكن سرعان ما ستجد نفسك في الشارع ووحيدًا تمامًا. أتنبأ لك بذلك. رأيت كثيرين مثلك من قبل. فصيلة من يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء.

- أنا لا تفوح مني رائحة الإخفاق مثلك (قال له ماكسيمو وهو ينظر إليه من أعلى لأسفل).

- أتحدث عن مغامراتك. إذا لم تدفع لي حقي، فستدفعه لي زوجتك

وعن طيب خاطر.

- هذا إذا أعطيتها المال. (لم يستطع ماكسيمو الكف عن إظهار عجرفته طول الوقت).

- عندما أخبرها بما تفعله عندما تتغيب عن المنزل، أؤكد لك أنها ستحصل على المال من أي مكان. هي على النقيض منك، لديها أصدقاء. وحتى هذه الجزئية، أعمل عليها منذ فترة.

خطرت على بال التاجر الرحالة فكرة، إلا أنها لم تبد له ممكنة إلى أن تابع المحقق:

- هذه مجرد بداية. يجب أن تعرف أولًا مع من تتعامل. ماذا تصورت؟ أنني سوف أصدق كل ما قلته لي؟ حقًا إنك لوغد (وكاد أن يبصق عليه).

شحب وجه ماكسيمو، لم يخطر على باله تصور أنه سيتحرى عنه هو. ألقى على الطاولة المقابلة للأريكة الثلاثية التي كان جالسًا عليها، بضعة أوراق مالية مجعدة.

- ما هذا؟ (خاطبه بالادري باحتقار).

- المال الذي تلح في طلبه.

- هذا؟ (هصرها بالادري بقوة وألقاها على الأرض) هذه قذارة وأنت حقير.

- ماذا توقعت؟ الإنصاف أن أدفع لك مقابل إنجازاتك، وما قدمته لي كان ضئيلًا للغاية. إنها الصدقة التي تستحقها لأنك هرِم ضائع. لقد أخطأت في تقديري لك. (وفرقع بلسانه).

- أنت لا تعرف كم؟ لقد ارتفع السعر توًا إلى أربعة آلاف. وأنت تدري إذا كان ما سوف تخسره يستحق ذلك. وأنا أعتقد أيضًا أنه يستحق أكثر من ذلك بكثير.

- أمهلني يومين وسوف أحضر لك المال (قال على عجل). ليس معي أكثر من ذلك الآن.

- أحذرك! لا تحاول التلاعب معي. يبدو أنك بدأت تفهمني (قال وهو يصب لنفسه كأسًا). انظر لقد أطلقت كلبًا شرسًا على زوجتك في العش الهادئ الذي شيدته. هيا ارحل!... سأنتظرك بعد غد هنا في التوقيت نفسه. إذا لم تأت، فسوف آتي إلى منزلك.

بذل ماكسيمو جهدًا لكي يسيطر على نفسه. كان يستعد للرحيل عندما دخلت فتاتان تضعان شعرًا مستعارًا متماثلًا. مثبتًا بإكليل من الزهور. ارتدتا، بالإضافة إلى ما وضعتاه على رأسيهما، مجرد غلالة شفافة لدرجة أنه في بعض المناطق تختلط بشرتهما بنقوشها.

- من يمكن أن تكون حياته مريرة مع كل هذه الحلوى، بورتماريس؟ (غير بالادري نبرة صوته حين رآهما) إذا قدمت لنا الحياة هدايا، فعلينا أن نقبلها لكيلا يغضب الحظ منا لأننا أهدرناه؛ فينتقم.

لم يجبه ماكسيمو. أمسك بيد الفتاة الأقرب منه وابتعد بها عبر الممر.

36

طلب منها بورو التوجه إلى إبراشية الراعي الصالح بعد أن علم من الأب بيلسيرميس أن لديه أخبارًا تهمهم. ذهبت نوريا مع طفليها. أحكمت الغطاء على مارك الغارق في النوم، حينما دخلوا الإبراشية. وفي الحال تشبثت ميريا بيدها.

- أنا خائفة. الجميع ينظرون إليّ.

- ليسوا بشرًا، بل قديسين، تماثيل من الحجر. لا تقلقي! سوف نقابل شخصًا في منتهى الظرف لديه الكثير من المدارس من أجل الأطفال.

تابعوا حتى حجرة ارتداء الملابس الكنسية. استطاعت نوريا أن ترى الكاهن من الخارج يرتدي مسوحه.

- هل ستلقي موعظة، يا أبتِ؟ معذرة، لن أعطلك على الإطلاق.

- تفضلوا تفضلوا، كيف حالِك، يا صغيرتي؟ هل تريدين قطعة حلوى؟

- هل هي من الحجر أيضًا؟ (سألت الطفلة).

- لا، بل للأكل (أجابها مبتسمًا هذه المرة). تفضلي!

تناولتها ميريا وانزوت في كرسي الاعتراف. كانت نوريا ستوبخها، إلا أن الكاهن منعها.

- اهدئي! لم ترتكب أي خطأ. اتركيها! كنت أفكر في إرسال هذه القائمة إلى بورو، ولكن بما أنكِ كلفتِ نفسك عناء الحضور، فسوف أسلمها لك. أرى أنه يصر على تحاشي لقائي. أبلغيه بأنني يجب أن أتحدث معه!

– هذا ما سوف أفعله، يا أبت. على كم طفلًا عثرت؟ سألته وهي تتناول القائمة.

– يوجد بالإضافة للطفل الذي رأيتماه في ملجأ ريباس والثاني في ملجأ سان خوسيه، أطفال على هذه الحال في أربعة ملاجئ أخرى بهذه المحافظة، ثلاثة في جيرونا، وآخر في ليريدا، ولا توجد أية حالة حتى الآن في تاراجونا[1]. هذا بدون احتساب الموجودين في بيوتهم بأرض الله الواسعة، أو الذين نبتهل أن يكونوا في الأمجاد السماوية، لأنهم توفوا بعد ميلادهم بوقت قصير، أو لأنهم لم يكونوا ثمرة مباركة، وكل هذا هنا في إقليم كتالونيا فحسب. سيكون من السوء، تزايد الأعداد. رأيت بالفعل معوقين، ولطالما كانوا موجودين، حتى في الإنجيل، ولكن معكما حق، ما يحدث الآن مختلف. يعلم سلفادور أنني في هذا المجال منذ أكثر من نصف قرن.

ركزت نوريا بشكل خاص على التواريخ: يوجد إلى جوار اسم بعض الأطفال تاريخان يفصل بينهما علامة. يضم الفاصل فترة وجودهم المقتضبة.

– توجد أسماء الوالدين، والقابلة في بعض الحالات. بعضهم ذهبوا قبلًا إلى أطباء آخرين.

– قبل أن يتخلوا عنهم (قالت هي).

– هذا صحيح. فليرحمهم الرب! لا يسعنا الحكم على الآباء. من يدري ماذا كان سيفعل أي منا في ذاك الموقف نفسه؟ من السهل الحديث من بعيد.

ابتسمت نوريا من سلوك ذلك الرجل. كانت على قناعة بأن بورو يدين له بالكثيرلعنايته بتكوين شخصيته على هذا النحو. كما يتشارك معه الكثير من ملامح شخصيته.

– هل تعتقد أن تلك العائلات سترغب أيضًا في التحدث إلينا؟

---

1. جيرونا، ليريدا وتاراجونا، بالإضافة إلى برشلونة تمثل مدن إقليم كتالونيا (م)

- ليس هناك ما نخسره من التجربة، آمل أن يحالفكما الحظ. أضفت مكتوبًا بخط يدي موجهًا إلى الشخص المسؤول في كل مكان لكي يحسنوا استقبالكم على خير وجه. لكن أعتقد أن الأمر لا يتعلق بالإصرار على الزيارات، يا ابنتي، المسألة تبدو أكثر من واضحة: مجرد رؤية حالة كأنك رأيت كل الحالات.

- هذا ما أخشاه، يا أبتِ. (حفظت نوريا القائمة في الحقيبة). وأشكرك.

- يقتضي عملي رعاية الأكثر ضعفًا. لم أفعل شيئًا استثنائيًا على الإطلاق.

- و... هل تمكنت من التحدث مع دون خيرونيمو أولرابوس؟

- نعم، شيء لا يصدق، إنه شخص في منتهى الطيبة. ومصرٌّ على الابتعاد تمامًا عن الموضوع.

- يجب أن تجبره على عمل شيء. اتخاذ قرار. أن يكون منصبه مفيدًا في شيء.

ابتسم الأب بيلسيرميس بأسى.

- آه يا بُنَّيتي، لو كنت أملك تلك السلطة!... إلا أنني أخشى أنه سيتحتم علينا أن نترك الأمر لضميره.

- ماما، ما هو الضمير؟ (سألتها ميريبا التي اقتربت منهما دون أن تنتبه لها نوريا).

***

اتصلت نوريا بمنزل دورا من كابينة التليفون في نفس الميدان أمام الكنيسة، لتسأل إذا كان بوسعها أن تترك طفليها مع أورسولا. توطدت العلاقة أكثر فأكثر بينها وبين خادمتها. أما عن مالكة منزلها، فلا تزال نوريا ترتب في عقلها ما سوف تقوله لها. ذهبت من الإبراشية إلى جادة بونانوفا، وبسيارة الأجرة نفسها من هناك حتى معهد مستحضرات التجميل.

نظر إليها حارس عقار البناء المجاور بدون أية مداراة، عندما صعدت السلم. أطلت نوريا بحذر، قبل اجتياز البوابة، لم تكن تعرف إذا كان السيد والسيدة فرومنت موجودين بمنزلهما، لم ترغب في الالتقاء بهما على السلم بأي حال من الأحوال. كانت أنوار المعمل مطفأة. ومع ذلك طرقت الباب بأطراف أصابعها. سمعت، عندما كادت أن تنصرف وقع خطوات والمفتاح يدور في الباب. فتح لها بورو الباب. كان المعمل معتمًا، باستثناء ضوء أصفر خافت قادم من مكتب السيد أليكس، أحال تلك القاعة إلى منشور ضوء تضاءلت معه مساحة الحجرة، وتركزت فيه الإضاءة الهابطة.

- لم أعرف أنكِ ستأتين.

- أتصور ذلك (قالت نوريا فيما توقفت نظراتها عند كأس المشروب الكحولي العنبري الموضوع على الطاولة. امتزجت نظراتها بالكحول).

- هل ترغبين؟ (قال زميلها رافعًا الكأس).

- لا، كيف تجرؤ؟ أتيت لأنني أحتاج لمعرفة إذا كنت قد تمكنت من تحليل حبوب الدواء التي أعطيتها لك.

أومأ بورو بالإيجاب معربًا عن أسفه

- يعد التيلامون المادة الفعالة في بعضها.

شعرت نوريا بتقلصات في معدتها وبشيء ثقيل يهوي فوق رأسها وكأن قلبها قد انفطر.

- وماذا الآن؟ ماذا سيحدث لو حملت؟ وهل يعني هذا أنني لا أستطيع إنجاب المزيد من الأطفال؟

- هناك طرق كثيرة لتفادي حدوث ذلك.

- لكن هذا يعني أن أكتفي بطفلين فحسب.

- فحسب؟

نظرت إليه نوريا منهارة تمامًا.

خطرت على بال بورو فكرة أن تحمل منه إن رغبت في إنجاب المزيد من الأطفال، إلا أن هذا بدا له مستحيلًا. لم يكن يعرف كيف يتعامل مع قلق نوريا؛ فقرر أن يعرض عليها ما أعطته إياه السكرتيرة.

- انظري! تسللت ليليانا مساء أمس إلى مكتب دون خيرونيمو في غياب الجميع. وتعتبر الوثيقة التي نسختها قنبلة. (أخرج بورو وثيقة من المكتب وعرضها على نوريا).

وزارة التجارة

الإدارة الإقليمية بكتالونيا

برشلونة

تحذير. وثيقة عاجلة

مرفق طيه إلى معاليكم تقرير بعلم الوصول، موجه إلى المدير الفني للشؤون الدوائية من التفتيش العام على الصيدليات، لإحاطتكم علمًا بأنني تواصلت مع المركز الرئيسي في شتولبرغ بالفرع الإسباني لمعمل شركة أورلانتا، عقب الإشعار الوارد من هذه الإدارة، تفيد بموجبه أنها لا تعتزم إطلاع الأطباء في بلادنا على الآثار الجانبية للخصائص الدوائية للعقار المسجل تحت رقم (E. N. 37.007)، الذي لديهم ترخيصه وكذلك حقوق تسويقه.

وبناء عليه، أود إحاطة علم معاليكم أن المستحضر الدوائي المذكور مازال يتم تسويقه هنا، على الرغم من معرفة التأثير الضار الذي يسببه.

حفظكم الله وأطال عمر معاليكم،

مدير التسويق الإقليمي

دون خيرونيمو أولرابوس فاليستريمس

تحمل الوثيقة العديد من الأختام ورقم سجل الوارد، ويتصدرها شعار الوزارة.

- إنها بتوقيعه، نوريا، وموجهة إلى مدريد. وإذا لم يفعلوا شيئًا، فسيكون ذلك دليلًا ضدهم. وسيظل الأطباء يصفون عقار التيلامون.

- أتمنى أن يفعلوا شيئًا في النهاية وأن ينتهي الكابوس.

احتضنها بورو، إلا أنها أبعدته على الفور. تطلع إليها متحيرًا.

- ليس جيدًا أن تحتضنني أو تقبلني.

تطلعت نوريا إلى شفتيه وحينئذٍ قامت هي بتقبيله. تسارع نبضها وهو يتحسس شعرها، ومؤخرة رقبتها، عنقها...، وحينما لامس صدرها من فوق البلوزة، ابتعدت عنه فجأة.

- معذرة (قالت). يجب أن أرحل. هذا أفضل لكلينا.

لم تمنحه وقتًا للرد. كانت حقيبتها إلى جوار كأس الكونياك ومصباح الطاولة، علقتها في ذراعها واتجهت نحو الباب. جلس بورو وشرب الكأس جرعة واحدة.

كان مصباح السلم محترقًا. فكرت نوريا في الرجوع، إلا أنها لم تكن تود مقابلة بورو، لأنها كانت تعرف أنها لو رأته مرة أخرى فلن تجد القوة على الرحيل مجددًا.

هبطت المحور الأول من السلم. فضلت مواصلة النزول مستندة بيديها على نتوءات الجدار من يمينها ثم التوكؤ على الدرابزين. تابعت سيرها ببطء شديد لخشيتها من السقوط. خُيل إليها رؤية شيء يتحرك على مسافة متر ونصف من مزهرية الورد الموضوعة في تجويف الجدار. تصورت أنه ظلها؛ فتجمدت في مكانها. كان الجزء الخلفي من تلك الكوة متهالكًا فتحققت مجددًا من اهتزاز المزهرية. حينئذٍ، تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك من أن

شخصًا آخر هناك، خلفها. بلغت بهو المدخل بسرعة كبيرة. كانت البوابة الداخلية مغلقة، ولم تعثر على المقبض. غرزت أظافرها في الخشب إلى أن عثرت عليه أخيرًا وفتحت الباب، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى الشارع. وإذا بيدين تقبضان على كاحليها وتضربان أحدهما بالآخر، فسُمع صوت مماثل لكسارة البندق وهي تحطم تلك القشرة لثمرة جوز.

تحقق المهندس الكيميائي بعد نحو ربع الساعة من أن إضاءة السلم لا تعمل. ارتطمت قدمه اليسرى عندما أصبح أمام الباب بجسم ملقى على الأرض. وجدها ممدة هناك، عندما فتح الباب لكي ينير له كشاف عمود إنارة الشارع. تبعثرت حولها كل المتعلقات التي كانت بحقيبة يدها: علبة البودرة، وإصبع أحمر الشفاه وآخر زبدة كاكاو، ضمادات، مشط، مقص أظافر، كيس نقود، المفاتيح، علبة خشبية، زجاجة عطر صغيرة مع بخاخ، منديل، قلم رصاص ودفتر صغير.

تفقد نوريا أولًا ولاحظ أن جسمها كان باردًا؛ فخرج بورو يبحث عن مساعدة، ظل يدخل ويخرج من بين الأزقة، عبر إلى الجانب الآخر من الشارع، وصل حتى ساحة بلاثا كتالونيا ثم عاد مرة أخرى. لم تمر أية سيارة أجرة خلال الدقيقتين التاليتين. لم يدر هل يركض صوب لاس رمبلاس أو في الاتجاه المضاد؟ فكر في الصعود إلى المعمل والاتصال هاتفيًا. ولكن استبعد ذلك لكيلا يتركها بمفردها. حملها من أسفل عنقها وركبتيها. وخرج بها على هذا الوضع. كان شارع بلايو مازال خاليًا. فعاد للدخول مرة أخرى وأسندها برفق شديد إلى أحد الأركان بجوار الباب، وركض نحو موقف سيارات الأجرة متلفتًا خلفه باستمرار.

- أرجوك ينبغي أن تساعدني، سنذهب قريبًا من هنا، إلى رقم 56 بشارع بلايو، الذي به معهد مستحضرات التجميل. هناك امرأة فاقدة الوعي (قال لأول سائق في الصف).

- لا أريد مشاكل، ابحث عن آخر.

- ساعدني من فضلك! إنها زميلتي في العمل. انظر هذه بطاقة الشركة! لا تفكر في أي شيء سيء.

- سآتي ألقي نظرة ثم نرى.

انعطفت السيارة لتدخل الميدان، بينما انطلق بورو عائدًا نحو البناء، ثم فتح الباب على مصراعيه، وجمع أشياء نوريا المبعثرة على الأرض.

نزل سائق سيارة الأجرة بمجرد أن رآها هناك، وحملها معه من قدميها. أنّت نوريا، إلا أنها ظلت بدون أن تفتح عينيها. لاحظ بورو عندما أمسكها من كتفيها أن الدماء تتفجر من رأسها.

- لا تلوثوا سيارتي.

خلع بورو القميص ووضعه فوق ساقيه ليسند نوريا عليهما. تحقق بورو عندما وصلوا إلى مستشفى سان بو، أنها تستطيع النهوض على الرغم من أنها مازالت تشعر بدوار شديد. ضغط الجرح بالقميص وساعدها على النزول. اقتربت إحدى الممرضات بمجرد أن رأتهما على هذه الحال ومعها كرسي متحرك.

- ماذا حدث لي؟ لماذا أشعر بكل جسمي يؤلمني؟ هل تعرضت للاصطدام؟

- لقد تعرضت للاعتداء.

- لكي يسرقوني؟ إذا كنت لا أحمل سوى القليل من النقود...

- لا أعتقد أن هذا كان غرضهم

- إذن، مالذي كانوا يبحثون عنه؟

- هذا (قال وهو يظهر لها الوثيقة التي كانا يقرآنها في مكتب دون أليكس فرومنت).

- حضرتك، انتظر هنا! (خاطبته الممرضة وهي تنعطف في أول ركن من ذلك الممر).

توقف بورو إلى جوار نافذة شرفة ضخمة ومعتمة في تلك الساعة.

شعرت نوريا، بمجرد أن دخلت حجرة الكشف، بعبق أشبه برائحة حمضيات حلوة بسبب الكلوروفورم. حياها الطبيب بصورة مقتضبة قبل سؤالها عن حالتها. شرع بعد ذلك في الكشف عليها. أراد التحقق من ردود أفعالها، ضرب ركبتيها بمطرقة صغيرة، ثم سألها عن عمرها، وعنوانها واسمها.

- هل بقيت فاقدة الوعي لفترة طويلة؟

- لا أدري. إذا أردت سوف أنادي على...

- لا، دعك من ذلك، لا تنادي أحدًا. سوف نعالجك!

دخلت ممرضة أخرى. وبعد أن طهرت مساعدة الطبيب جرحها، أخبرتها بأنهم مضطرون لتقطيب الإصابة بعدة غرز فوق الجمجمة وعمل أشعة على الكاحلين.

انتظرت نوريا من جديد أمام حجرة الطبيب. خرج من حجرة جانبية.

- يجب أن تلزمي الراحة بلا حركة لبضعة أيام لكي تتعافي.

- وهل سأصبح على ما يرام؟

- بالنسبة لرأسك، نعم، إنه جرح سطحي للغاية. ومع ذلك حاولي ألا تنامي خلال الساعات القادمة، يجب أن نتأكد من أنك لم تصابي بأي نزيف داخلي. بالنسبة للكاحلين، لا يوجد أية عظام مكسورة...، ولكن كوني على حذر أثناء المشي! لا تبذلي مجهودًا! لا تحملي أشياء ثقيلة! أبقيهما مرفوعين لأطول فترة ممكنة. لأنهما متورمان.

صافحها الطبيب. وضغط زر جهاز الاستدعاء الموضوع على طاولته،

فظهرت الممرضة نفسها في الحال، التي اصطحبتها إلى صالة الانتظار بجوار بورو.

- أخبروني بأنه يمكنني الذهاب إلى المنزل.

- ولكنكِ في منتهى الوهن...

- على الرغم من أن هذا صحيح، يرى الطبيب أن بقاءها وسط أهلها أفضل من بقائها هنا. وأن تنتبه، بصفة خاصة لما تتناوله زوجتك، سيد ثفرا (لم يرق هذا اللقب لبورو على الإطلاق، إلا أنه لم يرغب في تصويبها). وأن تتناول القدر الكافي من البروتينات، يجب عليك تعويض الكثير من الحديد، يبدو عليك الهزال الشديد.

- نعم، سوف نعتني بها تمامًا، لا تقلقي! (قال بورو وهو يداعب وجنة نوريا).

- وهناك شيء آخر، ألا تتعرض للإزعاج. سوف تتعافى سريعًا، لكن أثناء ذلك، يجب أن تساعدوها قدر الإمكان. لا نعرف مدى تأثير الصدمة. لم تتجاوز الخطر بعد. أحيانًا تحدث مضاعفات خلال الساعات التالية. تفضل (أعطت الممرضة لبورو عدة أورواق تحمل خاتم المستشفى).

مرا أثناء طريقهما للخروج أمام قاعة الأمومة. وصل إلى مسامعهما بكاء الأطفال الرضّع، وكلمات ذويهم وضحكاتهم. امتزجت روائح أكاليل الزهور المتروكة إلى جوار الأبواب بروائح الأدوات المستخدمة في النظافة. أدركت نوريا أنها لن تحتجز مطلقًا بعد الآن في حجرات مثل تلك. التفتت إلى بورو وقالت له:

- هل تعتقد أن جميعهم ولدوا أصحاء معافين؟

37

بعدما حدث لنوريا وبورو نافاسكويس وفاريك قرروا دخول عرين الأسد وحضور المؤتمر الذي تنظمه شركة أورلانتا للأدوية في دوسلدورف. لم يرغب كونراد سنغر في الحضور. أما كيسلر فعندما أخبرهم، عرضت أورلانتا تقديم تذاكر الطائرة والإقامة في فندق لكليهما، إلا أنهما رفضا العرضين. قررا أن يذهب كل منهما بطريقته وأن يقيما هناك بمنزل ميليفا.

بالنسبة للمهندس الكيميائي، دفع معهد مستحضرات التجميل نفقاته؛ فقد وافق السيد والسيدة فرومنت على تلك الرحلة القصيرة، بشرط أن يحضر لهما فقط عينات من منتجات مستحضرات التجميل الألمانية، وأن يخبرهما بأوضاع تلك الصناعة هناك. اعتبرا، أنه مثلما يحرصان على زيارة باريس وبوينوس آيرس، فتلك تعد فرصة عظيمة لفتح المزيد من الأسواق.

دعاهما ممثلو أورلانتا بعد فعاليات الجلسة الأولى إلى حانة الفندق حيث يقيم غالبية المشاركين. جلسا على مقاعد ضخمة للغاية، وفجأة رأيا رجلين يدخلان يرتدي أحدهما حلة كاملة والآخر مظهره غير رسمي بسترة رياضية وبنطالٍ به كسرات تعرفا كلاهما عليه في الحال.

- أيها السادة، نشكركم على قبول دعوتنا (قال الأقل طولًا والأكثر صلعًا من بين مرتدي البدل).

- زميلي، بورو نافاسكويس (قدمه على عجل).

صافح المهندس الكيميائي أول اثنين وعندما وصل إلى الثالث، انتابته

قشعريرة. كان الرجل نفسه الذي رآه هو ونوريا في العديد من الأماكن ببرشلونة. وهو نفسه الذي لاحقهم في مطعم لا برثلونيتا حينما كانا يتناولان الطعام مع كيسلر وميرخا. ولم يساوره شك في أن فاريك أيضًا تعرف عليه.

- هارالد (سمع الآخرين يذكرون اسمه بينما اقترب منه).

بالنسبة لبورو، سمح له عدم معرفة اللغة بالبقاء في الخلفية. ظل يحملق في الشخص الذي أمامه. بدا وهو جالس مماثلًا في الطول لكثيرين من الواقفين، كان من السهل تمييزه بذلك الفك العريض شبه المربع، وملامحه الحادة، وعيونه الآسيوية الضيقة وكأنه ظلّ دومًا يصوب سلاحًا، الأنف المستقيم، والشعر القصير للغاية وكأنه محلوق بالموسى. هو أيضًا لم يكن يتحدث، ينظر إليه فحسب.

- نعلم أنكم تنشرون معلومات مغلوطة عنا، كم يدفع لكم المنافسون لتقوموا بذلك؟ (شرع ممثل أورلانتا الآخر في الحديث، والذي لم يكن قد ألقى مداخلته في المؤتمر بعد. كان ذا شارب كثٍّ ومستطيل لا ينفك يتحرك مع أقل لفظ ينطقه). إنها ليست المرة الأولى التي نتعرض فيها لمحاولة تخريبية، هناك الكثير من صراعات المصالح.

التفت كيسلر إلى بورو لكي يترجم له، إلا أنه قرر تلخيص ما يقوله بالإسبانية.

- يقولون إن كل شيء محض أكاذيب، كما هو متوقع، وإن ذلك بدافع المنافسة.

لم يفت بورو أن مرافق ممثلي أورلانتا فهم ذلك أيضًا وأشار إلى فاريك بإيماءة من رأسه لكي يحذره.

- انظروا (قال فاريك، متحدثا بالألمانية مجددًا)، أؤكد لكم أن الحالات التي رأيتها في قسم الأشعة هي لأطفال حقيقيين، وكذلك حال الأمهات اللاتي حملن بهم. ويعتبر تناول عقار التيلامون العامل المشترك بينهن جميعًا

في مرحلة معينة من حملهن. أعتقد أنه واضح تمامًا مصدر هذا الضرر، أما اعترافهم بالأمر فهذه مسألة أخرى.

- أؤكد لك أن من باعوا هذا العقار لم يحصلوا على ترخيص أورلانتا (ضرب الرجل الأكثر صلعًا الطاولة وأضاف): عقاقيرنا تخضع للكثير من الاختبارات قبل طرحها في الأسواق.

- وإذا كان هذا صحيحًا، فأين المستندات التي تثبت ذلك؟ (سأله كيسلر).

- إنها بحوزة السلطات (قال الرجل ذو الشارب). وبناء عليه من الأفضل أن تسحبوا ذلك المقال الذي أرسلتموه إلى مجلة تايندولر، قبل نشره، وأن تتراجعوا عن حملتكم التشهيرية، وإلا...

- وإلا ماذا، إذا لم نفعل؟ أكمل! نعلم أن شركة الأدوية العالمية هي التي تسوقه في إسبانيا، وبالإضافة إلى ذلك، أتعلم ماذا قال مدير عام الصحة؟ قال إنه في ذلك البلد كانت هناك حالتان فحسب، هذا ما قاله، لقد أحسنتم ترويضه بالفعل. حالتان على الأقل أسبوعيًا، هذا ما يحدث فعليًا. زميلي (قال مشيرًا إلى بورو) لديه سجل حصري بجميع الحالات، وهي أكثر بكثير في الوقت الراهن.

تلفت بورو حوله، لم يكن أحد في ذلك المكان يعره أدنى اهتمام، ورأى أن أي شخص سيراهم سيظن أنهم رجال أعمال في اجتماع.

- إذا لم تتراجعوا عن مسلككم، فسنجد أنفسنا مضطرين لاتخاذ إجراءات (قال ممثل أورلانتا الأكثر قربًا من كيسلر بنبرة تهديدية) أنتم سعيتم لذلك.

- اتخذوها إذن! لن نستسلم. أنتم لا تخيفوننا. اسحبوا العقار وكفى! هذا هو الإجراء الوحيد الذي يتعين عليكم القيام به، وبعد ذلك عليكم تحمل مسؤولية الضحايا (لوح فاريك كيسلر بكفيه نحو الخارج وكأنه يود إخفاء المشكلة بهذه الطريقة).

- أكرر لك إنها ليست مسؤوليتنا (قال الرجل ذو الحلة وهو يسوي شاربه بإصبعين).

توقف فاريك عن ترجمة المحادثة. وتراءى لبورو أن ذلك أفضل لعدم حدوث مقاطعة. بالإضافة إلى أن كل شيء جرى كما توقعا. حينئذٍ أخرج الطبيب من هامبورج عدة وثائق مطوية من جيب سترته.

- أتدري ما هذا؟ لوح بها أمام الجميع.

انكب الجميع على الطاولة، والتقطها أحد ممثلي شركة العقاقير الدوائية.

- لأنني أعتقد أنكم لا تفهمون لغتنا (قرر كيسلر في تلك اللحظة أن يكون إسبانيًا فحسب) سوف أطلعكم على محتواها. إنهما رسالتان: واحدة منكم موجهة إلى فرع أورلانتا في إسبانيا لكيلا تبح بشيء بشأن الآثار الرهيبة للترياق الشافي الخاص بكم لمعالجة القيء والتشنجات. أي أنكم، وبكل وضوح، تعترفون بها، على الرغم من أنكم في العلن وفي مؤتمرات مثل هذه تنكرونها. والأنكى: فيما يلي إليكم الرد، تعبيرًا عن الامتثال للأمر، تفيدكم بأن هذا ما ستقوم به الشركة وستستمر في التوزيع. (علت نبرة صوت فاريك بينما يتابع تفاصيل محتوى تين الرسالتين وارتفعت أكثر وهو يضع على الطاولة صور الأطفال المبتوري الأطراف). انظروا! انظروا نتيجة عملكم! هل تريدون المزيد؟

- لا أدري إلام ترمي من وراء كل هذا؟ (لمعت رأس هارالد من تأثير العرق). حري بك أن تستوعب بعد قراءة هاتين الرسالتين أنك لن تصل إلى شيء. السلطات تدعمنا، وهذا هو المهم في الأمر. هناك الملايين على المحك. أتعتقد حقًا أن أي شخص سيتنازل عن حصته من الغنيمة من أجل حالات فردية؟ فلتوضح ذلك لحملة الأسهم!

وكأنها أوراق لعب، استمر كيسلر في توزيع تلك الصور التي كان بورو قد رآها في مونبلييه، وأخرى مشابهة مع نوريا من قبل.

- إنها ليست حالات فردية، انظر! (ازداد انفعال كيسلر أكثر فأكثر). لدي من كل الأنواع. بعضهم أبناء أطباء، أولئك الذين أرسلوا إليهم العينات لكي يعطوها لمرضاهم لتجربتها، فأعطوها لزوجاتهم الحوامل. كن ضمن مرضاهم أيضًا (تلى ذلك وكأنها ترنيمة). وإليكم النتائج. بالإضافة إلى حالة بين موظفي شركتكم، إنه أب لإحدى هذه المخلوقات المشوهة. تعرفونه بالتأكيد. سمعتم عنه بالتأكيد. ياللرجل المسكين! ياللمرأة المسكينة! وبالطبع ياللطفل المسكين!

فقد فاريك السيطرة على شعوره. امتدت يد هارالد إلى تحت إبطه. أدرك بورو أنه قادر على إخراج سلاحًا من هناك، إلا أنه فسر تلك الحركة على أنها مجرد تحذير.

- وماذا عن أبنائكم، كيف حالهم؟ هل جميع أطرافهم في مكانها أم أنهم مثل زميلكم؟ يمسّكم هذا الموضوع من قريب. (حينئذٍ خفض نبرة صوته)، ولن أصمت: إنكم حفنة قتلة، تعلمون ما يجري ولا توقفونه!

خاف بورو أن يصاب الطبيب فاريك كيسلر بأزمة قلبية. كان يتنفس بصعوبة بشكل متقطع متحشرج.

- أؤكد لك أن اتهاماتك لن تذهب سدًى! (تدخل ممثل أورلانتا الذي لم يكف عن تمسيد شاربه).

- أتمنى ذلك (أجابه كيسلر). هيا بنا نافاسكويس، لقد قلنا كل ما لدينا.

خرجا من الفندق. انطلق الكيميائي، إلا أن زميله أمسكه من ذراعه وقاده إلى الحانة القريبة.

- تعالَ بورو! وهكذا سنرى هذه العصافير أثناء مرورها.

- لحظة، يجب أن اتصل. يجب أن أخبرهم أن هارالد هذا الذي تعقبنا في برشلونة واحد منهم. وأنه لم يعد هناك أي مجال للشك حيال ذلك الآن. يجب أن يأخذا حذرهما. نوريا لا تستطيع الحركة. وهؤلاء لا يتورعون عن أي شيء.

- سوف أحدثك عن الأدلة. (أخرج فاريك كيسلر من جيبه آلة غريبة الشكل من نوع فيليبس. عبارة عن مستطيل به باب بنافذة بلاستيكية، ومن داخله عمودان أسطوانيان ملفوف عليهما شريط ممغنط. ضغط زرًا أبيضَ ليتحقق من أن الآلة سجلت). نلنا منهم. بأسلوبهم، ولكنهم اعترفوا.

- لا أعرف كيف استطعت إخفاء ذلك؟

- أسفل معطف المطر.

أعرب المهندس الكيميائي عن إعجابه بشجاعة كيسلر، فقال كيسلر وكأنه يقرأ أفكاره:

- لا أستطيع أن أكون غير ذلك، لا حيلة لنا في ذلك.

في تلك اللحظة، ومثلما توقعا، خرج الرجال الثلاثة الآخرون من فندق الإليزيه واستمروا في الجدال بجوار سيارة سوداء لامعة. ظل أحد الرجال الذين يرتدون حلة يشير بذراعه للشخص الذي قدموه لهم على أنه هارالد. لم يساور أيًا من كيسلر أو نافاسكويس أدنى شك في أن المكان الذي سيرسلونه إليه مجددًا هو برشلونة.

- سوف أتصل بالهاتف ثم نرحل. يكفي هذا بالنسبة لليوم. لدينا غدًا جولة في مصانع مستحضرات التجميل. هل بوسعك مرافقتي؟

- نعم لقد وعدتك.

اتصل المهندس الكيميائي بمعمل مستحضرات التجميل، وأطلع ليليانا على اللقاء مع ممثلي أورلانتا، وطلب منها ألا تخبر نوريا بأي شيء في الوقت الراهن حتى لا تزعجها، وعبر لها أكثر عن مدى امتنانه لانتظارها لمكالمته.

- هذا ما سأفعله. على أية حال، لقد مررت بمنزلها هذا المساء، ووجدتها أفضل. خذا حذركما! أتمنى لك رحلة عودة سعيدة.

كان كيسلر ينتظره واقفًا أمام الواجهة الزجاجية المؤدية إلى الشارع، وقد

تركت المرسيدس بنز البراقة دبليو 111 من الفئة إس، الأكثر رفاهية، مكانها خاويًا في المرآب.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم، هناك، نعم، كما هو متوقع (أجابه بورو).

- هيا بنا، إذن! لا أحب أن أترك ميرخا بمفردها طويلًا. بالإضافة إلى ذلك، لا أحب إخبارها بما يقلقني. لقد سمعتها في مطعم لابرثلونيتا. كلما حذرتها من الخطر المحدق بنا، قالت: إنها حجة لكي أتخلص منها. وكأنني أسعى لذلك متعمدًا.

أوقفا أول سيارة أجرة مرت وأعطيا السائق عنوان منزل ميليفا.

- سترى أنهم أحضروا حقائبك. إنهم في غاية الكفاءة.

تذكر كيسلر حينئذٍ السيارة الأخرى التي أقلتهم من المطار إلى مقر تلك المؤسسة الوهمية التي اعترض على تسمية مؤتمرها «مؤتمر البحث العلمي في الصحة العامة» مثلما ادعى برنامجه بشكل مبالغ فيه وزائف.

- هل سنكون بمأمن هناك؟ هل بوسعنا الوثوق في ميليفا؟

- بدون شك. نحن من أعز الأصدقاء. لديّ مع ميليفا قصة رائعة. انظر! عندما وصلت إلى هنا... (لم يساوره أدنى شك في أن السائق يتحدث الإسبانية لأنه نظر بانتباه شديد في المرآة الخلفية). في ذلك الوقت كنا نحن الرجال مرغوبين للغاية، كنا قلائل وبوسعنا الاختيار. قررت بعض النساء الجمع بين المجازفة والشهوة الجامحة، والكثيرات منهن، بالرغم من وجود أزواجهن معهن، اعتبرن ذلك فترة استراحة حتى ينبئهن القدر إذا كن أرامل أم ما زلن متزوجات. بالنسبة لدونيا ميليفا، فراو ميليفا، كنت أعمل سائقًا يا صديقي. هل تتذكر ما أخبرتكم به؟ إنها مرحة، وربما صاخبة، شديدة التألق، وهذا قد لا يروق لبعض الأشخاص لأنهم يرونها في منتهى التفاهة. أوتعرف ماذا أظن؟ إنه أسلوب للبقاء على قيد الحياة. كل شخص يبتعد عن

المآسي بقدر استطاعته. ما حدث هو أننا أصبحنا نقضي وقتًا أطول معًا في السهرات التي كانت تقيمها. وقعت في غرامها تمامًا. نهايته. سوف تحظى بمبيت ليلتك في منزلها. اعتبر أن هذا نوع من الامتياز لأنه يعد قطعة فنية معمارية. أخبرتني أن ابن زوجها أهداه لها عندما ترملت على سبيل المواساة، وعندما أصبحا على وشك العيش فيه معًا، لأن كليهما صار فجأة وحيدًا، وأدت الحرب هذه الخطة، مثلما فعلت مع الكثير غيرها من المشروعات. كان نجل زوجها ميجور في الجيش.

- يبدو أنها امرأة مثيرة للغاية، أنا متشوق للتعرف عليها.

- حسنًا، يؤسفني أن أخبرك أن ذلك سيكون في مناسبة أخرى، لأنه قبل قليل من انتهاء الحرب، عندما أخبروها بأن زوجها وقع في الأسر في روسيا، قررت الفرار إلى الولايات المتحدة. وحسنًا فعلت، لأنه كما أخبرتك، عرفت أنه لن يعود. تخيل أن ابنه قلب الدنيا أرضًا وسماء بحثا عنه بلا طائل! حظينا هي وأنا بوداع عذب. لم أستطع تجنبه. تصورت أن ذلك سيكون مفيدًا لها، فأهدتني مقابل المداعبات والقبلات، مفاتيح هذا المنزل، المفاتيح فحسب، وليس المنزل. ربطتها بالشريط الوردي نفسه المتدلي من قميص نومها. وهكذا أصبح لدي هذا المأوى كلما استدعت الأمور هنا.

- ياللنجاح الذي تحققه مع النساء!

- سأقول: إنك محق لأنني أجتهد في ذلك، كما يجري عادة مع أي مجال آخر. لكن لا يوجد منهج محدد، لأنه يصعب التنبؤ بهن، مثل أي كائن آخر (قال مازحًا). في نفس حجرة النوم التي ودعت بها ميليفا، ستكون هناك ميرخا في انتظاري. بالنسبة لي، منذ أن عرفتها: أصبحت هي الوحيدة. وانتهى كل ما عداها. لقد حالفني كثير من الحظ معها.

***

لم يستطع بورو نافاسكويس رؤية أي شيء من الفيلا الفخمة التي حدثه عنها الطبيب فاريك كيسلر، فقد كان يحيط بها سور ارتفاعه ثلاثة أمتار. وكانت البوابة المعدنية ثقيلة لدرجة أنهما اضطرا لدفعها معًا. تجولا بالحديقة عبر الممرات الحجرية، وعندما مرا بجوار المسبح الفارغ شاهدا بداخله دلو طلاء صدئًا مسكوبًا بين بركتين تكسوهما الطحالب، وبجوار بعض الأغصان المتساقطة، حذاء أبيض ذو رقبة طويلة من الجلد الصناعي اللامع. أطل بورو من الحافة وتأكد من أن الحذاء كان بجانب قدم ميرخا وباقي جسدها. كانت مقلوبة على وجهها على أرضية القاع الزرقاء الجافة في هذه المنطقة، وشعرها المتسخ ملتصق بجانبي جمجمتها. أضاء خلفه بالكاد شعاع هابط منبعث من حجرة تغيير الملابس والدش، مصدر الضوء الوحيد. استدار فاريك نحو بورو وأمسك بذراعه. قال بعدما استطاع تمالك نفسه والقفز إلى الداخل:

- اتصل بالشرطة! أسرع! اخرج إلى الشارع! ابحث عن أي شخص! ميرخا، ميرخا، أجيبيني! سمع كيف حاول بورو دون جدوى إغلاق البوابة الحديدية. غطى وجهه بكفيه، في البداية أجهش بالبكاء ثم صرخ. لم يجرؤ على لمسها لأنه شعر بأنها على الوضع الذي كانت عليه لم تعد هي نفسها. جثا على ركبتيه، ولاحظ أنها ترتدي الكنزة الوردية نفسها التي أهداها لها في مدريد. كان قد حذرها، ولكنه تركها بمفردها. لن يعوضها عن ذلك مطلقًا.

انحدرت دمعة من الدكتور فاريك كيسلر على أرضية المسبح البلاستيكية وانزلقت لبضعة سنتيمترات نحو القاع الأزرق حتى مست طرف الخنصر ليد ميرخا اليمنى.

الجزء الثالث

38

أضفى الشحوب على وجه ميرخا مظهر قناع تألق كمصباح آخر أسفل ذلك الضوء الوحيد بالحديقة. لم يجد فاريك بخطيبته نبضًا سواء في الساعد أو في العنق. ولم يستطع فتح جفنيها. احتضنها فشعر ببرودتها. نظر يائسًا باتجاه البوابة. لم يكن بورو قد عاد. فبدأ يُجري لها عمليات الإنعاش.

- ميرخا، ميرخا، عودي! (كان يناديها من بين دموعه، وهو يضع يدًا والأخرى على جبهتها والأخرى على ذقنها).

فتح فكيها ليتأكد من أن اللسان لا يسد فتحة الحنجرة. بعد ذلك وضع يديه متشابكتين فوق القفص الصدري، ثم ترك كل ثقل جسده يهبط فوقهما. كرر ذلك عدة مرات بقوة أكثر في كل مرة. ظل صدرها ساكنًا، لم يهتز، لم ينقبض أو ينبسط. حينئذٍ سد فاريك فتحتي أنفها وأخذ ينفخ الهواء في فمها. عندما لصق شفتيه بشفتيها شعر على حافتيهما بمذاق كيميائي لجزيئات رغوية بيضاء مذابة في سائل. أزاحها باتجاه الوجنتين. وتأكد من أن تجويفي فميهما أصبحا متطابقين، ولن تتسرب ذرة من الهواء الذي قد يعيد الحياة إلى رئتيها. استمر بعد ذلك في الضغط على عضلة القلب حتى سمع صوت مكابح سيارة تتوقف بقوة أمام منزل ميليفا، وأخيرًا صوت بورو يعلو على الصرير المعدني لإطارات السيارة. تمنى أن تكون سيارة إسعاف.

- إنهم من المستشفى الإكلينيكي الجراحي. سوف يأخذونها.

- لم أعد أدري إذا كان ذلك سيفيد بشيء.

- يجب علينا المحاولة. لا تستسلم فاريك!

كان الطبيب منهارًا. نزل الممرضون إلى حمام السباحة، ورفعوا ميرخا بمساعدة بورو. وعلقوا لها في الحال أنبوبًا دقيقًا مدوه حتى آخر البلعوم وأوصلوه بأنبوب زجاجة أكسجين.

سقطت خصلات شعرها على أحد جانبي النقالة، وأخذت تهتز على إيقاع خطوات المسعفين. نظر الدكتور كيسلر، عندما أوشكوا على الوصول إلى البوابة الحديدية السوداء، إلى واجهة المنزل، توجد شرفة في كل طابق من طابقيه ممتدة بعرض الواجهة، ومصاريع نوافذ كل طابق بلون مختلف: الطابق السفلي باللون الأزرق والعلوي بالأخضر. كان باب حجرة النوم الرئيسية مفتوحًا وتقف أمامه سيدة تستند إلى سور الشرفة الحديدي مرتدية قميص نوم وإزارًا شفافين، ذات شعر طويل أشقر، مثل ميرخا. أشار فاريك إلى بورو في ذلك الاتجاه. سأل المهندس الكيميائي:

- ما هذا الجنون؟ من تكون؟ لا تعاود دخول المنزل واتصل بالشرطة! فليدخلوا هم!

صعد كيسلر إلى عربة الإسعاف بجوار السائق. وفي الحال، علق الممرض لميرخا عبوتي محلول. تأرجحت عبوتا المحلول فوق الجسد الساكن المغطى بملاءة رمادية من نسيج خشن.

- فاريك سوف أبحث عن وسيلة للوصول إلى المستشفى بأسرع ما يمكن.

- احترس! لعل من فعلوا هذا بها مازالوا بالداخل (قال له الدكتور كيسلر من نافذة السيارة بينما ينظر إلى الخلف).

- سأفعل (قال بورو، بينما يغلق الممرض الباب الخلفي من الداخل وانطلقت سيارة الإسعاف).

***

انتظر الاثنان لعدة ساعات في قاعة كئيبة بمستشفى دوسلدورف الإكلينيكي. كانت القاعة تخلو من أي ملصق دعائي أو عناصر زخرفية أخرى.

- أتعتقد أنه متجه إلى هنا؟ (سأله كيسلر بعصبية عندما رأى طبيب يظهر في آخر الممر).

- لا يوجد أحد سوانا. (وضع بورو يده فوق كتفه).

تابع الرجل تقدمه. وخشى الرجلان أن يدلف في أية لحظة بأحد الممرات الأخرى. لكنه تابع تقدمه حتى توقف على مسافة بضعة أمتار منهما، فنهضا واقفين.

- بعد إجراء غسيل المعدة، أعطيناها كربونًا نشطًا. ومع ذلك لم نتمكن من إدرار البول، ولم تحدث استجابة بالرغم من إعطائها أربعة لترات من السوائل. لقد انخفضت درجة حرارة جسمها بصورة حادة. واحتاجت لعمل غسيل كلى. وتنفس صناعي.

- هل تتنفس؟ إنها تتنفس، بورو. (غطى كيسلر عينيه بكفيه ودار على عقبيه، وكأنه لا يدري أين يقف).

- عثرنا في معدة المريضة على العشرات من أقراص الفينوباربيتال[1] المسحوقة. (أخبرهما).

- دكتور، رفيقتي العاطفية لا تتناول المهدئات. علاوة على أنها ترفض بإصرار تناول أية أدوية.

- أنا أخبرك بما وجدنا، ولكن قد يكون معك حق لأن الآثار التي عثرنا عليها في فمها تتوافق مع قيء لبقايا من هذه المادة. يبدو أنها لم تتناول علبة المهدئ بمحض إرادتها.

---

1. علاج مهدئ للصرع (م)

- هل قاموا بحقنها؟ (سأل بورو مذعورا من تخيل المشهد).

- يبدو من الآثار الموجودة بالفم أنهم أجبروها على ابتلاعها مجروشة بمحقن بدون إبرة. ولهذا هناك بقايا في الحلق، ولكن ليس في الفم أو على اللثة. ولا أستطيع إضافة أكثر من هذا لأنني لست طبيبًا شرعيًا، ولكن هذا انطباعي.

جلس كيسلر. وغطى وجهه بكفيه.

- لقد كانوا هم، بورو. (قال مخاطبًا المهندس الكيميائي بالإسبانية). لطالما استندوا في دفاعهم إلى أنه على عكس ما يحدث مع عقار الباربيتوريكو، يعد استخدام التيلامون آمنًا تمامًا، وأن الجرعات الزائدة منه لا يمكن أن تسبب الوفاة. هذه هي الرسالة المخيفة (كان كيسلر يتحدث بصوت مرتفع وكأنه يود العثور على الراحة بإزاحة كل ذلك عن تفكيره).

- حسنًا، يجب أن تدلوا بأقوالكما إلى الشرطة (قاطعه الطبيب). هذه لا تبدو محاولة انتحار.

- هل يمكنني أن أراها؟ (سأله كيسلر بيأس شديد لأنه لم يكن يدري إذا كان بوسعه تحمل إجابة بالنفي).

سمعوا صوت جرس.

- غدًا، ولكن عبر الزجاج. فلتستريحا الآن! إذا سمحتما...

- الآن، من فضلك. لا أريد الرحيل هكذا.

- غدًا. سيادتك أيضًا يجب أن تستعيد عافيتك بعد كل ما عانيته. يكفي ما جرى اليوم.

طأطأ كيسلر رأسه مستسلمًا وصافح زميله كبادرة عرفان.

- لن أنسى مطلقًا ما فعلتموه من أجلها. (انصرف الطبيب والتفت هو إلى بورو): إنها حية. بمعجزة، ولكنها حية.

تعانقا في ذلك الممر المشابه لأي ممر بأي مستشفى.

- لا أدري إذا كان يتعين علينا العودة إلى ذلك المنزل (خاطبه بورو الذي لم يتمكن من انتزاع صورة ذلك الطيف الذي شاهداه في الشرفة من تفكيره).

- فلنأخذ متعلقاتنا على الأقل (أجابه فاريك).

***

استلقيا على الأريكة لالتقاط الأنفاس، بمجرد دخولهما حجرة المعيشة. تراقصت الستارة فوق مقعد الفوتيه، الذي يشكل بموضعه معها زاوية قائمة.

- انظر! مازالت هناك. هذا غير ممكن (قال بورو للطبيب، وهو يشير له نحو الجانب الآخر من الدهليز). ليس لدي أدنى فكرة عما يمكن أن يكون هذا. إنها المرأة نفسها التي رأيناها من الشارع في شرفة غرفة النوم. ماذا تفعل هنا؟

اقتربا. اندفع تيار الهواء في الحجرة بسبب البابين المفتوحين.

- ما هذا؟ (قطع الطبيب المسافة إلى الشرفة في خطوتين).

ظلت الدخيلة على حالها في الوضع نفسه: مستندة بيديها إلى سور الشرفة. أمسكها كيسلر من كتفها، من فوق خصلات شعرها المسترسل على قطعتي الثياب الشفافتين التي كانت ترتديهما، فسقطت على الأرض.

- إنها ثياب ميرخا وخفاها... ألبسوها كلها لمانيكان.

- دع المانيكان كما كان. في المستشفى أبلغوا الشرطة. وسوف يأتون سريعًا. لم يفت الأوان بعد.

- لا، لم يفت. أتمنى ألا يترك عندها أي أثر. لحسن الحظ أننا وصلنا في

الوقت المناسب، لو حدث أن جئنا بعد ذلك بقليل... يجب أن أقنعها أن ترحل مع عائلتي إلى مدريد. إنها لا تريد الذهاب إلى السويد. أتدري؟ عندما رأيتها ممدة على الأرض هناك... (ارتعش كيسلر). تيقنت من أنني فقدتها بالفعل، وأدركت في تلك اللحظة أن حياتي انهارت أيضًا. إنها لا تأخذني على محمل الجد، كما لا تتعامل أيضًا مع ما بيننا على محمل الجد، وكأنها مقتنعة بأنها علاقة مؤقتة، وأنني عاجلًا أم آجلًا سوف أستبدل بها امرأة أخرى. وكأنه ليس من الأسهل أن تستبدل بي رجلًا آخر. لكن أؤكد لك، بورو، أنه بالنسبة لي لا يوجد أحد سواها. وهذا ما لا تعرفه هي. وإذا لم استطع إخبارها به، فسيظل دفينًا للأبد، وسوف يظل يتأجج بداخلي حتى يدمرني.

- أنا أتفهمك. يحدث لي أمر مشابه مع نوريا. أنت لا تعرف كم أنا مفتون بها.

- نوريا؟ أهي نفس نوريا التي تعرفت عليها في برشلونة؟

قطعت محادثتهما طرقات على الباب المعدني. وبخهما رجال الشرطة عندما صعدوا، بسبب العبث بالمانيكان. التقطوا عدة صور وطلبوا من كيسلر صورة لميرخا، أخرجها على الفور من حافظة نقوده. بعد ذلك، فتشوا المنزل وقلبوه رأسًا على عقب.

خاطبهما الضابط الوحيد الذي لم يكن يرتدي زيًا رسميًا:

- من المحتمل أن يكونوا قد دخلوا هذا المساء. وربما كانوا على علم بغيابكما وبأنها ستبقى بمفردها.

- يبدو أنهم يحصون علينا كل خطواتنا، بورو (حدثه كيسلر بالإسبانية. ثم خاطب رجل الشرطة): بماذا يمكننا أن نفيدكم؟

- من الأفضل أن ترحلا. اتركا لنا المفاتيح. من أجل سلامتكما، الأفضل أن تقيما في مكان آخر. بالإضافة إلى أننا سنقلب كل شيء هنا رأسًا على عقب.

عرض أحد الضباط توصيلهما إلى وسط المدينة بسيارة الدورية.

***

دخلا أول فندق وجدا لافتته مضيئة. وبالرغم من التعب، لم يكن بورو يرغب في التخلي، في اليوم التالي، عن إتمام المهمة التي أوكلها إليه السيد والسيدة فرومنت. كانت مبرر سفره، وإذا لم ينجزها، فسيضطر لتقديم تبريرات. قال له فاريك كيسلر، قبل دخول كل منهما حجرته، وكأنه يتتبع حبل أفكاره:

- سأستيقظ مبكرًا قدر الإمكان، وسأذهب إلى المستشفى، ولكن سأعود في التاسعة لاصطحابك. انتظرني في المطعم ومعك إفطارٌ شهيٌّ!

39

عاد بورو إلى برشلونة بمجرد الانتهاء من جمع عينات مستحضرات التجميل الألمانية للسيد والسيدة فرومنت. تراءى له أن نوريا لديها الحق في معرفة ما حدث لميرخا. كان مصممًا على عدم إخفاء شيء عنها، ولكن يتعين عليه اختيار الوقت المناسب لإحاطتها علمًا. جعلته تلك الحادثة التي وقعت في دوسلدورف يرى، وكأنه يطالع صورة أشعة مسلطًا عليها الضوء وبسطوع شديد للغاية، حقيقة مشاعره نحو زميلته. كما تبين له بكل وضوح أن تلك المؤامرة أمر جد خطير. وخطر على باله أن ذلك الشخص الذي قدموه لهما على أنه هارالد في اجتماع فندق الإليزيه، كان قد مر من قبل بمنزل ميليفا.

اتصل بمنزل دورا، بمجرد وصوله إلى المعمل. وبعد تبادل التحية مع أورسولا، استطاع التواصل مع نوريا وسؤالها عن حالها. تأثر كثيرًا حينما سمع صوتها:

- بخير، بأفضل حال. لم يكن الأمر خطيرًا، لدرجة أنني أستطيع أن أقف على قدمي. لا أعتقد أن هناك حاجة لتدخل جراحي أو وضع قدمي في الجبس. لدي جروح فوق العظام فحسب. لكن أخبرني! كيف سارت الأمور في ألمانيا؟

تنفس بورو بعمق ليزن إجابته.

- هل وقع مكروه؟ (سألت نوريا منزعجة من صمته).

- سأعدّ نفسي كاذبًا إذا قلت لكِ: إن كل شيء على ما يرام، حدث

أمر غير لطيف... أصحاب شركة العقاقير الدوائية لا يريدون تحمل أية مسؤولية. هددوا كيسلر لكي يسحب هو وزميله المقال الذي أرسلاه إلى مجلة تايندولر.

- لكن، هل عرضتما عليهم المذكرات والتقارير؟ وكافة الأدلة؟

- سيان عندهم، نوريا. إنهم وحوش. أما هارالد، فإن رؤيته تصيب بالقشعريرة.

- أتصور ذلك. عندما أخبرتني ليليانا أنكم التقيتم به، أصابني الفزع. بورو كن على حذر!

- لا تبالي! سأفعل.

يشعر بورو بالمسؤولية عن تعافي نوريا، يود إعادة السلام إليها.

- بمجرد أن تشعري بأنك أفضل، فسوف نمرح قليلًا. ما رأيك؟ يمكننا الذهاب إلى السينما (اقترح عليها). سوف نعرض على ليليانا أيضًا.

- أف، لا. (أجابته على الفور)، لا أحتاج لمزيد من القصص، يكفيني ما في الرسائل، وهي أسوأها جميعًا، لقد نلت كفايتي. أود التوقف عن التفكير ولو ليوم واحد، ولكن بالطبع هذا غير ممكن. ليس بوسعنا فصل عقولنا ولو لبضع دقائق.

- لا يهم. فلنفعل شيئًا أكثر بساطة! لكن يجب أن نلتقي. أنا بحاجة للحديث معكِ. هناك موضوع... لماذا لا تأتين إلى الحي الذي أقيم به؟ كم أود لو تعرفينه. سوف اصطحبك إلى حانة تقدم مأكولات بحرية رائعة.

- تسارعت نبضات قلب نوريا لدرجة أنها فكرت أن تغطي سماعة التليفون بيديها وكأنه بوسعه سماعها.

- حسنًا (قالت بعد عدة ثوان). يناسبني تغيير الأجواء قليلًا، لكن بعد غد. أنا بحاجة للحركة ببطء لكي أتعافى.

فكر بورو في تلك اللحظة أن السعادة قد تكون بالفعل ممكنة.

***

مر بورو بعد العمل، بمنزل زميله السابق بالمدرسة الداخلية وموظف أورلانتا، لورنزو مونتاوريول. لا يعلم عنه أي شيء منذ وقت طويل. لا يجيب على مكالماته منذ ذلك الموعد. شعر بأنه يتعين عليه تقديم الشكر له على المعلومات. يسكن لورنزو في مبنى حديث، بدون حارس عقار، به حديقة داخلية تفضي إلى برجي البناء. دخل المصعد المكسو بالمرايا، ثم طرق باب الشقة عدة مرات. قرر، حين لم يتلق ردًا، قضاء بعض الوقت في حانة قريبة والعودة. ولم يحالفه التوفيق في العودة أيضًا.

في اليوم التالي، وصل مبكرًا إلى معمل مستحضرات التجميل للاتصال بفرع أورلانتا في برشلونة.

– لم يعد يعمل هنا. رحل فجأة. أخبرنا بأنه يريد بدء حياة جديدة. ولا نعرف المزيد عنه.

ظل بورو ممسكًا بسماعة الهاتف معلقة في يده علامة على حيرة من لا يعرف إلى أين يمضي؟

– هل مازلت على الخط؟

– نعم، شكرًا.

***

توقفت سيارة الأجرة التي أقلت نوريا إلى وسط المدينة للحظات أمام بوابة الليسيه لاصطحاب بورو. حينما رأته هناك، ينتظرها، عاودها مجددًا الشعور نفسه الذي كان ينتابها خلال مواعيد ماكسيمو الأولى: انفعال، قشعريرة، قلق، والكثير من التوتر. عانقها بمجرد دخوله السيارة، لكنه أحجم عن تقبيلها.

توقفا بعد اجتياز شارعين، أمام باب حانة مضاءة كان كل شيء بها أبيضَ أو من الصلب الذي لا يصدأ باستثناء الخزائن والطاولات، فقد كانت من المعدن المكسو بالخشب.

اندهشت نوريا من تصرفها بصورة تلقائية هناك مع بورو. جلسا جنبًا إلى جنب. أحضرا لهما شراب الفيرموث في الحال، فابتسمت هي لبورو وكأسها مرفوعة قبل تناول أول رشفة، بدون أن تدري على وجه التحديد لماذا فعلت هذا؟ تحاشت نظرته في الحال:

- بورو، هل حدث شيء في دوسلدورف؟ مع هارالد؟ هل هددوكما؟

- حاولوا ترهيبنا في حانة فندق الإليزيه، ولكن... لا أدري إذا كان هو من اقتحم منزل ميليفا.

- أين أقمتما؟ هل هاجموا البيت؟

أومأ بورو بالإيجاب، واستعاد مشهد رفيقة كيسلر العاطفية في حمام السباحة الفارغ.

- هاجموا ميرخا، نوريا.

غطت فمها بيديها. احتضنها بورو بقوة، وهو يحكي لها كيف عثروا عليها والطريقة التي أجبروها بها، وفقًا لرواية الطبيب، على ابتلاع حبوب الفينوباربيتول.

- اتصلتُ هاتفيًا هذا الصباح بكيسلر. لحسن الحظ تجاوزت ميرخا مرحلة الخطر، إلا إنها كانت على مشارف الموت. لقد اعتدوا عليكِ وعليها.

- ماذا سيحدث لمارك وميريا؟ أنا خائفة عليهما للغاية. لا يهمني ما قد يفعلونه معي. كدت أنسى ما حدث في تلك الليلة، لكن بالنسبة لهما... (قالت نوريا مرتجفة، ولاذت بأحضانه لبرهة وكأنه عش تحتمي به. لم تكن تريد الانفصال عنه أو التحقق من أن أحدًا قد يراهما. كانت تريد فحسب الشعور بقوته والطريقة التي تمحو بها ما سواه. شعرت وهي في أحضانه أنها

تقدر على أي شيء).

- نوريا، سوف أحميكم. لن يصيبكم أي مكروه. سوف أحكي لكِ عندما تتعافين تمامًا وينتهي كل هذا، عن أموري الشخصية، أعلم أنكِ تعجبين صمتي، لكن دعيني أقول لكِ الآن إنني لم أكن سعيدًا هكذا مع أحد على الإطلاق مثلما أنا سعيد معكِ. فلتعلمي ذلك!

- فكرت في اليوم الذي ذهبنا فيه حتى ساحة كولمبس أن هذا العمل جلب لي الكثير من الهموم، هموم الآخرين، لأنه حتى اللحظة التي تعرفت فيها على السيد والسيدة فرومنت، كانت لدي همومي فحسب.

- هذا أفضل مما يبدو، إنه يداوي. التفكير في الآخرين يأخذنا خارج أنفسنا، بعيدًا عن ضياعنا.

- هذا صحيح، أعتقد أنني لم أنتبه، قبل التعرف على الكثير من المآسي المتتالية، إلى أنني أملك كل شيء: أبناء أصحاء، منزلًا رائعًا، و...

- وزوج يحبك، أليس كذلك؟ سألها متذكرًا اليوم الذي قابل فيه ماكسيمو هناك في الجوار، عند زقاق منزله.

- لا، ليس هذا ما كنت سأقوله (كذبت عليه. رفع بورو الكوب وشربا نخبًا. تابعت هي): سوف تفكر أنني مدعية، لكن لا أدري، ما فعلناه... إن عُرف، فسيصيبني بوصمة عار إلى الأبد.

- أتقصدين مقابلة زميل عمل في الحانة؟ (قال مازحًا). ألم تخرجي من قبل مع بعض الأصدقاء إلى أي مكان؟

- لا، على الرغم من أنك قد لا تصدق ذلك، لم أخرج، منذ أن تزوجت، مع أحد إلى أي مكان سوى ماكسيمو. حسنًا... حتى تعرفت عليك. علاوة على أنك تعلم أنني لا أقصد ذلك (قالت نوريا. نظرت إليه بخجل بينما انشغل بمداعبة يدها المستندة إلى الطاولة). تذكرت في يوم من الأيام تينا ريوس، زميلة دراسة، لم أرها منذ زفافي، بالرغم من صداقتنا الطيبة. تصور

إلى أي مدى خسرت علاقاتي!

- إنك زوجة مثالية.

- هذا ما كنت أحسبه. (أبعدت نوريا يدها مستشعرة الحرج. انتبهت إلى أنها تكلمت بصيغة الماضي)

- لا بأس، لا أريد إزعاجك.

- أنت لا تزعجني. أنا بخير، كل شيء على ما يرام (كررت ذلك وكأنها تقنع نفسها).

- آمل ذلك، وإذا كان الأمر على عكس ذلك فإني آمل أن تخبريني أيضًا.

- لك هذا، لاتحمل همًّا!

نهضت نوريا للذهاب إلى دورة المياه. أثناء مرورها بجواره طبعت قبلة على وجنته، ثم نظرت على الفور إلى إصبعها لتتأكد أنها ترتدي إلى جانب خاتم الزواج الخاتم الذي يداريه وكأنهما قطعة الحليّ نفسها. وهمست في أذنه:

- أشكرك على كل الأشياء الجميلة التي أدخلتها على حياتي.

رآها بورو تبتعد وتمنى لو يتبعها. تابع النادل تجفيف الأكواب قبل وضعها على الأرفف المعدنية. سألته نوريا بمجرد أن عادت:

- وأنت؟

- أنا، ماذا؟

- لا أدري، ولهذا أسألك. اعترفت بأنك لم تحدثني مطلقًا عن نفسك. فليكن اليوم استثناء!

- مالذي تريدين معرفته؟ هل أنا سعيد؟ حسنًا سأقول لكِ: نعم، كثيرًا، أكثر من أي وقت مضى (أجاب مدركًا أنها لن تستطيع معرفة الأسباب). لكي أكون صادقًا معكِ، كنت سعيدًا عندما كانت أمي على قيد الحياة، وهذا لم يدم طويلًا، ومنذ تولى الأب بيلسيرميس رعايتي. وإذا أحصينا ذلك،

يمكن القول إنني، كنت سعيدًا طول الوقت تقريبًا (حكى لها بتفاؤل زائف).

- ألا يزعجك أن تعيش وحيدًا؟ لا أدري، بدون عائلة (تجرأت هي).

- هل تعتقدين أنني أعيش وحيدًا؟ مالذي يجعلك تظنين ذلك؟ (قال وهو ينظر إلى أكمام قميصه وبنطاله وكأن الدليل في ثيابه). يؤسفني إذن أن أقول لكِ إنكِ أخطأتِ.

- هل أنت متزوج، بورو؟ (سألته متفاجئة) كان يجب عليك أن تخبرني بذلك! إن هذا أمر جدي. في منتهى الجدية.

- لست متزوجًا، ولكن أحظى بالفعل بحنان من يعيش معي (قال مبتسمًا).

تذكرت نوريا وهي تقطع بالشوكة السمكة التي في الطبق، أنه راوغ في الإجابة على ميريا عندما سألته إذا كان لديه رفيقة عاطفية. دخلت فتاة شابة بمفردها واقتربت منهما. تفاجأت نوريا من أسلوب ملابسها المثير.

- مرحبا، نافاسكويس (حيته)

- أهلًا. كيف حال... الليلة؟ (سألها بورو بدون أن يعرف على وجه الدقة ماذا يقول لها).

- جيدة، هناك الكثير من الحركة، لكن دونيا ريتا تعاني من ألم في الرأس ولا تستطيع العمل هكذا. فنزلت لجلب بعض الأسبرين. لقد نفد لدينا.

تساءلت نوريا عن طبيعة عمل الشخص المقصود وإذا كانت ترتدي ثيابها بالطريقة نفسها.

- حسنًا، أتمنى أن يزول عنها (لم يجد ردًا غير هذا. أرسلت إليه بقبلة في الهواء من يدها.

- هل هي...؟

- لا، إطلاقًا، أنها جارتي. أعيش مع أجاتا كيبلر منذ خمس سنوات.

كان سماع ذلك أشبه بضربة قوية. لم تتوقع هذا الاعتراف. صحيح أنها عاشت لفترة قصيرة مع ماكسيمو. لكن لم يكن عليه افتراض أنها الشخص الوحيد الذي يشارك حياته مع شخص آخر. بالإضافة إلى أنها لم تتحدث معه مطلقًا حول هذا الأمر. لولا تبادلهما القبل، لكان كل شيء محتملًا.

- هل ترغبين في التعرف عليها؟

- لا، ليس الآن. لا أعتقد أن هذا من الصواب. سأشعر بالخزي أمامها. لا أتصور بورو كيف كلمتك على هذا كله؟

- لماذا؟ إنها مجرد دقيقة. إذا أردتِ بوسعها النزول.

- لا، ليس الأمر على هذا النحو. الأمر وما فيه، أتصور أنه في هذا التوقيت... (أصاب نوريا ارتباك شديد) هل تريد التظاهر أمامها؟ أنا لا أفهمك.

- إنها ما تزال التاسعة... (قال لها بورو حين رأى الدهشة تعلو وجهها).

- هل هي التاسعة بالفعل؟ يجب عليّ العودة إلى المنزل. (غيرت نبرة صوتها وأظهرت مزيدًا من الجدية). لكن يجب أن نتحدث، بورو. ليس من الصواب ما نقوم به.

- عندما سنتحدث، سترين أن الأمر ليس بهذه الخطورة.

زادت هذه الإجابة من قلقها. لم تدر كيف تفسرها. بالنسبة لها أصبح الوضع لا يحتمل سوى تفسير واحد.

- هيا بنا، سوف أرافقك (قال بورو بأسلوب أكثر مرحًا من المعتاد).

أصابها ارتباك شديد، لدرجة أنها لم تعد تعرف من هو. كان من الصعب عليها الاعتراف بذلك.

40

أدارت نوريا مفتاح المذياع للاستماع إلى برنامج المستشار العاطفي. وفتحت في الحال أول ظرف. أسكتت مشاكل الآخرين بالرسائل مشاكلها الشخصية. كانت بحاجة لسماع قصص أخرى للتشويش على محادثة الأمس مع بورو.

سيدتي العزيزة:

على الرغم من ظروفي غير المستقرة، أحتفظ بمعطف فخم يرجع لأمي. مازال بوسعي وأنا أرتديه إخفاء ثيابي الرثة تحته، ومن ثم الحفاظ على نوع من الوقار.

عقب هذه المقدمة عن ثيابها، شرعت المستمعة بدون أي توقف في عرض الغرض من رسالتها.

انظري! لدي ابن، وأنا أم عزباء. واضطررت لكي أعيله طوال هذه السنوات إلى إقامة علاقات مع عدد غير قليل من الرجال. انظري! لكي يكون لديكِ فكرة، ذات مرة، ذهبت عشية عيد الملوك المجوس[1] لورشة نجار

1. المناسبة المقابلة لعيد الميلاد المجيد (25 ديسمبر) وبحسب التقليد الكاثوليكي أن ثلاثة ملوك من الشرق رأوا نجمة في السماء فعرفوا أنها التي تبشر بميلاد المسيح فتبعوها إلى بيت لحم وقدموا له الهدايا، ومنذ ذلك الحين عدت المناسبة عيدًا لتقديم الهدايا والتهاني وفي الوقت الحالي يطلب الأطفال هداياهم في أعياد الميلاد من الملوك المجوس، ويتعين عليهم إثبات أنهم كانوا أطفالًا طيبين ليستحقوها وتتزين المحال والشوارع لهذه المناسبة، كما يوجد في إسبانيا مسابقة يانصيب ضخمة في هذا التوقيت من كل عام. (م)

إفرنجي لأخذ لعبة الميكانو التي أردت إهداءها إلى ابني، وعمره آنذاك خمس سنوات. كانت قطعًا بسيطة، بضعة أجزاء خشبية، بقايا سقطت من المنشار، وطلاها النجار وصقلها. سألني النجار لعدة مرات إذا كنت بحاجة لشيء آخر، وأكد أنه يمكنني العودة في يوم آخر لكي أدفع له وأنه ليس ضروريًا السداد الآن، أو الذهاب إلى هناك من أجل أي شيء أريده.

يبدو يا سيدتي، أن من هم في ظروفنا مفضوحون مهما بالغوا في ارتداء ثياب فخمة. عرض علي صنع جميع أثاث المنزل مجانًا إذا أنا أردت، ثم اقترب مني وأخذ يداعب شعري. خرجت بعد عشرين دقيقة من ذلك، أنفض عن ثيابي بقايا نشارة الخشب. قطعت عدة شوارع طويلة حتى وصلت إلى المنزل. وبمجرد سماع صغيري صوت مقبض باب البناء أطل من القبو. لطالما استقبلني وكأنه مرت أعوام بدون أن نلتقي. قبل أخذ لعبة الميكانو توقفت لساعة بفندق باريس.

جاء الملوك المجوس في اليوم التالي في موعدهم بالضبط، وقد وفوا بوعودهم لأنني تمكنت من إضافة شيء صغير آخر لهديته، ولكن تعرفين يا سيدتي ماذا كان المقابل.

وهكذا مرّ الزمان. كبر ابني الآن. أخشى أن يعرف طبيعة عملي، لأنني لم أعد أعرف هل سيصدق إذا واصلت ادعاء رعاية سيدة مسنة. ولا أعرف، كيف سيكون رد فعله في هذه الحالة؟ أدرك أن هذا بمنزلة عار بالنسبة لأي شخص. سعيت -والله ساعدني طوال هذه السنوات- لإخفاء هذا الأمر، ولا أعلم حتى الآن كيف نجحت في ذلك؟ ولكن اعتبارًا من الآن، لا أدري إذا كنت سأستطيع الاستمرار. تعلمين أن هناك أشخاصًا يتلذذون كثيرًا بدس أنوفهم في شؤون الآخرين، وعلى الرغم من أنني لطالما أقمت علاقاتي بعيدًا عن الحي، فلا يوجد شيء يحررنا من وقوع المصادفات.

شكرًا على برنامجك وليدم هكذا، في مساعدتنا، لأننا نحتاجه كثيرًا. أرسل

إليك مبلغ 25 بيزيتا على سبيل التبرع نظير معروف قراءتك لرسالتي.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

فلور دي لونا

قرأت في رسائل أخرى، ما حكته بعض النساء عن مشاهد الإهانة التي تعرضن لها بحضور أطفالهن: في واحدة من هذه الحالات، عرض صاحب المتجر على زبونة إلغاء ديونها نظير قبولها لرغباته. رسالة أخرى، عن أب سكير يثير الذعر بين أفراد عائلته. تمتزج في تلك القصص، قلة الحيلة بالبؤس الأخلاقي، فيما يشبه كوكتيلًا من العلقم.

***

يتسم جيوفري بالادري بأنه رجل ذو عادات ثابتة. عندما رأى ماكسيمو ثفرا المخبر السري يدخل حانة (بي)، دخل هو المحل المواجه لها، على الناصية المقابلة لواجهة الكاتدرائية الرئيسية. طلب قهوة وظل واقفًا بالفنجان إلى جوار الباب فيما يشهد حلول المساء. ألقى للنادل بضع قطع من النقود ما إن رأى المخبر السري يغادر وشرع في ملاحقته.

استمرت الجولة أطول مما توقع. قطع بالادري الشارع، وبعد المرور بكنيسة العائلة المقدسة، بأجوائها المسببة للانقباض في تلك الساعة، ترك على اليسار جادة جراسيا ثم جادة دالت. توقف لإشعال سيجارة على الناصية الأخيرة. نظر نحو ساحة روندة الجيناردو. تصور ماكسيمو أنه ربما سيذهب لزيارة أحد في المستشفى وأنه يقوم بتضييع الوقت. لكن لم يكن الأمر كذلك، ملج بالادري نفسين من السيجارة، ثم شرع يسير بسرعة أكبر من ذي قبل، وكأنه يتغذى على النيكوتين. قرر عندما دخلا حي الكارميلو توسيع المسافة بينهما حتى لا يحذره أحد من أن هناك من يتبعه.

كان هناك بستان صغير محاط بسياج معدني، بجوار مبنى تحت الإنشاء.

اجتاز المخبر السري الطريق المكسو بالعشب الذي يفصل بين قطعتي الأرض، دار حول المبنى قيد الإنشاء، ثم توقف أمام منزل ضيق للغاية من ثلاثة أدوار يقع في ظل الهيكل الإسمنتي والرافعات. تقشر طلاء واجهته، وسقطت بعض بلاطات القيشاني من الإفريز الذي كان يزينها في زمن غابر، كما اختفى لوح زجاجي من إحدى النوافذ العلوية والكثير من الحشوات الخشبية من أبواب الشرفتين. كانت بعض أجزاء السقف تطل على الشارع أكثر من غيرها. تربض أمامه شجرة بلوط عجفاء. خمن ماكسيمو، من حالة المنزل أنه يعد مسكنه ومكتبه، نظرًا لأن هذا الانحدار يكشف أنه ليس لديه ميزانية لكي يستأجر أو يمتلك محلًا آخر. رحل بمجرد أن رآه يدخل. رافقته أصوات نباح لعدة أمتار.

سار حتى المرآب الذي ترك به الفورد ثندربيرد الفيروزية اللون. وبعد نصف ساعة من ابتعاد بالادري عن ناظريه، دخل صالة منزله. كانت نوريا بجوار النافذة. أمسكها ماكسيمو من خصرها، وشرع في تقبيلها في البداية على وجنتها ثم من فمها.

- لديّ أخبار رائعة للغاية: لقد اختاروني من أجل اجتماع في مدريد، بالوزارة وليس أقل من ذلك. عكفت على العمل في هذا الموضوع لمدة شهر، بالتزامن مع الجولات التجارية دون أن أدري أن هذا كان السبب. كان يتعين عليّ أن أقوم بحصر شامل، وبعض الجداول، والاتصال بصيدليات... (لم يكف ماكسيمو عن الحديث).

- هذا من دواعي سروري. حقًا (قالت متيقنة من أن تغير حالته المزاجية كان بسبب عمله وليس بسبب العلاقة بينهما. وأضافت بصورة آلية تمامًا): سوف أحضّر العشاء.

- نعم، حضريه بينما أستحم وبعد ذلك... عانقيني، نوريا، أخبريني بأنك فخورة للغاية بزوجك!

فعلت نوريا ذلك بدون رغبة حقيقية.

قررت الاستمرار في إخفاء حالتها النفسية قدر المستطاع، عندما خرج ماكسيمو من الحمام يجفف شعره بالمنشفة. رأى جروح كاحليها، حينما استلقى في الفراش بعد العشاء.

- حدث ذلك منذ عدة أيام في الحديقة. جاءت قدمي إلى جوار الأحجار التي تحدد مسار المشاة ووقعت. كانت حادة للغاية. لحسن الحظ أن هذا حدث لي وليس لهما.

- ولماذا لم تخبريني بشيء؟ اقتربي! (شرع ماكسيمو في تقبيلها عند تلك المنطقة، ثم القدمين والساقين). هل تؤلمكِ؟

- قبلاتك؟

***

تنتهي ذلك الأحد بعد الظهيرة مهلة تسليم الأربعة آلاف بيزيتا إلى بالادري. لهذا، قرر ثفرا في الصباح الذهاب إلى المنزل الشبه المتهالك الذي كان قد تتبعه إليه. شعرت نوريا بالامتنان لهذا الغياب غير المنتظر، فلم تعر تبريره الكثير من الاهتمام.

وصل ماكسيمو مبكرًا إلى حي الكارميلو، على قناعة بأن الاستيقاظ مبكرًا ليس ضمن عادات الأحد لدى المخبر السري. أعاره مالك المرآب الذي اعتاد التردد عليه، سيارة متواضعة للغاية. قبل على استحياء النقود التي نفحه بها مقدمًا، موصيًا إياه ألا يورطه في أية مشاكل.

ظل ماكسيمو قابعًا في السيارة يراقب لأكثر من ساعة. اتجه بمجرد أن رأى المخبر السري يخرج من منزله ويبتعد هابطًا الربوة، نحو الباب المتداعي تمامًا وتمكن من فتحه بأقل جهد. صعد السلم بمنتهى التوجس. سادت عتمة شديدة بالرغم من التوقيت. لم يرغب في الاستناد إلى الجدران. رأى

عدة غرف صغيرة على جانبي أول دهليز. لفت انتباهه في إحداها وجود لعبة طاولة فوتبول. وبدت دمى اللاعبين التي تخترقها قضبان الصلب وكأنها تنظر إليه. وكانت المنافض المعدنية على أطراف الطاولة مليئة بأعقاب السجائر. لم يستطع مقاومة تحريك قضيب دمية حارس المرمى الأقرب إليه. شعر بالأسف حينما تصور بالادري يلعب بمفرده.

نظر بعد ذلك نحو آخر الممر. يقع مكتبه بالحجرة المطلة على الشارع. لم يكن ماكسيمو يبحث عن التقرير الذي يطالب بالادري مقابله بمبلغ أربعة آلاف بيزيتا لأنه إذا سرقه منه، فبوسعه إعادة كتابته مرة أخرى، بالإضافة إلى أنه سيكتشف على الفور أنه كان هناك. كان يسعى وراء صور، ومستندات رسمية، وأشياء تكشف عن هوية، وأبعد من ذلك، وراء حياة كاملة. حياته هو في تلك الحالة. اعتبر أنه إذا اكتشف ذلك، فإنه حتى فضح نفسه كان يستحق.

شرع في التفتيش في أحد الخزانات. تراءى له من حالة الأوراق، أن مكالمته هي التي أيقظت ذاك الهاتف الراقد في سباته منذ شهور. وجد على الطاولة إحدى روايات تايلور[1] نومي «منزل الصمت». سقط على الأرض صندوق أعواد الأسنان القريب من إحدى حواف المكتب، عندما فتح أول درج. عثر على ما كان يبحث عنه في واحدة من حافظتي الأوراق من الجلد الصناعي مغلقة بسحاب، كان يخبئها في الدرج. ثم سمع عدة خطوات في الطابق العلوي؛ فأسرع وعاود التقليب فيها، ثم وضع مراده أسفل ذراعه، وخرج مهرولًا.

---

1. فرنسيسكو جونثاليث لديسما (1927 - 2015) صحفي كتالوني وكاتب للعديد من الروايات البوليسية المصورة، كان يوقع بأكثر من اسم مستعار منها تايلور نومي. حصل وهو في الحادية والعشرين من عمره على جائزة الرواية العالمية عام 1948 عن كتابه «ظلال عتيقة» وكان يرأس تحكيم الجائزة الأديب الكبير سومرست موم، وقد منع نظام فرانكو الدكتاتوري نشر الرواية آنذاك (م)

فاحت من الدور السفلي رائحة بول قطط. رأى من الشارع شخصًا يطل من النافذة العلوية، لم يكن بالادري. كان شخصًا يطاول إفريز النافذة إذا تمطّى. لم يلحظ ماكسيمو سوى تلك الجزئية نظرًا لأنه سارع بالانعطاف عند ناصية قطعة أرض البناء.

قاد السيارة مرتديًا القفازات، ولم يخلعها حتى عندما أصبح ممسكًا بمقود سيارته الخاصة.

***

لم يحضر المحقق السري مساءً إلى حانة (بي) لاقتضاء دينه المزعوم. اعتقد بورو أن ذلك يرجع لفقدانه الأدلة التي كان يود استخدامها في ابتزازه. لكن خطر في باله أيضًا أن يكون لهذا علاقة بذلك الزائر الذي رآه في نافذة علية البناء. على أية حال، كان مقتنعا بأن عملية ذلك الصباح خطوة موفقة ضمن محاولاته لإخبار زوجته بما علمه عنها. قرر العودة إلى ذلك المنزل الآيل للسقوط بمنطقة الكارميلو، هذه المرة بسيارته الفورد الثندربيرد. خلع زرائر قميصه، ودبوس ربطة العنق، ووضع القطع الثلاث في أحد الجيوب. عدم ترك أي شيء معلقًا كان أحد شعاراته، مقتنعًا بأن هلاك الإنسان يرجع إلى الأمور التي تركها بدون حسم على مدار حياته.

صعد تلك المرة الربوة بسيارته. لم يكن يريد المجازفة وإيقافها بعيدًا فيسرقوها. وجد الباب المتهالك مشقوقًا، وأسفل عتبة الباب بركة دماء انسابت على السلم وتجمعت هناك، وكأن درجاته منحدرات شلال. تردد ماكسيمو للحظات، لأنه كان يعي ما قد يجره عليه الدخول واكتشافه هناك، إلا أنه دفع بكوعه في الحال أحد مصراعي الباب الخشبي ذي المفصلات المفكوكة، لكيلا يمسه سوى قماش سترته في تلك اللحظة.

ارتدى القفاز في يده اليمنى فحسب، أخرج من جيبه الكشاف ذي البطارية الذي أخذه من درج مقصورة سيارته، وأضاء درج السلم: كانت

شرفات حجرات الدهليز الأول مفتوحة ومصاريعها تصطك بواجهة المنزل. قدر أنه سرعان ما سيتحطم زجاجها. بالإضافة إلى ضجيج النوافذ، انتبه أثناء صعود السلم، محاولًا تفادي الدم المتجلط، لصدى صوت معدني متقطع وأكثر رتابة، أشبه بـــ: كليك - كليك - كليك. تجمعت عند مدخل مكتب بالادري بركة دماء أكثر كثافة وتشعبًا. صاحَب صوت الكليك - كليك - كليك ومضات متقطعة تتغير ألوانها. انتزع عنوان «منزل الصمت» من على غلاف الكتاب الذي رآه المرة السابقة وثبت على باب مكتب بالادري. كان أول شيء رآه حينما نظر إلى الداخل، آلة عرض شرائح مصورة طراز سوير روتوماتيك 747، مقيدة إلى الجزء العلوي من المشجب العامودي بأحد الأركان في آخر الحجرة، بدا كأنه شجرة ذات ثمار غريبة. لم تتوقف أسطوانة عرض شرائح السيلولويد عن الدوران. ظهر على الجدار الوجه المبتسم، العنق الطويل، والصدر النافر والخصر الدقيق للنجمة الفاتنة ليثيا كالديرون[1]. بعد بضع ثوان عرضت الآلة صورة نجمة أخرى جاردينيا بوليدو[2]، وتلاها المزيد من الصور لنجمات فاتنات ارتبطت أسماؤهن في مخيلته بمسرح فيكتوريا. ارتطم فخذه بمجرد دخوله بقطعة أثاث لم تكن موجودة هناك من قبل. كانت طاولة لعبة الفوتبول. وكان فوقها شيء ما. تشبث بالكشاف بكلتا يديه. عندما رآه ارتجفت ساقاه وفغر فاه لدرجة أن آلمه فكاه، وكأن الصرخة التي لم يطلقها تمددت فيهما نحو الخارج. رقد بالادري مقيد القدمين واليدين فوق طاولة لعبة الفوتبول. ومكان دمى اللاعبين، كان هناك الكثير من الدماء على جانبي المرميين كليهما حيث امتدت ذراعاه، ولكن ماكسيمو فكر أن ذلك لا يفسر حالته أو النزيف الحاد الذي وصل إلى

---

1. نجمة سينمائية إسبانية شهيرة مواليد 1933 (م)

2. من شقراوات العصر الذهبي للسينما والمسرح الاستعراضي الإسباني في الأربعينيات والخمسينيات (م)

الشارع. شعر ماكسيمو من تيار الهواء المتدفق عبر الشرفات المفتوحة، بأنه مازال يتنفس، لكنه تصور أن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد انطباع لديه.

عندما وصلت أسطوانة آلة عرض الشرائح إلى نهايتها، عاودت استعراض النساء المثيرات ذات الثياب الكاشفة، البدء من جديد. تناثرت على الأرض صفحات رواية تايلور نومي، مع خزانة المستندات، وأرفف الخزانة المفتوحة والمقعد. ظل ماكسيمو متسمرًا في مكانه هناك مثل تلك الأوراق، ونظراته مثبتة على لعبة طاولة الفوتبول التي تحولت إلى آلة تعذيب. لم يستطع الحراك. نظر إلى الأرض من حوله ثم نظر إلى السقف. كانت ساقاه أشبه بقائمين على وشك الانهيار أثناء زلزال؛ فقد تدلت ساقا بالادري إلى جواره بلا حراك. نظر إلى السقف وكأن السبيل للخروج من حيرته موجود هناك، فرأى حلية من الحجر المنقوش قديمة للغاية تشهد على أن ذلك المنزل عرف أوقاتًا أفضل. يوجد بمنتصف الحلية المنحوتة من الجص ثقبٌ يشي بفقدان الثريا التي حل محلها مصباح متدلٍ من وحدة إضاءة مكتب بالادري. استمرت تكتكة أسطوانة الشرائح المصورة كليك - كليك - كليك واستمرت معها أضواء النجمات الفاتنات وابتساماتهن. لم تكد تمر عليه دقيقة هناك، إلا أنه فضل الخروج بأسرع ما يمكن. عندما اجتاز باب المكتب وجد على يساره محور السلم الصاعد إلى الطابق العلوي. شرع في الحال في الصعود قفزًا. دخل علية ذات سقيفة مائلة. سار حتى المكان المماثل في المستوى نفسه من المكتب الذي غادره توًا، وعثر فوق التجويف عينه، حيث كانت تتدلى ثريا إضاءة الحجرة، على جهاز عجيب يتكون من دعامة خشبية تتدلى منها قنينة محلول مقلوبة. يسد فُوّهة قنينة المختبر غطاء من الصلب الذي لا يصدأ، متصل به أنبوب زجاجي مرتفع لبضعة سنتيمترات على هيئة قطارة. يُقرأ بالكاد على الملصق رمادي اللون: حمض الكبرتيك المركز «H2SO4».

قطع ماكسيمو ثفرا درجات السلم قفزًا، اثنتين اثنتين، لم يتوقف ليتحقق

على أي جزء من جسد المحقق الخاص كانت تتساقط قطرات السائل حسب وضعية طاولة الفوتبول، لكن لم يساوره أدنى شك في أن ذلك كان سبب النزيف الحاد، كما لم يتوقف أثناء مروره بجوار باب المكتب.

نظر ماكسيمو، قبل الخروج إلى الشارع، عبر الفراغ الضئيل الناجم عن مفصلات الباب المتهالك، ثم نظر في الساعة: مرت ثلاث دقائق فحسب، إلا أنها كانت الأطول في حياته.

كان جانب الشارع الظاهر من هناك مقفرًا، ليس لأنه آخر الشارع، بل لأنه كان يشير، بدون الحاجة لأية علامة، إلى أن عصرًا انتهى هناك أيضًا.

من المرجح أن هذا كان من تدبير مهندس كيميائي. ولم يكن يعرف غير واحد فقط: الذي أخبره المخبر السري بأنه يعمل لدى شركة مستحضرات التجميل التي ترد نوريا على مراسلاتها التجارية والذي تعرف عليه ذلك المساء حين اصطحبها إلى شارع بيلايو.

ترامت على كلا الجانبين في الشارع الذي سلكه بعد ذلك، المبان قيد الإنشاء بهياكلها المتوازية مع أعمدة الإنارة. ترتفع الهياكل الخرسانية مثل مجسمات تكمل نبوءة حاضرة بقوة، ومستقبلًا غير مرحب بالكثير من السكان القدامى بذلك الحي الواقع عند سفوح سلاسل جبال كولسيرولا.

أوقف ماكسيمو السيارة على مسافة عدة أمتار من أول قسم شرطة رآه. وبدون انتزاع قفاز يده اليمنى، كتب في مفكرة ملاحظاته. تحقق من وضوح عنوان بالادري واسم بورو نافاسكويس. كان مقتنعًا بأن الشرطة ستعد ذلك البلاغ من مجهول بمنزلة هدية لأنه سيوفر عليهم الكثير من الوقت والجهد.

عبر الشارع بعد ذلك ودخل إلى آخر جانبيّ مجاور للمبنى. مرر الورقة من أول نافذة رآها مفتوحة، وتأهب للعودة إلى سيارته.

41

انتهزت نوريا موعدها مع السيدة فرومنت في المعمل في تلك الجمعة، لكي تنجز قبل الذهاب إلى هناك، مسألة معلقة: إغلاق صندوق البريد؛ فلم تعد بحاجة إليه. دخلت مكتب البريد متأهبة لإتمام الإجراءات. وبعد تعبئة الاستمارات وتسليمها، قطعت الموظفة البهو، واتجهت نحو مكان الخزائن لكي تضع المفتاح مع تلك المستندات ونادتها قبل أن ترحل.:

- انتظري! لديكِ بريد. هذا آخر ما وصل. كان بالداخل.

- هل هو لي؟ (سألتها نوريا بعينين مفتوحتين على اتساعهما).

- نعم، بالتأكيد. على أية حال، لديك الآن شهر لعلكِ تتلقين أي بريد إضافي. يمكنكِ المرور علينا والمطالبة به. بعد تلك المهلة، سيُرد البريد إلى المرسلين.

- نعم، هذا ما سأفعله بالتأكيد. لا تبالي! سوف أبلغ حتى لا يكتب أحد لي على هذا العنوان (قالت نوريا وكأنه شيء سوف تقوم بعمله حقًا).

أخذت ذلك الظرف وحفظته في حقيبة يدها عازمة على فتحه بمجرد خروجها من هناك. شعرت ببرودة حينما وقفت بكلتا قدميها على الأرض، وكأن عظامها من جليد، إلا أن الشعور بالضعف قل كثيرًا. ركزت لكي تسير حتى الرصيف، وعاودها الشعور بألم الكاحل بينما كانت تنتظر سيارة الأجرة. أغلقت عينيها بمجرد أن دخلت السيارة وحينما فتحتهما مرة أخرى، رأت وجه هارالد يتفرس فيها بلا مواربة. وضعت يدها على صدرها لأنها

لاحظت خفقانه.

رأت عندما دخلت معهد مستحضرات التجميل دونيا ليونور بجوار ليليانا. كان بورو في الداخل، منشغلًا بمزج بعض العينات في أنابيب متراصة على حامل. اعتادت نوريا على ظهور رؤسائها غير المنتظم. وعلى الرغم من مظهرهما الطيب، فإنها فضلت أن تظل علاقتها بهما على هذا النحو، على الأقل في الوقت الحالي. خاطبتها السيدة فرومنت دون أن تدري شيئًا عن الحدث الذي وقع في فناء منزلها:

- عزيزتي، مر وقت طويل. هل أنتِ بخير؟ هل حدث لكِ مكروه؟ أراكِ شديدة الشحوب.

اقترب بورو منهما، حيته نوريا باقتضاب، وخفضت بصرها على الفور.

- كل شيء على ما يرام، أشكرك (قالت نوريا وهي تعدل وضع قبعة اللباد الخفيفة التي تحملها حول عنقها لإخفاء الغرز مكان خياطة الجرح. ثم أضافت بابتسامة): أخبريني فيم تحتاجينني؟

- أردت أن نودع بعضنا بعضًا فحسب.

فزعت نوريا.

- نحن مسافران إلى أميركا (تابعت السيدة فرومنت، فتنفست هي الصعداء). هذا أفضل توقيت. كما تعلمين نجلب من هناك الكثير من المقادير التي نستخدمها: زيت الأفوكادو، وزيت الفيزون من أجل الكريمات. لعلك تتحمسين ذات مرة وترافقيننا.

- يا ليت. من دواعي سروري (قالت نوريا بامتنان شديد).

خاطبت مديرتها بعد ذلك المهندس الكيميائي:

- لدينا أيضًا مهمة لك، بورو، نأمل أن تنجزها بأسرع ما يمكن.

سنتحدث بدقة لاحقًا عن المواعيد.

- متى تشاؤون. في انتظار أن تخبروني (أجاب بورو بدون أن يرفع عينه عن نوريا فقد بدا من نظراتها أنها تعرضت لخطب ما).

- تعلمين أنه لا يمكننا التوقف (تابعت دونيا ليونور مخاطبة نوريا)، لأنه بمجرد أن تتوقفي عن النمو تتجهين للانحدار. يحدث هذا أحيانًا للشركات أكثر من البشر.

- إلى أي مكان في أميركا ستسافران؟ (سألت نوريا محاولة التظاهر بأنها طبيعية).

- إلى بوينوس آيرس ونيويورك. وأعتقد أننا سنجلب هذه المرة وصفة الشباب الدائم. أليس كذلك، أليكس؟ (نادته من هناك بصوت مرتفع).

- يا ليت عزيزتي! نتمنى أن نكون أول من يطبقها على نفسه (قال السيد فرومنت أثناء خروجه من مكتبه متجهًا إلى البهو الرئيسي).

ابتسم الجميع على تلك الإجابة.

- سيدة ثفرا (قال السيد فرومنت)، نحن في غاية الامتنان لكِ لأجل عملك. تعلمين أنني أعرب لكِ عن ذلك كلما سنحت لي الفرصة. لقد أصبحت في غضون وقت قصير للغاية مساعدتنا الرئيسية بفضل كفاءتك. لكِ أن تتصوري أن الأب بيلسيرميس من أشد المعجبين بك، وأنا أيضًا.

- أنتم في منتهى اللطف، أشكركم. أنا أيضًا أشعر بالرضا لمساعدة هؤلاء الناس الذين يراسلون البرنامج. يقولون: إن هذا يجعل لحياتنا معنًى. أن نكون نافعين للآخرين.

- هذا صحيح، أرى أنك تتحلين بحكمة كبيرة قياسًا بسنك. إنكِ تجعلين مراسلاتنا يتعافين من الداخل، ونحن نعتني بمظهرهن الخارجي. وهكذا يكمل بعضنا الآخر. خدمة متكاملة.

دق جرس الهاتف. سارعت ليليانا بالرد.

- سيدتي، إنهم الشركة، سيارة الأجرة وصلت (قالت بمجرد أن وضعت السماعة).

- حسنًا حسنًا، نحن راحلان.

ما كادت تمر بضع ثوان بعد ذلك حتى عاودوا الاتصال.

- ليليانيتا، إنه أنا (أنصتت السكرتيرة حينما رفعت سماعة الهاتف وانتفضت مفزوعة. لم تكن تتوقع أن يهاتفها دون خيرونيمو، كما اعتادت أن تناديه، لعجزها عن التخلي عن هذا الأسلوب في التعامل المتوافق مع منهج التراتبية الذي عاشته حتى في علاقتهما العاطفية).

- سيد أولرابوس، السيد والسيدة فرومنت، خرجا توًا من الباب، سيرحلان إلى أميركا. هل تود التحدث معهما؟

نظر إليها بورو ونوريا بارتياب واقتربا منها. أخذ بورو يشير إليها بإيماءات بسبابتيه لكي تقترح عليه لقاءً.

- أود التحدث معكِ. سأرحل بشكل نهائي، كما أخبرتك (قال)، لكن أود قبل ذلك أن أطلب منك معروفًا.

تفاجأت ليليانا لأنها ظنّت أنه كان حقًا في مقاطعة مديوديا الفرنسية منذ بضعة أيام. أشارت لها نوريا بإيماءة من يدها وكأنها تطوح بقصبة صيد، لكي تتابع الحديث معه. فأومأت برأسها في اتجاه نوريا وبورو بعلامة النفي.

- أود أن أراك للمرة الأخيرة لكي نودع بعضنا الآخر بالطريقة التي تليق بحبنا الذي كان (ظلت تستمع إلى الهاتف). أعلم أنني لن أحب مطلقًا من بعدك. لقد حجزت لسهرة عشاء تليق بأمراء. اسمحي لي أن أقدم لكِ هذه الهدية الأخيرة، سوف يصلك غدًا بعد الظهيرة ثوب وحذاء. ستبدين رائعة الجمال. وسترين سهرة العمر. ستتذكرينها للأبد. هل مازلتِ معي؟

- نعم، دون خيرونيمو، لطالما كنت هنا. حضرتك الذي رحلت (قالت أخيرًا)

- ليليانيتا، آه لو عرفتِ... هناك أمور يطول شرحها (تابع). فلنتركها بين يدي القدر! إن شاء أن يجمع بيننا من جديد، فسيفعل. إلى أن يحين ذلك، امنحيني بضع ساعات لنستمتع مرة أخرى! سيقلكِ السائق في التاسعة من منزلك.

رفعت ليليانا ذقنها، ولم تضف شيئًا آخر، وانتظرت حتى وضع السماعة.

- ثم؟ (سألها بورو ونوريا في نفس الوقت).

- يريد أن يراني.

- هل ستتحدثين معه؟ (كان سؤال نوريا بمنزلة توسل).

- سأحاول (أجابتهما ليليانا بتحفظ شديد). لكن لا أعدكما بشيء.

- ليليانا، (خاطبتها نوريا)، يجب أن تفعلي ذلك. نحي جانبًا شعورك تجاهه! وفكري في كل هؤلاء الأطفال وكل من سيولدون على شاكلتهم لو لم نتدخل!

***

في اليوم التالي، خرجت ليليانا إلى الشارع حينما لم يعد متبقيًا على الموعد المحدد سوى خمس دقائق فحسب. كانت في انتظارها أمام مدخل منزلها سيارة سوداء بدت من شدة بريقها كحشرة معدنية. حيّت السائق ودخلت. سألت السائق مطلة برأسها من بين المقعدين الأماميين:

- أخبرني، من أين سنقل السيد أولرابوس؟

- من مكتبه بشارع مايوركا (فاجأها الرجل).

- تمامًا. (لم يفاجئها عدم وجوده في السيارة لأنه لطالما اعتاد تقديم

التحفظ على ما سواه).

ظهر وكيل الوزارة بمجرد وصولها للمبنى الحكومي. اقترب بمجرد دخوله السيارة وكأنه سيضع بضعة أوراق على التابلوه الخلفي وقبلها بمنتهى السرعة لدرجة أن السائق لم ينتبه له.

- تبدين نجمة سينما. إنك في منتهى الروعة! كان يجدر بي إحضار تميمة لمنع الحسد. سوف ترين كيف سينظرون إلينا في المطعم؟ (همس في أذنها).

- لم يعد يهمك ما يُقال لأنك سترحل (قالت ليليانا. شعرت أنها أصبحت أكثر نأيًا من أي وقت مضى في علاقتهما).

أدار السائق المذياع.

- سنقضي يومًا ليس مثل أي يوم، سنذهب إلى مكان لا يسمحون فيه بدخول أي شخص عادي، عندما يتلقون الحجز، يتحققون منه حتى لا يكون هناك عدم تكافؤ. تتفهمينني بالتأكيد.

لم تشأ ليليانا الرد عليه. لم يرقها ذلك اللقاء في مكان شديد التحفظ، والبرجماتية للغاية؛ بدا لها مخيبا للآمال بسبب ما ينطوي عليه ولأنه يلخص الوقت الذي تشاركته معه.

- يعد امتلاك سيارة نوعًا من الرفاهية، دون خيرونيمو. هل يمكن أن أنتهز مسار الطريق لكي أترك رسالة؟ (سألته بدون أن تخفض نبرة صوتها).

- كيف يمكنني أن أرفض لكِ طلبًا؟ أعطي بنفسك الإرشادات إلى كايتانو! (أراح دون خيرونمو يده على ساق ليليانا اليمنى. تألق على جوربها الشفاف البراق، مع تجانس النسيج، خاتم زواجه). فقالت له بابتسامة لا تقل بريقًا عن خاتمه:

- شكرًا. خذنا إلى شارع سيزل.

نظر دون خيرونيمو إليها متشككًا.

- إنها مجرد لحظة. أريدك أن ترى شيئًا (أوضحت، وأشاحت بوجهها. شعرت لأول مرة أنها تعد وتنظم وقت كلٍّ منهما، تمسك بزمام الأمور، وكانت الوحيدة التي تعرف ماذا سيحدث لاحقًا).

42

عقب دقائق قليلة من توجيهات ليليانا الأخيرة، توقف السائق أمام بوابة ملجأ سيدتنا عذراء الميناء. ترجل الاثنان وأغلقا بابي السيارة. استمر دون خيرونيمو في الكلام بصوت منخفض للغاية:

- هنا؟ لا تخيفيني، ليليانيتا. ليس لي نسل! (مرر أولرابوس يده على عنقه وكأنه يود بهذه الطريقة تنظيم العرق والانفعال؟

- اطمئن! لن يتبقى أي دليل على علاقتنا الغرامية، سواء حي أو ميت (أجابته بمنتهى الاعتداد بالنفس).

- ما كان بيننا لم يكن مجرد علاقة غرامية، لقد كنتِ كل شيء بالنسبة لي، الطاقة التي أمدتني بالحياة طوال كل هذه السنوات. بهجتي الوحيدة. صدقيني!

واصلت ليليانا السير وكأنها لم تسمعه. بدت كلماته بالنسبة لها قادمة من الماضي، من لحظة لا يمكن تغييرها.

صعدا درجات السلم في صمت. وشاهدا معاون المبنى يقترب منهما حينما وصلا أمام أبواب المدخل الزجاجية.

- انظر! لدينا موعد مع المديرة. اتصلت أمس، أنا سكرتيرة وكيل الوزارة الحاضر هنا (خاطبت ليليانا الموظف على سبيل التعريف).

- تفضلا، تفضلا! لم يكن هناك داعٍ لكل هذه التفسيرات. لقد كنا بانتظاركما. مرحبًا بكما. سأرافقكما بنفسي. نظرًا لأهمية الزيارة، يجب أن

تكون الأخت في مكتبها. (مضى الرجل منحنيًا، يلتفت كل بضع خطوات ملوحًا بكلتا يديه).

جذب أولرابوس ليليانا من ذراعها وهما يقطعان البهو، وقال لها مغمغمًا:

- لا أريد مشاكل. ما هذا؟ لقد وافقت على مرافقتك لإنجاز مهمة، ولكن لا أريد تعريض نفسي للمشاكل. لا يروقني هذا المكان على الإطلاق.

- لا تقلق! لعلك لاحظت أنني لم أذكر اسمك في أي مناسبة (خاطبته بمنتهى الهدوء).

أطلت المديرة، أعلى سلطة في تلك المؤسسة، من الباب بمجرد أن سمعت صوت اقتراب خطاهم من مكتبها. ومثل البوّاب أظهرت لهما التقدير اللائق.

- تفضلا، تفضلا! يا له من تشريف! نشكركما على الاهتمام بنا. تقوم البلدية بعمل عظيم من خلال علاقتها بالحكومة. إن الاهتمام الذي توليه لهؤلاء الأطفال له أهمية كبيرة للغاية بالنسبة لنا. (ارتدت الراهبة مسوحها السوداء وعليها غطاء الرأس المربع ووشاح الصدر الأبيض الخاص بخادمات قلب العذراء). لقد أحرزنا تقدمًا كبيرًا، واعتبارًا من الآن سنصبح ملجأ للتعليم. وهذا العمل...، أخيرًا تمكنا من فصل الأطفال البنين عن البنات وجميع الصغار عن المسنين والمرضى.

التزم دون خيرونيمو الصمت.

- أختاه (تدخلت ليليانا وهي تنظر إلى سيدة دخلت المكتب توًا حاملة طفلًا رضيعًا بين ذراعيها)، هل هذه الأم التي جئنا لنراها؟

- إنها شقيقتها. هي لم تستطع المجيء. صحتها ليست على ما يرام. تفضلي، أخبريها عن ابن شقيقتك! إنها الحالة التي حدثت الأب بيلسيرميس عنها.

- الأب بيلسيرميس! همس دون خيرونيمو بهذه الكلمات في أذن ليليانا؛

فاستشعرت منها نبرة عتاب لم تعهدها منه من قبل.

- أشكركم على مقابلتنا (خاطبت ليليانا السيدة الشابة. ثم نظرت للرضيع بحنان شديد). كيف حاله الآن؟

- حسنًا، كما هو، سيدتي. إنها مأساة كبيرة. وُلد منذ نحو شهرين. حممته على الفور. أما شقيقتي فقد اضطررنا للانتظار حتى تفيق وتخلصنا من القابلة بعد الاشمئزاز الذي أصابها حين رأته. لففناه في الكثير من الحفاظات والأقمطة لكي يبدو أنه لا ينقصه شيء، لكنها أدركت على الفور ما ينقصه. تتصورين كيف حالنا؟ لا تكفّ أمنا عن البكاء. تقول إنها ستتناول زجاجة حامض البوتاسيوم أو ستعطيه للطفل. أحضرناه إلى هنا لكي نبعده عن متناول يدها في الوقت الراهن. توليه الراهبات الكثير من الرعاية أحببنه وتعاطفن معه. أعلم أنه من الخطأ قول ذلك، وليغفر لي الرب! (قالت وهي ترشم علامة الصليب)، لكن كان من الأفضل لشقيقتي أن تموت بحمى النفاس. لا تستطيع الوقوف على قدميها.

شعرت ليليانا وكأنها حضرت ذلك المشهد، تخيلت فراشًا ضخمًا من الحديد، حوض الغسيل، مرآة خزانة الملابس المقابلة، الصراخ، الألم، الضعف والأجواء المشحونة منذ ذلك الحين.

- لا أريد أن يُصاب بنزلة برد، لكن يمكن أن تكشفيه لحظة؟ نود أن نرى أية تشوهات يعاني منها بالتحديد.

التفت دون أولرابوس نحو ليليانا عليه أمارات الصرامة، وهمس في أذنها:

- يكفي! لقد سمعنا ما فيه الكفاية. هيا بنا.

اقتربت ليليانا من الطاولة التي وضعوه عليها وأمسكته من ذراعه. بدا لدون خيرونيمو مشهد ليليانا رهيبًا وهي ممكسة بالرضيع الذي نبت كفاه من كتفيه وقدماه من فخذيه.

- انظري إليه! إنها مأساة حقيقية (تابعت خالة الطفل) إنه عاجز تمامًا عن الحركة.

ود دون خيرونيمو أن يشيح بنظره، تفاديًا لذلك الشعور بالغصة في الحلق وكأنها قبضة تعتصره. انتابته رغبة في البكاء.

- تخيل سعادتك هذه الحالة! الأمر أصعب على الأطفال الآخرين (توجهت كبيرة الراهبات بالخطاب إليه وحده فحسب).

- أختاه (شرع أولرابوس في الحديث) سوف أعتني بالموقف. سأرى ما يمكن عمله. غطوه من فضلكم لكيلا يصاب بنزلة برد!

لم يستيقظ الرضيع بالرغم من كل تلك الجلبة. فتح عينيه فحسب، عندما حملته خالته مرة أخرى بين ذراعيها، ورماه بنظرة تحدٍ لدرجة أن دون خيرونيمو فكر أنه من المستحيل توافق تلك النظرة مع أيام عمر الرضيع المعدودة في الحياة.

- حسنًا ها أنتم قد رأيتموه. لقد كللنا من الكتابة إلى العمدة، والحكومة المدنية، ولكن لم نتلق ردًا إلى الآن، وقياسًا على ما قدمته البلدية وباقي الهيئات من مساعدات، يعتبر الأب بيلسيرميس الشخص الوحيد الذي اهتم بنا وبمبادرة شخصية منه. لحسن الحظ أن ذلك الإنسان يحظى بكل هذه المكانة. وتفوق مكانةَ أشخاصًا كثيرين مجتمعين.

- لا يساورك أدنى شك في أنه قريبًا سوف تتلقون أنباءً من الوزارة! أما الآن، فأستميحكم عذرًا.

- نعم، نعم، بالتأكيد. ونشكرك على وقتك. نحن في غاية الامتنان لسعادتك، سنيور...

لم يشأ دون خيرونيمو إكمال تلك الجملة بلقب عائلته. وفي نفس الوقت، مدت ليليانتا يدها لتصافح الراهبة.

43

اقترب دون خيرونيمو من السيارة ما إن خرجوا إلى الشارع. مال السائق ناحية نافذة باب المقعد المجاور له، وشغّل ذراع التدوير لإنزال زجاج النافذة لمنتصفه.

- كايتانو، أرسل إلينا أول سيارة أجرة تجدها.

- في الحال، سنيور.

أمضى السائق سنوات طويلة بدون أن يطرح سؤالًا عن سبب الأوامر التي يتلقاها. كان غرض دون خيرونيمو أن يقلهما من ذلك المكان شخص مجهول. لم يكن متأكدًا إذا كان بوسعه هو أو ليليانا السيطرة على نفسيهما أثناء الطريق، ففضل أن يكون، من سيسمع نزرًا من الحديث الطويل الذي قد يتبادلانه، في حالة تأزم الموقف بينهما، شخصًا غريبًا، وبصفة خاصة عن ديوان وزارة التجارة.

مرر أولرابوس براحة يده على ذقنه مرتين. أغمض عينيه واكتسى وجهه بتعبير صارم.

- أنت التي أخبرتِ الأب بيلسيرميس عن التيلامون، أليس كذلك؟ بماذا أخبرتِهِ أيضًا؟ (خاطبها بغضب شديد. لم يسبق له الحديث مع عشيقته بهذا الأسلوب). تعرفين أنه كاهن اعتراف زوجتي وأنه يتردد على منزلنا كل أسبوع.

- وهي فقط التي تعترف؟ (لم تستطع ليليانا منع نفسها من السخرية).

تملكها الغضب من الدور الذي أسنده إليها. لكن كان شعورها بالغضب من نفسها أكبر لقبولها الخضوع لذلك الوضع. سيطر عليها هذا الشعور عندما أخبرها بأنه سيتركها، وكأنها استيقظت في تلك اللحظات من حلم.

- ليليانا، لقد أعددت لهذا اللقاء يحدوني أمل كبير، والآن لم أعد أرغب في أي شيء. لقد كان شيئًا بشعًا. كنت تتجسسين عليّ، أليس الأمر على هذا النحو؟

نظرت إليه ليليانا بتحدٍ ولم تنبس بكلمة. شعرت بأنها سيدة الموقف، وكأنها أخيرًا تستطيع التعبير عن نفسها بدون أية مداراة وتركت وراءها كل تصنع.

- لقد وضعت ثقتي بكِ، ولم أضع أمامك أية قيود، وفعلتِ طيلة كل هذه الفترة ما يحلو لكِ. لم أسألكِ مطلقًا إذا كان هناك رجال آخرون في حياتك.

ابتلعت ليليانا الإهانة، وتركت ذلك التعليق ينزلق من على سطح جسدها وكأنه مصنوع بالكامل من الرخام، لتأكدها من أنه لو تغلغل بداخلها فلن تستطيع التحكم في غضبها.

- هل تعلم أن ذلك الطفل على هذا الحال لأن أمه والعديد من الأمهات وصف لهن الأطباء كبسولات، تسببت بالإضافة إلى قطع القيء في قطع أذرع وسيقان أبنائهن، وقدرتهم على لعب كرة القدم، السباحة وأمور أخرى كثيرة غيرها. لقد سلبوهم إمكانية الاعتماد على أنفسهم. يُباع هذا العقار الألماني، التيلامون، هنا، لأن الوزارة تصرح بذلك فحسب، بالرغم من كل هذه الأضرار التي يسببها. أشعر بالغباء الشديد حين أحكي لك ما تعرفه بالفعل.

- الأمر ليس على هذا النحو. لم يثبت أحد أن هذا حقيقي (كان يكذب).

- أي دليل تريد أكثر مما رأيت توًا؟ ألم يكفِك هذا؟ هناك حالات أكثر بكثير. يمكننا مواصلة الزيارات. ألم تشعر بالأسف لأجلهم؟ أو ذلك على الأقل؟ (غمغمت، نقلت الحقيبة من يد إلى يد، وثبتت بوردة على الجانب الأيمن من شعرها شريطًا بلون يتماشى مع لون الثوب الذي تألقت فيه).

- ليليانا لا تحكمي عليّ! الحياة تجعلنا قساة، ستدركين ذلك لاحقًا. أعلم أنها حالات رهيبة، ولكن لطالما كان هناك أشخاص معاقون. لكن لم يتعد الأمر ذلك، إن هي إلا حالات معدودة من بين الكثيرين الذين يولدون أصحاء معافون، لطالما كانت هناك نسبة. يجب تقبل ذلك.

انتابت ليليانا، حينما سمعته رغبة عارمة في ضرب الجدار، ركل ذلك الحائط الذي كانا يقفان أمامه. لم تتحمل ذلك الموقف المتفهم والمتبلد الشعور.

- لا تكن منافقًا، دون خيرونيمو! التيلامون هو سبب رحيلك، شئت الاعتراف بذلك أم لا، تعلم أن هذه هي الحقيقة (خاطبته بكل ما أوتيت من حسم). لا تحاول إخفاء ذلك. سيان عندي. لكن أطلب منك لفتة أخيرة: ارفع سماعة الهاتف! سافر إلى مدريد! قابل من يهمه الأمر! لكن لا تتركهم هكذا! هل الصلاة من أجلهم من لوردز[1] هي كل ما تفكر القيام به؟

- لا يحق لكِ أن تقولي لي إنني لم أفعل شيئًا.

- حسنًا افعل المزيد! (لم تستطع ليليانا الاعتراف بأنها سرقت من مكتبه نسخة من الرسالة التي كتبها إلى وزير الداخلية)

وصلت سيارة الأجرة، وأعطى دون خيرونيمو تعليماته للسائق لكي يقلهما إلى جادة إيتاكا، عند الميناء. ظل صامتًا طوال الطريق. تصورت أنهما قد نفسا عن غضبهما مقدمًا. لم يشرع في الحديث إلا عندما جلسا إلى إحدى الطاولات بالنادي البحري.

---

1. بلدة صغيرة جنوبي غربي فرنسا عند سفوح جبال البرانس (م)

- أعتقد أن هذا هو أقل مكان مناسب خطر على بالي. ليس الذي كنت أنتوي اصطحابك إليه. سوف أهرب بجلدي، معكِ حق -أخبرها وكأنه عندما ظل صامتًا طوال الطريق كان يفكر في حالة الاستسلام تلك- سوف تعتقدين أنني جبان، لكن بالعكس الأمر يبدو لي أسوأ من ذلك: أن أغض الطرف مقابل قدر كبير من المال شهريًا. هذا هو البديل. لن أتحدث عن زملائي، لن أشي بأحد. فليفعل كل إنسان ما يحلو له!

- لا، هذا ليس حلًا. الحل هو فضح الأمر، وليس للحكومة فحسب. يجب إيقاف تداول هذا السم بأي طريقة. (كان الشرر يتطاير من عيني ليليانا)

- كأس جين-فيز، من فضلك. (قال أولرابوس لكي يوقفها حينما رأى النادل على مسافة أقل من متر.

- والآنسة؟

- يجب أن تحتسي شيئًا (نصحها).

- لا أحب المشروبات الحمضية أو المُرة، اكتفيت في الحياة من ذلك، أفضل مشروب كولا مرطب (قالت رافضة إخفاء استيائها. وتابعت حينما ابتعد النادل بالنبرة نفسها): لا يسعني التشكيك في ضميرك... أعلم أنك إنسان طيب، وأنك تورطت في كل هذا. وإذا أردت إثبات أنك لست مثل الآخرين، فهذا هو الوقت المناسب.

- لا أعلم إذا كان مازال لدي ضمير. لقد رأيت أمورًا كثيرة لدرجة أنني لم أعد أجزع كثيرًا.

- دون خيرونيمو، إنها ليست حالات في ملاجئ برشلونة فحسب، توجد حالات أخرى كثيرة، وأنت تعلم، كما تعلم أنه سيولد المزيد. يجب إيقاف هذا الأمر.

- ليليانا، الناس يتحدثون في الشارع دون أن تدري. تعملين سكرتيرة في معمل مستحضرات تجميل، لكنك لست صيدلانية.

- لن أخبرك بمزيد من التفاصيل، الأمر سيان. أنت تراني فتاة صغيرة في السن، لكني أعلم الكثير من الأمور.

- ماذا تقصدين؟ أخبريني، ما غرضك؟ لا ينقصكِ شيئًا.

- لا ينقصني شيء في الظاهر. لم أطلب منك أي شيء طوال هذه السنوات. الآن أتوسل إليك. تدين لي بذلك. لن أهددك بإخبار زوجتك بالقصة، يكفي ما تعاني منه المسكينة. وأنا لست كذلك. أعتقد أن هذا سبب اختيارك لي. لأن شخصيتي تناسبك، وتتوافق تمامًا مع أغراضك، وأنك لم تكن لتدخل في علاقة من هذا النوع مع امرأة متقلبة المزاج. انظر! حضرتك في وزارة التجارة، ولديك نفوذ كبير. أصدر قرارًا تطالب فيه بسحب العقار من الصيدليات، وهذا كل ما في الأمر. لا أعتقد أن المسألة بهذه الصعوبة. ولن يجري أي تحقيق فيما حدث. لأنه كما تقول، لطالما كان هناك عجزة وكسحاء، ولكن لن يكون هناك المزيد، على الأقل بسبب هذا، والأمر يتوقف عليك. وإلا فإن كل هذا، سوف يقضي عليك، شيئًا فشيئًا، سوف تدفع الثمن. هناك أمور لا يمكن أن يفلت الإنسان من عواقبها.

- قد يدهشك معرفة أن هذا الأمر قد بدأ بالفعل. ليليانا، كم أتمنى ألا تعرفي مطلقًا مدى قذارة عالم الأعمال، وإلى أي مدى اندلعت حروب بسببها. أنا لا أستطيع الكلام، وبالفعل إنها أول مرة يدور بيننا حديث من هذا النوع، ولكن لا يمكنك أن تتصوري كيف تبرم الاتفاقات وما هو المقابل؟ سوف تسقطين مغشيًا عليكِ. كل شيء يُباع ويُشترى. لا خلاص لأحد. تبررين حينما يحلو لكِ أمورًا ليس لها أي مبرر، فكري في الاقتصاد.!

- دون خيرونيمو، لا تكمل! يبدو، من معرفتي بك حتى الآن، أن من تريد إقناعه هو أنت نفسك. سترحل. دع آخرين يتحملون الباقي! لكن اختم مشوارك السياسي بعمل جليل! افعل ذلك من أجلهم ومن أجلك أيضًا! فأنت مدين لنفسك بهذا.

ظلت نظرات أولرابوس هائمة في اتجاه الشرفة. بدت أضواء الميناء كأنها ديكورات تزين خلفية المشهد.

– الأمر ليس بيدي. لا أعدكِ بشيء...

– لم تفعل ذلك مطلقًا (خاطبته ليليانا قبل أن ينهي جملته ثم وقفت).

– حسنًا، أتصور أن هذا هو وداعنا الأخير. أنا آسف. آسف على أمور كثيرة: آسف لأنني متزوج، آسف لأنني لم استطع أن أقدم لك شيئًا أكثر من هذا. وآسف لأن هذا الموضوع محا كل سعادتنا السابقة.

– هذا غير حقيقي، دون خيرونيمو. سأظل أتذكرك بحب، لكن بيدك أن تصبح رجلًا عظيمًا، جديرًا بالاحترام. لم يفت الآوان بعد. إنها مأساة تمس كثيرين وبوسع تدخلك وضع حد لها. سيمنح هذا العمل معنى لحياتك كلها. ساعدهم! هناك حرب تتأهب للانقضاض أيضًا على هولاء الأطفال الذين لم يولدوا بعد. هذا الدواء له تأثير القنابل نفسه: بتر الأذرع والسيقان. فكر في الأمر! ليس أمامك سبيل آخر، وإلا فسيدمرك هذا العبء الملقى على كاهلك، شيئًا فشيئًا، ولن يكون هناك سبيل لعلاجه. انج من الوحل! والآن بالفعل: وداعًا.

نظر أولرابوس إليها وهي تبتعد بعد تلك الكلمات التي لم ترحل معها. نظر إلى الطريقة التي اتكأت بها لبضع لحظات على الدرابزين لإصلاح مشبك فردة حذائها الجديد قبل نزول الدرج. نظر إلى ثوبها اللامع بلون السالمون، الثوب الذي كان يمكن أن يشتريه الحنين فحسب، لم يتبق منه سوى ظله، معلقًا لبضع لحظات في ركن من الشرفة المربعة المطلة على البحر.

طلب من النادل كأس جين-فيز أخرى.

44

نقل مخبر سري إلى قسم الطوارئ بمستشفى سان باو.

قرأ ماكسيمو هذا المانشيت بحانة على الطريق حيث اعتاد تناول الإفطار كلما كان مسافرًا. وهو المكان نفسه الذي عثر به على إعلان ج. ب. أحد المخبرين المتخصصين المعدودين في البحث الجنائي حاصل على أقدم ترخيص في كتالونيا.

وعلى غرار المرة السابقة، انتزع صفحة تلك الجريدة ووضعها في جيبه. وما إن استقر في سيارته عاود قراءتها بعناية.

لم تعرف بعد أسباب الحادث حتى الآن نظرًا لأنه نُقل فاقدًا للوعي بعد أن فقد الكثير من الدماء. لن تكشف الشرطة في الوقت الراهن أية تفاصيل بشأن هويته، لكن يرجى، في حالة تعرف أي شخص من جيرانه على المصاب وعلى محل إقامته أن يتصل بالسلطات أو يهرع إلى المستشفى. تشخيص الحالة خطيرة.

بدلًا من الإفادة بشأن ما جرى، كان الخبر الصحفي يتحرى عن محل إقامة أقاربه أو أي أشخاص آخرين مقربين منه قد يلحظون اختفاءه. ويوجه إليهم المعلومة الوحيدة التي كشف عنها، مهنته، وهي المعلومة نفسها التي قدمتها خدمة النجدة عبر الإذاعة.

كان مازال يتنفس أثناء وجوده هناك. لم تكن تلك الحركة التي لاحظها على بالادري مقيدًا إلى طاولة الفوتبول من تأثير الهواء. فكر في البداية أنها تعد

جريمة الامتناع عن إغاثة أي شخص في مثل ذلك الموقف، ولكنه استدرك بينه وبين نفسه، أنه من ناحية، لم يكن يعرف أنه مازال حيًا، وأنه لم يكن سوى انطباع لم يتمكن من التحقق منه، ومن ناحية أخرى، أنه حتى لو كان يستطيع لما فعل، لأنه ترك الأمر بين يدي من هم أفضل: يدي رجال الشرطة.

لم تخذل المحقق الخاص حاسة الشم ولو لمرة واحدة عندما أخبره بأنه يخشى على سلامته البدنية. لم يتمكن ماكسيمو من التأكد من حقيقة الصلات الدولية وعلاقة نوريا بذلك. نزل المنحدر سريعًا، وما إن دخل جادة بونانوفا حتى ضغط مزود السرعة وهو يفكر في مواجهة نوريا، وتضييق الخناق عليها، لكي تخبره بكل شيء عن الأمور التي تورطت فيها.

ظهر طفل فجأة من بين الأسوار المسيجة لأحد منازل شارعه. رآه ماكسيمو على مسافة قصيرة للغاية لا تعطيه الوقت الكافي لضغط المكابح، إلا أنه فعلها. ارتجت السيارة كما لو أنها ارتطمت بجدار. اصطدم هو بالزجاج الأمامي، وسقطت على المقعد حافظة المستندات التي استولى عليها من بالادري. استند الصغير بيديه على غطاء محرك السيارة. سبّته الخادمة المرافقة على مسافة بضع خطوات خلفه، وترجل ماكسيمو بدوره من السيارة الفورد الثندربيرد وهو يستشيط غضبًا في جادة بونانوفا واتجه إلى منزله مستعدًا لضرب زوجته لكي تتكلم.

صعد السلم في أربع قفزات وفتح الباب. كان البيت خاويًا. سبّ ولعن وهو يتفقد الحجرات. بعد ذلك وبالسرعة نفسها صعد إلى العلية، ولكن لم يجبه أحد أيضًا. نزل مرة أخرى إلى الشارع، وفتح باب سيارته بمنتهى العنف. قاد السيارة حتى الحديقة التي اعتادت نوريا اصطحاب الأطفال إليها، إلا أنه لم يرهم. قطع عدة دورات بسرعة متزايدة عبر الحي حتى سمع جرس كنيسة بونانوفا. كانت الساعة الثانية بعد الظهر ولم يكن أمامه سبيل آخر سوى التوجه إلى مدريد. فكر أنه ليس من الملائم له على الإطلاق الآن

تعريض ترقيته للخطر بسبب عدم الوفاء بالتزاماته المهنية.

في تلك الأثناء، في معهد مستحضرات التجميل، كانت نوريا تضحك من دغدغة ليليانا لها أثناء تدوين قياسات ثوبها. احتضن بورو، مارك بين ذراعيه وهو يحلم مثلما كان يفعل طوال سنوات المدرسة الداخلية، بأنه أصبح لديه أسرة أخيرًا وأنهم تلك الأسرة.

***

نسي ماكسيمو، عقب عدة مقابلات تجارية في مدريد، المخبر السري بالادري، وانتابته الرغبة في الاحتفال بوقوع اختيارهم عليه من أجل الاجتماع المقبل. زاد شعوره بالتفاخر أكثر من أي وقت مضى. يعرف إلى أين يلجأ، إلى صالة ساراتوجا، في قبو مسرح كالديرون، المكان الذي يلتقي فيه بطاقم مضيفات بعض رحلات الطيران القادمة من الولايات المتحدة. تبدو المضيفات أكثر جاذبية من النجمات الفاتنات اللاتي يمثلن هناك. ولكن قال لنفسه: إنه على الأقل عشية يوم كهذا يجب عليه توخي الحذر، لأن هناك أمورًا كثيرة على المحك؛ ولهذا يحتاج لأن يكون ذهنه صافيًا أكثر من أي وقت.

شعر بسعادة غامرة عندما فتح باب تلك الشقة في تشامبري لأن الوقت كان قد تأخر كثيرًا، ولف المنزل صمت مطبق. لم تكن لديه الرغبة في الدخول في أحاديث. كان المجيء متأخرًا والخروج مبكرًا في تلك الظروف أكثر ما يضمن له أكبر قدر من الراحة.

***

في اليوم التالي، اصطحبه أحد السعاة إلى الردهة، في المبنى الذي يضم قطاعي الصناعة والتجارة، حيث تعين عليه الانتظار قبل دخول الديوان. كان التواجد هناك، بالنسبة لماكسيمو بمنزلة نوع من التقدير. زاد هذا اللقاء من مكانته. أعد نفسه جيدًا للاجتماع، على الرغم من قناعته بأن اتخاذ قرار في

المسألة سيكون أكثر تعقيدًا.

سأل رؤساءه بشأن المسؤول عن تلك الحقيبة الوزارية، فلم يعرف إلا أن الوزير كان مهندسًا في القوات البحرية. أخبروه أنه لا يتمتع بالحيوية والدأب مثلما يطالبه القائمون على الحكومة في قصر الباردو[1]. كان أيضا مدريديًا مثل وزير التجارة، وكان الإيمان الكاثوليكي الذي لا تشوبه شائبة القاسم المشترك بين كليهما.

اعتاد ماكسيمو جمع المعلومات الممكنة عن مضيفيه، سواء كانوا عملاء، رفاق عمل، موردين وكل من تقاطعوا مع مسار حياته. كانت واحدة من الإستراتيجيات الأكثر تكرارًا في دورات التأهيل التي تلقاها في إيطاليا ولاحقًا في ألمانيا وطبقها بحذافيرها. ولهذا لم يتحمل أن يعطيه جيوفري بالادري دروسًا.

وصل إلى الردهة بالوزارة الساعي ذو الزي الرسمي مصطحبًا رجلًا آخر جلس أمامه مباشرة. لو يقل له سوى «مرحبًا» بأسلوب في منتهى السخافة، لدرجة أنه تمنى لو أنه لم يحدثه. بدا وكأنه يبصق عليه. ألقى عليه التحية بشكل غير رسمي على الإطلاق، ولا يتماشى مع المقر الرسمي، كما لاحظ من طريقته في النطق، أنه أجنبي. لم ترق هيئته لماكسيمو: كان فارع الطول، ذا فك عريض، ونظرات ثاقبة، حليق الرأس. يرتدي سترة جلدية وبنطالًا به ثنيات لونه بيج ولم يرفع عينيه عنه.

ولكن لم تجعله تلك الصرامة التي حاول الآخر ترهيبه بها، يفقد ذرة من ثباته. فتح ماكسيمو قفل حقيبته الجلدية البنية اللون بإصبعيه السبابة والإبهام وشرع في مراجعة أحد المستندات. كان بيانًا تفصيليًا بوحدات العقار الدوائي

---

1. مقر إقامة فرانكو بمدريد أثناء الحكم الفاشي الدكتاتوري (1939 - 1975). تحول بعد ذلك إلى القصر الصيفي لأسرة البوربون التي ينتمي إليها الملك خوان كارلوس ونجله العاهل الإسباني الحالي فيليب السادس (م)

موضوع ذلك الاجتماع التي وزعت على كل صيدلية في إسبانيا. كان لدى ماكسيمو بيان شبه مؤكد، ولتقليل هامش الخطأ إلى الحد الأدنى، ظل يتصل بجميع الصيدليات أمس حتى التاسعة ليلًا. كلف جمع كل هذه البيانات شركته ثروة، ولكنهم أنفقوا بسخاء لأن الأمر كان بتكليف من الوزارة. كان ثفرا ينتظر أيضًا حضور ممثل عن معمل أورلانتا. فكر أنه من المحتمل جدًا أن يكون الأجنبي الذي أمامه. كانت مجالس إدارات الشركتين مختلطة، لدرجة أنه من شدة التداخل كان من الصعب معرفة أين تنتهي شركة وتبدأ الأخرى، مثلما كان الحال مع كثير من الشركات. تنتمي إلى نفس المجموعة، الكونسورتيوم نفسه، ومن ثم، يؤدي ذلك إلى توحيد الكثير من الإجراءات.

دق جرس هاتف، وسرعان ما ظهر الساعي نفسه. واصطحب كليهما هذه المرة.

- تفضلا، إنهم بانتظاركما!

خمن ماكسيمو حينما رأى الوزيرين بالداخل، ومعهما شخص تصور أنه مسؤول كبير آخر في الحكومة، أنهم عقدوا في الأول اجتماعًا فيما بينهم، الأكثر أهمية بدون شك، وأنه والشخص الذي له هيئة المرتزقة سيحضران لقاء اتخذت فيه القرارات بشكل مسبق. وستقتصر مهمة كلٍّ منهما على القيام بدور ساعي البريد: نقل القرارات النهائية إلى رؤسائهما. ومع ذلك، عاوده الشعور بالرضا لمشاركته في أمر على هذا القدر من الأهمية.

أدرك مندوب المبيعات بوضوح، نظرًا لحيثية المجتمعين في القاعة وبسبب الانتظار، استحالة احتمالية إبدائه لأي رأي بخصوص تعديل أية اتفاقية تتعلق بشركته. جلس المضيفون الثلاثة إلى طاولة مصقولة بعناية. وتولى وزير الصناعة التقديم: نظيره للتجارة، ووكيل تلك الوزارة عن إقليم كتالونيا، دون خيرونيمو أولرابوس.

- كلاكما من المدينة نفسها، يا سيد ثفرا. في المقابل السيد هارالد سيلفينر

انتقل من ألمانيا إلى هنا. تعلم أن الحكومة ستتحمل جميع نفقاته في العاصمة (قال متوجهًا بالحديث إليه).

هكذا تأكد ماكسيمو من أنه موفد شركة المستحضرات الدوائية. نظر الألماني إلى الثلاثة الآخرين وكأنه لا يعنيه ما يقولون. قال وزير التجارة:

- السيد سيلفينر والسيد ثفرا، حضراتكما هنا بوصفكما ممثلين للشركتين المصنعتين للمنتج الذي يشغلنا. إنه التيلامون، ويستخلص من المواد التي تستخرجها شركة المناجم العامة العناصر التي تمزج بعد ذلك بالسواغ المرافق للمادة الفعالة، وتمتلك معامل أورلانتا براءة اختراعه. توجد حوادث تدفعنا لسحب هذا العقار من السوق. لن يسوق في إسبانيا بعد الآن. وهذا يعني إلغاء شراء المعادن المخصصة لذلك الغرض، وتعليق إنتاج واستيراد هذا الدواء اعتبارًا من الموافقة على هذا القرار الذي وقعت عليه توًا. هذا كل ما لدينا لنخبركما به.

اعتدل هارالد سيلفينر بهدوء لكي يخرج من جيب سترته الجلدية تيليغراف وضعه على طاولة وزير الصناعة. اقترب الاثنان الآخران لقراءته.

في مايو من العام الجاري، أخطر الفرع الإسباني من معامل أورلانتا الإدارة المركزية في ألمانيا أنه لا يعتزم إحاطة الأطباء الإسبان علمًا بشأن الأعراض الجانبية للعقار الذي يسوق تحت مسمى «تيلامون».

- أيها السادة، كُلِّفت بإخباركم بأنه يتعين عليكم احترام الأجل المقرر منذ ذلك الحين. لقد مُدّدت الاتفاقية لمدة السنوات الخمس المقبلة بناء على قرار من الطرفين، ودفعت المساهمة الألمانية مقدمًا لحكومة هذا البلد (قال سيلفينر بأسلوب خطابي لا تشوبه شائبة). بمعنى أنه لا يوجد ما نتحدث بشأنه لحين انقضاء الأجل. (شرع الألماني في النهوض).

- انتظر! (أمره وزير الصناعة حينما تمكن من التغلب على الارتباك

الذي تسبب فيما اعتبره أكبر دليل على سوء التربية شهده على الإطلاق). سأخبرك متى يمكنك اعتبار هذا الاجتماع منتهيًا. ولن تخرج من هنا قبل الاستماع لأمر ما. تفضل سيد أولرابوس!

- لا يمكننا السماح بأجل خمس سنوات لأن الكثير من الأطفال ماتوا في بلادنا بسبب أن أمهاتهم تناولوا هذا الدواء، والذين بقوا على قيد الحياة يعيشون ظروفًا مأسوية (قال دون خيرونيمو).

تفحصت نظرات هارالد في مجلدات المكتبة، وكأنه كان بمفرده في ذلك المكتب.

- نحن لا نعرف شيئًا عن ذلك (تدخل ماكسيمو ثفرا مذعورًا).

- ونحن نقر بذلك، ولكن من تحليل السيليكات والمغنسيوم والتيتانيوم المصاحبة لهذه المادة، تتبعنا وأعدنا بناء مسار كلّ من الإمداد والتوزيع (أوضح وزير الصناعة). لهذا كلفناكم بتتبع جميع الوحدات المتبقية في صيدلياتنا على الرغم من أنه ليس من اختصاص شركة المناجم العامة.

- وقمنا بذلك بالفعل، سيدي الوزير. (تراءى لماكسيمو أنه من الأجدر استخدام صيغة الجمع بدلًا من الاستحواذ على الفضل كله. قدم له ملفًا يحوي البيان التفصيلي كاملًا). تفضل!

- حسنًا، حسنًا جدًا. غدًا صباحًا سوف تنطلق من هنا أربع مركبات. قسمنا البلاد إلى أربعة مناطق. (حددها على الخريطة المعلقة على الحائط على اليسار). أنا واثق من أننا سنجمع بأسرع ما يمكن كل عبوات هذا الدواء اللعين لتدميرها.

- سيدي الوزير، عندما وقعتم العقد مع شركتي لم تصنفوه على هذا النحو، كما لم تحتقروا النسبة التي حصلتم عليها مقابل الانحياز إلى منتجنا. (قال هارالد).

- تعرف جيدًا، سيد سيلفينر أن هذا يرجع حصريًا إلى أن هذه العملية تندرج ضمن العمليات الأخرى التي أنجزت في إطار الصداقة الوطيدة بين بلدينا.

- كما تشاء. على أية حال، مزق هذا الأمر! لن يكون له أي تأثير على الإطلاق (ألح هارالد سيلفينر).

- لا نريد المزيد من التيلامون، لا أدري كيف تريدني أن أقولها لك (حينئذٍ تدخل وزير التجارة). أحضر لنا السيد أولرابوس بيانات تقشعر منها الأبدان.

- ألقِ نظرة على هذا! (وضع هارالد ظرفين بحجمين مختلفين على الطاولة).

نظر وزير التجارة إلى مرؤوسه لكي يتولى فتحهما. سأل أولرابوس:

- ما هذا؟ هل تحاول رشوتنا؟

- لقد قبضتم الكثير، مثلما تثبت هذه الصور، هذه المذكرات وهذه الإيصالات التي وقعها من يريدون سحب العقار من السوق بأنفسهم. الطمع قل ما جمع. كان يتعين عليكم التفكير في الأمر من قبل. أما الآن فمستحيل. يجب عليكم الانتظار.

- انتظار ماذا؟ إلى أن يموت المزيد من أطفالنا؟ ألا يكفي ما عانوه من الحرب؟ انتظر! أنا أيضا أريد أن أريك شيئًا. قرب منه دون خيرونيمو أولرابوس عدة أوراق بالإنجليزية.

كان تقريرًا عن أنشطة أورلانتا المرتبطة برخصة تسويق ذلك العقار وكيفيه حصولهم عليها. شحب وجه هارالد، لأن ذلك بالتحديد هو السر الذي كان رؤساؤه يحاولون إخفاءه بأي ثمن.

- ما رأيك؟ هل تعرف شيئًا عن هذا؟ نمى إلى علمي أنكم أرسلتموه

إلى الولايات المتحدة أيضًا، لكن لم يجزْ بعد. كم مليون جرعة لديكم؟ وفي بلادك كم كبسولة كنتم مضطرين لابتلاعها؟ أنا سأقول لك: ولا واحدة لأنكم أعدتم توزيعها على الفور. اجتمعنا في مقر الشركة هنا وفي برشلونة، وفي كلتا المرتين، بمحض الصدفة يتوقف الإنتاج قبل شهر من ذلك، وأنت تعرف السبب، لأنه جاءتكم بالفعل قوائم لإعادة التوزيع.

- يتناولونه في بلادي، ولا يتسبب في أية مشاكل (أجاب هارالد).

- كذب! صاح دون خيرونيمو. قد لا يسبب مشاكل لكم، لكن هناك العشرات من الأطفال المتضررين. وأنتم تعلمون بالفعل بالرغم من ادعائك عكس ذلك. بالمناسبة هل تعرف الدكتور فاريك كيسلر؟ أجرينا محادثة هاتفية الأسبوع الماضي. اتصلت به ما إن حصلت على رقمه، واضطررت للرضوخ أمام الدليل. يمتلك هو وزميله سنغر كافة البراهين، ونحن أيضًا نملكها الآن بفضلهما. علاوة على دليل آخر.

- لكنك كنت تعلم، علاوة على أن ما تدعي أنها أدلة هي مجرد نسخ (هاجمه هارالد).

- نعم كنت أعرف، أتدري ماذا كنت أعرف أيضًا منذ ذلك الحين؟ (تابع أولرابوس)، أنني لا أستطيع النوم، تناول الطعام أو التفكير، ضميري المعذب يشغلني عن كل شيء، حتى عندما يتعلق الأمر بنوع من الشك، إشاعة، عدة حالات قليلة للغاية، وبالرغم من ذلك كنت أعرف أيضًا أن تأنيب الضمير يكاد يدمرني، سأترك الوزارة، وأرحل إلى... مكان أكثر هدوءًا، أكثر نقاءً، أفضل، وفوق كل ذلك، أكثر روحانية.

- وأنتما أيضًا كنتما تعرفان. (خاطب هارالد مسؤولي الحكومة الآخرين). ومع ذلك جنيتم ثروة من وراء السماح بتسويقه. لا أدري ماذا تعتزمان أن تفعلا بادعائكما الدهشة الآن؟

لم يفتح ماكسيمو فمه. تصور أنه كلما لم ينتبه إليه أحد وسط كل ذلك الوابل من تبادل إطلاق النار، كان ذلك أفضل.

- لن نناقش الأمر، سيلفينر (أقر الوزير). تعرف أنه من المعتاد حصولنا على عمولات عن بعض الصفقات، وهذا منصف، يجب أن يكون هناك مقابل لخدماتنا، سهرنا، تعرضنا للمخاطر، ساعات عملنا الإضافية. لا شيء مجاني وحضراتكم استفدتم كثيرًا من وراء هذه الصفقة. دعني أضرب لك مثلًا. هل تعرف أن هذا العقار يباع بضعف الثمن الذي حددناه؟ تعلل رؤساؤك بأن الحمل وضع استثنائي، وأن اقتصار تناوله على الشهور الثلاثة الأولى فحسب، يحد كثيرًا من استخدامه إلخ إلخ، هل تريدني أن أتابع؟

- أقول لك نيابة عن الثلاثة (تدخل أولرابوس مجددًا) لكي توصل ذلك إلى من يهمه الأمر: إنه من المحتمل أن بعض المسؤولين قد تقاضوا مكافآت من مختبراتكم ليصرحوا لكم بتسويقه، لكن لم يكن يعلم أحد شيئًا عن تلك المخلوقات البائسة المشوهة. نحن لسنا وحوشًا بلا رحمة مثل...

- مثلنا؟ قلها! تحلَّ بالشجاعة!

انتابت وزير الصناعة الرغبة في طرد هارالد من مكتبه لأن هذه كانت سابقة على أكبر بادرة عدم احترام من بين أمارات كثيرة تكررت أثناء حضوره.

- سيد سيلفينر، حضرتك...

- سيدي الوزير (قاطعه أولرابوس)، أرجوك دعني أضيف شيئًا آخر.

- تفضل! ولكن ليكن الأخير! تنتابني الرغبة في طرد هذا الشخص وألا يقع نظري عليه للأبد.

- نحن هنا للتحدث بشفافية (تابع دون خيرونيمو). نشهد حاليًا حركة بناء أكبر من أي وقت مضى، وتكتسب مدينتي على سبيل المثال عدة أمتار

إضافية يوميًا، طولًا وعرضًا. تشيد الدولة أحياءً بالكامل، ويوجد العديد من الوسطاء، وأموال كثيرة تتسرب في الوسط. لكن هذا مختلف، هذه جريمة. أخبر رؤساءك في أورلانتا أنهم لكي يستمروا فيها ألا يعتمدوا علينا؛ فلسنا قتلة، ولكن بالإضافة إلى ذلك أود أن تأخذ إليهم هذه القصاصة الأخرى، لكي يضعوها في إطار. (وضع أولرابوس مستندًا آخر فوق الطاولة وكأنه لعبة ورق،). فلنر رأيك في هذا!

حملت الصفحة الأولى من أحد الملفات، أسفل العديد من الأختام وديباجة مطولة للغاية، تنويهًا يقول: «*على الرغم من صدور براءة اختراعه عام 1954 هذا العقار تم التوصل إلى تركيبته عام 1944*».

أدناه، في تصنيف مسلسل يضم نصف دوزينة من المعايير يسبقها خط، كان يوجد فهرس بمحتويات ذلك الملف.

- ردود الأفعال الأولى
- جداول التطور
- أعراض
- الأعراض الجانبية والتطبيقات
- تاريخ عقار طبي جديد

- ما رأيك، سيلفينر؟ هل ترغب في المزيد؟ تفضل! خذ! انظر الصور الرسومات البيانية، كل شيء مسجل! هذه هي الاختبارات السريرية التي تقولون إنكم لم تعثروا عليها، ضاعت وسط الأوراق، ولكن تحمل تاريخ عشر سنوات سابقة. هل تتذكر؟ خذها! هذه النسخة لكم، مجاملة من الدكتور كيسلر، لكي تتسلى في الطائرة. كيف يسير الأمر في لندن؟ هل تعرف شيئًا عما يدور هناك؟ أنرسل لهم نسخة أخرى أم ستتكفلون أنتم بذلك؟

استشاط هارالد غيظًا. زاد التوتر من بروز فكه. وبدون أن يودع

أحدًا أعطاهم ظهره، وجذب مقبض الباب وكأنه يريد انتزاعه، وأغلق الباب بعنف. فسر الآخرون ذلك على أنه انتصار. خاطب وزير التجارة ماكسيمو قائلًا:

- سيد ثفرا، تفهم الموقف، سنعوضكم عن الخسائر. لا يساورنّك أدنى شك! أعول أيضًا على تكتمك بشأن ما دار حوله الحديث هنا.

أومأ ماكسيمو بالإيجاب بدون أن يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة.

- أخبرهم في برين[1] بأنني سوف أزورهم قريبًا. عندما تصل إلى هناك ويسألونك كيف سارت الأمور في مدريد؟ أخبرهم عن زيارتي! سأفعل كل ما بوسعي لكي نظهر في الجريدة السينمائية الـ(NO-DO)[2]. والآن أستميحك عذرًا...

- شكرًا، هذا ما سأفعله، لا تحمل همًا. تعلم أن شركتنا (المناجم العامة) تعمل خصيصًا لأجل ذلك، على الأقل، لكيلا يمثل ما يعتمد علينا أي قلق أو إزعاج على الإطلاق بالنسبة لكم.

- إلى اللقاء، ثفرا (خاطبه الوزير باسطًا يده).

بمجرد مغادرة ماكسيمو المكتب، هنأ كلٌّ من وزير التجارة ووزير الصناعة أولرابوس بحرارة شديدة.

- رائع، أحسنت، خيرونيمو. اسمح لي أن صارحك، وأعلم أنك لن تتضايق، لم أكن أتوقع. كنت عظيمًا. لم ترتعش يدك في أية لحظة على الرغم من استفزازات هذا الشخص. ياله من مدعي! لحسن الحظ أعتقد أنه يمكننا اعتبار هذا الموضوع المزعج منتهيًا.

---

1. بلدة تقع شمال غرب إسبانيا بمقاطعة أورينسي، إقليم جاليثيا يوجد بها المقر الرئيسي لشركة المناجم العامة (م)

2. جريدة وثائقية مصورة كانت تبث قبل عرض الأفلام في دور السينما الإسبانية لإبراز إنجازات نظام فرانكو. بدأ بثها عام 1943 واستمرت حتى عام 1981 (م)

نظر أولرابوس إليهما، وأعرب لهما عن امتنانه لاستعانتهما به، وللاستماع إليه ولعدم تخاذلهما أيضًا. اتجه على الفور إلى المحطة لكي يأخذ القطار إلى برشلونة.

تمنى أثناء الطريق من جادة لا كاستيبانا حتى محطة أتوتشا أن يلمح في كل منعطف عبر نافذة باب سيارة الأجرة ظِلّ الثوب ذي لون السالمون البراق الذي أهداه إلى ليليانا.

45

تلقى ماكسيمو ثفرا الكثير من التهنئات من زملائه الذين كان لديهم اجتماع في بيرين. سألوه عن أدق تفاصيل الاجتماع الوزاري، وحكى في حدود المعقول وفق ما تقتضي الحكمة منه أن يفعل.

على العكس من ذلك، أحاط علم رؤسائه بأدق تفاصيل اللقاء، واعترف بأن دوره كان بمثابة حلقة الوصل، نظرًا لأنهم يشكلون جزءًا من سلسلة تصنيع الدواء ولأن القرار اتخذ بالفعل قبل وصوله.

اتفق الجميع على أن وزن المواد الخام التي يمدون بها صناعة الدواء أقل بكثير من التي يستخدمونها وفقًا لحسابات الميزان التجاري الخاص بهم، قياسًا، على سبيل المثال، على سبك المعادن المخصصة لبناء السفن أو في الكابلات والموصلات الكهربائية. وتعد خسارة حصة من هذه الأخيرة بمنزلة كارثة. ولهذا من مصلحتهم الحفاظ على علاقاتهم الجيدة بوزارة التجارة. حصلوا مقابل إمدادهم بالبيانات الحصرية على تأكيد زيارة الوزير لمواقع استخراج المعادن الخاصة بهم، ومن ثم الدعم الحكومي لشركة المناجم العامة، وهذا يعني لهم، مستقبلًا مضمونًا.

سيخرج ماكسيمو في اليوم التالي ليتفقد لأول مرة مواقع استخراج المعادن المملوكة لشركته في القطاع الشمالي: من أستورياس إلى أراجون، وهكذا لن يصل إلى برشلونة حتى مساء الأربعاء المقبل. سيرافقه طوال كل هذه الجولة مشهد بالادري فوق طاولة الفوتبول بدماها المحترقة.

***

اكتست الأشياء ضوءًا برتقاليًا بدا رقراقًا من شدة تألق الغروب.

نوريا، أرى أنك على خير ما يرام (خاطبها بورو بمجرد أن رأى محياها في تراس مقهى سافوي). أفضل حتى من الليلة الفائتة في الحانة. هل صحيح أن كل شيء قد انقضى؟

- فيما يتعلق بصحتي، نعم. (أجابته نوريا وقد خفضت بصرها).

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنني لا يجب أن أكون هنا. ينتابني شعور بالذنب، لأنني تركت أبنائي لكي أكون مع...

اقترب بورو منها بهدوء ومس وجنتيها بشفتيه هامسًا:

- إنها ظهيرة واحدة تقريبًا في الأسبوع، وما هي إلا مجرد ساعة لا تقضينها معهما. تحتاجين أيضًا للراحة وتصفية ذهنك.

- لكن الأمر لا يقتصر على ذلك، تعلم أن هناك أمورًا أخرى... تقيم عائلتي، كما سبق أن أخبرتك، في أمبوردا السفلى، وأشعر بوحدة كبيرة في برشلونة. وتعرضت مؤخرًا للكثير من الأحداث. علاقتي بالسيد والسيدة فرومنت، رؤية الأسلوب الذي أعمل به، أسلوب دونيا ليونور، التي تعرف ما تريد ولا يكبح جماحها شيء، وكيف تأقلمت ليليانا، أفكر أحيانًا أنه يمكنني العمل مثلها، لأنني في النهاية درست مثلها. تتنازع بداخلي مشاعر كثيرة متضاربة. ينتابني شعور أحيانًا بأنني في عالم آخر لا أدري كيف أتصرف فيه.

- كلنا لدينا مخاوف. إنه أمر عادي. (قال بورو).

- نعم... ولكن بالإضافة إلى كل هذا، تعرفت عليك. (رفعت نوريا بصرها عن الأرض).

- تصورت أن الأمر يروقكِ على هذا النحو. كررتِ لي ذلك حينما تناولنا العشاء معًا الليلة الفائتة.

داعب بورو يدها فاستجابت. قرب شفتيه من شفتيها وتبادلا التقبيل. ابتعدت نوريا قليلًا ونظرت إليه. تحلت بضبط النفس على الرغم من أنه انتابتها فحسب الرغبة في تقبيله، في أن تلوذ به لأنها شعرت بأنها في مهب الريح وسط العاصفة.

- بورو، توقف! من فضلك... افهمني! لقد تزوجت من ماكسيمو عن حب كبير. بهرني! سحرني بأسلوبه، ثيابه، لباقته في التعامل مع الناس! على الرغم من السنوات القليلة التي قضيناها معًا. على عكسي تمامًا في اعتمادي الكامل على والديّ، كانت لديه حياته الخاصة، ويكسب الكثير من المال، إيطالي، بارع، مرح، لديه خطة دومًا، إجابة حاضرة، ومفعم بالطاقة... وربما بدا لك ذلك أمرًا سطحيًا، لقد أسرني بتكوينه الجسماني. الشعر اللامع الفاحم السواد، طريقة نظراته، يتمتع دائمًا بتلك الأناقة وكأنه مولود هكذا: مع دبوس ربطة العنق وأزرار القميص في أمكانها.

تذكر بورو اليوم الذي رآه في مدخل منزله وإدراكه بكل وضوح من أين خرج.

- تتحدثين وكأنك تشعرين بالندم.

- لا أدري، أنا مشوشة. على الرغم من اعتقادي أنه يجب ألا أخبرك أنت على وجه الخصوص بهذه الأمور. بالإضافة إلى أنه بعد ما عرفته، حياتك أفضل مع أجاتا كيبلر.

انفجر بورو في الضحك. اندهش من حفظ نوريا للاسم.

- لماذا تضحك؟ أليس هذا اسمها؟ (قالت في منتهى الارتباك).

- نعم، هذا اسمها بالضبط. إذا شئت يمكنني تقديمك إليها الآن.

- لا! (قالت بمنتهى الضيق). معذرة (أضافت على الفور)، لم أقصد أن أكون فظة. الحقيقة أنني لا أستطيع الآن التفكير في أي شيء. لا أفعل شيئًا

سوى التفكير في رسالة مجهولة تلقيتها.

-أية رسالة مجهولة؟ (سألها بورو بانزعاج شديد).

-ظرف ضخم للغاية سلموه لي عندما ذهبت، ظهيرة اليوم نفسه لإغلاق صندوق البريد الخاص بي، قبل وداعي للسيد والسيدة فرومنت.

- ولماذا لم تخبريني بشيء؟

- لأنني عندما فتحته في منزلي لم أعره أهمية، تصورت أن الأمر به خطأ ما. وكنت سأعيده إلى مكتب البريد، مقتنعة بأنه لم يكن مرسلًا لي. لكن...

- لكن؟

- حسنًا، هذا الصباح، تأكدت، بعد أن عاودت النظر في كل المستندات، أنه مرسل لي بالفعل.

- وماذا كُتب عليه؟

- اسم ماكسيمو مع إيصال بعلم الوصول من مونتي دي لا بيداد بجوار اسم سيدة: مارا سولانو. إنه إيصال صك رهنية مجوهرات: عقد وأقراط. وهناك أيضًا بطاقة تعريف عليها عنوان، ولكن بدون اسم، وقصاصة ورق مكتوب عليها: «اطلب شهادة من دائرة المحكمة هذه في مدريد باسم ماكسيمو ثفرا، ذلك الخسيس».

- هل تعتقدين أن لديه عشيقة؟

- أو لأنه حصل على ترقية، دبر له أحد الحاقدين هذه المكيدة. لا أدري. توجد داخل الظرف عدة صور لأشخاص لا أعرفهم. بالإضافة إلى ملحوظة أخرى مكتوبة بخط اليد على ورق مصفر مسطر: «إليك هدية مجاملة من صديق لي من مدريد يدين لي بعدة خدمات. ستهمك بالتأكيد».

على عكس ما توقعت، ظل بورو صامتًا ولم يحاول إقناعها بشيء.

- لا أدري ماذا أصدق؟ يمر من هنا كثيرًا. نظرًا لأن لديه اجتماعات في

الوزارة هذه الأيام. ويبيت أحيانًا في مدريد لكي يأخذ الطريق الرئيسي إلى بيرين. لكنني لا أدري. ينتابني شعور بالغ السوء منذ عثوري على كل هذا. وكأنه أمر قطعي.

– من يعلم بأمر صندوق البريد، غير ليليانا؟

– أنت فحسب... (تشككت نوريا لأنه لم يخطر على بالها أن يكون بورو هو المرسل). لا أحد آخر. خبأت المفتاح في مكان غير تقليدي.

– وفيما تفكرين الآن؟

– حسنًا، لقد أعدت التفكير في الأمر لمرات، ولدي عدة أيام لأتحرى عن الأمر لأن ماكسيمو سيتأخر في العودة. أريد الذهاب إلى هذا العنوان، معرفة ماذا يوجد هناك، ماذا يعرفون عن زوجي؟... وأريد منك مرافقتي.

نظر إليها بورو مندهشًا. أضافت نوريا بسرعة:

– سنذهب مع ميربيا ومارك.

– لا أدري...، انتقالنا بشكل مكشوف إلى مدريد ولهذا... توجد وسائل أخرى.

– من الذي يرغب في الإقامة أو العمل هناك دون أن يكون لديه هاتف. فذهبت إلى الشركة هذا الصباح. ويالها من قصة اضطررت لاختراعها لهم: أن أمي تقيم هناك، وأننا سوف نبيع المنزل وأنني مضطرة لرفع الخط، ولا أتذكر الرقم. أتدري ماذا فعلوا؟

أومأ بورو بالنفي

– أرسلوا شخصًا من أقرب فرع لشركة تليفونيكا[1] للاستعلام عن

1. أقدم شركة اتصالات في إسبانيا، تأسست عام 1924 واستولى عليها نظام فرانكو عام 1945 وبحسب فوربس اعتبرت عام 2017 من أكبر شركات الاتصالات السلكية واللاسلكية وخدمات المحمول والانترنت في العالم وتقدم خدماتها إلى الآن في 20 دولة أوروبية ولاتينية (م)

قصد.

- هذا يعني أنكِ كنتِ مقنعة بالفعل. (ابتسم بورو). لكن الذهاب إلى هناك يبدو لي مبالغًا فيه.

- لا يهمني، أريد الذهاب. و... أريد الذهاب معك، بورو. سيكون أفضل إذا كنت إلى جوارك. لاأدرى ما سألاقي. رجاءً، أحتاج لمجيئك. قم بذلك من أجلي، من أجلنا! وعدت أن تحميني وسط كل هذا، ولا يساورني أدنى شك في وجود رابط، وأن له علاقة بالأمر.

- سأذهب.

عانقته نوريا تعبيرًا عن امتنانها له.

- لا يخطر على بالي شيئ أفعله أفضل من البقاء إلى جوارك. في أي مكان ومهما كانت الأسباب (همس لها).

شعرت بذبذبة صوته كدغدغة على وجنتها. مس بعد ذلك شفتيه بشفتيها. وكأنه أمر عابر.

- تبقى مشكلة واحدة فحسب (تابع بورو فيما يقاوم الرغبة في تقبيلها مجددًا). ميريا نبيهة للغاية وسوف تحكي لوالدها كل شيء: أنكم ذهبتم إلى مدريد مع الشخص نفسه الذي يعرفه بالفعل، وأننا نمنا بالغرفة نفسها، وتناولنا الطعام سويًا.

- لقد فكرت بالفعل في كل ذلك. سنذهب بالقطار، وسنتظاهر بأننا تقابلنا في ثاراجوثا. مثلما تقول: «قد يقينا الرب من كل شيء إلا الصدفة». ستفرح ميريا لرؤيتك. إنهما ليلتان فحسب وفي حجرتين متجاورتين (أوضحت).

- هل أنت متأكدة؟ (سألها بورو بنظرة لم تستطع نوريا مقاومتها أكثر من بضع ثوان). هل سيمضي الحال هكذا طوال الليل أم حتى يناما فحسب؟

- لن أتركهما بمفردهما لثانية واحدة أو على مسافة بضعة أمتار. حجزت الحجرتين بالفعل من هاتف دورا (لم تعرف إلى أين توجه نظراتها وقررت الاستقرار على شفتيه). بالإضافة إلى أنه ليس أمامنا سبيل آخر.

- كنت تعرفين بأنني سأرافقك. عرفت ذلك منذ الوهلة الأولى. لهذا قمت بكافة الترتيبات.

انتابها شعور بالرضا.

- وماذا ستقولين عن سبب السفر؟ ستقولين لهم؟ (عدل بورو سؤاله).

- لن أقول لأحد سوى دورا وأوروسولا. إنه بناء على تكليف من السيد والسيدة فرومنت وإنني لم أستطع رفضه. طلبا مني استقبال بعض الأشخاص القادمين من باريس نيابة عنهما. لن أخبر ماكسيمو بشيء. ليس هناك ما يدعو لمعرفته بسفرنا. سأقوم بتوعية ميربيا. سأجد طريقة. سأخبرها بأننا سنقابل والديّ. سوف اضطر بعد ذلك لاختراع سبب آخر لعدم رؤيتهما.

- لكن فاتتك جزئية في غاية الأهمية (قال بورو منبهرًا بتدبيرها).

نظرت إليه غير مستوعبة.

- هذا الاجتماع يبرر انتقالك إلى هناك، ولكن مع من سوف تتركين طفليك أثناء ذلك. يمكنهما البقاء معي، لكن حينئذٍ لن أستطيع مرافقتك إلى العنوان المدون على البطاقة.

- بورو، لا يمكن أن يفوتني أمر كهذا. عندما تحدثت مع ليليانا منذ فترة لمعرفة إذا كانت تدري من أين يمكن أن يكون قد جاء الظرف المجهول، ورأت إصراري الشديد، اتصلت بشقيقتها، وهي كما تعرف، مقيمة في مدريد. وسوف تقدم لي معروفًا بالبقاء مع الأطفال لبضع ساعات.

- لقد أحكمت بالفعل تدبير كل شيء. (ابتسم لها بورو مجددًا).

- أتمنى ذلك. حسنًا، كل شيء واضح، أليس كذلك؟ (أمسكت نوريا بمعصمه ولاحظت أنه في منتهى الخشونة).

- ومتى سنسافر؟

- يتعين عليك الوجود في محطة فرنسا يوم الأحد في السابعة صباحًا. وإذا تصادف أن تقابلنا قبل صعود القطار، فسوف أومئ لك بإشارة فحسب ولن نلتقي قبل ثاراجوثا.

- بعد غد؟ (سألها في غاية الاندهاش).

- بالفعل، يتعين على ماكسيمو الذهاب إلى عدة مناجم، وأعرف أنه لن يصل قبل الأربعاء. سوف نبيت في مدريد الأحد وسنعود الثلاثاء في الصباح الباكر.

- ولكنني لا أستطيع التغيب عن المعمل هكذا بدون إبداء أسباب. فكرت عندما حدثتني في طلب إجازة لبضعة أيام. تعلمين أن عمال القبو، والمصنع يعتمدون عليّ من أجل الرقابة على الجودة. يجب أن أرتب الأمور. (قال بورو متحسسًا شعره). هناك أيضًا السيد والسيدة فرومنت. أتصور أنه سيكون خطأ بالغًا بعد المعاملة الطيبة التي لطالما شملوني بها. وإذا حدث لنا مكروه...

- حسنًا، لا تقلق، إذا كنت لا تستطيع، فسأذهب وحدي. (قالت باستياء بالغ).

- لا، لا. إنني على استعداد لعمل أي شيء لمساعدتك. آمل فحسب ألا يكتشفوا أننا في مدريد معًا.

- حسنًا، ليليانا يمكنها مساعدتنا في ذلك. أنا متأكدة أنها لن ترفض، إذا طلبنا منها أن تغطينا. يمكنها إخبار الجميع، لا أدري... أنك مريض! الكل يمرضون من آن لآخر، أليس كذلك؟ أنت أيضًا يحق لك البقاء لعدة أيام في المنزل.

لم تستطع نوريا تحاشي الابتسام. انتابها شعور بالفخر لقدرتها على التأليف. يخفف عنها هذا الشعور الكثير من الأحزان، مثلما كان يحدث معها دائمًا منذ بدأت الكتابة.

- ألاحظ أنكِ أصبحت أكثر جرأة. وكأنكِ لا تخشين شيئًا على الرغم مما تقولينه لي.

- هذا ما أشعر به عندما تكون بجانبي. لا أريد أن أترك حضنك، حضنك يحميني.

قبلها بورو بحنان، لكنه ابتعد فجاة.

- أنا أيضا تلقيت شيئًا. انظري! (أظهر لها بورو بطاقة بريدية تحمل نصًا مقتضبًا وموقعًا بحرفين فقط: ل. م.

- بعد أن قرأت نوريا البطاقة، قلبتها. فكرت أن ذلك المساء في الصورة قد يكون من أي مكان في العالم.

- مِمن؟ هل هي من صديقك؟

- نعم إنها من لورنثو مونتاوريول. لا يتكلم كثيرًا كما ترين: لقد وصل وهو بخير. يريدني أن أعرف فحسب أنه...

- أنه على قيد الحياة.

- بالفعل.

لاذ الاثنان بالصمت. يزن كل منهما خطورة الموقف على كل منهما على حدة، وعليهما هما الاثنين معًا. ربت بورو على كف نوريا وقال لها لكي تغير ملامح وجهها المتجهم:

- لقد نسينا أمر أجاتا.

- هذا حقيقي، (قالت نوريا فزعة وهي تغطي فمها براحة يدها). انسَ الأمر! انسَ كل شيء!

- لماذا؟

- لأنني لا أعتقد أنه سيبدو لها أمرًا جيدًا (أجابت نوريا باضطراب شديد).

- وربما العكس. لماذا لا تسألينها بنفسك؟

نظرت نوريا إليه وكأنما أصابه مس من الجنون.

- ولِمَ لا؟ وبما أنني سأقوم بأشياء كثيرة من أجلِك، إذن فأنت أيضًا بوسعِك عمل شيء واحد على الأقل من أجلي. حسنًا، اثنين (قال باسطًا إصبعيه أمام عيني نوريا).

- أخبرني. (قالت بتحفظ).

- رافقيني إلى منزلنا قليلًا وهكذا تتعرفين عليها.

- بورو، لا أدري، أحضر إلى منزلك هكذا بشكل مفاجئ، وماذا سأقول لها؟ إننا سنذهب إلى مدريد سويًا؟ حسنًا نحن الأربعة. وهي أيضًا، إذا شاءت. يمكنها المجيء معنا... على الرغم من... أنني لن أشعر بالارتياح في مواجهة امرأة رجل قبلته. لعدة مرات.

- مجيئها احتمال وارد (قال بورو ممسكًا بيدها لكي تتبعه)، على الرغم من أنني أخشى أنها ستفضل البقاء للاستمتاع بالشمس في الشرفة. نعرف بعضنا بعضًا بما فيه الكفاية.

وصلا في أقل من عشر دقائق. شرع المهندس الكيميائي حينما أصبحا في المدخل، في صعود درجات السلم بتؤدة شديدة، وكأنه يتبع حركة كاميرا بطيئة.

- هل ذلك لأنها قد تكون نائمة؟

- لا، لكن لأنني، فقط لا أحب أن أحدث جلبة في مثل هذه الساعة (قال بورو بينما نظر بطرف عينه نحو الباب المشقوق على اليمين لكي يتأكد

من أن عيون دونيا ريتا لم ترصده. لم يكن ليرغب مقابل أي شيء في الكون رؤية إطلالتهن مبتسمات من باب مالكة منزله.

- حسنًا. (خلعت نوريا حذاءها ذا الكعب العالي وتبعته).

أخرج المفتاح، حينما أصبحا على بسطة السلم.

- ألن تطرق الباب؟ لا أحبذ الدخول بهذه الطريقة، بورو، بدون سابق إنذار. لن أحب على الإطلاق قيام ماكسيمو بشيء مماثل. وإذا لم تكن متهيئة؟ لا أدري، لأنها لم ترتدِ ثيابها، أو شعرها غير مصفف...

- لا شيء من هذا، إنها في غاية الأناقة وشعرها مرجّل بعناية طوال اليوم. أجاتا (نادى بورو بمجرد اجتيازهما المدخل).

رآها حينما أضاء النور، فوق الرسم الهندسي نفسه على السجادة حيث اعتادت انتظاره.

- هل تكون في الحمام؟ (سألته نوريا بعصبية).

- لا، انظري! إنها هنا (قال بورو وهو يأخذ قطته بين أحضانه). سيدة سومبورت، السيدة كيبلر. هكذا أكون قد عرفت إحداكما بالأخرى. أجاتا، هل تودين الذهاب معنا إلى مدريد الأحد المقبل؟ ألن تقولي شيئًا؟ لا يبدو أنك تحمست كثيرًا للأمر. حسنًا، سأترك لكِ طعاما وفيرًا، لكن لا تلتهميه كله مرة واحدة.

لم تتمالك نوريا نفسها من الضحك وملء شدقيها، بلا مداراة.

- بالطبع...! (دفعته نحو الأريكة الموضوعة أسفل النافذة، لكنه أمسكها من ذراعها وسقط الاثنان معًا).

ألصق بورو شفتيه بوجنة نوريا ثم فتح عينيه.

- أود التأكد من أن هذا يحدث. من أنكِ هنا في منزلي.

- إذن، المسني، إذا أردت أن تتأكد أكثر من ذلك.

- نعم، هذا بالفعل ما سأفعله.

جردها من جواربها برقة. أخذ ينضو عنها ثيابها بتأنٍ شديد. وضع كل قطعة ثياب على المقعد بعناية فائقة.

- دعيني أراك، نوريا. لكم تخيلتكِ!... مارست الحب معك مرات عدة... كل ليلة. طوال ساعات.

شعرت، بالرغم من عريها، هناك في منتصف الأريكة، بالحماية وكأنها أصبحت أخيرًا بأمان. كانت نظرات بورو، يداه، شفتاه، بمنزلة تبتل إليها، انتابها شعور بالإطراء.

- أشكرك على بقائك وجعل هذا اليوم حقيقة (تابع هو مستمرًا في تقبيل عنقها، نهديها، سرتها، مثلث منبت فخذيها).

اعتدل بورو وحل حزامه. سقط سرواله فتمكنت نوريا من التطلع إلى ساقيه القويتين. احتضنته من خاصرته.

- تعالي، سنذهب إلى الفراش!

آثرت نوريا ألا تقول شيئًا، تركت قيادها له. نظرت أثناء مرورها إلى نفسها في مرآة خزانة الثياب وشعرت بالإعجاب. لم تستطع التفكير في شيء آخر وكأن كل تفكيرها توقف، وكأنه لم تعد هناك أهمية لأي شيء آخر سوى ذلك.

- أنتِ امرأتي، نوريا. لا يمكن أن تكون هناك أخرى (قال بورو وهو يعتليها).

أصبح جسداهما متقابلين، عيناهما، فماهما، صدراهما، فخذاهما، ركبتاهما، يكاد يكون بينهما توافق في كل شيء. وعندما اندمجا أكثر فأكثر لم يعد بينهما أي فاصل. وشعرت نوريا أن ذلك هو المكان الذي كانت تتمنى بلوغه دائمًا.

46

تجولت نوريا وبورو بشارع أديلا بالبوا بحي بيياس بيستيداس بمنطقة تطوان في مدريد.

- فرحت ميرييا كثيرًا بكوب الشيكولاتة الذي أعدته شقيقة ليليانا للإفطار. لم تكف عن الحديث عن طيب رائحتها. يبدو أن الرحلة راقتها. انظر هذا هو العنوان! (مدت له نوريا البطاقة). سنوقف سيارة أجرة ونسأل السائق عن العنوان، ولا أدري، سنعاين المكان من الخارج أولًا. يجب أن نفكر في حجة، لا نستطيع أن نفاجئهم هكذا بدون مقدمات. كما لا نعرف ماذا ينتظرنا هناك؟

- تصورت أنكِ خططت لهذا أيضًا.

- لا، هذا لا، لقد حاولت، لكن بلا طائل.

- حسنًا، إذن دعيني أنا. بعد ذلك يحين دورك.

لاذا بالصمت داخل السيارة، ونظر كل منهما من نافذته وكأنهما في مركبتين مختلفين. خاطبهما سائق سيارة الأجرة:

- سنسلك شارع الطرف الأغر وقبل ميدان أولابيدي سننعطف يمينًا، أعتقد إنه رايموندو لوليو...، فلنر!... (وأخذ يعد على أصابعه). لا بل لوتشانا، بعد ذلك من دون خوان النمساوي، وأعتقد أنه الشارع التالي.

لم يلتفت إليه أي منهما. تمنت نوريا لو يحملهما إلى أرض فضاء لا يوجد بها شيء. وكانت حالتها تزداد سوءًا كلما اقتربوا. خاطبت بورو قائلة:

- بورو، لا أدري إن كانت فكرة جيدة.

- الآن، وبعد وصولنا إلى هنا.

- نعم، لقد شارفنا على الوصول (قال السائق وكأنهما يتحدثان عن مساره)، لكن إذا كنتما تفضلان، يمكنني اصطحابكما حيث تشاءان.

- لا، لا تقلق! استمر! (أشارت إليه هي).

أمسك بورو بيدها ووضعها فوق ساقه. كان على وشك أن يقول لها إن هذه التجربة ستجعلها أكثر ارتياحًا، على الرغم من علمه أنه إن سارت الأمور كما توقع، فسيحدث عكس ذلك تمامًا، إلا أنه الآن لم يعد أمامهما سبيل للتراجع. مرر ذراعه من فوق كتفيها، جذبها نحوه، وشرع في تقبيلها وكأنهما سينفصلان إلى الأبد. لم يرغب في الاعتراف بأنه أيضًا متوتر.

- وصلنا (نبههما السائق وكأنه لم يرَ كيف أمضيا الأمتار الأخيرة).

ترجلت نوريا من الباب الآخر، أثناء محاسبة بورو للسائق. دار سريعًا حول السيارة وأحاط بكتفيها. كانت ترتجف.

- انظري! هذه ناصية الشارع، اذهبي من ذاك الذي يحمل اسم جارثيلاسو وانتظريني في الميدان! سأوافيك في الحال.

أومأت نوريا بالإيجاب وتوجهت إلى هناك. نظر إليها المهندس الكيميائي وهي تسير محبطة؛ فظل هناك لم يتحرك لاقتناعه بأنها ستلتفت قبل مواصلة السير. وقد كان. استدارت، ونظرت نحوه ملوحة بإشارة وداع من يدها. انتبه بورو حينئذٍ فحسب للتشابه الجسماني الهائل بينها وبين ميريا.

تحقق من البطاقة التي في يده من الرقم على اللوحة المعدنية الزرقاء المعلقة في منتصف البوابة ودخل. كان الطابق الثالث. استغرق وصولهما ساعات طويلة: تناول الطعام، النزهة مع الطفلين، وكأن لا أحد منهما لديه رغبة حقيقية في مواجهة الموقف.

توقف بورو أمام باب به شراعة زجاجية مستديرة مسيجة تُفتح بذراع معدنية. لم يخطر على باله بعد ما سيقوله، لكنه دق الجرس على أية حال. سمع خطوات وفي الحال رأى سيدة ذات شعر أسود مسترسل متوسط الطول تكسو خصلاته جبهتها. ولها عينان واسعتان مستديرتان وأنف أفطس.

- مَن، مَن بالباب؟

اندهش بورو من تلك الصيغة في التحدث إلى شخص واقف أمامها بالفعل، ولكنه فسر ذلك على أنها تسأله ماذا يريد، فارتجل على النحو التالي:

- أنا زميل زوجِك في العمل.

- حسنًا، أنا لا أعرفك. هل حدث له مكروه؟

- نحن كثيرون كما تعلمين. لا لا، اطمئني، ليس في الأمر ما يسوء. أتيت لأن هذا طريقي (تابع بورو، بهدوء، أراد معرفة هل تصدق المرأة كذبته ومتى يجب أن يتجرأ بالسؤال عن المعلومة التي تهمه) وكلفوني بتبليغ... بيرين أي أيام سيتواجد فيها في مدريد الأسبوع القادم. هل تعرفين؟ (لاحظ نافاسكويس دهشتها عندما ذكر ذلك المكان من مقاطعة أورنسي. ساعده ذلك على المضي قدمًا، وعلى أن ترشده الشكوك التي لم يتشاركها مع نوريا للطريق الصحيح).

- تفضل! (فتحت له الباب، رأى حينئذٍ أنها تمسك في يدها بمنشفة مطبخ ذات مربعات خضراء وبيضاء. تطلعت إليه من آخر الدهليز طفلة شديدة الشبه بابنة نوريا.

- مَن، يا أمي؟

- شخص من عمل بابا، يا حبيبتي.

- ما اسمك؟ (اقتربت من الصغيرة وسألته).

- خيرونيمو (أجابها بأول اسم خطر على باله). لا أريد إزعاجك.

اتصلوا بي في الفندق الذي أنزل به وقالوا لي: مُر على بيته سريعًا لتعرف متى يعود ما دمت أنت هناك.!

- إنه زوجي وإصراره الغريب على عدم وجود هاتف لدينا. كان من الأفضل في حالتنا توافر هاتف. ولكن يقول إنه لا يريد الظهور في دليل الهاتف. يضطرون للاتصال بي دائمًا على منزل الجارة. انتظر، جدول الأيام مدون لدي.

ظل بورو في بهو الاستقبال. أخذت الطفلة تستجوبه بعينيها، وأدرك أنها قد تنتقل في أية لحظة للاستجواب بالكلام. انتهز الفرصة للاقتراب من الصور التي تزين الممر. تقدم أربع خطوات ورأى، بعض الصور المعلقة في إطار لأشخاص كبار السن، خمن بورو أنهم أجداد الطفلة، إطار آخر معلق فيه صورة زفاف. كان الرجل الأنيق، الذي يرتدي طقم بأزرار معدنية ودبوس لربطة العنق الذي يظهر فيها، هو نفسه الذي رآه نازلًا من شقة دونيا ريتا، وهو نفسه الذي قدمته له نوريا في معمل مستحضرات التجميل على أنه ماكسيمو ثفرا.

- وما اسم خيرونيمو هذا؟ (تجرأت الطفلة في النهاية على سؤاله).

- اسم هنود حمر، واسم راهب في نفس الوقت. (أجابها).

- ماذا يكون الراهب؟

- ميرييا، اتركي هذا السيد في حاله. اذهبي للاعتناء بشقيقك (صاحت بها المرأة من آخر المنزل.

- انتظري، انتظري قليلًا (قال بورو للطفلة بصوت خفيض بينما سمع صوت بكاء طفل). ما اسمه؟

- مَن، شقيقي؟

- نعم.

- ماركو، لكنه مازال لا يعرف كيف ينطقه، لا يعرف أي شيء تقريبًا. إنه ممل.

- معذرة. وضعت الكراميل على النار وكنت أقلبه قبل صبه في القوالب. يعشقون الكريم كراميل. (خاطبته مجددًا).

- لا لا، على راحتِك، لست مستعجلًا على الإطلاق. (فكر في نوريا وحيدة في الميدان).

- ابنتي هذه فضولية للغاية، متنبهة للغاية بالنسبة لسنها. بزيادة.

خرجت الطفلة عدوًا ودخلت إحدى الحجرات.

- على الإطلاق، إنها في منتهى الظرف. (انتبه بورو إلى أنها الصفة نفسها التي استخدمها عندما رأى ميريبا لأول مرة).

لا يعرف كيف سيحكي لنوريا كل ذلك. لم يسعه سوى التفكير في أن التعامل مع بعض مواقف الحياة يتطلب كتيب إرشادات.

- لقد تحققت من الأمر. لن يعود حتى الإثنين المقبل، أي ليس قبل ثمانية أيام من الآن. تحدثنا آخر مرة عندما هاتفني من جاليثيا، يسير الأمر بيننا هكذا دائمًا. أخبرني بأنه سيتفقد مناجم أستورياس، وسيواصل حتى مناجم أراجون، وبعد أن ينجز عدة أمور في برشلونة خلال الأيام التالية، سوف يأتي إلى هنا الأحد بعد منتصف الليل. آمل أن أكون قد أفدتك بشيء.

- نعم، لقد أفدتني بالفعل، شكرًا جزيلًا.

- الشكر لك على مجيئك حتى هنا.

- لا شكر على واجب. أرسلي سلامي إلى ابنتك.

47

نزل بور السلم متمهلًا للغاية. وعندما وصل إلى البوابة، بدلًا من الخروج إلى الشارع جلس على الدرجة الأخيرة. وبعد أن ظل لمدة عشرين دقيقة ممسكًا برأسه بين يديه، معتصرًا مخه ليتوصل إلى أهون الطرق ألمًا ليخبر نوريا بالأمر، ظهرت سيدة عجوز في المدخل تحمل عدة أكياس من نوع الشبكي. قالت وهي تتوقف أمامه:

- هل تسمح لي بالمرور، أيها الشاب؟

- تحملين الكثير من الأكياس، سوف أساعدك (أجابها على الفور).

- أنت لست لص منازل، أليس كذاك؟

ابتسم بورو دون أن يدري إذا كان ذلك سيطمئن السيدة أم سيزيد انزعاجها.

- انظري، انتظريني هنا! أخبريني في أي طابق تسكنين وسوف أتركها لك أمام الباب!

- نعم، نعم، هكذا اطمئن أكثر. لكن لا تأكل شيئاَ أثناء الطريق. أسكن في الخامس ويالها من مسافة من هنا إلى هناك...

وجد أثناء نزوله مرة أخرى بعد إيصال مشتريات السيدة إلى أعلى، أن الظلام قد حل، فضغط مفتاح النور أسفل عدادات الكهرباء، فرأى نوريا.

- لماذا لم تأتِ؟

- كنت بالفعل في طريقي إلى هناك.

أشارت نوريا إلى السيدة، فأومأ بالنفي.

- هذه السيدة كانت بحاجة إلى مساعدة شخص لحمل أشيائها.

تراءى لبورو، نظرًا لوجود شخص غريب بينهما، وما دام أن الموقف مؤلم في كل الأحوال، أن يقوم بعرضه تدريجيًا. على جرعات. قال بصورة مفاجئة مبتدرا الحديث:

- أنا زميل لماكسيمو، أتعرفين؟

- الإيطالي ساكن الثالث؟

أومأ بورو متظاهرًا بكثير من القناعة.

- لا يأتي إلى هنا كثيرًا. لا أدري، تلك الفتاة وحيدة معظم الوقت مع طفليها. لكنهم بالفعل، بهجة البناء. لحسن الحظ أن لديها جارة تساعدها، وكأنها والدتها...

انتابت نوريا الحيرة. تطلعت إلى بورو وإلى السيدة العجوز غير مصدقة لتلك المحادثة. أضاف بورو:

- يا لها من حياة تملؤها الوحدة، وهي في ريعان شبابها!

- يقولون إن أمها منذ أن ترملت لا تبرح صالة القمار واتخذت لها رفيقًا عاطفيًا. يالها من أمور فظيعة! في مثل عمرنا! وتراكمت عليها ديون القمار لدرجة أنها رهنت مصاغها، ولن أزيد أكثر من ذلك.

- المسكينة...، بين الزوج والأم... (قال بورو بنوع من التواطؤ مع السيدة العجوز). أستطيع تصور الوضع.

تردد بلا انقطاع صوت دوران عدادات الكهرباء كليك كليك كليك، بينما انزوت نوريا في الركن أكثر فأكثر، أسفل صناديقها الخشبية. خشي بورو أن تخرج مهرولة من فزعها مما سمعت.

- لا تستدرجني في الحديث، فأنا لا أحب الكلام، ولكنني لا أرتاح له

(تابعت السيدة). انظرا! أنا أقفل عليّ باب منزلي، وكما يقولون الرب معنا جميعًا. وكل حي ينشغل بشؤونه، لكن هذا الصيف رأيت شيئًا لم يعجبني على الإطلاق. كانت الأم والطفلان في البلدة الجبلية التي جاؤوا منها، أخبرتني مارا برحيلهم حينما صعدت لتودعني، أما هذا الوغد، وهو وغد حقيقي (أكدت العجوز وأومأ بورو مصادقًا على كلامها مرة أخرى) فقد جاء مساءً مع واحدة من تلك الفتيات اللاتي يرتدين زيًا موحدًا على الطائرات، هكذا بدت، مثل اللاتي تظهرن في الأفلام. ولا أعرف أكثر من ذلك، ولكن لا تنكرا أن هذا ليس أمرًا جيدًا. لا يجب الذهاب إلى منزل رجل متزوج مع العلم أنه لا يوجد به أحد آخر. أما هذه المسكينة فهي دائمًا هكذا تجر عربة الأطفال بيد وتمسك الطفلة بالثانية.

- معك حق. هذه خِسة. (قال بورو غاضبًا).

لفت ظلمة المدخل نوريا بالكامل. ويبدو أن السيدة العجوز قد نسيتها تمامًا.

- هكذا إذن، لا تستدرجاني في الحديث. إلى اللقاء (قالت مودعة).

- وداعًا، سيدتي. صحبتك السلامة (أجاب بورو).

انتظر صعودها القطاع الأول من السلم ثم اقترب من نوريا. ألصق جبهته بجبهتها. كانت تذرف دموعها بأقل قدر ممكن من الضوضاء، لكنها لم تتمكن من السيطرة على ارتجافها. مرر بورو راحة يده على وجنتها، ثم داعب عنقها وأسند رأسها إلى كتفه. لم تعد لدى نوريا طاقة على الرحيل، فسقطت وعندما جلست على الأرض، أحاطت ركبتيها بكلتا يديها. ثم قالت بعد مرور بضع دقائق:

- ماذا سأفعل؟ إنه وضيع، حقير. هل سمعت ما قالته هذه السيدة؟ بدت وكأنها تتحدث عني. هل لديه بالفعل طفلان آخران هنا؟

أومأ بالإيجاب بورو معربًا عن أسفه.

- رأيت الطفلة، اسمها ميريلا بحرف ال (ل). وشقيقها يدعى ماركو[1].

تحول نحيب نوريا إلى ما يشبه العويل. تهدجت أنفاسها وتحشرجت.

- هيا بنا من هنا، سوف تسوء حالتك.

- لقد ساءت بالفعل، أريد أن أموت. ماذا سأفعل بطفليّ؟

- في الوقت الحالي، سوف نصطحبهما، ثم نتناول العشاء في الفندق، وإن كنت أعتقد أنهما أصيبا بالتخمة في منزل شقيقة ليليانا. (أراد بورو أن يملأ الوقت بتفاصيل يومية، ليسد بذلك، قليلًا قليلًا الهوة التي أشرفت نوريا على السقوط فيها، ولكنه شعر بأنه يحتاج أيضًا للطاقة). أنتِ لست بحالة تسمح لك برؤية أحد. سنفعل الأمر بطريقة أخرى: سوف أصطحبك بسيارة الأجرة أولًا لأتركك في حجرة الفندق، ثم أذهب لإحضارهما. سوف أشكرهم على مجالسة الأطفال، وأعتذر نيابةً عنك. عندما نصل ستشترين هدية لشقيقة ليليانا وتطلبين منها أن تتولى إرسالها إليها. هل يروق لكِ ذلك؟

أومأت نوريا بالإيجاب. كانت غائبة.

يدرك بورو أن كل ذلك بالنسبة لها مجرد تفاهات، في تلك اللحظات، إلا أنه لم يكن يريدها أن تترك الخيط الرفيع الذي يربطها بالواقع يهرب منها.

- أشكرك (قالت بدون حماس لإضافة المزيد).

تملكها شعور بجو غريب كلية، جراء الرحلة من برشلونة إلى مدريد، النوم في الغرفة المجاورة لبورو، بعدما حدث في منزله، المحادثات التي أجراها مع تلك النساء... أشبه بكابوس يتعرض له شخص آخر.

***

---

1. في مفارقة ساخرة وسط هذا الموقف الدرامي تكشف الكاتبة عن خفة ظل منقطعة النظير، فالزوج الإيطالي حرصًا على المظاهر سمى أطفاله بنفس الأسماء مع فارق النطق الكتالوني لطفليه في برشلونة والإسباني لطفليه في مدريد (م)

جلسا معًا في القطار أثناء رحلة العودة. لم يكن هناك جدوى من التظاهر ما دامت حياتها توشك أن تتغير تمامًا. وعندما انتبهت نوريا إلى أن ميريبا ومارك مستغرقان في النوم، قالت:

- هل تعتقد أنني كان يجب عليّ التحلي بمزيد من الشجاعة والصعود للتحدث معها؟ لم يكد يغمض لي جفن، تخيلت الطفلتين تلعبان سويًا، بعد ذلك هدني التعب وبدأت تهاجمني صور توائم، حلمت بدورا، أو دورا أخرى، بأورسولا وأورسولا أخرى أيضًا في نفس ذلك المبنى بمدريد. أشعر وكأنني عشت سرابًا، هذا أكثر بكثير من مجرد خداع.

- نوريا، أعلم أن نصيحتي في هذه الحالة تصدر عن شخص بلا أية تجربة، ولهذا من الأجدر بكِ التحدث مع الأب بيلسيرميس، ولكن عن نفسي أقول لكِ: إنه يتعين عليكِ التصرف بمنتهى الهدوء، لا تتسرعي! فكري في أنه خلال ما تبقى من الشهر لن تريه سوى لأيام قليلة فحسب. تظاهري واكسبي وقتًا! أثناء ذلك، يتعين عليك ترتيب كل أوراقك على أفضل ما يكون، فلا تجعلي الغضب يتملكك!

- لن تواتيني القدرة على التحكم في نفسي.

- ربما يفيدك الحديث مع صديقة، التنفيس عن نفسك.

- مع صديقة، بورو؟ ليس لدي أية صديقة (قالت نوريا بمرارة).

- يمكن التحدث مع ليليانا. هي أيضا عاشت وضعًا عاطفيًا بالغ التعقيد.

أومأت نوريا مهمومة.

- هل فكرتِ ماذا ستفعلين مع طفليكِ؟ ماذا ستقولين لهما؟ يجب عليك أن تحاولي قدر الإمكان ألا يعرضهما هذا الموقف لأدنى أذى.

- أعلم ذلك. لكن الآن لا أعرف حتى كيف أواسي نفسي. أو أواسيها، مارا (قالت بصوت خفيض للغاية وكأن هناك أحد يعرفها في عربة القطار).

- ليس علينا أن نرسم للآخرين حياتهم. دعيها، على الأقل في الوقت الحالي. يقرر الله ما يشاء غدًا. لا تفعلي شيئًا قد تندمين عليه.

- لقد فعلت بالفعل: تزوجت منه. هل يبدو لك ذلك هينًا؟

- يوجد حل بالتأكيد.

- أي حل؟ (سألت نوريا بضجر).

- لا أدري، لكن إذا شئتِ يمكننا أن نبحثه سويًا. إذا كان تعددًا للزوجات فمن المحتمل أن الزيجتين لاغيتان. لا أعرف في القوانين، لكن كل ما يقتضيه الأمر أن نستعلم.

احتضنته نوريا وانفجرت في البكاء. ضمها إلى صدره، متمنيًا أن يبقيها هكذا إلى الأبد.

- من حسن حظي أنني عرفتك، بورو.

***

سيدتي العزيزة:

اعترف إليكِ بأنه حتى وقت قريب كنت أظن أن الكثير من القصص التي يكتبونها إليك ملفقة، وأنه لا يمكن أن تجتمع معًا كل هذه المآسي، لكن الآن أعلم أن الأمر على العكس من ذلك تمامًا، وأن الأحداث التي تحل بإنسان قد تكون أكثر قسوة من التي تبث كل مساء عبر موجات المذياع، وأنها تعتبر هينة للغاية، مقارنة بالواقع.

أنا في الخامسة والعشرين من عمري، وتسببت سذاجتي في مرارة حياتي. تصورت أنه يكفي أن يكون الإنسان طيبًا. هذه هي خلاصة الأمر.

يشق عليّ النهوض كل صباح، أفعل ذلك من أجل أطفالي. التقيت هذا الأسبوع بالكثير من النساء المحطمات، لا أدري من أين يستنهضن القوة

لكي يمضين قدمًا. أما أنا فعلى العكس منهن فقد خارت قواي.

مر الآن يومان بالتمام والكمال على اكتشافي نكسة حياتي. تحطم الزجاج الذي كان يسند الأكاذيب التي كنت أعيش فيها. حياتي توقفت منذ ذلك الحين، لا أستيقظ من ذلك الكابوس. زوجي خانني، سيدتي، أوكلت إليه مستقبلي، وذاك كان خطئي: أن أضع آمالي بين يديه، أن أودع به كل ثقتي. عشت في كنفه عدة سنوات رائعة، لم ينقصني خلالها شيء، ولكن يبدو أنه كان ينقصه. يتصرف أمامي بصورة طبيعية تمامًا، لم يعرف بعد أنني وصلت لنهاية المطاف. لماذا فعلها؟ لا أجد أي تفسير، وهذا أكثر شيء يدمي قلبي.

أخبرني بأن كل هذا لا علاقة له بي. لا أدري إذا كنت أفضل عدم المعرفة. أنا منهكة. أمقته لأنه دمر حياتي. لا عودة إلى الوراء. لا تكلفي خاطرك عناء تذكيري بأن الزواج مقدس، وأن أغفر له، وأن أتصالح معه لأنني لن أفعل. أعلم أنه لا يمكنني الحصول على الطلاق في هذا البلد، ولكنني لا أريد أيضًا أن يُحكَم عليّ بالتصنع والتظاهر والزيف وأن تكون حياتي كلها مسرحية هزلية.

كيف استطاع التسبب في كل هذا الألم لأكثر إنسانة أحبته؟ توجد بالتأكيد أمور أكثر بكثير لم ولن أعرفها مطلقًا. يقود طريق الأم المتفانية إلى مكان واحد فحسب اسمه اللامكان. أشعر بحنق شديد. هل تنتهي ا العلاقة بين الزوجين هكذ؟ بالخيانة والخداع؟ إذا كانت الحياة تكمن في التأقلم، ففي ماذا يكمن البقاء على قيد الحياة؟ في أي طريق يتعين عليّ أن أمضي الآن؟

سيدتي، لم أرغب في أكثر من شخص يحبني، هذا فحسب، وهو خدعني. اعذريني على كل ما بُحت به! لكنني كنت بحاجة لأن أزيحه عن صدري، أن أضعه نصب عيني. لكن ليس الأمر كله سيئًا: أعتقد أنه سيرافقني في طريقي الجديد شخص أفضل بكثير، بدون أدنى شك لأنه لا يكذب.

أنا في غاية الامتنان لكِ لأجل قراءة رسالتي لأنني أشعر بقرب كبير منكِ.

وتفضلي بقبول فائق الاحترام،

نوريا سومبورت

كان الأمر وكأن حبر كتابة تلك الرسالة قد فاض من عروقها بعد أن انبثق في مخها، وتفجر ليندفع بقوة خارجًا تذرفه دمعًا مدرارًا. دونت عنوان معهد مستحضرات التجميل وعلى الظهر بياناتها بالكامل. تمنت لو طارت تلك الورقة، مبتعدة عنها، وأن تُذاع أيضًا وأن يسمعها ماكسيمو، وزوجته المدريدية، وواحدة من المضيفات، وأن يقرأها الأب بيلسيرميس، وليليانا، والسيد والسيدة فرومنت عندما يعودان، وأن تسمع هي على وجه الخصوص، من منزلها صوت المذيعة، وهي جالسة في غرفة المعيشة بمنزلها، برفقة آلتها الكاتبة وبقية الرسائل التي هي أكثر مأساوية من رسالتها، مع قطع الأحجية التي تشكل حياتها ماثلة أمامها. كانت تشعر بالمهانة، بأنها مثيرة للشفقة، مسحوقة، بدون أية ميزة على الإطلاق، شخص زائد، واحدة من بين كثيرات: كحال أية امرأة.

48

أظهر السيد والسيدة فرومنت دعوتيهما عند الباب. بدت القاعة المقام بها معرض العطور ومستحضرات التجميل في بوينوس آيرس مذهبة بالكامل. تراصت ثريات الكريستال الضخمة، واصطفت في المسافة الفاصلة بين الجدران أعمدة من طراز الأرت ديكو، وتألقت جدرايات الفريسكو بالحوريات وغيرها من الشخصيات الأنثوية الأسطورية. وقدمت على إيقاع أوركسترالي مشروبات الكوكتيل والشمبانيا فبدا كأنه جو احتفالي أكثر منه ملتقى لإنجاز الأعمال. وتوقف المارة في الشارع لينظروا عبر نوافذ الواجهة. يوجد مدخل في الجهة المقابلة يؤدي إلى الحديقة الداخلية. عثرت دونيا ليونور ودون أليكس في الحال على مضيفهما. قالت السيدة فرومنت:

- في الموعد تمامًا.

أعلن عن الفعاليات التي ستقدم بعد ذلك، رجل نحيف على المسرح، يرتدي حلة بدت كقطعة قماش واحدة أطل من فتحة صدريتها المثلثة قميصٌ أبيضُ.

- لقد أكدوا لنا أن تلك المرأة تعد سحرًا من الطبيعة. (أضافت عند سماع الاسم الذي أعلن عنه مقدم الحفل).

- بالفعل، يا عزيزتي (قالت نيلدا رانخيل، مديرة واحد من أهم بيوت منتجات مستحضرات التجميل في الأرجنتين). إنها رائعة، بصورة باهرة. الأمر ليس فيه مبالغة. نحن لم نرها سوى مرة واحدة في بيبا لا

انجوستورا[1] وهذا لأنها تفضلت علينا بذلك.

- حسنًا إذا كانت قد جاءت اليوم، فلابد لأنها بحاجة إلى المال (قال السيد فرومنت).

- لا أعتقد، إنها ثرية. لديها واحدة من أكبر ثروات البلاد، على الرغم من أنه لا يعرف على وجه الدقة مصدر كل هذه الأموال. هناك شائعات... لكن... أميل للاعتقاد أن وجودها هنا اليوم سببه التفاخر، لذة الاستعراض.

- حسنًا، إنه حقها أولًا وأخيرًا. يقتضي عملها بذل مجهود للحفاظ على نفسها بحالة جيدة للغاية، وإذا لم يرها أحد بعد كل ذلك، فإن هذا لن يفيدها بشيء (قالت السيدة فرومنت). وكما تعرفين، عزيزتي نيلدا، فإن مقابلتها هي السبب الرئيسي لسفرتنا، ويمكنني أن أقول لكِ أيضًا، ولحياتنا، الجانب العملي منها على الأقل، مع أننا التزمنا الصمت في برشلونة، بالرغم من قلقنا.

- المرأة التى لا نظير لها، ولا مثيل لجمالها على ظهر الكوكب، أسلوبها لا يقارن. صدقوني إذا أخبرتكما بأن فريدا لورنسن تعد معجزة حية (صاح مقدم الحفل).

- هذا الرجل لا يكف عن الثرثرة مطلقًا (تابعت نيلدا)، إنه صحفي مشهور للغاية هنا. اسمه لاوتارو أمالفي. يقولون إنه قد يفعل المستحيل من أجلها، إلا أنها لا تكترث له على الإطلاق، وهذا على الرغم من أن عمرها ضعف عمره، والشاب لا يوجد به ما يعيبه.

فتح الستار، فظهرت فتاة شابة يرافقها راقصان شابان يرتديان حلة رسمية. تألقت في ثوب أسود منسدل حتى قدميها، مشدود تمامًا إلى خاصرتها وعاري الأكتاف، بينما أحاطت بعنقها قلادة من الماس، يفوق وميضها بريق

1. منتجع يقع وسط الطبيعة الساحرة عند ضفاف بحيرة نهاول وابي بإقليم بتاجونيا جنوب الأرجنتين (م)

الأضواء الساطعة. تميزت ببروز وجنتيها بشكل واضح، وشفتين لحيمتين، عينين خضراوين واسعتين تظللهما رموش سوداء ثقيلة للغاية. كانت تتحرك بخفة وكأنها تكاد تمس الأرض. قرب مرافقاها مقعدين من القطيفة الحمراء حتى حافة خشبة المسرح ثم عادا إلى عمق المسرح لجلب ميكروفونين مع حاملين لتثبيتهما. وأخيرًا، ولاستكمال تجهيزات خشبة المسرح، وضعا كشافًا بين المقعدين. تحلق الجمهور مقتربًا قدر الإمكان منهما.

– مساء الخير، آنسة لورنسن، نشكركِ على تفضلك علينا بالحضور. كما تعلمين، مرافقونا اليوم هم من محترفي صناعة التجميل ويودون معرفة أسرار جمالك. ماذا تفعلين لكي تحافظي على نفسك هكذا؟ كيف تعتنين ببشرتك، أظافرك، شعرك؟ ماذا تفعلين لكي تحافظي على قوامك؟ في المجمل، ماذا تفعلين لكي تبدي أصغر بثلاثين عامًا مما هو مثبت في بطاقة الهوية الخاصة بكِ

– سبق أن أخبرتك، يا عزيزتي (قالت نيلدا رانخل لدونيا ليونور) هذا الرجل لا يكف عن الثرثرة، لسانه منفلت. يا للبشاعة! إنه ثقيل الظل للغاية. فلنر إذا كان سيصمت لكي نستطيع معرفة أي شيء.

– إنه أمر جيد أن يقوم بتقديمها، لا يعلم الجميع من تكون. لقد قمنا بمتابعة حالتها لسنوات، ومع ذلك فقد يكون هناك كثيرون يرونها للمرة الأولى ويعتقدون أنها مجرد فتاة في الخامسة عشرة (أجابتها السيدة فرومنت).

– من المحتمل أن بعض الناس هنا لم يسبق لهم رؤيتها على الطبيعة، لكن أشك في أن يكون هناك من لم يسمع بها من قبل. إنها أسطورة، بالنسبة لنا على الأقل، وكأنها تحفة نادرة، بل الأفضل، في المتحف الوطني للفنون الجميلة.

– فلنر إذن ماذا تقول! (خاطبتها دونيا ليونور لكي تتوقف هي أيضًا عن الثرثرة).

– لا لا، لا شيء، ماذا ستقول، إنها سيدة مدللة، لطالما فعلت الشيء نفسه

دائمًا، وإذا تحدثت عن وصفة الشباب الدائم، فسوف تتحدث عن عاداتها، روتينها للحفاظ على جمالها، ولا شيء أكثر من ذلك. جاءت لتزهو بجمالها أمام الآخرين، وتشعرنا بأننا متهالكون، يرثى لنا، أما هي، فانظري لحالها!

أدركت السيدة فرومنت منذ الوهلة الأولى التي تعارفا فيها أن نيلدا رانخل من النوع الذي يصعب إرضاؤه على الإطلاق، ومن ثم اضطرت لتحمل شيء لكي لا تفقد الآخر. لكن مواقف مثل تلك تثير غضبها بشدة.

- هل يستدعي الأمر الكثير من الانضباط، آنسة لورنسن؟ (سألها المحاور من جديد).

لم تكن قد تكلمت بعد. بادئ ذي بدء بادرت بالابتسام لشاغلي الصفوف الأولى.

- فلنر من سيفتتح المزاد! (قالت مجددًا صديقة السيدة فرومنت الأرجنتينية) تسمي كل عام نوعية كريم وتدعي أنها التي تستخدمها دون غيرها. يقع الاختيار على من يدفعون لها أكثر. ليس هناك من سبيل آخر. هذا على الرغم من أنها ليست بحاجة إلى المال.

بدأت مقاطعاتها تثير غضب السيدة ليونور. لم تر من قبل نيلدا رانخل منفعلة بهذه الطريقة. لطالما رأتها أثناء زياراتها السابقة تتصرف بصورة أكثر حكمة بالرغم من أسلوبها المبالغ فيه. اعتقدت أن هذا يرجع إلى أن الهدف من حضورها هو أن تصبح مثل الموجودة على خشبة المسرح.

- ماذا تفعلين في يومك العادي؟ (سألها المحاور). ولكن قبل أن نبدأ، وفي حالة إذا كان هناك أحد في القاعة لا يعرفك، أخبرينا في أي سنة ولدتِ. كما تعلمين هذه ليست بادرة عدم لياقة، بل على العكس تمامًا، يعد في حالة مثل حالتك: نوعًا من الإطراء.

- 1914. إنه رقم رائع.

سُمعت همهمة سرت في أرجاء المكان، إلا أنها لم تعرها أدنى التفات.

- فلنر! لا أدري إذا كانت هناك فائدة ترجى لأحد من كل هذا، ولكن على أية حال، وبعد تعبيري عن امتناني لكم على دعوتكم، التي أخرجتني من عزلتي وجعلتني آتي إلى العاصمة، سأخبركم إذا كانت هذه رغبتكم.

أومأ الجالسون قبالتها علامة الإيجاب، وكأن الذين تملقوها في البداية ينتمون إلى استعراض راقص آخر.

- أستيقظ مبكرًا، وأنام مبكرًا، أضبط بوصلتي مع ضوء الشمس وهذا مفيد للغاية لإيقاع وظائفي الحيوية، ولا أفعل شيئًا آخر قبل النوم وبمجرد الاستيقاظ، سوى استعمال كريم مرطب، وكلما نفدت العبوة أغير المستحضر، لأن البشرة إذا اعتادت عليه فقد مفعوله. أستخدم الآن كريم أوفلاين (Oflaine).

- ألم أقل لكِ، الجالسة في أول صف أمامها (قالت نيلدا. لحسن الحظ أن هذا التعليق جاء مقتضبًا).

- ماذا عن ساعات نومك، مساحيق الترطيب، والكثير غيرها؟

- يتردد على منزلي مرتين في الشهر من يعمل لي عناية باليدين والقدمين. يستخدمون زيت الزيتون في المنطقة المحيطة بالأظافر، يلمعون أظافري بالكيراتين. هل تعرف ما هو؟

أومأ المحاور بالإيجاب بدون التوقف عن الحملقة فيها بانبهار.

- شعري طبيعي. (كان حِنطيًا أميل للأشقر منه إلى الكستنائي). لا أستخدم أي شعر مستعار، أو أية صبغات، تتسبب الأمونيا بأضرار بالغة لفروة الرأس والأفكار أيضًا. (ضحكت). أذهب مرتين في العام، مع بداية الصيف وآخر العام إلى منتجع في بويرتو مونت[1] في البلد المجاور. المياه

---

1. بلدة بجنوب تشيلي

مفيدة جدًا، لكن أحمي نفسي من الشمس بقبعة مصيف من القش، تشبه المظلة إلى حد كبير، علاوة على ذلك أغطي وجهي بمنديل. لا أتناول أية مشروبات كحولية، تقريبًا، تتفهمونني بطبيعة الحال، أما بخصوص التدخين فلا أوصيكم بالإقلاع عنه فحسب، بل بالابتعاد عن أي دخان. في عزلتي الريفية لا توجد أية مصانع، لا يوجد تلوث، هواء نقي فحسب. أما بخصوص الرياضة، فأتبع التمارين التي وضعوها لي في بولندا أثناء الحرب، بالإضافة إلى ذلك لدي مدرب يأتيني ثلاث مرات في الأسبوع. اسمه ميركري. يجب أن تتعرفوا عليه. ميركري (كررت الاسم).

حينئذٍ صعد أيضًا إلى خشبة المسرح. كان في العقد الثالث تقريبًا، يرتدي بنطالًا أسودَ وقميصًا بحمالات. أبرزت قطعتا الثياب المحبوكتان بإحكام على جسده العضلات، خاصة الصدر والساقين.

– اعقد معه لقاءً بعد ذلك، سترى كم هو رائع. فعلاوة على أنه رياضي، فهو مثقف وفي غاية الظرف. أعتقد أن المرأة لا تريد أكثر من ذلك في الرجل. (ضحكت على مزحتها).

استجوبه لاوتارو أمالفي بنظراته. استدار برأسه نحوه بشكل مبالغ فيه عندما وجده خلفه ثم تجاهله بعد ذلك.

– هل يمكن القول إنكِ تعيشين من أجل جمالك؟ (سألها أمالفي).

– ها قد شرع في الأسئلة الفلسفية. إنه لا يطاق. علاوة على أنه بدأ يغار. إنه أمر في غاية البساطة... هذا السلوك جدير بقرد (قالت السيدة رانخل لدونيا ليونور).

– تجعلني عنايتي بنفسي أشعر بالرضا الشديد، أكثر من أي شيء آخر على ما أعتقد. ربما أبدو لك مغرورة، ولكنني لا أطيق عدم العناية، يصيبني شعور بالغثيان إذا رأيت أحدًا غير معتنٍ بنظافته الشخصية. تعد النظافة

الشخصية، عندي أمرًا أساسيًا. الوصية الأولى من وصايا الجمال. لا أتبرج يوميًا، لأن هذا يجعل الجلد يتنفس.

- أدرك أن هذا أمر شخصي للغاية، ولكنني لا أستطيع مقاومة طرح السؤال عليك، ما هو العطر الذي يفوح من الآنسة لورنسن؟

- خلاصة فانيليا مدغشقر[1]، رائحة المستقبل.

صدر عن جمهور الحضور همهمة تنم عن إعجاب استغلها لاوتارو أمالفي.

- هل ترين؟ تستحوذين على إعجابنا جميعًا بمثل هذه الأمور. وماذا أيضًا؟

- أتناول كوب من الماء الساخن بالليمون بمجرد استيقاظي مباشرة، إنه مطهر قوي للجسم. وأحتسي الكثير من الشاي على مدار اليوم. وتتكون حميتي الغذائية بشكل أساسي من الفاكهة والخضروات، القليل من الأسماك، واللحم على فترات متباعدة للغاية، عندما يدعونني فحسب. التربية قبل كل شيء، وخصوصًا الغذائية. آه، كما أؤمن كثيرًا بخصائص اللبن الحامض (الكفير)، الزبادي المصنوع من حليب الماعز. هناك بالإضافة إلى ذلك، الهرمونات والأحماض المضادة للأكسدة. ستحصلون على كل هذا وبشكل منظم من الكتاب الذي سأنشره العام القادم.

- يا له من سبق صحفي! شكرًا جزيلًا، دونيا فريدا لإعلانك عن الأمر في هذا الملتقى. أؤكد لكِ أنه منذ هذه اللحظة، وأعلم أنني أتحدث باسم الجميع، أننا ننتظر كتابك بتلهف شديد. لا أريد أن أرهقكِ أكثر من ذلك، أود أن أقول لكِ بالأصالة عن جمهورنا الحبيب إننا جميعًا من أشد المعجبين

1. تعتبر مدغشقر بالفعل أهم منتج في العالم لأفضل أنواع الفانيليا بمعدل يفوق أكثر من 950 طن سنويًا ويصل سعر الكيلوجرام إلى أكثر من 500 يورو (م)

بكِ. آنسة لورنسن إلى الملتقى قريبًا. وأقصى أماني أن أكرس مهنتي بالكامل من أجلك، أن أتخصص في أسلوب حياتك، أن أنقل عنكِ مباشرة وصفة سر الشباب الدائم التي تجعلكِ تبدين في ريعان شبابك، بل وأكثر من ذلك: وكأنك صبية صغيرة. (نهض أمالفي واقفًا). اسمحي لي بمعانقتك!

في تلك اللحظة، وجدت دونيا ليونور أن نيلدا كانت على حق. توجه زوجاهما في تلك اللحظة إلى الحديقة المطلة على القاعة في الطابق الأول من المبنى.

- نيلدا (خاطبتها بتصميم شديد)، يجب أن تنجزي لي تلك المقابلة التي نسعى خلفها منذ سنوات بأي شكل، ومهما كان الثمن. أخبريها بأننا سنهديها منتجاتنا مدى الحياة! وسندفع لها أموالًا طائلة، سنمنحها تذكرة طيران لكي تجوب العالم، كل ما تريد.

نثرت فريدا لورنسن بكلتا يديها قبلات في الهواء على الجمهور فيما أخذت الأضواء تخبو تدريجيًا. انسحبت مباشرة إلى داخل كواليس المسرح حتى امتزجت بذلك البحر المنساب من القطيفة.

49

بحث ماكسيمو ثفرا بمجرد أن عاد إلى كتالونيا في الجرائد المحلية عن أي خبر عن بالادري. أراد التأكد من أن المعلومات التي جمعها المحقق الخاص عنه لم تقع بين أيادي آخرين. كان على قناعة بأن لديه مستندات أكثر بكثير، تقارير أو بيانات، بخلاف التي استولى عليها من خزانة مكتبه.

***

بدا صوت رنين جرس الهاتف وسط الألومنيوم، والجدران المكسوة بالقيشاني الأبيض وواجهة معهد مستحضرات التجميل الزجاجية بارتفاع عشرة أمتار، وكأنه يدوي داخل كاتدرائية. نبهته ليليانا (بورو) لكي يضع يده اليمنى على سماعة الهاتف، قائلة:

- إنها مكالمة من أجلك. (ثم تحدثت في الهاتف): سيكون معك في الحال، سيد كيسلر، كيف حالك؟ أنا ليليانا.

تجاذبا أطراف الحديث لبرهة إلى أن انتهى المهندس الكيميائي من تجفيف يديه بالمنشفة التي تركها على حافة الطاولة.

- ها أنذا، فاريك. هل كل شيء على ما يرام؟ كيف حال ميرخا؟

- بخير، حسنًا، إنه أمر لا يصدق، ولكنها تتعافى بشكل جيد. تقول إنها أمور عادية. لم تخبرنا الشرطة بأي شيء، ولكن حدث موقف مؤثر يكاد يكون صادمًا. فقد مسؤولو المعمل عقلهم، أصابونا بفزع شديد. ولم نكد ننجو.

- ماذا حدث؟ (سأله بورو منزعجًا. ونظرت إليه ليليانا قلقة).

- أصررت على الخروج إلى الريف، لأن زميلي سنغر صار أكثر شحوبًا من سمكة ميتة. من المنزل إلى المستشفى وبالعكس. أخبرتكم في برشلونة كم أقدره وأعتقد أنه على حافة الاكتئاب وأنا احتاجه في هذه المرحلة بكامل طاقته. ذهبنا بالقرب من فينترهوده[1]. كنا نحن الثلاثة وصديقة لميرخا أمام جسر البحيرة. تحدثنا وضحكنا ونحن جالسون على العشب. وحتى سنغر كان منطلقًا وفي منتهى السعادة بالقياس لطبيعته، وسار كل شيء على مايرام إلى أن سمعنا دوي طلقات رصاص.

- يا إلهي! هذا في منتهى الخطورة (صاح بورو).

غطت ليليانا فمها بيديها ووجهت إلى بورو نظرات متسائلة. فأومأ لها لكي تنتظر.

- كما سمعت، وفي وضح النهار. استقرت إحدى الرصاصات في جذع الشجرة التي كنت أستند إليها. شعرت وكأنني ابن ويليام تل، لكن بدون تفاحة فوق رأسي. الأمر واضح كالشمس.

- وهل أبلغتم عن الحادث؟

- نعم، ذهبنا إلى الشرطة. لا أعتقد أنه كان مجرد صياد أو أن الرصاصة كانت حادثًا عرضيًا، أخبرتهم أيضًا عن واقعة ميرخا في حوض السباحة بمنزل ميليفا في دسلدورف.

- لقد أصيب أصحاب شركة أورلانتا بالجنون، لا يوجد تفسير آخر. لا يتورعون عن شيء (قال بورو)

- يستشيطون غضبًا بسبب ما حدث في الولايات المتحدة (قال كيسلر).

- ماذا حدث؟ هل يوجد المزيد من الحالات هناك؟

---

١. بلدة ألمانية قريبة من هامبورج.

- لا، على العكس تمامًا. ألم تعلم بالأمر؟ عندما أسمع بأن إسبانيا منعزلة، لا أتصور مطلقًا أن يكون إلى هذا الحد. لقد ذاع اسم دافني جرتشن في كل مكان! في كل الصحافة العالمية. تمكنت هذه الطبيبة بمفردها من إيقاف تداول عقار التيلامون هناك.

- هل أوقفته؟ (قال بورو منفعلًا).

- لا، بل أفضل من ذلك. لم تسمح بتسويقه من الأساس. على الرغم من أن بعض الأطباء وزعوا عدة عينات مجانية. ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، يبدو أنه اعتبارًا من الآن لن يُسمح في بلدها بممارسات مثل إهداء الأطباء عينات لعقاقير. أصحاب المختبر وشركاؤهم يرتجفون رعبًا. الخسائر بالملايين. وكالمعتاد، تلقت هي أيضًا زيارة من هارالد. ولكنها لم تخضع ولو للحظة.

- إذن في مرآب فندق الإليزيه بدسلدورف لم يرسلوه إلى برشلونة، كما تصورنا.

- يبدو ذلك، ولكن عبور المحيط كان بلا جدوى لأن دكتور جرتشن تحلت بالصلابة. اتصلت على الفور بوزارة الصحة الألمانية، سوف نرى الآن كيف سيبررون. احتلت صورتها الصفحة الأولى بالكامل من صحيفة واشنطن بوست. منحها كيندي أرفع وسام يمنح لمدني أمريكي. كان لها صدى واسع. شيء لا يقارن على الإطلاق بأوروبا العجوز العرجاء. يبدو أنها تتلقى اتصالات من جميع أنحاء العالم، ومع ذلك، كانت من اللطف لدرجة أنها منحتني مقابلة.

- ماذا قالت لك؟ هل تعتقد أنهم سيعرفون هنا؟

ضحك كيسلر.

- لا أعتقد. حدثتني عن التهديدات المستمرة... المهم أنها لم تنهر بسبب الضغوط. قال الرئيس الأمريكي في خطاب تسليم الجائزة إنها أكثر شخص أنقذ مواطنين أمريكيين من الموت. إنه درس لنا، بورو. نحن أيضاً يجب أن

نقاوم، مهما كان الثمن. لقد قطعوا هناك خطوة عملاقة. وهي لم يدعمها أحد حتى زملاؤها. أصيب الجميع بالذعر.

- نحن أكثر عددًا. وهذه ميزة.

نظر بورو إلى ليليانا التي كانت تنظر إليه بعينين مفتوحتين على اتساعهما وكأنها لا تريد تفويت أي شيء من المحادثة، وشعر بأسف لأنه تركها متلهفة كل هذا الوقت.

- اسمع، بورو! هذا هو المهم: أنه بفضل كل هذا الذي جرى في الولايات المتحدة، هنا في ألمانيا أصبح قرار سحب التيلامون نهائيًا، توقف توزيعه. ولأننا لم نكن واثقين، تحققنا من ذلك ولم تعد هناك عبوة واحدة في أي مكان. مُحي أثره كأنه لم يوجد من قبل على الإطلاق. توجد في المستشفيات لافتات حمراء في كل مكان تحذر من خطر وصف التيلامون للحوامل. أورلانتا حانقون لأنهم يعلمون أن كل هذا سببه نحن الاثنان، سنغر وأنا. هذا هو انتصارنا، ولكنه ما يزيد الخطر أيضًا.

- ولكنه في الوقت نفسه سيحميكما. ستكون فضيحة مدوية إذا أصابكما سوء. (قال بورو ليطمئنه).

- حسنًا ها أنت ترى أنهم حاولوا بالفعل. هذا البلد معتاد بشكل كبير على المآسي الكبرى. يجب أن تتمكنوا من أن يُسحب من إسبانيا أيضًا. افعلوا أي شيء! إنكم أقرب ما يكون من تحقيق ذلك.

- هذا حقيقي. لكن أعتقد أنه مازال ينقصنا شيء هام: يجب توجيه عملكم الآن لمراقبة ماذا سيفعلون بالعبوات التي تم سحبها؟ لن يتورعوا عن تصديرها إلى دول أخرى أكثر هشاشة. لدينا براهين على أن جشعهم لا يردعه شيء.

- لا يساورني أدنى شعور بالدهشة. ليس لدينا أي دليل على أنه تم تدمير عبوات التيلامون. نعرف فحسب أن أورلانتا طالبت بسحب عبوات

الولايات المتحدة. أتمنى ألا تكون نواياهم كما تقول.

- إذن يجب أن تظل عيوننا مفتوحة عليهم باستمرار؛ إنهم لا يتورعون عن شيء. إنهم قتلة أطفال (قال بورو بقلق بالغ). لا أعجب من أن ينتهي المطاف بهذه الأقراص هنا. تعلم أنه لديهم كونسورتيوم[1] هنا، لأجل هذا على وجه التحديد، ولأجل التجارة البينية والمباشرة مع ألمانيا.

- إذن، سنظل على اتصال (قال كيسلر). مازلت لا أدري كم من الوقت سأبقى هنا؟ لقد فكرت كثيرًا وأعتقد أنني سأعود إلى مدريد ما إن ينتهي كل هذا، لكن تأكد أن كونراد سوف يخطرنا إذا حدث أي شيء. يجب أن أتركك. أنت تعلم قيمة ذلك. كما لا أريد أن أتسبب في عجز بميزانية المستشفى. كنت أود أن تعلم ذلك فحسب. لكن كونوا على حذر! تحياتي للجميع. أخبرهم بأن لهم منزلًا هنا، لعدة شهور على الأقل.

- شكرًا جزيلًا، لكن أعتقد أننا سننتظر إلى أن تهدأ العاصفة لكي نزورك (قال بورو). علاوة على أن السيد والسيدة فرومنت اتصلا بي توًا. كلفاني بمهمة محددة ستستغرق مني بعض الوقت: سوف يرسلونني إلى البرازيل. نتحدث عندما أعود.

- إلى البرازيل؟

- نعم، لم أعلم سوى الآن.

- رحلة سعيدة وإلى اللقاء. أتمنى أن تسير كل أمورك على مايرام هناك.

***

---

1. كونسورتيوم سوفيندوس أو مجموعة شركات التمويل الصناعي، أسسها رجل الأعمال الألماني النازي، يوهان برناردت عام 1938، وكان مقرها في إسبانيا خلال الحرب العالمية الثانية، ونجحت من خلال فروعها المتعددة في أن تصبح قوة اقتصادية كبيرة لألمانيا النازية وإسبانيا أثناء حكم فرانكو الفاشي. صُفيت أعمالها واختفت عام 1945 (م)

حل الليل ورحل كونراد سنغر. فكر أنه يتعين عليه الانتظار أيضًا لكي يفتش مكتبه، متيقنًا من أن مسؤولي شركة الدواء دسوا له ميكروفونًا، سينتظر أيضًا الضربة الجديدة من عميل الشركة الذي يقوم بكل الأعمال القذرة: هارالد سيلفينر. كما سينتظر مواصلة وكالة الأغذية والدواء بالولايات المتحدة (FDA) ضغطها على دول أخرى لكي تتبنى معاييرها، ومن بينها ألا يغض أحد الطرف، مثلما حدث في ألمانيا وإسبانيا. كان مهتمًا بصفة خاصة بحالة بريطانيا العظمى.

يتمنى فاريك كيسلر أكثر من أي شيء آخر، ألا يلتقي بمزيد من الضحايا الأبرياء في قسم الأشعة. وكان متأكدًا من أنه إذا لم تتراجع مجلة تايندولر أمام ضغط شركة الدواء، ونشرت المقال الذي أعده زميله، فإن ذلك سيحدث أثرًا واسعًا في أوروبا أيضًا. أما شركة أورلانتا فقد تمنى لهم كل سوء: أن يذوقوا في لحمهم كل الألم الذي عانى منه الآخرون. استدعت هذه الخاطرة صدى صوت سيجفريد باشاراخ، سائق صديقته ميليفا الذي لطالما ردد على مسامعه تلك الكلمات بمعرض الحديث عن ممارسات محددة في معسكرات الإبادة.

***

توقف الأب بيلسيرميس منتظرًا بورو عند باب خروج حمام سباحة لا برثلونيتا. تجمد بورو في مكانه عندما رآه. ظل يتحاشاه منذ اعتراف نوريا. انتاب المهندس الكيميائي شعورٌ بالاستياء الشديد. لم يعرف كيف يواجه ذلك الموقف. بعد تحية باردة من جانب الاثنين، خفض بورو بصره على الفور.

اقترح عليه القس التوجه إلى حانة قريبة. ولكن عندما توقفا عندها، طلب منه المهندس الكيميائي أن يواصلا السير. كان يخشى مما قد يقوله له. قال مبررًا:

- يناسبني القليل من الهواء.

- أولا تخشى أن تصاب بالزكام بسبب شعرك المبتل؟

- على الرغم من أنه تنقصني أشياء كثيرة، تعلم أنني أتمتع بصحة كالحديد (نظر بورو لأول مرة في عينيه).

- سلفادور، ذهبت مساء الأحد إلى منزلك. وعدت الإثنين لأنهم أخبروني في المعمل بأنك مريض.

- يدرك بورو أن الكذب عليه سيؤلمه أكثر من وقع مشاركته ما جرى.

- أبتِ، لقد ذهبت إلى مدريد... مع نوريا.

- إلى مدريد؟ بمفردكما؟

- مع طفليها. لكن هذا غير مهم الآن.

- بل مهم، لا شيء غير مهم. جئت تحديدًا لأنني أريد أن نتحدث بشأنها. (لم يستطع بيلسيرميس انتهاك حرمة سر الاعتراف). لن أنكر عليك أنها لطيفة، ذكية، فاتنة، ودودة، وبها العديد من الخصال الأخرى، منها على سبيل المثال أنها متزوجة. وأراكما مقربين جدًا من بعضكما. بصورة مبالغ فيها.

- اسمعني! حضرتك تعرفني جيدًا. (وقف بورو مواجهًا للقس وأمسك بذراعيه). حدث لها شيء خطير. أخبرتني به فعرضت عليها المساعدة. ولم يكن بوسعي القيام بغير ذلك نظرًا لخطورة الموقف. زوجها لديه زوجة أخرى في مدريد، ولديه طفلان أيضًا. كان الغرض من السفر التأكد من ذلك.

- هل أنت متأكد من ذلك؟ هل هو متزوج من الاثنتين؟

- أنا متأكد مثل تأكدي من حبها.

- سلفادور، ما هذا الهراء الذي تقوله! إنها امرأة متزوجة. أنت بنفسك قلت ذلك توًا.

- أنا واقع في حبها، أنا لا أستطيع الكذب عليك، لكنني لن أفعل شيئًا إلى أن يُحل هذا الوضع. أعدك بألا يحدث شيءٌ آخر بيننا.

- آخر؟ إذن فقد حدث شيء بالفعل؟ (قال بيلسيرميس متفحصًا أعماقه من خلال عينيه.

نحاهما بورو بعيدًا عنه.

- لن يحدث شيءٌ إلى أن يتضح الموقف. أعدك بذلك.

- سلفادور، سلفادور، لم أربّك على هذا. (قال القس واضعًا يده فوق كتفه الأيمن).

- تعلم يا أبتِ أن الحياة بالغة التعقيد وأن الأمور لا تسير مطلقًا كما نريد.

- هذا أمر في غاية الخطورة. لن أخفي عنك أنني عرفت، بل وحفظت أيضًا، أسرار العديد من حالات تعدد الزيجات: سيدات تعتقدن أنهن أرامل حرب، أشخاص عجزوا عن تحمل زواج غير موفق، يعيشون في أماكن مختلفة، ولكن هذا... في الوقت الحالي من السهل كشفه. قد يدخل هذا الرجل السجن.

- لا أدري ماذا سيحدث. تقول نوريا إنها ستتظاهر أمامه في الوقت الراهن. (وجد صعوبة في ذكر اسمه، يفضل ألا يفعل).

- كتبت نوريا رسالة إلى برنامج المستشار العاطفي. وبحكم العادة، وحتى الآن لم يقرأها أحد غيري. تحكي بدون مزيد من التفاصيل أن الزوج خدعها خدعة كبيرة، على الرغم من عدم ذكرها أي شيء عن أمر ذهابكما إلى مدريد... ومن أين المرأة الأخرى (أضاف القس).

ابتسم بورو حينما أدرك أن بيلسيرميس كان يختبره، وشعر بالرضا لأنه أخبره بالحقيقة.

- لعلها فعلت ذلك تنفيسًا عن نفسها. لن تكون الأمور سهلة عليها

منذ الآن.

- من المحتمل أن تجد نفسها مضطرة لكتابة رد على نفسها إذا لم نقم بإذاعة الرسالة (قال الأب بيسليرميس بدون أدنى قصد للمزاح، مؤكدًا أن عمله في قراءة الرسائل جاد للغاية، على عكس مما تتصور نوريا).

ابتسم بورو لأنه توقع توبيخًا أسوأ.

- هل أستطيع أن أطلب منك معروفًا؟

- تعلم يا بني، أنك تستطيع.

- سوف أرحل إلى البرازيل. اتصل السيد والسيدة فرومنت بي أمس ليحددوا لي المهمة الموكلة إليّ. يعتزمان إطلاق منتجات جديدة في السوق ولهذا فلا أقل من أن يرسلاني إلى الأحراش للبحث عن المكونات. قدما الموعد كثيرًا بالنسبة لي لأنهم يريدون لقائي في بوينوس آيرس ولديهم شيء يريدان إطلاعي عليه، هكذا أخبرتني دونيا ليونور. سأتجه بعد ذلك إلى بورتو فيليو. تعرف المنطقة التي سأنزل بها باسم لابري.

- أعرف ذلك أيضًا. ربما كان أفضل توقيت. يعلم الله دائمًا سبب تدبير الأمور. يخط القدر على أسطر ملتوية (قال القس).

- الأمر وما فيه، بما أنك بالفعل على علم بكل شيء، أود أن أطلب منك أن توافيني بأخبار نوريا طيلة فترة وجودي في الخارج، وأن تحرص على ألا ينقصها شيء.

- سلفادور... (زجره القس).

- يا أبتِ، أرجوك، إذا حدث أي شيء، فأخبرني على الفور. ستجد حضرتك الوسيلة. الكنيسة لديها إرساليات في كل مكان. عن طريقهم... وسوف أحيطك علمًا بعنواني البريدي كلما تيسر لي ذلك.

- وكم من الوقت ستبقى هناك؟

- حسنًا، نحو عشرين يومًا، تشمل الأيام في الأرجنتين، ورحلة الذهاب والإياب والإقامة في البرازيل.

- سلفادور، لا أريد أن أكون مقلقًا، لكن توخَّ الحذر كثيرًا. هذا الأمر الذي كشفتموه... أخشى أنهم سيطاردونكم، لن يقفوا مكتوفي الأيدي وهم يرون مكاسبهم الاقتصادية تتهاوى مثل الذي يتأمل الجزء الأخير من جبل روسي. حياتكم على المحك.

- أعلم، يا أبتِ. لا يساورك أدنى شك في أنني مدرك لذلك تمامًا. وأشكرك (أضاف بورو مقتربًا لمعانقته. لطالما خففت تلك اللفتة من شعوره باليتم، وساعدته على استعادة السكينة، وجعلته يشعر بأن كل شيء عاد لطبيعته تقريبًا).

ودعوا بعضهم بعضًا بالقرب من متنزه مونتيرولز وسار بورو حتى جادة بونانوفا. كان يدرك الصدمة التي سيسببها خبر رحيله لنوريا، لأنه تلقى أيضًا الخبر على هذا النحو، وبدون أن يتوافر لديه الوقت الكافي للاستعداد.

50

قرر بورو المجازفة والذهاب إلى منزل نوريا. دق الجرس فنزلت على الفور. وبمجرد أن رآها، حنث بالعهد الذي قطعه للأب بيلسيرميس، وقبلها.

- ماذا تفعل؟ هل جننت؟ من الممكن أن يأتي ماكسيمو في أية لحظة (همست له وهي تنظر إلى نوافذ البناء).

- نوريا، لم أعد أستطيع. أعشقك أكثر من ذي قبل. أريد أن أبقى معكِ لوقت أطول. معذرة لأنني لم أعد أسيطر على نفسي.

- حسنًا، اصعد! لكن لبرهة فحسب. وإن ظهر ماكسيمو...

تفاجأ بورو، عندما دلفا إلى غرفة الاستقبال، حينما رأى دمية ترتدي زي مضيفة تتوسط قطعة أثاث حجرة الطعام وكأنها لقديسة. تتبعت نوريا اتجاه نظراته.

- صنعت لها أورسولا الثوب. رأت الزي الأزرق البحري في مجلة، وأصرت ابنتي على أن يكون مثله (ابتسمت نوريا).

يدرك بورو، أنه بالرغم من مزاحها، فهي محطمة. لاحظ ذلك من تعبيراتها، من الوجه المنتفخ من البكاء، وبصفة خاصة من مرارة ذلك التعليق الذي عقبت عليه قائلة:

- ها هي ذي، لعلها تذكر ماكسيمو بشيء.

- ماذا قال لكِ طبيب العظام في الاستشارة الأخيرة؟ (غير الموضوع).

- أن الأمر يسير بشكل جيد، وقد تأكد أنها كانت مجرد شروخ في العظام. أعلم أنها ستشفى قبل الرأس، ولا أقصد تقطيب الغرز.

- نوريا، أنصتي! اقتربي هنا! (قال وهو يمسكها من خصرها). سوف أتغيب لبضعة أيام. يجب أن أسافر إلى البرازيل.

- إلى البرازيل؟ ولكن، لماذا؟

- يريد السيد والسيدة فرومنت أن أجلب لهما بعض المنتجات بأسرع ما يمكن. حجزت لي ليليانا تذكرة حتى بوينوس آيرس، سأهبط هناك مؤقتًا، وسألتقي بهما، وبعد ذلك سأدخل الأحراش (قال لها تلك الجملة الأخيرة بنبرة مزاح).

أومأت برأسها نفيًا. كانت محطمة.

- سترحل أنت أيضًا، كلكم سترحلون.

- أؤكد لك أنني لن أظل هناك. أعشق أشياء كثيرة في هذه المدينة.

اصطحبته نوريا إلى المطبخ. أغلقت الباب بمجرد أن دخلا. شرعت في مداعبة وجهه، صدره وقبّلته من شفتيه. لم تستطع كبح نفسها. كانت بحاجة إليه قريبًا منها. أن تذوب معه. لم يكن يشغل بالها سوى أنه على وشك الرحيل.

أمسك بورو بساقيها بقوة من أسفل التنورة، ووضع يدًا على كل فخذ. لم يستطع كبح جماح نفسه، إلا أنه فكر في ماكسيمو، وأنه قد يظهر في أية لحظة: لتغيير في المسار، أو لأمر طارئ، أو تعليمات أخرى، ويجدهما هناك، في المكان الذي مازال بيته.

- ليس من الإنصاف، أن يكون لديكم جميعًا حياتكم. بينما أنا أنتظر. هذا هو الشيء الوحيد الذي أفعله. لدرجة أنني أنتظر أن تعاود مرسلات الخطابات الكتابة لي من جديد. انظر كم أنا وحيدة!

- لا تقولي هذا، سأكون بجانبك دائمًا. سنتبادل الرسائل خلال هذه الأيام. (شرع في تقبيلها من جديد، إلا أنها أشاحت بوجهها بعيدًا عنه).

- وستتأخر الرسائل كثيرًا في عبور المحيط. بقليل من الحظ، قد تعود أنت قبل وصولها.

- نوريا... (قال وهو يعانقها بقوة).

- شيء واحد (واصلت هي الابتعاد عنه قليلًا)، من الأفضل أن ترسلها لي على المختبر. لأنه بعد كل ما عانيته لا أريد أن أبدو شريرة الفيلم. (عدلت نوريا تنورتها وسوت شعرها بيديها).

- فكرت في إرسالها على عنوان برنامج المستشار العاطفي (قال وهو يغمز بعينه)، لكي أرى بماذا ستنصحينني أن أفعل. في حال أصبحتِ أرملة...

لم تبتسم نوريا كما تمنى.

- حسنًا، تعلمين أن مسألة السفر لا تعني نهاية كل ما سبق. لا سبيل للتراجع (تابع بورو).

قبلها مجددًا. لم تتحاشاه نوريا هذه المرة. أفزعتهما جلبة في الطابق العلوي؛ فانفصلا.

- فكري أن السفرة ستستغرق أسبوعين ونصف! أتعرفين أنني سأظل طوال الليل، وكل الأيام... دائمًا... أريد أن أعطيكِ شيئًا. نسخة من مفتاح شقتي. أود أن أطلب منكِ، إذا لم يكن يضايقك، أن تتفقديها لمرة واحدة في الأسبوع على الأقل. سأشعر بأنني أفضل بكثير إذا تأكدت من أنني لم أهجر أجاتا.

شعرت نوريا ببرودة المعدن في راحة يدها. نظرت إلى عينيه، وأدركت أن هذه المجموعة من المفاتيح لن تفتح باب منزله فحسب، بل أكثر بكثير من ذلك.

- لا تقلق! أتمنى لك رحلة سعيدة وبلغ تحياتي للسيد والسيدة فرومنت عندما تلتقي بهما في بوينوس آيرس!

بذلت مجهودًا كبيرا للسيطرة على دموعها.

- سأفعل بالطبع. إلى لقاء قريب. (قال بشكل متعجل وكأنه يتعين عليه بالفعل التوجه من منزلها إلى المطار، إلا أنه توقف فجأة وظل ينظر إليها لبضع لحظات بدون أن ينبس ببنت شفة. بعد ذلك استدار خارجًا.

اتجهت إلى الشرفة ومست الزجاج. متقوقعة في منزلها، انسابت دموعها متناغمة مع حبات المطر الذي بدأ في الهطول.

***

بعد أن تأكد عامل البناء من أن كل شيء مضبوط، ارتطمت كرة الهدم التي تزن نحو مائة كيلوجرام من الصلب المعلقة بكابل معدني إلى ونش، بواجهة المبنى ذي الطوابق الثلاثة الذي راكم جيوفري بالادري به معلومات عن حياة غرباء بالإضافة إلى فشله الخاص. تراصت الكراكات المزودة ببلدوزرات على الجانبين. لم يعد متبقيًا سوى وقت قليل للغاية لكي تحظى هذه المنطقة من الحي بمظهر حضري متجانس ومطور.

لن يستطيع المتضرر من عملية الهدم قبض قيمة المبلغ الذي أقرته خطة الحكومة الخمسية في أحوال مثل تلك: تبعثرت المناطق التي كانت مميزة في أزمنة أخرى، وسط أبراج المجمعات السكنية. وأغمض عينيه إلى الأبد، في مستشفى سانت باو، من كان مالكًا لذلك المنزل، الذي ورثه عن والديه.

هذا ما قرأه ماكسيمو في الجريدة. كما أفاد المقال القصير نفسه بأن المحقق الخاص، الذي دخل المستشفى في حالة خطيرة قبل بضعة أسابيع، سينقل إلى المشرحة لكي يتعرف عليه أهله، في حالة إذا كان لديه أهل، حسب نص المقال، ويتولوا أمر جثمانه، بغرض دفنه بطريقة مسيحية لائقة.

طلب مسؤول شركة التعدين من النادل الواقف أمامه في الحانة نفسها أن يحضر له الهاتف، واتصل بالمستشفى على الفور. ادعى أنه صحفي وأنه يريد معرفة أين ومتى يدفن المرضى الذين ليس لهم أقارب؟

- سيدي، يخصص لهم لحد صدقة بمقابر المونجويك. توجد هذه اللحود اعتبارًا من الطابق السابع، ولا يسأل أحد عن أصحابها. تتكفل البلدية، في هذه الأحوال بتكاليف الدفن. وإذا لم ينقلها أحد خلال خمس سنوات إلى مقبرة خاصة، يلقى ببقايا الرفات في مقبرة جماعية. هذا هو الإجراء (قالت المتحدثة وكأنها إنسان آلي).

- حسنًا. وإذا توفي شخص أمس تنطبق عليه هذه المواصفات، في أي ساعة سيقام قداسه الجنائزي؟

- كالمعتاد في آخر ساعة من المساء، سيدي، لتجنب أدنى قدر ممكن من الإزعاج.

انطبع في ذاكرة ماكسيمو ثفرا تعبير « بقايا الرفات». فكر أن الإجراءات الإدارية الأخيرة تقتضي أكبر قدر ممكن من الخصوصية لأنه بالإضافة إلى جسامتها كانت نهائية.

***

لم يحضر مراسم دفن بالادري سوى امرأة واحدة فحسب، بالإضافة إلى عمال المقابر، سائق السيارة الجنائزية ومرافقه. تعرف مسؤول شركة التعدين عندما اقترب، على دونيا ريتا مرتدية زي حداد أرملة طروب. غطى وجهها وشاح موشى بترتر أسود، واعتمرت قبعة صغيرة من القطيفة، وحلة ذات سترة سوداء محبوكة على جسدها. لم يستوعب ماكسيمو كيف استطاعت الوصول إلى هناك بهذا الكعب.

- بورتماريس، بالرغم من حِذق رفيق مغامراتك...

- ماذا تفعلين هنا؟ (سألها ماكسيمو).

- ألم نأتِ لنفس الجنازة؟

- لا، أنا لا. والدة أحد رؤسائي مدفونة هنا، ولأن اليوم يتوافق مع يوم شفيعها، فأنا مكلف بأن أضع لها هذه الزهور. وكنت راحلًا.

لم يتوقع ماكسيمو أن يتعرف عليه أحد في تلك المواقف. ولكن فكر، عقب حضور دونيا ريتا، في أن شراء باقة الزهور كان فكرة جيدة. عندما اتجه لبائعة الزهور، كانت تقوم بإفراغ دلائها عند المدخل، فطلبها منها بنية الاختباء خلفها فحسب.

- لكن هذه المصادفة، بورتماريس...

- أخبريني، دونيا ريتا، ماذا حدث؟

- انظر! لا نعرف بالضبط. كفّ عن الحضور إلى المنزل. قرأت إحدى الفتيات في الجريدة، بينما تحتسي خارجًا في ميدان سان أجوستين، أن مخبرًا سريًا بحالة خطيرة للغاية. فأخبرتني لأننا لا نعرف بالفعل كثيرين يمارسون تلك المهنة، وربطنا الأمور بعضها ببعض. كان يتحدث أحيانًا عن زوجته، ولكن فيما يبدو ليس لها وجود في أي مكان. ذهبت لزيارته ذات مساء، لم يستطع الكلام، يفتح عينيه بصعوبة، نظر إليّ، ولكن وكأنه لم يتعرف عليّ. حينما خرجت طلبوا بياناتي، يبدو أنهم لم يكونوا يعرفون كيف يتخلصوا من عبء المتوفى، وهذا على الرغم من أنه لم يكن قد توفي بعد. أما أنا، فقد أعطيتهم بالطبع اسمًا من الحرب. صحيح أنه كانت بيننا صداقة، أما أن أدفع تكاليف جنازته، فلا.

- وألا تعرفين سبب وفاته؟

- نحن سألنا زبائن آخرين. وكما تعرف، برشلونة صغيرة للغاية، وخاصة في الليل، وتحدث أحدهم. حكى لهن أنه كان متورطًا في أمور

خطيرة، وتمادى في ذلك. حدثهن في الصالة، بعد الكثير من كؤوس الويسكي عن شخص فارع الطول، حسن المظهر، قادر على إثارة جنون فتياتي.

لم يشك ماكسيمو في أن هذا الوصف ينطبق بالتمام والكمال على بورو نافاسكويس. لم يكن يعلم أن عيون دونيا ريتا سبق لها معرفة هذا الأخير.

- يبدو أنه كان يثير قلق المرحوم، حيث ظل يراه لفترة أينما ذهب. ولم يعد يعرف أين يختبئ. نهض فجأة ذات ليلة في منزلي، واتجه إلى الشرفة وأخذ يصرخ: «ها هو، ها هو، هل ترونه؟». ولكن لم ير أحد شيئًا. يعد خسارة كبيرة بالنسبة لعملنا. لم يتسبب لنا في أية مشاكل، كان يدفع بسخاء، ولطيف في المعاملة. لا يمكن أن نطمع في أكثر من ذلك. لهذا وجدتني مضطرة للمجيء.

- أتفهم، دونيا ريتا.

- وسيادتك؟ ماذا كانت علاقتك به؟

- كما تعلمين لم نلتق سوى مرتين فحسب في منزلك.

- نعم وكان يعاملك بمنتهى الألفة.

- حسنًا، المألوف أنه في مكان مثل منزلك، كما تعلمين، يعقد نوع من الصداقة السريعة. لقد التقيت بكل هذا بالصدفة البحتة.

رمقته دونيا ريتا بنظرة من أعلى لأسفل. ولوت فمها، رافعة فكها جانبًا أعلى من الآخر وضيقت إحدى عينيها، بينما انتابها شعور بالأسف لأن هذا الرجل يحاول خداعها مستهينًا بعقدين من الزمان قضتهما في مهنتها.

- انتبه لحالك أنت أيضًا، بورتمارس! أرى أنك في غاية الارتباك.

- هذا ما سأقوم به بالفعل، لكنكِ مخطئة. أنا في خير حال أكثر من أي وقت مضى. في قمة النجاح.

- سوف تفهم.

ودعها ماكسيمو بينما مسحاة أحد البنائين ينهال على الشاهد الذي لا يحمل اسمًا لكي يثبته في موضعه بعد تسوية الإسمنت الطازج. وبمجرد أن أدرك أنه أصبح بعيدًا عن مرمى بصر دونيا ريتا، ترك باقة الورد على أول قبر صادفه وهو ينعطف عند الناصية. رأى في الخارج سيارة بمحرك دائر لا يمكن أن تكون في انتظار أحد سواها.

تعرفت تلك المرأة في الحال، عندما سلكت أيضًا الطريق إلى الخارج، على الزهور التي كان يحملها من دعته بورتماريس. كان قد وضعها على شاهد رمادي لقبر يحمل صورة رجل عجوز، يرتدي نظارة وله شارب، وقد التقطت له الصورة التي عاشت بعد وفاته بحلة من صوف التويد. لم يكن يرافقه أي أحد آخر في مثواه الحجري.

51

وصل بورو إلى مطار إيزيزا الدولي، على مسافة خمسة وثلاثين كيلومترًا جنوبي شرقي بوينوس آيرس، في الساعة السابعة والنصف مساء. بعد ذلك بأقل من ساعة كان يجتاز بهو فندق سيلكيت، بحي بيلجرانو. يغلب على الواجهة والديكورات الداخلية للفندق التصميم المعدني، وحيثما وجه المهندس الكيميائي بصره وجد أعمدة من الصلب، الألومينوم المصقول، لوحات ذهبية وفضية. تمتد في الخارج، على النقيض من ذلك كانت الطبيعة الرحبة لغابات باليرمو. اضطر المهندس الكيميائي لتحاشي البريق الذي أعشى بصره. أخبره موظف الاستقبال أن السيد والسيدة فرومنت في انتظاره بالمطعم وأنه سيهتم بحقائبه. لم يتصور أن يكون موعد الاجتماع مع رؤسائه بمجرد وصوله. ميزهما على الفور. كان أمام كل من دون أليكس ودونيا ليونور كأسٌ من المارتيني. استأذن بعد المصافحة لبضع دقائق للصعود إلى حجرته للاغتسال وتغيير ثيابه.

- حسنًا حسنًا، نافاسكويس. على أية حال، ضيفتنا الأخرى لم تصل بعد.

- من تنتظرون؟ (سألهما).

- شخصًا له علاقة وثيقة بخطتنا للتطوير: أروع امرأة ستلتقي بها على الإطلاق.

«بعد نوريا»، (فكر بورو).

- لن تصدق (قالت دونيا ليونور). لن تصدق شيئًا مما سترى أو ستسمع

هنا الليلة. مثلما حدث لنا منذ أن عرفنا بأمرها، أليس كذلك، أليكس؟ لقد احتفظنا بذلك سرًا طوال هذا الوقت لأنه من الأفضل لنا أن يظل الأمر هكذا. اصعد إلى حجرتك وغير ثيابك! إنها على وشك الوصول. فليبدأ الحفل! مرحبًا بك.

أصبح جاهزًا خلال ربع الساعة. توقف عند مدخل المطعم. من الخلف بدت له طفلة، الشخصية التي كانت بصحبة رؤسائه. اقترب بورو وسمع إصرارها الشديد على رفض شيء ما.

- أخشى أن ما تطلبونه مني مستحيل. أنا على وشك الانتقال، يجب أن أغلق منزلي في بيا لا انجوستورا. والسفر الآن إلى برشلونة...، وكل ما يقتضيه. لقد وافقت على مقابلتكما لأنكما أصدقاء رعاتي، نيلدا رانخل وزوجها، لكن من فضلكما افهماني!

انتبه دون أليكس إلى أن بورو قد وصل:

- اجلس من فضلك! (وعرف أحدهما بالآخر): الآنسة العزيزة فريدا، يرافقنا هذه الليلة السيد بورو نافاسكويس، إنه المهندس الكيميائي في معمل مستحضرات التجميل الخاص بنا، وهو مسؤول الرقابة على الجودة. يقوم بعمل ممتاز.

- آنسة (قال بورو، وهو مازال واقفًا، وتناول يدها ليقبلها. لم يخطر على باله طريقة أخرى لمصافحتها).

- أنت في منتهى اللطف (قالت وهي تتفحصه بعناية شديدة وكأنها تريد استحضاره في ذهنها من مكان ما في الماضي)، بورو، ومن برشلونة أيضًا.

أومأ بالإيجاب.

- نود اصطحاب الآنسة لورنسن معنا، بورو، فلنر إذا كنت ستساعدنا في إقناعها! من المهم للغاية أن نبقيها معنا هناك لعدة شهور. سيعد هذا

بمنزلة مرحلة فارقة بالنسبة لأعمالنا.

ظلت فريدا تنظر إلى بورو وكأنها غير مهتمة بأي شيء آخر غيره. ضايقه ذلك وأرجعه إلى أنها فتاة مراهقة لا تتقن بعض القواعد الاجتماعية. وجد صعوبة في استيعاب اهتمام رؤسائه بها.

- حضراتكم ترغبون في أن أخبركم عن مكونات تركيبتي الخاصة لكي أحتفظ بشبابي للأبد، أليس كذلك؟ (قالت فريدا بهذا الأسلوب المباشر للغاية لتعلن مرة واحدة هدف السيد والسيدة فرومنت).

- نعم، بوسعنا تلخيص الأمر على هذا النحو، آنسة لورنسن. بورو، ها أنت قد رأيت الحالة الرائعة التي تبدو عليها ضيفتنا (قالت دونيا ليونور لكي يستوعب موظفها موضوع الحديث). إذا لم تكن وقاحة مني، فهلا أخبرتيه بعمرك؟

- بوسعي ذلك، سيدة فرومنت، ليس لدي أي مانع، ولا يضايقني لأننا هنا من أجل الحديث عن الأعمال.

اندهش كلٌّ من دون أليكس ودونيا ليونور من ذلك التحول، بدا أن فريدا بدأت تظهر اهتمامًا بعرضهما. تبادل الزوجان نظرة تواطؤ: يرجع ذلك بدون شك، لوجود بورو أيًا كان السبب الذي أثاره حضوره.

- سنيور نافاسكويس. (اندهش بورو تذكرها للقب عائلته). سأخبرك: أنا من مواليد 1914. ما رأيك؟

- مستحيل (قال بورو)، لأن هذا يعني أن لديك الآن... ثمانية وأربعين عامًا! بدلًا من مظهر الخمسة عشر هذا. غير معقول!

أخرجت فريدا جواز سفر دنماركي وبطاقة هوية أرجنتينية من حقيبة يد من القطيفة بدون يد على شكل ظرف، وقدمتهما إليه:

- تحقق منهما بنفسك! ولكن لا تقل إنني زيفت هذه المستندات

(ضحكت).

قرأ بورو التاريخ نفسه في جواز السفر وفي الوثيقة الأخرى، ثم نظر إليها بدهشة. لم يصدق أنه على جغرافية قارتين رآهما تمتدان على خريطة للعالم، يمكن رسم ذلك الخط المستقيم، الدقيق مثل مسار سهم ليجمع بين ما تسبب فيه التيلامون ونقيضه: جمال يقاوم الزمن في تلك المرأة التي تبدو في عمر صبية مراهقة.

تدخل دون أليكس، إزاء الذهول الذي علا وجه المهندس الكيميائي، متوجهًا بالحديث إلى فريدا.

- أتعلمين أن شركتنا تمر بأزهى عصرها، بصفة خاصة بسبب نجاح برنامج المستشار العاطفي الإذاعي، الذي يعد أفضل دعاية لنا؟ نود أن نصبح أهم ماركة مستحضرات تجميل في بلادنا، وفي أوروبا، إذا أمكن وإذا حبانا الرب الصحة لكي نحقق ذلك. يرجع الفضل لزوجتي في إدخالي لهذا السوق. وافقت في البداية، على أساس أننا سنقيم صالون تجميل فحسب، وانظر إلى أين وصلنا! إلى الأمريكتين. (رفع السيد فرومنت كأسه).

- انظر! سبق أن تحدثت في الأمر مع معارفنا المشتركين، لا أريد مالكم، يسعدني ازدهار شركتكم، ولا داعي لأن تسوقوا لي مبرراتكم. لدي رغبة واحدة فحسب. صرت، بمحافظتي على نفسي هكذا، رمزًا وتحديًا انتصرت فيه، والآن أريد تحصيل بعض ديون الماضي. هذا فحسب.

- كما تشائين. ربما نستطيع مساعدتك أكثر مما تتصورين (قالت دونيا ليونور).

نظرت فريدا لورنسن من جديد بتمعن شديد وهي تتوجه بالحديث إلى رؤسائه.

- سوف أقضي معكم بضعة أيام، لا أدري إذا كانت ستمتد لشهور،

لكن على الأقل عدة أسابيع، على الرغم من أن هذا قد يؤدي إلى أن أشيخ عشرة أعوام فجأة.

تبادل الثلاثة النظرات باندهاش.

– سوف أقدم لكم مخطوطة كتابي، بمجرد تسوية أموري المعلقة (تابعت فريدا). أعددت على مدار الصفحات المئة التي دونتها، بالفعل مقسمة إلى أجزاء، قائمة، تضم بين أشياء أخرى، كل ما هو ضروري لإيقاف عملية الشيخوخة وفقًا للسر الذي يقولون إن طبيب من الرايخ الثالث حمله معه إلى القبر. وكما ترون، لم يكن الأمر هكذا تمامًا: الوصفة لم تختف معه. ما رأيكم؟ تحصدون أنتم الذهب، وأحصل أنا على ما أتوق إليه. أعتقد أنها صفقة جيدة.

– هل تتحديثن بجدية؟ سألتها دونيا ليونور متحمسة للغاية لأن رفضها كان قاطعًا قبل مجيء بورو. كانت متأكدة أنه حدث هنا والآن ما يطلق عليه كثيرون «سهم الغرام». نظرت إلى موظفها وابتسمت.

– أتحدث بمنتهى الجدية. الأولوية عندي ليست لنشر الكتاب. مشاركة أسرار جمالي تعد من أعمال الكرم، هذا بالرغم من أنني لست معتادة عليها. أما فيما يختص بالماديات، فلا أحتاج لذرةٍ أزيد مما لدي؛ فثروتي تكفي بالفعل لكي أعيش محاطة بالرفاهية لسبع حيوات متعاقبة. على العكس، مقابل... الأمر الآخر، أنا مستعدة لتقديم كل سنوات عمري الباقية مرة واحدة. أتمنى أن تقبلوا عرضي.

52

استيقظت داخل ماكسيمو ثفرا، بعد لقاء المقابر، رغبة عارمة في تجريد دونيا ريتا من الثوب الأسود ذي السترة المحبوك على جسدها ومن الوشاح الذي يغطي وجهها، وباقي قطع الثياب التي كانت ترتديها حينما رآها عند شاهد القبر المجهول للمخبر السري. قرر زيارتها في التوقيت نفسه بالضبط الذي ذهبت فيه نوريا لأول مرة إلى منزل بورو لإطعام أجاتا، وشرعت في هبوط سلم ذلك البناء، عندما سألها ماكسيمو وهو في منتهى الدهشة:

- أنتِ، ماذا تفعلين هنا؟

تجمدت نوريا في مكانها.

- أين مارك وميربيا؟ (أضاف غاضبًا).

- مع دورا (قالت بطريقة أقرب إلى الهمس وكأنها تشعر بخجل شديد).

- اشرحي لي الآن أي شيطان أتي بك إلى هنا لأنكِ ستقولين لي أيضًا كعادتك دائمًا إنّ هذا له علاقة بعملك؟ (قال ماكسيمو وهو يجذبها بقوة من ذراعها).

- اتركني! إنك تؤذيني.

- وسأوذيكِ إذا لم تخبريني في أي شيء ورطت نفسك. وأحذرك، للمرة الأولى والأخيرة، أريد الحقيقة. أعلم أمورًا كثيرة. فلا تحاولي الكذب عليّ هناّ احتفظي بالقصص التي تختلقينها لكتاباتك!

- الحقيقة؟ الحقيقة الوحيدة هي أنه يجب أن ترحل، تعود إلى مدريد إلى

مارا وطفليك الآخرين.

ارتبك ماكسيمو وخفت قبضة يده. انتهزت نوريا الفرصة لتتحرر منه وشرعت في صعود السلم.

- ماذا قلتِ؟

- لقد سمعتني. اتركني! إنه أفضل شيء بوسعك فعله. اذهب إليها في مدريد، لا تعد مطلقًا!

- معها... مع مَن؟ (شرع في الكلام ولكنه لم يجرؤ على الإنكار).

- ومع المضيفات. ارحل! (صرخت فيه من أعلى). أريد أن تكون هذه هديتي لهذا الأسبوع. لا أريد رؤيتك مرة أخرى. سيكون مكسبي كبيرًا. (أخرجت بسرعة فائقة المفاتيح ولاذت بشقة بورو).

صعد ماكسيمو مهرولًا درجات السلم المتبقية لكي يلحق بها هناك وأخذ يضرب الباب.

- افتحي!

- ارحل! (قالت نوريا من الداخل)

- ليس قبل أن تخبريني عما تورطتِ به. من أخبركِ بأمر مارا؟ (صرخ غاضبًا وهجم على الباب، فصدرت عنه طقطقة ثم انثنى). أجيبي!

- هل هذا هو كل ما يهمك؟ معرفة من أخبرني؟ لماذا؟ لكي تقتله؟

- سأحطم الباب.

تراجعت نوريا مذعورة. وانقض ماكسيمو على الباب بغضب أكبر! ارتج أحد مصراعي الباب مثل نوريا؛ فتهاوت المفصلات على الفور، أمام قوة ماكسيمو، وكانت أقرب للمستخدمة في الخزائن. أول شيء فعله، بمجرد أن أصبح في الداخل، أن ظل يدفع نافذه الفناء الداخلي نحو الخارج، وحينئذٍ قفزت أجاتا من فوق السطح المجاور.

- ما هذا الكائن الغريب؟

احتضنتها نوريا بين ذراعيها وأخذت تداعبها. كانت القطة ترتجف. تابع هو تفتيشه. عندما رأى فرشاة الحلاقة، قطعة الصابون وماكينة الحلاقة اليدوية موضوعة على رف في الحمام، طوح بها جميعًا على الأرض.

- من يعيش هنا؟ ألا تجيبين؟

ضمت نوريا القطة بقوة إلى صدرها. أخرج درج الطاولة المجاورة للفراش وأفرغ محتوياته على السرير. التقط صورة امرأة آية في الجمال.

- ليس سيئًا.

كان هناك كتابان فوق طاولة قصيرة، إلى جوار وحدة إضاءة جانبية تشكل طقمًا مع تلك التي تزين صالون دونيا ريتا.

- *تركيبات ومصطلحات الكيمياء العضوية. مفاهيم نظرية حول الكيمياء*. (قرأ العنوانين). إذن فهو يختبئ هنا. لحسن الحظ أنني أبلغت عنه.

- لكن ماذا تقول؟ عمّن أبلغت؟

عندما رفع الكتابين من على الطاولة الصغيرة، سقط من أحدهما نسخة من تقرير وزارة التجارة حول رفض معمل أورلانتا إخبار الأطباء الإسبان.

- ماذا يفعل هذا هنا؟ تحدثي! هل تعرقلين مسيرتي؟ من أين حصلتم عليه؟ هل كنت تتجسسين عليّ؟

- عماذا تتحدث؟

- لا تتلاعبي معي! هذه المعلومات حول التيلامون مصنفة سرية للغاية..

- وما علاقتك أنتَ بالتيلامون؟ (قاطعته نوريا).

- نورد المكونات الإضافية لأورلانتا. ذلك فحسب.

- وهل تستهين بذلك؟ لقد ساعدت في تصنيع ذلك السم (قالت نوريا بمنتهى الغضب).

- لا تتفوهي بترهات! نورد أملاحًا معدنية لسواغات المستحضرات الدوائية، لا علاقة لها على الإطلاق بالمواد الفعالة أو آثارها الجانبية. لكن يبدو، أنكِ تعرفين بالفعل ولم تخبريني بشيء.

- لم أكن أعرف أنهم زبائنك.

- لم أكن أعرف، لم أكن أعرف! نحن الذين لم نكن نعرف ما يجري حتى الاجتماع مع وزارة التجارة. ماذا! ألم يخبرك عشيقك عندما كلفكِ بالعبث بأشيائي؟

- أنا لم أفتش في أشيائك! (احتجت نوريا في غضب شديد). كل المعلومات عن حياتك الأخرى أرسلها لي شخص يبدو أنك لم تكن ترقه على الإطلاق. يحصد المرء ما يزرع (قالت نوريا مستعيدة هدوءها).

- هل هذا تهديد؟ ماذا تنتوين؟ تحطيمي؟ هل الأمر هكذا؟ تريدين الانتقام بسبب موضوع مارا؟ أنتِ لا تدركين ما تقولين. ولا أنتِ أو ذلك القاتل سوف تسلبونني ما بذلت الكثير من الجهد لتحقيقه: عملي، ترقيتي، تقدير رؤسائي الكبير، كل ما لدي. هل تسمعينني؟ أنتما بائسان. ولكن يا لكِ من حمقاء! أي لص حقير يتلاعب بك كدمية ماريونيت! ماذا وعدك بالمقابل؟

- أنت لا تعي ما تقول. بالإضافة إلى أنه ليس لديك أي حق في التحدث معي. بعد... أتعرف أسوأ ما في الأمر؟ أنني لا أجد سببًا. لماذا تريد تعقيد حياتك على هذا النحو؟ أليس لديك ما يكفي معنا، معي؟ وتلك المرأة المسكينة، بائسة أخرى جراء أفعالك ولأجل متعتك. هل أحضرت عشيقاتك المضيفات إلى منزلنا عندما كنت في البلدة مع والديّ؟ أنت تثير قرفي، وتسبب لي كثيرًا من الألم، ماكسيمو. ستموت وحيدًا. أنت لا تحترم شيئًا أو أحدًا.

- اخرسي! لا اتمنى الآن سوى أن تلقي الشرطة القبض على ذلك التعس الذي كان يعيش هنا.

- لم يرتكب بورو أي خطأ لأنه أولًا وأخيرًا إنسان طيب. لم تخبره بأنه في البرازيل.

- لكن يا للكِ من ساذجة! هل تعتقدين أن العالم يسير على هذا النحو. آليت على نفسي ألا أستسلم حتى لا يتراخوا. أستطيع أن أكون مقنعًا للغاية. وأنتِ تعرفين ذلك. لن أتوقف حتى أراه وراء القضبان. كم سأضحك! أنتم لا تعرفون فيم زججتم بأنفسكم ومع من عبثتم؟

- أستحلفك بأحب ما لديك، بأبنائك، هنا وهناك، أتوسل إليك ألا يصاب بورو بأذى. سيكون ظلمًا رهيبًا، ولقد سقط الكثير من الضحايا بالفعل جراء هذا الوضع. (لم يعرف على وجه الدقة ما تشير إليه، إلا أنه تركها تسترسل). لديه مبادئ أتعلم ذلك؟ ليس بوسعه التسبب في أي أذى لأحد، أؤكد لك ذلك.

- حقًا؟ نعم إنك متأكدة...

- إنه إنسان جدير بالاحترام، ماكسيمو. نزيه، حكيم، منصف للغاية. لا يمكن أن يخدع أحدًا. ليس خائنًا. يضع الحقيقة دومًا نصب عينيه، وهذه شجاعة، لا يكذب مهما كان، الحقيقة بلا رتوش دائمًا. (انتبهت نوريا لتصاعد حدة توتر ماكسيمو، إلا أنها لم تشأ التوقف). بالإضافة إلى أنه شديد التدين. أنت مخطئ. إنه...

لم يتركها ماكسيمو لتكمل، انتزع منها القطة وقبض عليها من ظهرها لكي يلقي بها على الأريكة. أما نوريا فقد سحقها في اتجاه الحائط وعضها من فمها. لاحظت الدم، فمسحته بيدها وابتلعت في نفس الوقت الذي سال داخل فيها وهي تضم شفتيها نحو الداخل. ثبتها بعد ذلك من معصميها، وألصقهما إلى الحائط ليشل حركتها.

- لا داعي لأن تقولي المزيد عن مدى روعته. أنتِ غبية، لقد وقعت في غرام شخص سادي، الذئب في ثوب الحمل. لن تتعلمي مطلقًا. لقد رأيت

المكان الذي قتل فيه ذلك العجوز، البائس التافه، كما أنه لا يعد خسارة كبيرة. استأجرته لأنني شككت في شيء. يجب أن تعرفي أنكِ لن تخدعيني. وأنتِ لم تخدعيني في أي وقت، لكنني تركتكِ لأرى إلى أين يأخذكِ التمادي ولكن لا حدود لكِ. أشعر بالعار لأنني أنجبت أطفالًا منكِ. وأتصور أنني ضحكت عندما حدثني هذا المحقق أو أيًا كان عن مؤامرة دولية. بدا لي شديد المبالغة ومختلًا تمامًا...

لم يكف ماكسيمو عن الضغط عليها تجاه الحائط، ولم تتمكن نوريا من الحركة، كما لم تتكلم. شعرت بكم هائل من السخط عليه؛ ففضلت أن تثبت عينيها فيه لتقول له فحسب:

- فلندع الأمر هنا، ماكسيمو!

- هنا، في هذا المنزل الخرب؟ ماذا سنترك هنا، طفلينا؟ لا، سيأتون معي، لكيلا يصبحوا مثلك، أما أنتِ؛ فسوف أودعك مصحة عقلية، سوف ترين، سرعان ما سأحصل على الأوراق لكي يدخلوك. سوف أحبسك مدى الحياة.

أمسك برأسها بكلتا يديه، ودفعها إلى الحائط وكأنها سقاطة الباب. وشرع في الوقت نفسه في انتزاع سترتها، وانتزعها بعد أن قلبها على ظهرها، وكأنه يسلخها ثم قلبها مرة أخرى في مواجهته، شق بلوزتها، وشرع في صفعها، ودوى صوت كل ضربة بقوة أكبر في الجدار. رفع أحد ساقيها وحاول ولوجها. وأمسكها من شعرها وهو يردد أنه سيجعلها تدفع ثمن كل ما فعلته به وأنه لن يهدأ له بال حتى يزج بها في مستشفى الأمراض العقلية.

صرخت نوريا فكمم فمها بقوة. خرجت عن شعورها. لم يكن بالنسبة لها زوجها. عضت إصبعين من يده، فشعرت بألم شديد عندما انتبهت لاصطكاك خاتم ماكسيمو بأسنانها. وما إن أبعد يده حتى انتهزت الفرصة لكي تصرخ مرة أخرى. حينئذٍ أحاط عنقها بيده الحرة وكأنه يريد كسره.

انبثق منه الدم لكثرة الخدوش التي سببها لها. قفزت القطة في تلك اللحظة فوقه من الرف المقابل وأنشبت كل مخلب من مخالبها في عين من عينيه. انتهزت نوريا الفرصة لتخرج مهرولة هابطة السلم. رأت باب إحدى الشقق مفتوحًا فدخلت، مقطوعة الأنفاس.

- أنجدوني! من فضلكم، أتوسل إليكم.

التف الجميع حولها. سُمع صوت ضجة في الخارج.

- أخبروني أين الحمام!

تطلع رجل طاعن في السن، كان بجوار إحدى فتيات دونيا ريتا، إليها بذهول وكأنها كائن خرافي. نهضت مرافقته واصطحبتها إلى أحد أبواب الدهليز. أوصدت الباب على الفور بالمزلاج ووضعت مقعدًا أمام الباب، وأنزلت دولابًا خشبيًا صغيرًا من مكانه ووضعته فوق المقعد. ظلت الضوضاء مستمرة في الخارج. كان ماكسيمو يصرخ:

- أين هي؟

- حالًا حالًا حالًا. (سمعت حينئذٍ صوت سيدة)

- بورتماريس، إنه أنت. ماذا تريد؟

- أين زوجتي؟

- زوجتك؟ هنا؟ هل فقدت صوابك؟ أتعرف أين أنت؟ (لم تكف دونيا ريتا عن إثارة الضجة واضعة يديها مرة في وسطها وأخرى حول فخذيها).

انفتحت عدة أبواب في الوقت نفسه، أبدى بعض الزبائن دهشتهم فحسب، فيما سارع آخرون بالرحيل بينما يعيدون ربط أحزمتهم أو أزرار قمصانهم.

- دميان، رافق السنيور. لا أدري إذا كنت سأقول لك عدْ عندما تصبح في حالة أفضل! لا، اعتقد لا. لا تعد مطلقًا.

- زوجتي (تمتم ماكسيمو).

ظهر من البهو الملاصق للمدخل الرجل الوحيد الذي يعمل هناك. أمسك ماكسيمو من ذراعه ونزل معه يكاد يجره عبر درج السلم المؤدي إلى الميدان. ألقاه بعد ذلك على الأرض وكأنه قطعة نفاية.

فزعت نوريا حينما نظرت إلى نفسها في المرآة. لم تتخيل أن وجه إنسان قد يتغير كل هذا القدر في وقت قصير للغاية. شعرت بالألم يدب في كل جسدها، لكن آلمها أكثر التفكير في أطفالها: شعرت بحاجة للعثور على هاتف لتحذير دورا، لكي تتوسل إليها، ألا تسمح لماكسيمو، مهما حدث، ومهما برر لها، بأن يأخذ صغارها.

عندما خرجت إلى الدهليز رأت امرأة خلف أبواب الزجاج المصنفر للحاجز الخشبي يصل إلى عنقها، لا يبدو منه سوى رأسها ويدها اليمنى ممكسة بمبسم السجائر.

- يا الله يا مسكينة! ماذا حدث لكِ؟

- إنه زوجي. أشكرك على فتح بابك لي.

- لقد كان مفتوحًا، يا عزيزتي. نحن مفتوحات دائمًا (قالت ضاحكة).

لم تعجب نوريا على الإطلاق تلك اللغة السوقية، إلا أنها شعرت بالامتنان، علاوة على أنها وجدت الحماية هناك، ولأنها مازالت على قيد الحياة.

- كان يريد قتلي.

ماءت أجاتا من بسطة السلم بالطابق العلوي وكأنها تناديها.

- أرى ما أنتِ عليه. (قالت دونيا ريتا بنوع من اللامبالاة). إنكِ في حالة يرثى لها، يا له من منظر! يبدو أنكِ تعرضت لضرب مبرح. اغتسلي! هيا، فربما تتعرضين لما هو أسوأ إن خرجتِ إلى الشارع هكذا.

- يجب أن أجري مكالمة، إنه أمر عاجل. أرجوك...

- أتصور ذلك. اذهبي! (وأشارت دونيا ريتا نحو القسم الأمامي من الشقة).

كان الهاتف موضوعًا إلى جوار العمود الموصل بين حجرة الاستقبال وحجرة الشرفة المطلة على الميدان.

- أورسولا، لحسن الحظ. هل دورا موجودة؟ لا لا، هذا أفضل. استمعي إليّ! لا تفتحي الباب، لأي من كان، ومهما قال لكِ. سأصل على الفور. وإن كان زوجي، فاحذري أكثر! لقد حدث أمر في منتهى الخطورة. ولا تخبري دورا إذا وصلت قبلي! ساعديني، أورسولا! من أجل مصلحة مارك وميريا. (وضعت نوريا السماعة واتجهت إلى دونيا ريتا، التي لم تبتعد عنها أثناء المكالمة). أشكرك، لقد كانت نعمة كبيرة أن عثرت عليكِ لن أنسى لكِ هذا. لا أعلم ماذا كان سيحدث لي إذا لم تهرعوا لنجدتي. سترتي بأعلى. سأصعد لأصلح هيئتي. أشكرك مجددًا.

خرجت الاثنتان حتى بسطة السلم. رأت مالكة تلك الشقة النور مضاء في شقة بورو، فحركت رأسها من أعلى لأسفل.

- خلاصة الأمر. هكذا إذن أنت تواعدي الرجلين!

- لا. إنه زميلي في العمل، ترك لي المفاتيح لكي أراعي قطته. (شعرت نوريا بأنها في منتهى الحماقة لتقديم تلك المبررات لها).

- انظري! من يجتز عتبة هذا الباب، يترك قصته في الخارج، فلا تخبريني بشيء، لست مهتمة. احترسي! فأنتِ تلعبين بالنار، وهذا ما جرى لكِ جراء ذلك.

- وهو؟ وهم؟ (قالت مشيرة برأسها نحو الداخل).

- هم من هم، عزيزتي. والآن اعذريني!... يجب أن أباشر عملي.

53

التقطت نوريا ثيابها. وفي أقل من دقيقتين كانت عند مدخل البناء. تلفتت يمينًا ويسارًا قبل الخروج إلى الشارع تحسبًا لأن يكون ماكسيمو يختبئ متربصًا بها. لم تره؛ فشرعت في العدو نحو شارع المستشفى. التقطت أنفاسها بشكل متقطع ومع ذلك شعرت وكأنها غارقة في بحر يعوق تقدمها.

تركتها سيارة الأجرة أمام بناء مولاي حفيظ. استندت إلى حديد السور لأنها لم تتمكن من استعادة إيقاع تنفسها وهي تشعر بالدوار. نظرت إلى أعلى. لم يكن هناك بصيص نور في أي من نوافذ الطابقين. فتحت على الفور وصعدت السلم. دقت الجرس مع مواصلة الطرق في الوقت نفسه على باب شقة دورا.

- افتحوا لي، أرجوكم! أين مارك، ميرييا؟

خرجت المرأتان معًا.

- نائمان. نوريا، ماذا حدث؟ (سألت مالكة المنزل).

شرعت تتفقد كافة أرجاء المنزل.

- استيقظا! استيقظا! سنرحل، يجب أن نهرب. (احتضنت نوريا ابنتها، ثم اتجهت نحو الفراش الآخر حيث ينام مارك، محاطًا بالوسائد، فأيقظته.

- نوريا، كفي عن هذا! تعالي إلى حجرة المعيشة! يجب أن نتحدث. هذا الأمر يسير من سيء لأسوأ. لقد منحتك دعمي ولكن صدقيني إذا قلت لكِ إنني نادمة على ذلك. انظري إلى الحال الذي وصلتِ إليها: الوجه، الشعر.

أخشى أنكِ متورطة في مشكلة كبيرة، وسوف يؤدي كل ذلك إلى فقداني قيمة الإيجار. هل أنا مخطئة؟

- هل جاء ماكسيمو؟ هل اتصل بالهاتف؟ هل قال لكم شيئًا؟

أطلت أورسولا من الباب.

- نوريا تحتاج لاستعادة هدوئها. أعدي لها مشروب تيليو، أورسولا! وإذا أضفت لها جرعة وفيرة من مشروب الأنيس المسكر، فسوف يكون أفضل.

- أنا في ورطة. أبنائي. ماكسيمو يريد انتزاعهما مني، ويريد إيداعي مصحة عقلية. يعتقد أنني أريد أن أدمر عمله. اعتدى عليّ بالضرب، كما أبلغ عن زميلي في العمل، يتهمه بارتكاب جريمة قتل.

- لا أدري إذا كنت مهتمة بسماع كل هذا. لا أريد مشاكل.

- سيدة بلومر، أنا أعمل مع برنامج المستشار العاطفي في الإذاعة، أجيب على الرسائل التي ترد إلى معمل مستحضرات التجميل. لست مكلفة بالرسائل الإعلانية لصالح أية شركة. عرفت عن طريق إحدى المستمعات بأمر في منتهى الخطورة. عرفت أنه يولد هنا على الأقل أطفال بدون أذرع، بدون سيقان، وبعضهم لا يُكتب له حتى البقاء على قيد الحياة إلا لبضع ساعات، والبعض الآخر لعدة أيام... وآخرون... وهذا بسبب التيلامون، عقار تناولته أمهاتهم أثناء الحمل. زميلي في العمل مهندس كيميائي. لجأت إليه لشعوري باليأس. (تقطعت أنفاس نوريا من شدة رغبتها في الحديث بسرعة).

- وماكسيمو؟ ما علاقته بكل هذا؟

- لا شيء يذكر، على الرغم من أن شركة المناجم العامة تقوم بتوريد مشتقات المعادن لتصنيع سواغات التيلامون. الأمر وما فيه أنني استأجرت صندوق بريد لكي أنجز تحرياتي، ووصلتني منذ فترة وجيزة صورٌ فوتوغرافية

وبعض الأشياء الأخرى متعلقة بماكسيمو، فعرفت بهذه الطريقة أن لديه في مدريد زوجة أخرى وطفلين آخرين. ولهذا سافرت. أقسم لكِ أنها الحقيقة. يجب أن تصدقيني.

- وهل هي عشيقته؟ ربما كان يجدر بكِ حينئذٍ غض الطرف.

- لا، دورا، إنه متزوج منها هي أيضًا.

- تفضلي، يا ابنتي! (قالت أورسولا وهي تضع فنجان يفوح عبقه فوق الطاولة). اجلسي وتناوليه! سوف يهدئ أعصابك.

- لم أشأ إخبارك بشيء، إقحامك في هذا. والآن ليس أمامي حل آخر. لدي مال لكي أدفع لك. تحليت بالحرص لكي أحفظ مدخراتي في دفتر توفير أمي. سوف تعطيني إياها على الفور بمجرد أن أطلب منها. لا تقلقي!

- ولكم شهر سيتوافر لديكِ؟ لنصف عام؟ انتظريني هنا لحظة، سأعود على الفور. يجب أن أتحقق من شيء ما. (قالت دورا وهي تنظر إليها بطريقة غريبة).

أخذت أورسولا مقعدًا واقتربت منها، بمجرد أن أصبحا بمفرديهما.

- يا للأسف! لقد كنتم عائلة جميلة، رائعون أنتم الأربعة. الرجال، يا ابنتي، ليس لهم أمان.

- أين ذهبت؟

- اطمئني! دورا جلفة، ولكن لديها قلب من أطيب ما يمكن. لن تتركك في الشارع. انظري لما فعلته معي! بمجرد أن عرفت بأنني ترملت، وأنا هنا كما ترين... على الأقل حتى يبت في مصير معاش زوجي، علاوة على ذلك تدفع لي جيدًا. كتومة ولديها أسبابها. هذا كل ما في الأمر. ولا أستطيع إخبارك لمَ؟ ولهذا دعي الأمر على حاله.

وقفت أورسولا على الفور عندما سمعت دورا وهي عائدة.

- اسمعي! لقد تحققت من عقد الإيجار والإيصالات، كلها موثقة تمامًا مع شركة المناجم العامة؛ فلا توجد مشكلة من هذه الناحية (قالت دورا بمجرد أن دخلت). لا أعتقد أنه سيكون مناسبًا على الإطلاق بالنسبة لماكسيمو أن يعرفوا أنه متزوج من اثنتين. أكاد أكون متأكدة أن هذا الموضوع لن يصل إلى مسامع أي أحد من شركته. تأكدي نوريا من أنه يجب أن يتحلى بالحرص الشديد! لكن لا تطمئني تمامًا. مادام الإيجار يصلني كل شهر، سنظل كما كنا، أنت في العين التي هي بيتك حتى الآن وأنا في بيتي.

- وإذا... أخبرهم ماكسيمو أنه سيعيش في مدريد فحسب؟ وهكذا يوفر لهم نفقات.

- عزيزتي، كما قلت لكِ، إنه آخر شخص من مصلحته أن ينتشر كل هذا. أنا لست بهذه الحماقة لكي أراهن بكل ما لدي، لكن أعتقد أنه لم يجانبني الصواب بتوقعي التزامه بالصمت المطبق.

***

في اليوم التالي، جاء ماكسيمو إلى منزله بينما أورسولا تمرر قطنة مبللة بماء الأكسجين على وجهها. كانوا قد أخبروا الطفلة بأن نوريا وقعت لأنها سقطت أثناء صعودها في الظلام وهي قادمة من الشارع، وهو ما لم تكن لتفعله.

- لملمي أشياءك لأنك سترحلين! (صاح فيها ماكسيمو).

- إلى أين ستذهبين، مامي؟

- هل يمكن أن تأخذي ميريبا قليلًا؟ (طلبت نوريا من أورسولا. وبمجرد أنا أصبح كلاهما بمفردهما، اتجهت نحو الدمية بزي المضيفة وأمسكتها من ساقها). هل توحي لك بشيء؟

- نعم. أن طول الوحدة أصابكِ بالجنون، ولهذا يجب علي إيداعك

مصحة عقلية.

- خذها! إنها لك، كنت سألقي بها في القمامة، ابنتك شقت فمها بمقص وأتخمتها بالطعام وتفوح منها رائحة عفنة. أما مضيفتك فأتمنى أن تكون رائحتها أفضل وأن تحظى على متن كل طائرة برفيق عاطفي.

- لا يهمني ما تقولين أو ما تفعلين. في يوم من الأيام ستشكرينني على تخليصي لك من هذا الشخص. ستكونين بخير هناك. بمأمن. أما الآن فهيا تحركي! (قال وهو يجذبها بقوة من ذراعها).

شرع ماكسيمو في جر نوريا حتى الباب بينما تواصل الصراخ:

- أطفالي! لا! لا يمكنك إبعادي عنهما! أنا لم أفعل شيئًا.

وما إن فتح الباب، وجد دورا أمامه.

- هي لن ترحل عن هذا البيت إلى أي مكان ضد إرادتها.

- لستِ من يقرر ذلك.

انتهزت نوريا الفرصة لتتحرر منه.

- لكن الشرطة يمكن أن تقرر. أو أستطيع التحدث مع زوجة مدير شركة المناجم العامة بشأن مارا، تجمعنا كما تعلم صداقة قوية وأنتم تعيشون هنا بفضل ذلك. أنا متأكدة من أنها ستبدو لها قصة شيقة للغاية كما ستجدك شخصًا في منتهى الحقارة. لن تتردد دقيقة واحدة في إقناع زوجها لكي يلقوا بك إلى الشارع.

دفع ماكسيمو المقاعد الأربعة المحيطة بطاولة الصالة الصغيرة، واحدًا تلو الآخر، طوح بالمفرش الذي يكسوها، فتأرجحت مزهرية على الحافة لم يكن بها سوى ثلاثة أزهار بيضاء، وسقطت أيضًا. تحطم الزجاج، وتبعثر حولهم كأنه نجوم متناثرة.

- ماذا تريدين؟ (صرخ ماكسيمو في دورا وهو يقترب منها).

خشيت نوريا أن يضربهما معًا.

- اهدأ فحسب! هذا هو كل ما أريده (قالت دورا مبتعدة عنه لبضع خطوات). واصمت! ستدفع مقابل الصمت. أنا بحاجة إليه أكثر من الماء. لا وصول في أوقات غير مناسبة، لا صفق للباب، ولا مطاردات على السلم. سنترك الأمور على حالها وكل شيء سيكون على ما يرام. لا أحب التغيير. إذا استمرت شركتك في دفع الإيجار، فليس لدي لا أنا ولا أنت أي شيء لنخبرهم به.

- هل تهددينني؟

- أنا؟ أهدد سيادتك؟ كيف خطر على بالك؟ لا أحتاج إلى ذلك. أنا أعرض أمامك الحقائق كما هي. حقائق أفعالك.

أمسك ماكسيمو بذراع نوريا مجددًا، ولكنه أفلتها على الفور، واتجه غاضبًا نحو حجرة النوم. سمعت المرأتان كيف فتح وأغلق الأدراج، أبواب الخزانة، وكأنه يفتش عن شيء.

- حينئذٍ أنا من سيلملم أشياءه (صاح من الحجرة). عليكِ أن تتدبري أمر نفسك. أنتِ أردت ذلك. ألقيت بكل شيء عرض الحائط، بالرغم من العيشة الرغدة. أنت إنسانة حمقاء، حالمة، لطالما كانت رأسك مليئة بالأوهام. تتصورين أن الحياة يمكن أن تكون مثالية.

حينئذٍ اعتدلت نوريا، وقالت من مكانها:

- ربما بدونك، وبالرغم من أن الحياة قد لا تكون مثالية، لكنها على الأقل ستصبح حقيقية. وهذا يكفيني.

لم ترغب في سؤاله إذا كان يفكر في الذهاب إلى عائلته الأخرى، فلم يكن ليهتم بأبنائه بصفة عامة. أرادت البقاء مع مارك وميرييا. وهذا هو المهم.

- إلى لا لقاء مطلقًا (كانت آخر كلمات قالها وهو خارج محني الرأس،

بدون أن ينظر إليها أو إلى مالكة البيت).

عادت نوريا للجلوس مجددًا على المقعد نفسه، حيث سلمت وجهها قبل برهة إلى أورسولا لكي تطهره لها. لم تشعر بالأسى، بل على العكس شعرت بالراحة، وكأنها فتحت توًا دفترًا بلا هوامش، بدون سطور أو مربعات تحدده، ويحتوي على الكثير من الصفحات لتبدأها. أراحها التفكير أن بوسعها أن تخط فيه مستقبلها بدون أن يمسك بيدها أحد.

- الشكر لك مجددًا، دورا. أنا مدينة لكِ الآن بحياتي لأنني متأكدة أنه كان سيدخلني مصحة نفسية.

- لا تدينين لي بشيء. لقد تصرفت بوازع من ضمير. الأمر لا يتعلق فحسب بالحصول على المال. ليس من الصعب عليّ تخيل نفسي مكانك، صدقي أو لا تصدقي! أنا أيضًا عشت في هذا المنزل وأنا طفلة بفضل شخص آخر. هل تعرفين من هو مولاي حفيظ الذي أطلق اسمه على المبنى؟

- رجل عربي. قرأت أنه أهدى حديقة حيوانات برشلونة فيلًا. ومات الحيوان المسكين جوعًا أثناء الحرب.

- هذا صحيح. كان مولاي حفيظ ابن أحد خلفاء مراكش، أدرك أن هذا يبدو من «ألف ليلة وليلة»، ولكنه حقيقي للغاية مثل الأرض التي نقف عليها، وهو الذي كلف المعماري جوزيب بويج كادالفاش بتشييد المبنى. عاش حتى إتمام بناء القصر في فندق الشرق بساحة رملة لوس كابوتشينوس. أراد الاستقرار هنا من شدة حبه لبرشلونة ولأمي. كما تأثر أيضًا لمهاجمة الأسطول الاستعماري الفرنسي لسواحل بلاده. خلاصة القول، يبدو أنه كان طائرًا عابرًا ولكن سرعان ما حل به التعب من وضعه الجديد. كان لديه ما يكفي ويفيض من المال، وكان بوسعه الحصول على كل ما يحلو له من ترف في أي مكان في العالم، ومن ثم حينما استقل الطائرة إلى باريس ترك هذا المنزل لأمي (بكل تأكيد لكيلا يساوره أدنى شعور بوخز الضمير

بسبب حملها) ودخل جيد يكفيها مدى الحياة، ادخرته كله تقريبًا. لم أعرفه مطلقًا، ولكنني ممتنة له تمامًا.

- تبدو واحدة من القصص التي أكتبها ولكن لم تواتني الجرأة لعرضها على أحد.

- عزيزتي، فكري إذن أنه سيتوافر لديك مزيد من الوقت من أجل تلك القصص! لديك عمل ومنزل، ومما عرفت، لديك أيضًا أصدقاء جيدون. لا تبتئسي. الأشياء كما هي، ولكن التعامل معها يتوقف علينا.

- لا أعرف كيف أكافئك على كل ما فعلته من أجلي (قالت نوريا. لم تستطع كبح الدموع واقتربت من دورا ففتحت لها ذراعيها). اعذريني!

- انظري إلى الأمام! هذا هو ما يتعين عليك أن تفعليه.

54

لطالما اعتبر ماكسيمو السيارة الفورد الـ«ثندربيرد» مقرًا لتأملاته، فلم يحتج لأن يقف أمام البحر، أو أي منظر طبيعي بخلاف الطريق. أدرك أن الأمور ما كانت لتنجح مع نوريا، ولكنه كان كمن يوبخ نفسه على إفساد صفقة. ترك نفسه على سجيتها في الانتشار، بالنسبة له امرأة واحدة لا تكفي، أو اثنتان. عرف المرأتين في التوقيت نفسه تقريبًا، ولم يشأ التهرب من أن يكون ارتباطه رسميًا، سواء بنوريا أو بهارا. شعر بأن لديه القدرة على الاضطلاع بهذه الحياة المزدوجة على التوازي لأنه كان لديه فائض من الطاقة. كما اعتبر أن اشتراكهما فيه مناصفة أفضل لهما من زواجهما من رجلين بنصف قدرته.

تخيل والده يشق السماء داخل طائرته المقاتلة، وكيف كان سيفكر في مثل تلك الأوقات. كان اسمه فيتوريو، وشارك وصمد على قيد الحياة في جميع معارك الحروب الإيطالية-الأثيوبية الثانية، والحرب الأهلية الإسبانية، والحرب العالمية الثانية. يكن له ماكسيمو قدرًا كبيرًا من الإعجاب، وشعور بالانبهار، والخوف في الوقت نفسه. كان الأمر بمنزلة التواجد بجانب بطل، شخص جسور، مغامر، شديد البراعة والشجاعة كإحدى شخصيات إيميليو سالغاري[1]. صاحب كل هذه المشاعر يقين بأنه لن يتمكن مطلقًا

1. إيميليو سالغاري روائي مغامرات وخيال علمي إيطالي ولد في 21 أغسطس 1862 في مدينة فيرونا، تأثر بالروائي دانتي، وهو رائد قصص مغامرات الغرب الأمريكي المعروفة بـ«وسترن سباغيتي» ومن أشهر رواياته «ساندوكان» و «القرصان الأسود». انتحر في 25 أبريل 1911 بسبب معاناته النفسية من مرض زوجته. (م)

من أن يصبح مثله، وكأنهما لا يتشاركان الأبعاد الإنسانية والحيوية نفسها.

اعتاد فيتوريو أن يقول لأبنائه إنه حين يبدأ القصف كان يستمتع بإسقاط تلك البراعم لتتفتح وتنفجر في ثوانٍ، وكأنها إكليل زهور للمجد. انتبه ماكسيمو منذ صغره للاهتمام الذي تثيره نساء كثيرات، في والده، بالإضافة إلى أمه. تقبله تلك النساء الآخريات في الشارع عندما يكونون على انفراد، سمع في مناسبات لا تحصى كيف يتواعدون؟ ومدى استحسان فيتوريو وشعوره الغامر بالسعادة لزيادة الطلب عليه. تصور منذ ذلك الحين أن هذه إحدى الجوائز التي يتلقاها لكونه أحد أكثر الطيارين تكريمًا في القوات الجوية الإيطالية الذين أطلق عليهم أيضًا «مغاوير الدوتشي». أما هو، فلم يكن يصفق له إلا عندما يمارس لعبة هوكي الزلاجات. كان حينئذٍ يطلق عليه «التنين».



لم يلحظ أحد على ماكسيمو خلال اليومين الذين أمضاهما في بيرين، أدنى قدر من القلق، كما لم تشِ كلماته أو لفتاته بأي شيء مما حدث في برشلونة، بل على العكس تمامًا: أجمع زملاؤه على أنه في أفضل أحواله على الإطلاق. قال له مديره عندما اجتمع به على انفراد:

- يبدو مهمًا ذلك الشخص الذي أرسلته شركة الدواء. لقد التقيت بشخص خطير في مدريد، ثفرا. لقد عرفنا. تطلب الأمر الكثير من المستندات الموثقة بصورة أكبر، فضلًا عن عدة اجتماعات أخرى مع الألمان. أتدري ما هو أفضل ما في الموضوع؟ أنه ليس من السيء على الإطلاق قضاء يومين في العاصمة. من أنا لأقول ذلك لشخص مثلك.

- بدا واضحًا أن مهمته هناك تقتصر على تخويفنا. كان يتحدث الإسبانية بطلاقة. لم يكن لديّ الكثير لأقوم به، إلا أن الوزيرين ووكيل الوزارة تصدوا له. لم ينجح في ترهيبهم للحظة.

- حسنًا، ثفرا، حسنًا. نحن نسير على ما يرام. بالنسبة لنا لا يعنينا كل ذلك الذي قيل هناك. فليفعلوا ما يحلو لهم! المهم أنه ليست لنا أية علاقة. بأي شيء آخر فلنعمل على نمو الأعمال! هذا هو المهم. يجب أن نتحدث بشأن راتبك. يقولون من شابه أباه. كم يجب أن تكون فخورًا بأبيك. أبلغه تحيات رفيق سلاح قديم. يالها من أوقات رائعة قضيناها سويًا! كان كل يوم وكأنه الأخير... هو فوق في الجو وأنا أسفل في المكتب.

استرخى ماكسيمو في جلسته مستندًا إلى ظهر أحد المقاعد المحيطة بالطاولة، فرد ظهره، ومر بإحدى يديه على قفاه مؤرجحًا إحدى فردتي حذائه فكشفت عن جورب أسود به خيط لامع.

***

اعتاد أحد حراس مقبرة لا ريكوليتا في بوينوس آيرس أن يرى هناك من آن لآخر فتاة شابة، كانت منضبطة في مواعيدها للغاية وغير متوقعة كذلك مثل الموت. يقترب منها كلما أهلت عبر أعمدة البوابة. كانت تعبر أسفل الصور التي تمنح تسلية كبيرة لمن يقفون تمعنًا في فك شفرة علاقتها بالحياة: خيط ومقص قريب للغاية، تاج بجوار كرة أرضية وأجنحة، نحل، أفاعي ملتفة، صندوق عليه عباءة، ساعة رملية وبومة. تعرف فريدا لورنسن، مغزى كل تلك الرموز.

تتكلم أحيانًا مع حفار القبور. حكت له أمورًا تعتبر في سياق آخر خطيرة، ولكن نظرًا لطبيعة عمله كانت تعتبره هو أيضًا بمنزلة مقبرة. أخبرها ذات مساء، تقديرًا لأسرارها، أنه قتل بعض «النزلاء» في المقبرة مقابل أجر، لكن جميع الحالات كانوا حثالة يستحقون استئصالهم من المجتمع بأسرع ما يمكن. يعتبر هو أداة التنفيذ لرحلة الترانزيت بين الحياة والموت. حكى لها بدون أدنى شعور بالذنب، وكأنها مهمة خيرية لصالح المجتمع.

- الهوام فحسب، آنسة لورنسن.

اعتاد رؤيتها بين الظلال، يختلط عليه خيالها المهتز مع ظلال التماثيل الساكنة في ذلك المكان. تعتمر قبعة مسدلًا عليها شبكة تغطي وجهها، وكأن تلك التفصيلة المبالغ فيها للغاية تقدم دورها بصورة أفضل كعاشقة حزينة مجهولة. ساعد كل ذلك أيضًا في نبرة محادثتهم.

عرف عن طريق الآنسة لورنسن أشياء كثيرة عن ذلك الشخص الذي تزور قبره: أنها تعرفت عليه في مكان يشبه المنتجع ببولندا أثناء الحرب العالمية الثانية، وهناك كان هو من يزورها بالمواظبة نفسها التي تبادله إياها الآن. قالت له إن ما جمع بينهما في هذا المكان كان المتعة بالرغم من كل شيء آخر وخاصة الحرب.

اختلطت الأمور على حفار القبور لأن الآنسة لورنسن كانت تخبره بأحداث وقعت قبل نحو عشرين عامًا. والآن، عام 1962، لم يكن يقدر عمرها بأكثر من خمسة عشر عامًا. لكن حياءه كان يمنعه من أن يطرح عليها أي سؤال عن أمور بالغة الحساسية مثل عمرها.

توجد فوق شاهد القبر دائمًا باقة ورود ليست بلاستيكية أو من القماش، بل طبيعية، يجمع بينها وبين فريدا لورنسن أنهما لا تذبلان. كانت زهورًا محفوظة انتزع منها السائل العصاري واستبدل به بعد ذلك بسائل آخر، في عملية تشبه التحنيط إلى حد بعيد.

حكت له أيضًا أن الضابط الذي هامت به بتلك الطريقة هرب من ألمانيا ووصل إلى بلده، الدنمارك. استقل غواصة من هناك انطلقت من نقطة ما على الساحل الإسكندنافي لتظهر في البحر بمنطقة الأوسترال بعد أن تزودت بالوقود في جزر الكناري، مثل غيرها من العديد من قطع البحرية التابعة للرايخ الثالث.

- أتعرف؟ كانوا يطلقون على هذه النوعية من الغواصات «الذئاب الرمادية»، وقد وصلت إلى محمية كاليتا دي لوس لوروس[1] بالأرجنتين عام 1945. انظر كم الحيوانات! (قالت الآنسة لورنسن بسعادة، وكأن هذه البيانات تسليها). هذا المكان مقابل لمقاطعة ريو نجرو. وما إن وصلوا إلى هنا، في الأرجنتين، عقب الإنزال العشوائي، حتى قادوا العسكريين الألمان إلى حصن أطلق عليه شانغري-لا[2].

- شانغري-لا! (قال جيديون بنبرة مؤثرة). يروقني كثيرًا إيقاع تلك الكلمة.

نظر إليها جيديون بدون أن يفهم.

- استنسخوا هنا القصر نفسه الذي كان يستمتع به قادة النازية في جبال الألب البافارية. وكأن المبنى نفسه طار حتى جنوب الكرة الأرضية. عشت في الاثنين وأؤكد لك، جيديون أنهما متطابقان، حتى تصميم الزخارف الداخلية للمصعد الذي يوفر الأمتار الأخيرة: مكعب من الحديد ينزلق عبر نفق محفور أفقيًا في بطن الجبل. انبهر من دخلوا هناك، قبل الخروج إلى التراس الضخم فوق سلسلة الجبال، من المرايا ذات الطراز الفينيسي، ووحدات الإضاءة المصنوعة من البرونز والجلد المصبوغ بالأخضر الغامق الذي يكسو المصعد. كانت فخامة بلاحدود.

حكت لحفار القبور الكثير من التفاصيل كل أسبوع، وكأن مجرد مشاركتها يعني أن المدفون هناك، ذلك الشخص الذي تعتبره أسطورة، مازال يتنفس، وكأن تلك المعلومات تتسرب إليه من خلال الحجر الذي

---

1. محمية ببغاوات في الأرجنتين. تسخر الكاتبة من كم الحيوانات: الذئاب والببغاوات (م)

2. كان معقلًا أسطوريًا ظهر في رواية «الأفق المفقود» لكاتب بريطاني. شيء أشبه بالفردوس المفقود. واستوحوا الاسم من هنا؛ أما الأصل فهو شانكري-لا. وكان هذا الحصن نسخة طبق الأصل من (Kehlsteinhaus) أو عش النسر مبنى الرايخ الثالث. (م)

يرقد رفاته أسفله. كما تعتبر الوحدة السبب الآخر الذي لأجله أجرت معه تلك المحادثات الممتدة.

عرف ذلك الشخص، جيديون، القصة عن ظهر قلب، وكيف واصلا علاقتهما الغرامية الملتهبة، في الأرجنتين في الحجرات الفاخرة بهذا المخبأ علاوة على اعترافات حميمة بالنسبة لمستمع، من وجهة نظرها، غير مبالٍ تمامًا بكل ما يتعلق بما تمثله. حكت له أيضًا أنه بعد عامين من وصولها، استسلم الضابط، وهجر حصن جبال الأنديز لكي يستقر في العاصمة. أراد أن تكون قريبة منه أكثر، وأن يعيشا بعيدًا عن الآخرين تمامًا، لتصبح هي نور شمسه الوحيدة. هذا ما قاله لها بدون أدنى شعور بالذنب، وكأن خواص جاذبيتها غير قابلة للنقاش.

لطالما شوهدا في شقتها. لم يشأ حبيبها أن يكشف لها أي شيء عن المعلومات التي احتفظ بها أثناء الحرب أو مقر إقامته، وقال لها إن ذلك من أجل سلامتها. عرفت فريدا لورنسن اسم الشارع ورقم المنزل عندما عثرت الشرطة على حبيبها مسلوخًا في ركن حجرة معيشة ضخمة فقيرة الأثاث. عرفت بعد مرور عدة أسابيع بدون أن تراه وبدون أن تستطيع أن تتشارك مع أحد الشعور بالحزن والقلق الذي ألم بها بسبب غيابه.

اطلعت على كافة تفاصيل التحقيق عن طريق أحد زملاء الفقيد: عرفت أنه ظل ينزف ببطء شديد أمام آلة عرض شرائح مصورة من طراز سوير روتوماتيك747 وعدسة ماجينون تعرض أمامه أفضل الأعمال في تاريخ الفن. ومع عرض كل لوحة أو منحوتة، تنتزع آلة مشابهة لسلاح مدية الحلاقة، متصلة بمحرك هذه الآلة، قطعة من جلده أو من لحمه.

عثروا عليه غارقا في بركة من الدم المتجلط عقب العديد من مكالمات أحد الجيران، أصر لأسابيع على أنه سمع ليلًا ونهارًا ضجيجًا متكررًا. كان سبب الوفاة التلوث الناجم عن تلك الجروح. لم يستطع الصراخ طلبًا للنجدة

لأنه ظل مكمم الفم طوال الوقت. كانت قوته وبالًا عليه لأنها أتاحت له المقاومة لفترة طويلة. كان بوسعها إنقاذه، إلا أنه لم يرغب في المجازفة، وعدم إعطائه العنوان لها كلفه حياته.

لم يسع من تبعه إلى هناك للانتقام من أجل عائلته التي تعرضت لمذابح في معسكرات الإبادة الجماعية. عرفت فريدا أنها جريمة نفذها قاتل مأجور، بتكليف عن بعد، للقضاء على التهديد الذي كان يمثله بالنسبة لبعض العلماء الذين أعادوا بناء حياتهم، وصاروا مليونيرات بسبب تراخيص بعض عقاقير معينة.

حفر هناك، بخطافات حديدية، اسم الضابط المغدور، بالخط القوطي الشائع استخدامه من قبل الرايخ الثالث. لم يتبق منه سوى اسمه: أدلر إيغنر.

***

- سأرحل، جيديون، لن أعود مرة أخرى. (أخبرت الآنسة لورنسن حفار القبور ذلك المساء من شهر أيلول/ سبتمبر)

ظلت تقيم حتى ذلك الوقت في الميسيدور، بالقلعة الصغيرة بين الحدائق، على مسافة أمتار معدودة من بحيرة ناوال وابي بمنتجع بييا لا أنجوستورا الأرجنتيني. كانا يتقابلان بكثرة أثناء الفترات التي أمضتها بالعاصمة. لم تكن تخرج إلا لزيارة المقابر. انتهزت تلك المرة فرصة اللقاء مع السيد والسيدة فرومنت لكي تذهب للمرة الأخيرة.

- هل ستعودين إلى بلادك؟ (تجرأ حفار القبور على سؤالها).

- ربما، ولكن إلى وطن صنعته بنفسي. لم أعد محل ترحيب في الآخر.

- أتمنى لكِ السعادة (قال الرجل بدون أن يفهمها).

- يطلق على المنزل الذي أقمت به هنا (شهر من ذهب). هل تعرف ذلك؟ الجو فيه دائمًا صيف. ستأتي ميليفا الآن، صديقتي الألمانية، لتعيش فيه.

وأنا سوف أقوم بجولة في أوروبا. وسوف أخبرك بشيء أتمنى أن يسعدك: ربما أحتاج لخدماتك. لم يخطر على بالي من هو أفضل منك لإنجاز ما أخطط له. إذا وافقت، فسوف أوافيك. لدي علم بمساعيك الحميدة (قالت مشيرة إلى مجموعة من القبور).

لم يعد الرجل يرد عليها، ووقف مسحورًا في منتصف البوابة بالضبط بينما ركبت هي سيارة الأجرة المعتادة نفسها. يكن لها قدرًا من الإعجاب وكأنها ليست إنسانًا عاديًا بل ظاهرة أسعده الحظ بتأملها عن قرب ودائمًا في اللحظة الأخيرة، حينما لم يعد متبقيًا أي أحد في المقابر أو متوقعًا استقبال المزيد من الزائرين.

بعد إغلاق بوابة المقبرة الحديدية بالزنجير، أدار المفتاح في القفل ثم حفظه في جيبه.

55

تأهبت نوريا في ذلك الإثنين لإنجاز كل العمل المتأخر. قبيل المساء، وبعد ساعات طويلة بين الرسائل، جاءتها فيما يشبه الصدى، عبر جهاز المذياع اللاسلكي، كلماتها شخصيًا:

مر يومان بالتمام والكمال على معرفتي بأن حياتي لها وجه آخر. تحطم الزجاج الذي كانت ترتكن إليه الأكاذيب. ومنذ ذلك الحين وكل يوم هو اليوم نفسه، لا أتقدم، ولا أستيقظ من هذا الكابوس. زوجي خانني، سيدتي.

توقفت عن الكتابة لكي تستمع إليها مُذاعة بصوت أخرى. فبدت لها غريبة، ليس لأنها ليست هي من قالتها، بل لأنها لم تعد متوافقة مع تلك الأفكار.

«لماذا فعلها؟» قرأت في تلك اللحظات هذا الجزء من الرسالة. واعترفت نوريا بينها وبين نفسها أنه لم يعد يشكل فارقًا لديها، وأنها لم تعد تمقته كما ستقول لاحقًا، وأنها على استعداد لإلقاء الجهاز من النافذة لو أن المستشارة العاطفية المزعومة تجرأت على نصحها بالاستمرار مع وغد مثله. نهضت واقفة واتجهت نحو قطعة الأثاث الموضوع فوقها المذياع بعناية. بدأت المذيعة في توجيه الرد إليها وإلى مئات الآلاف من المستمعين ذوي المشاكل المتزامنة.

صديقتي العزيزة، أتفهم يأسك، صدقيني، تضعنا الحياة أحيانًا في هذه التجارب لتجعلنا أقوياء كالصلب.

فكرت أن كاتب هذه الكلمات يجب أن يكون رجلًا من المقارنة التي استخدمها.

تطلعي إلى الأمام! فكري في المستقبل في أبنائك! واغفري! لا يخلو أحد من نقاط ضعف، أنا متأكدة من أنكِ إذا نظرتِ داخل نفسك، فستكتشفين نقاط الضعف الخاصة بكِ. نحن جميعًا غير كاملين. يتسم الرجال بطبيعتهم بهذه السلوكيات التي تصدمنا وتصيبنا جميعًا كنساء بعدم الفهم. ومن ثم، تحلي صديقتي العزيزة بالعقلانية والحكمة بما يليق بسيدة في مثل ظروفك أم وزوجة! لا تجعلي الغضب يتمكن منكِ! احتفظي بهدوئك! وسترين كيف سينصرف زوجك سريعًا عن مغامراته الصغيرة ويعود إلى حضن بيته، شاعرًا بالخجل والندم. تذكريني عندما تحل المشاكل؛ فلا يساورني أدنى شك أن حياتكم أنتم الأربعة ستعود سمنًا على عسل.

– عسل أسود (قالت نوريا بصوت مرتفع وبدلًا من انتزاع المذياع من مكانه لتطوح به في الهواء، أدارت الزر حتى أسكتته).

فكرت مجددًا في من يكون الشخص الذي حرر تلك السطور التي بدت لها موحية. ثم نظرت إلى نفسها في مرآة خزانة حجرة نومها، مازالت صورتها تسبب لها الألم. سوت شعرها بيديها، وفكرت في المدخرات التي جمعتها طيلة حياتها مع أمها، وكم تود السفر إلى البرازيل! ستسلمها إياها على الفور بموجب توقيع والدها، مثلما قالت لها دورا.

شعرت بالرغم من مظهرها الشاحب، بأنها مفعمة بالطاقة، لا تقهر. وكأن التجديد حدث من الداخل للخارج. انتقلت في ظرف ثوان من الغضب إلى سكينة جعلتها تعتقد أنها قادرة على السيطرة اعتبارًا من تلك اللحظة في كل ما قد تتعرض له. وكأن كل ما فات بسبب ماكسيمو صار من الماضي.

***

كانت مهمة بورو في البرازيل الإشراف على جمع نباتات معينة، ثمار وخلاصات بصفة عامة، ذات أثر إعجازي، أكثر من طبية: لحاء جذع الشجرة التي يطلق عليها الإنجليز (ironwood) أو البقم الهندي، وثمرة الجوانابانا، وشجرتها، والحصول أيضًا على فروعها، جذورها وزهورها، بالإضافة إلى ثمار التوت، ونخل الآساي، ويعد مثلما توضح خصائصه مضادًا للأكسدة فعالًا للغاية.

حفظ المزارعون الذين تعاقد معهم كل شحنة فيما يشبه مختبر صيدلة داخل كوخ حيث قُلص داخله وزن تلك المواد الخام وحجمها. كان عليه عندما انتهى من جمع الكمية الكافية من كل عنصر، تأمين شحنها بالطريقة الصحيحة، وسداد رسوم الكثير من التراخيص لكي يتمكن من نقلها إلى الميناء. وسيكون بوسعه بعد إبحار السفينة بالشحنة، أن يستقل الطائرة عائدًا إلى برشلونة. قدر أنه سيصل إلى هناك في غضون أقل من أسبوع ونصف.

انتهز ظهيرة الأحد، الفترة الوحيدة التي لم يكن يعمل خلالها، لكي يقوم بجولة واسعة في أنحاء لابريا. اكتشف مستعمرة جذام مقامة داخل منشآت منتجع قديم مهجور. يفصل أحد فروع نهر بوروس هذا المبنى والبستان الضخم المحيط به عن آخر منازل المدينة. لم يسبق له على الإطلاق الابتعاد كل هذا القدر عن مقر إقامته لكي يقوم بجولة. اجتذبه ذلك القصر. كان متهدمًا، وأخفى العشب أجزاء كبيرة منه. بدا الأشخاص المطلون من نوافذه أو الجالسون أمام المدخل الرئيسي متداعين أيضًا، على وشك التلاشي في ذلك المشهد. كان قد قرر القيام بالجولة قبل وقت قصير من حلول الليل. ورأى خارج السور الذي يفصلهم عن النهر ويحمي أيضًا تلك الضيعة من فيضاناته، جبلًا من المخلفات. لفت انتباهه، بجانب بعض أوراق السلاطة الخضراء وقشور البطاطا، عدة صناديق من الكارتون يظهر عليها رسم بالأسود لجسم طفلة تحمل علامة إكس باللون الأحمر. أخذ بعضها وعدة

زجاجات دواء فارغة. ترك كل شيء بمجرد دخوله فوق وعاء نباتات في الفناء وبعد أن اغتسل شرع في الكتابة إلى نوريا. قرر مخاطبتها على هذا النحو على الرغم من وجود احتمالية كبيرة لوصوله قبل الرسالة. اعتبرها وسيلة لكي يكونا معًا برغم البعد.

عزيزتي نوريا:

لا أتصور يوم الرجوع إلى برشلونة. لحسن الحظ لم يبق إلا القليل. احتجت للابتعاد كثيرًا لكي أدرك أن لدي عائلة عظيمة هناك: أنتِ، الأب بيلسيرميس، السيد والسيدة فرومنت، ليليانا، كما أفتقد طفليك. لا يوجد مثيل للبعد من أجل التأمل. الحياة عوضتني مع فوائد عن كل ما فقدته منذ نعومة أظفاري.

بالإضافة إلى أنني من هنا سأتجرأ على أن أقول لكِ أشياء لا أستطيع قولها حينما تكونين أمامي. أفكر فيها بصوت مرتفع في الوقت الراهن، لكن سأكتبها لكِ الآن.

أدركت كم أحبك، نوريا! هل سبق أن صرح لكِ أحد بذلك من على كل هذه المسافة؟ لم يسبق لي الاهتمام بأية امرأة حتى الآن، كما لم يكن من السهل عليّ، نظرًا لندرتهن في المدرسة الداخلية وفي دراستي الجامعية.

ربما أبدو لكِ أنانيًا لأنني خلال تلك الفترات المضطربة عزيت نفسي بمشاعري، لكن أعتقد أنني وصلت إلى هذه النقطة من آخر العالم لكي أدرك مدى أهميتكِ بالنسبة لي. وبناء عليه، وهذا هو ما أود أن أعرضه عليكِ: إذا كنتِ تريدين صداقتي فحسب، بالرغم مما جرى بيننا، فسأتفهم ذلك. تجاهلي ما قلته لكِ، قبلاتنا، يوم لقائنا بمنزلي، وأن سمحت لي بأن أكون إلى جوارك من آن لآخر، فسأعتبر نفسي محظوظًا. لكن إذا كنت بالفعل سعيد الحظ لدرجة أن تبادليني الحب، أود أن تعرفي أنني أقدم

لكِ حياتي بالكامل، ولا أريد سوى أن أعيش إلى جوارك فحسب... (لا أدري إن كنت سأستطيع حمل هذه الرسالة إلى مكتب البريد، البوستا كما يقولون هنا).

أحبك،

بورو نافاسكويس

***

في برشلونة كان قد حل الليل بالفعل منذ أربع ساعات، ووسط السكون الذي لف بناء مولاي حفيظ، فعلت نوريا الشيء نفسه: كتبت له.

عزيزي بورو:

اضطررت للتواصل معك بأسرع حتى مما كنت أتصور لكي أحذرك من أمر في منتهى الخطورة: ماكسيمو خرج عن شعوره، اعتدى عليّ بالضرب عندما ذهبت إلى منزلك. أفضل ما في الموضوع أنني لا أعرف عنه شيئًا منذ أن رحل صافقًا الباب خلفه، لكن أسوأ ما في الأمر أنه أبلغ عنك الشرطة لاعتقاده أنك قتلت شخصًا، قام هو باستئجاره لكي يراقبني. أعتقد أن كلينا يعرف من يكون، لكنك ستستوعب أنني لن أذكره هنا.

كاد أن يقتلني، عندما ضبطني على سلم منزلك. أنا وحيدة الآن، حسنًا، أكثر قليلًا مما كنت عليه دائمًا. لا أريد التفكير مطلقًا في الرجوع بالأطفال إلى بيسبال للإقامة مع والدي. سيكون هذا بمنزلة فشل. سأرى كيف سأتدبر أموري؟ أفضل البقاء هنا في برشلونة، على الرغم من صعوبة ذلك. لا أريد إخبارك بشيء آخر عن هذا لأن موقفك الآن، والشرطة تلاحقك، أكثر تعقيدًا من موقفي. خذ حذرك دائمًا! افعل المستحيل لكيلا يقبضوا عليك!

أكثر ما أتمناه أن تصلك هذه الرسالة بأسرع ما يمكن، سأرسلها بالبريد

العاجل. سيكون أكثر حكمة أن تبقى هناك لأجل السبب الذي أخبرتك به، على الأقل حتى يتضح كل هذا. كلما بقيت وقتًا أطول في البرازيل، كان ذلك أفضل. ولا تعطِ عنوان محل إقامتك لأحد آخر. أعتقد أنه لا يعرفه إلا السيد والسيدة فرومنت، ليليانا، الأب بيلسيرميس وأنا. ستستوعب أيضًا إحاطتي لهم علمًا. واحرص على الاعتناء بنفسك!

معذرة على كل هذا، كنت أود أن أتحدث معك في أمور ألطف. أحتاج إلى هاتف للاتصال بك، أيًا كان، ومهما كان، وحتى إذا اضطررت للانتقال لكيلومترات للرد عليه. على تواصل.

أما بخصوص التيلامون، يبدو أنه حدث تقدم هنا. أخيرًا. تتابع ليليانا عن كثب سحبه من الصيدليات. وافق دون خيرونيمو على التعاون وهو على اتصال مستمر مع فاريك كيسلر. سوف أوافيك بمزيد من التفاصيل. لم يذهب كل هذا سُدًى، بل أفاد كثيرًا. ومع ذلك سنستمر في الأمر ولن نتراخى. وقبل كل شيء لا تنخدع أنت!

أعتقد أنه كان من تدابير العناية الإلهية إرسالك إلى هناك. يؤسفني أنك مازلت مضطرًا للبقاء، لكن ذلك أفضل. أخيرًا، أتمنى ألا أكشفك أنا بهذه الرسالة، وأن تقرأ أنت فحسب هذه السطور، وإذا حدث عكس ذلك... ولكن ليس أمامي سبيل آخر لتحذيرك. أنا آسفة، بورو. في غاية الأسف لأجل كل ما يجري.

اعتن بنفسك جيدًا!

نوريا

ذهبت ليليانا في الصباح الباكر لزيارتها، قبل التوجه إلى العمل، فسلمتها نوريا الرسالة لكي ترسلها هي بالبريد.

56

تميز هارالد سيلفينر بلامبالاة أليق بشخص يرى أن عملية القتل لا يمكن التحكم بها بكثير من الدقة، وقد تعرض لذلك لعاصفة توبيخ انهال عليه بها من استعان بخدماته وهو أحد المحامين الذين التقى بهم في دوسلدورف، وقع ذلك في المقر الرئيسي لشركة أورلانتا في شتولبرج:

- هل ممكن معرفة سبب قتلك لذلك البائس الذي كان يقطن في ذاك المنزل الخرب؟ كرر عليّ ذلك مرة أخرى، هيا! فلم أفهمك بعد. ما علاقته بنا؟

- سيدي، كان يجب التخلص منه لأنه استولى على كل المعلومات التي قام الآخرون بجمعها. ولا تسألني كيف؟ لكن كانت بحوزته نسخة من كل شيء. كان على علم. وكان يتتبعهم في كل مكان. استمع إلى حواراتهم وحصل على كل هذا لأنه على ما يبدو أمضى سنوات طويلة في الشارع، وخاصة عالم الليل.

- نعم؟ وأين هي هذه المستندات؟ تلك الوثائق، التقارير، الصور الفوتوغرافية. إنها ما نحتاج إليه بالتحديد لكي نجعلها تختفي ولكي نستمر في الترويج هناك. ألا تفهم ذلك؟ ماذا وجدت؟

- حافظة الأوراق هذه (قال واضعًا حافظة مستندات من الجلد الصناعي شديدة الشبه بتلك التي استولى عليها ماكسيمو من المكان نفسه).

- تعقد لنا الأمور، بدلًا من أن تساعدنا. يالها من صفقة أبرمتها معك!

ما هذا؟ قطعة من أثر ذلك الحثالة؟

- عمل المخبر السري بالادري.

- لا أقرأ بالإسبانية. لا أعرف الإسبانية. وليس لدي الرغبة. لكن أؤكد لك أنه إذا كانت مليئة بأمور خيانات زوجية، فإنك أنت الذي ستختفى من الساحة. أضمن لك ذلك.

***

فكرت في ثورة الغضب التي لملم فيها ماكسيمو ثيابه وأوراقه. لم تكف ابنتها، منذ ذلك الحين، عن السؤال عنه. لماذا لم يأتِ بابي طوال كل هذه الأيام؟ أين هو؟ مسافر، يا روحي. سيعود سريعًا. أخبرتها بأنه سافر إلى الخارج لعدة شهور، وأنه سيعود بعد ذلك محملًا بالهدايا... مازالت تفتقد القوة الكافية لاختلاق الأعذار. بدأت رأسها تؤلمها.

أخرجتها ميرييا من تأملاتها حينما دخلت غرفة المعيشة وفي يدها قصاصة ورق. قالت وهي تستعرض أمامها فراشة مرسومة:

- انظري، مامي! هذه أنتِ.

- رائعة، يا حبيبتي، ارسمي دورا الآن وأورسولا بعدها على ورقة هذا التقويم! وهكذا تقدمين لهما هدية (قالت نوريا لابنتها وانصرفت إلى الحجرة الجانبية).

كانت بحاجة للسكون والتفكير، لكن سرعان ما دق جرس الهاتف. قالت أورسولا:

- اتصلوا بكِ من العمل، آنسة تدعى ليليانا تركت لكِ رسالة: إذا كان بوسعك التواجد هناك خلال ساعة لأن رؤساءكِ على وشك الوصول.

- هل يمكنكِ البقاء هنا لحين رجوعي؟

***

أبلغ السيد والسيدة فرومنت بوصولهما من المطار قبل أخذ أمتعتهما. غيرت نوريا ثيابها بأقصى سرعة، واستقلت أول سيارة أجرة صادفتها. وصلت في أقل من ربع الساعة إلى شارع بيلايو. دخلت دونيا ليونور، بعد نحو عشر دقائق من الحديث الذي دار هناك بينها وبين ليليانا عن البلاغ الملفق ضد بورو.

- عزيزتَيّ، شكرًا لكما. نوريا من أجل مجيئك لاستقبالنا، وأنت أيضًا، ليليانا على بقائك حتى ساعة الغداء. انظرا! لديّ مهمة لكما. نتكلم غدًا بهدوء أكثر، لكنني أردت أن أخبركما بصورة مسبقة. لقد عدنا ومعنا صحبة.

- بصحبة بورو؟ (سألتها نوريا بدون أن تتمكن من السيطرة على نفسها).

- لا، هو لن يتأخر في المجيء. (سمع الثلاثة حينئذٍ جلبة على السلم). إنهم يرفعون حقائبنا لأعلى. هل صرت على ما يرام، نوريا؟ حكى لنا بورو في بوينوس آيرس ما حدث لكِ في الفناء. كيف أصبح العالم! سنعين حارسًا للعقار اعتبارًا من الآن، والحارس الليلي سيكون أكثر يقظة. أنا آسفة.

- أنا بخير الآن (أجابت نوريا).

- كانت رحلتنا رائعة. يجب أن تتعرفا على ضيفتنا، الآنسة فريدا لورنسن. إنها في الطابق الأعلى. سيتولى زوجي إعطاء التوجيهات لكي تقيم براحة تامة. ستبهركما. سأخبركما الآن فحسب بأنني عثرت على السر لكيلا أصاب بالشيخوخة. سأقدمها لكما بمجرد أن تستريح من السفر. لا تعرف أحدًا في برشلونة، وأود أن تقضيا معها وقتًا حتى تعتاد على المدينة، وعلى طباعنا... كما تعلمان فأنا لا أستطيع قضاء اليوم كله هنا من أجلها (قالت وكأن هذا بالنسبة لهما أمر مفروغ منه).

فكرت نوريا، أنه بالرغم من لطافة السيد والسيدة فرومنت المفرطة،

فإن ما يعطيانه باليمين يأخذان دائمًا مقابله باليسار. تأكدت من أن سر نجاح أعمالهما يكمن في تلك الطريقة في العمل بدأب وتصميم، وبراجماتية في المقام الأول.

- ستعود بالنفع على المعهد (تابعت السيدة ليونور). ستنهال عليها المقابلات حتى من التليفزيون بمجرد أن يعرفوا عمرها. الدعاية التي ستقدمها لنا لا تقدر بثمن. أكبر حتى من برنامج المستشار العاطفي. سوف تريان إنها ما ظللنا نبحث عنه لسنوات. ليليانا، أحضرت لكِ مجلات الأزياء التي طلبتها.

- شكرًا جزيلًا، دونيا ليونور (قالت وهي تتناولها منها).

- ومجموعة أخرى لكِ، نوريا. انظري! النسخة الإسبانية من مجلة لايف (Life) وهذه أرجنتينية. لديكما هنا مقابلة مع الآنسة لورنسن. سأترككما الآن. سوف أعرفكما عليها غدًا وآمل أن تعاملاها كملكة، سوف تغرقنا في الذهب. حسنًا عزيزتَي، كما يقولون، غدًا يوم آخر.

تبادلت نوريا وليليانا نظرات متوترة. وقالت ليليانا:

- سيدة فرومنت، نحن أيضًا يجب أن نتكلم مع حضرتك.

- غدًا، عزيزتي، بالفعل، أنا منهكة للغاية الآن.

- انتظري لحظة من فضلك! (تبعتها نوريا حتى الباب). لقد لفقوا بلاغًا يتهم بورو بجريمة قتل.

التفتت دونيا ليونور باندهاش بالغ.

- ماذا تقولان؟ هذا غير معقول.

سردتا عيلها الخطوط العريضة لما جرى، وبدا لهما كيف تضاعف إنهاك مديرتهما.

- سوف أتحدث مع أليكس.

ظلت كلٌّ من نوريا وليليانا واقفتين إلى جوار طاولة السكرتيرة. يساورهما القلق، وكأن إحاطة دونيا ليونور علمًا بالموضوع جعله أكثر خطورة.

تصفحتا بلا رغبة، عندما انصرفت مديرتهما، واحدة من تلك المجلات إلى أن عثرتا في تحقيق مصور منشور في العدد رقم 90 من مجلة فيستامارا (Vistarama) على صور فوتوغرافية فنية للغاية. فشرعتا في القراءة باهتمام متزايد عن الضيفة التي سترافقهما لفترة قصيرة. حمل الوصف والتحقيق توقيع لاوتارو أمالفي.

- آنسة لورنسن، شكرًا جزيلًا على استقبالي. أود أن أحيطك علمًا بالنجاح الكبير الذي حققه التحقيق المصور حول التجارب التي أجريت على البشر خلال الحرب العالمية الثانية والذي قدمت لي فيه المساعدة الأساسية. ربما تتحمسين اليوم وتكشفين لي عن سر وصفة الشباب الدائم.

- أرى أنك لا تنسى. نعم لطالما كان برنامج الشباب الدائم أكثر شيء أثار الانتباه.

- أهنئك على هذا المنزل الرائع. وأشكرك على دعوتك. على الرغم من أن المرة السابقة في مقهى الكابتالينو لم يكن الأمر سيئًا أيضًا.

- نعم، تصور، لكن انظر هنا! من خلال هذه النافذة مازال يمكن رؤية منحدرات الطائرات المائية التي أحضروا بها المواد عبر البحيرة لبناء المنزل. ما رأيك؟

- كنت أود أن أسألك تحديدًا عن كيفية وصولها. لم تخبريني بشيء عن هذا في المرة السابقة.

- هناك أشياء كثيرة لم أخبرك بها، سيد أمالفي. لقد كانت رحلة طويلة وشاقة للغاية. انظر! حظيت برعاية المجلس اليهودي العالمي، وبحث عني

بعض الأقارب في الأرجنتين لإرجاعي.

- هل كان لديك في ذلك الوقت عائلة هنا؟

- فلنسمها كذلك! أفضل حتى من العائلة. أخذوني أثناء إجراءات وثائق الهوية إلى مكان مريع في السويد لا يقارن على الإطلاق بمنتجع النازي سوليتال الذي كنت أعمل به، وأسوأ من ذلك أنه لم يكن موجودًا هناك.

- مَن؟

- حبي الكبير. انظر! لقد بدأت أثق بك، لدرجة أنني أحدثك عن حياتي الموغلة في الخصوصية، حياتي الحميمة. على الرغم من أن هذا سينشر بعد ذلك. لكن لم يعد الأمر يمثل فارقًا بالنسبة لي. تعلم أنني سأرحل عن الأرجنتين.

- نعم، إنها خسارة كبيرة، لكنك لن تغيبي عن ناظري، لا يساورنك أدنى شك. آنسة لورنسن، حكيت لي في حديثنا السابق عن كل المميزات في ذلك المنتجع ببولندا، حيث كنتِ تمارسين تمارينك الرياضية في الهواء الطلق، الأنشطة الثقافية التي نظموها، وخاصة السينما، ومن بين ما رويت لي أنكِ كنتِ تقومين به هناك، وأكثر ما كان يشغل وقتك، إذا سمحتِ لي قولها على هذا النحو، هو علاقتك الحميمة مع ذلك الضابط بالجيش الألماني. حسب علمي كان شخصًا مثيرًا للجدل. فمن هو؟

- لن أبوح لك باسمه. معرفتي به، تلك السعادة، أدين بها أيضًا للرايخ. وصلنا نحن الاثنان كل على حدة إلى هذا البلد أواخر عام 1946. والتأم شملنا سريعًا. خططنا ونفذنا من هنا الكثير من الأمور... اعتدنا الذهاب في الأوقات الأقل ازدحامًا إلى محل بشارع خورامنتو دي بلجرانو، لنتناول شطائر السالمون، الخيار، وحلوى من ثمار فواكه حمراء فحسب. أنت تعرف أفكاري حول التغذية. تجولنا في باليرمو، لا ريكوليتا، تصور! دون أن أعلم

أنني لاحقًا سأتردد على مقبرته كثيرًا. اعتاد انتظاري عند خروجي من فصول اللياقة البدنية. إذا كان للحب الكامل وجود، فذاك كان غرامنا.

- هل ستخبرين قراءنا بشيء آخر عن سر احتفاظك بهذا الجمال؟

تشير الفقرة الأخيرة من المقابلة فحسب إلى الضحكة المجلجلة التي ردت بها الدنماركية على محدثها.

- ما رأيك، نوريا؟ (سألتها ليليانا).

- غريبة، في منتهى الغرابة، ومبالغ فيها بشكل كبير (أجابتها). على الرغم من أنها بالفعل جميلة للغاية (أضافت في الحال). وانظري إلى هذه الثياب! إنها بالتأكيد من الأزياء الراقية. لكنها ليست بروعة تلك التي تصممينها. بالإضافة إلى أنها في ريعان شبابها، تكاد تكون طفلة.

قررت نوريا، على الرغم من أن الوقت قد تأخر كثيرًا، العودة بالحافلة. رأت بمجرد أن جلست في المقعد على غلاف مجلة (Life) على الجانب المقابل للحروف البيضاء على الخلفية الحمراء من غلاف المجلة حيث وقفت عارضة مفتوحة العينين على اتساعهما، ملحوظة نصها: «التيلامون. العقار المسبب للتشوهات الذي نشر الألم في جميع أنحاء العالم». عثرت داخل العدد على الفور على مقال طويل عن الدواء القاتل. أشاروا في المقام الأول إلى دافني جرتشن، الصيدلانية التي تصدت لترويج العقار في الولايات المتحدة. يستعرضون بعد ذلك مشكلة إقدام المختبرات على تزويد الأطباء بعينات دواء لم تمر، سواء هي أو الغرض الذي رخصت لأجله أو تداوله، على أية رقابة مسبقة. فكرت نوريا في الأدوية التي يخرجها الأطباء من أدراجهم في العيادة أو من خزانة صغيرة مغلقة بمفتاح. يشير المقال إلى أن ما يطلق عليه «عينات بحثية» تفلت من الإجراءات الحكومية.

سرت رعدة في نوريا عندما فكرت في هذه الطريقة في التعامل على

هامش القانون: يتحققون من الآثار مباشرة على الأشخاص، يجربون فيهم، وكأنهم فئران تجارب. كما ذكر مقال مجلة (Life) أيضًا كلًا من سنغر وكيسلر. التقت بهما دافني جريتشن عندما أبلغها أحد أعضاء مجلس تحرير مجلة تايندلر أن لديهما مقالًا قيد المراجعة من أجل النشر. قرأت في عنوان جانبي آخر: «البطلة التي أقصت من السوق أخطر عقار في سجل الدواء الحديث». كانوا قد أعدوا بالفعل مليوني ونصف قرص تيلامون، كفيلة بقتل أو تشويه أو كلاهما معًا، آلاف الأطفال. ورد في نهاية التحقيق الصحفي الإجراءات التي ستتخذ في المستقبل لتفادي تكرار ما حدث مع هذا السم: سيجبر الكونجرس شركات الدواء على أن تثبت، بالإضافة إلى أن منتجاتها ليس لها أعراض جانبية، أنها مفيدة لشيء، بمعنى، أنها فعالة في العلاج المقرر. واختتم المقال بالعبارة التالية: «ظلت دافني جريتشن صامدة وسط العاصفة. يملؤنا نموذجها بالأمل. ليس كل شيء قابلًا للبيع والشراء».

الجزء الرابع

57

عكفت نوريا خلال الأسبوعين التاليين، على ترتيب أفكارها، وبصفة خاصة تجميع قواها، فقد كانت تريد استعادة ابتسامتها. دأبت على الذهاب بشكل شبه يومي إلى الحديقة مع مارك وميريبا. اشترت من سوق سان خيرباسيو كافة احتياجاتها، وأجابت على استشارات المستمعات، لكن عولت على ليليانا في مهمة اصطحاب فريدا للتعرف على المدينة. يعتبر الفارق الوحيد منذ غياب ماكسيمو عن الأيام التي كان يقضيها بعيدًا عن البيت، أنها لم تعد تخفِ صناديق الرسائل في الجزء السفلي من خزانة المطبخ.

ذهبت ليليانا إلى منزل نوريا ذات صباح، حتى قبل شروق الشمس. أصابها الفزع من هيئتها وهي تطرق باب البناء. نزلت على الفور لتفتح لها، بمجرد أن رأتها من النافذة حتى قبل أن تعقد رباط رداء النوم.

- قبضوا عليه! لم تجدِ الرسالة نفعًا. لا أعتقد أنه قد تسملها (قالت ليليانا بمجرد دخول الحديقة).

- في البرازيل؟ كيف وصلوا إليه؟ (قالت نوريا باضطراب شديد). تصورنا أنه سيكون بمأمن هناك.

- لا. قبضوا عليه هنا، بمجرد وصوله، كانت الشرطة في انتظاره حتى قبل أن تهبط الطائرة. أخذوه مكبلًا بالأصفاد. يبدو أنه قد أنجز المهمة التي كلفه بها السيد والسيدة فرومنت قبل الموعد المقرر. انظري! يقولون هنا (قالت وهي تناولها الجريدة).

- غير معقول، غير معقول (كررتها نوريا وهي تتناول الجريدة بيد مرتجفة).

شعرت نوريا بالدوار مجددًا وبأنها داخل كابوس، غير حقيقي، مرارة في الحلق، ألم عميق في الرأس، وكأن لديها ضيفًا مزعجًا داخل مخها.

انتظرت شرطة الحرس المدني رحلة طيران شركة فاريج القادمة من بورتو أليجري وعلى متنها المسافر المطلوب. نصت الإجراءات، التي اتخذتها الشرطة بموجب السلطة المخولة لها بناء على البلاغ السابق، على أخذ أقوال الموقوف، من مواليد برشلونة، 30 عامًا، أعزب، المهنة مهندس كيميائي، وبالإضافة إلى اتهامه بجريمه قتل، متورط في الترويج لسموم ومواد ضارة ذات استخدام صناعي، وعرض في الحال على قاضي التحقيق الذي يتولى القضية. وعلى الرغم من أن محررينا لم يتمكنوا من معرفة تفاصيل التحقيقات المحاطة بالسرية التامة، عرفوا من أروقة المحكمة أن الموقوف لم يطلق سراحه، بل أعيد إلى حجز المحكمة. وقد كشف التحقيق عن مفاجأة، حيث أكد الموقوف طوال الوقت عدم علمه التام بكل ما يتعلق بالتهم الموجهة إليه. كما تمت مواجهته بالمتعلقات التي عثر عليها في موقع الجريمة، وأشياء أخرى كان يحملها معه في حقيبة سفره.

- لا أعرف حتى كيف رأيت الخبر. لا أقرأ عادة صفحة الحوادث (قالت ليليانا).

لم تكن نوريا في وعيها وأخذت تتلعثم.

- إنها مكيدة. مسؤولو شركة الدواء... يفركون الآن أيديهم من السعادة. إنهم عديمو الرحمة. جاء لهم هذا على طبق من فضة. مسكين بورو، سيقولون إنه مجرم. ليليانا...

- بخصوص ما يقال عن السموم وباقي المواد الأخرى، هل المقصود التيلامون؟ وماذا لو اتهموه بالإتجار به؟ وأنه يبيعه في السوق السوداء؟ أعتقد أننا، للأسف، يمكن أن نتوقع أي شيء (قالت ليليانا بمنتهى الألم).

- لقد جمع الكثير من أقراص الدواء، ولكن بغرض تحليلها (أطرقت نوريا تفكر لبضع ثوان). يجب أن نذهب إلى قسم الشرطة أو إلى المكان الذي يحتجزونه به (قالت بتصميم بالغ)، مكتوب هنا أنه في حجز المحكمة لكن لم نعد نعرف أين هو الآن.

عادتا إلى منزل نوريا، بعد نزول السلم.

- هل نذهب إلى هناك فيتم إيقافنا نحن أيضًا بصفتنا متواطئتين معه؟ كما لا يمكنكِ أن تتركي طفليك بمفردهما. والأهم: لا يجب أن ندع شيء يشوش على أفكارنا. يجب علينا تحكيم العقل الآن أكثر من أي وقت. (قالت ليليانا).

- هل عرف السيد والسيدة فرومنت بالأمر؟ (سألت نوريا).

- لا أعتقد. سأخبرهما بمجرد وصولي إلى المختبر.

- نعم، قومي بذلك، من فضلِك! إنهما يعرفان الكثير من الناس. وبوسعهما توكيل محامي جيد له.

- وأنتِ ابقي هنا! لا يساورك أدنى شك. سنستعين بأي شخص يمكنه المساعدة.

- يجب إحاطة الأب بيلسيرميس علمًا. عندما يعلم... إنه بمنزلة الابن بالنسبة له. لا أريد حتى تصور ذلك (قالت نوريا بندم شديد).

- من المحتمل أن يكون قد عرف بالفعل. عادة تصل الأخبار السيئة قبل الطيبة.

تركت نوريا نفسها تنهار فوق المقعد المجاور للنافذة أسفل الأباجورة.

أنا منهكة للغاية، ليليانا، وكأنني كلما حققت إنجازًا ينهار كل شيء من حولي. هذا هو الشعور الذي يراودني، أنني أسير بين الأطلال التي شكلت حياتي حتى الآن.

- لا تفكري هكذا! سترين كيف سيتدخل السيد والسيدة فرومنت. هما أيضًا يكنان له تقديرًا كبيرًا. أتمنى ألا أكون قد أيقظت «كتاكيتك» (قالت وهي تفتح الباب بحرص لتنصرف دون إصدار أي ضوضاء).

- لا تقلقي.

- سأتصل بكِ لاحقًا لكي أخبرك كيف سارت الأمور. وغيري قفل الباب! أخبري مالكة البيت بذلك! ستوافق بالتأكيد. يجب أن تتفادي أية مفاجأة أخرى غير سارة من جانب ماكسيمو.

- نعم، سيكون ذلك أفضل. معكِ حق. لم يخطر على بالي.

- آه، وأمر آخر (قالت ليليانا وهي تفتح حقيبة يدها لتخرج منها نسخة من مجلة تايندلر). تفضلي!

تناولتها نوريا مندهشة. يحمل الغلاف صورة إناء مليء بدمى أطفال رضع مبتورة الأطراف. وأسفل هذه الصورة كلمة واحدة مشطوب عليها: «تيلامون». تظهر في صدر المقال صور كل من فاريك كيسلر وزميله كونراد سنغر.

- ولكن كيف حصلتِ عليها؟

- طلبتها بالهاتف من مكان متخصص للغاية. لدينا كما تعرفين الكثير من الأعداد من هذا النوع في المختبر. تأتي من بريطانيا.

- عندما نحل مسألة بورو، يجب أن ترافقيني لرؤية الأطفال الذين أخبرتك عنهم (قالت نوريا بمنتهى الحزن وهي تنظر إلى دمى الأطفال الرضع المحطمة على الغلاف).

- بالتأكيد سنفعل. ولا يساورك أدنى شك في أن كل المذنبين سيعاقبون عن جرائمهم العديدة وأن بورو سيطلق سراحه. (نظرت ليليانا في الساعة). والآن، سأرحل بالفعل؛ فلا أريد أن يصل السيد والسيدة فرومنت قبلي. سترين أن كل شيء سيصبح على ما يرام.

***

وجدت ليليانا، عندما فتحت باب معهد مستحضرات التجديد، دون خيرونيمو أولاربوس أمامها فتسمرت في مكانها.

- فتح لي أحد السعاة باب المختبر. معذرةً إذا كنت قد أفزعتك. كيف حالك؟

- على حالي كما أنا. وجهك شاحب، هل أنت بخير؟ (سألته بقلق حقيقي).

- دفنّا زوجتي أمس.

- آه! يا إلهي! أنا آسفة، دون خيرونيمو. (عانقته ليليانا).

- أعلم ذلك. أعلم أنكِ تشعرين بالأسف. أنتِ إنسانة طيبة، ليليانا (قال بابتسامة حنين).

- ماذا جرى؟ (ظلت على مقربة كبيرة منه).

- يبدو أن الانتقال إلى جنوب فرنسا لم يلائمها على الإطلاق، كانت تنطفئ في أيام، وتتألق في أيام أخرى، كان الأمر فظيعًا. كم عانت المسكينة!

أثناء حديثه، فكرت في العديد من الجمل، إلا أنها لم تجرؤ على أن تقول له أيًا منها.

- لم تعد عليّ التزامات (قال بشكل متعجل).

نظرت ليليانا إليه مندهشة. لم تكن تتوقع ذلك.

- بوسعي أن أعيش الحياة التي تحلو لي، التي تحلو لكِ، بعبارة أفضل، الإقامة حيث تشائين، السفر، أستطيع أن أشتري لكِ كل ما ترغبين فيه.

- دون خيرونيمو، أنا بخير كما أنا (قالت ليليانا غير مصدقة).

- ليليانا، ماذا جرى؟ هل في حياتك شخص آخر؟

- لا تهتّي، دون خيرونيمو! لا أحد في حياتي، وليست لدي الرغبة. لقد تعلمت كثيرًا من أخطائي سواء عن طريق أفكار الآخرين أو أفكاري الشخصية.

- هذه المرة الأمر مختلف. يمكننا الزواج (اقترب ليمسك بيديها).

- لا تستهويني حياة الزوجة (أجابت ليليانا. تملصت منه على الفور، واتجهت للجلوس خلف طاولة مكتبها لتفادي مداعاباته). ربما لأنني اعتدت على البقاء وحيدة.

- لكن ما بيننا... (استند دون خيرونيمو بيده على طاولة المكتب التي تفصل بينهما). لطالما قلت لكِ إن مقابلاتنا سرًا مؤقتة، لم أكن أريدها (لم يذكر اسم زوجته مطلقًا أمام ليليانا) أن تختفي لكي نكون معًا. ولكن هذا حدث. لا أشعر أننا نخطو فوق جثتها، بل نتصرف بصورة طبيعية للغاية.

- انظر، دون خيرونيمو! (قالت راجعة بكتفيها للخلف)، لقد استفدت من دعمك، وقد فعلت من أجلي الكثير، على سبيل المثال، وفرت لي هذا العمل الذي يروقني للغاية، وأشياء أخرى كثيرة غيره، سداد إيجار منزلي... لكن استوعب أن لدي الحق أيضًا في البدء من جديد.

- بدوني ليليانا؟ (اقترب أكثر ونظر إلى عينيها).

- حضرتك رحلت بالفعل (قالت بهدوء شديد).

- ولكنني عدت. عدت من أجلك (لم يكف أولاربوس عن التأكيد).

لم يعد لدى ليليانا طاقة لمواصلة تلك المحادثة. يقتضي منها الرفض

القاطع أن تكون أكثر حسمًا، أكثر بكثير مما كان لديها في تلك اللحظة.

- انظر! سنفعل الآن شيئًا (قالت في الحال): دعني أفكر في الأمر. أنا منهكة الآن، يطلب السيد والسيدة فرومنت مني أشياء كثيرة منذ عودتهما من السفر. بالإضافة إلى أنني عدت توًا من زيارة زميلة لا تشعر بأنها على مايرام على الإطلاق.

- سنفعل كما تقولين، كما تشائين، سبق أن قلت لكِ.

لم تشأ الإجابة. نظرت إليه مقتنعة بأن الألم قد غيره.

- لكن، أود بالفعل أن أشكرك على تصرفك فيما يخص التيلامون (قالت). أتمنى أن توافقيني الرأي على أنه لا شيء يُقارن بأن تكون مرتاح الضمير. إنها أفضل وسادة لكي تحظى بنوم هانئ.

- ليليانا، لطالما كنتِ إنسانة نزيهة (قال وهو يخرج من جيبه ورقة مطوية). انظري، انظري ماذا أحضرت لكِ! لم أحنث بوعدي.

خفضت ليليانا بصرها وراجعت السطور المكتوبة على الماكينة في الوثيقة التي عرضها عليها. تحمل ختم وارد في السجلات بتاريخ 29 أيلول/ سبتمبر. ومكتوب أسفل شعار النسر الذي بداخله الصليب: «وزارة الداخلية «إدارة الصحة العامة»، القسم والرقم. يبدأ النص بعد ذلك.

يشرفني إفادتكم للعلم وإحاطة هذه الإدارة العامة للصحة، بأنه في ضوء المعلومات الواردة بشأن الاستخدام على نطاق دولي لأدوية أو عقاقير صيدلانية أساسها مركب (ftalimido-glutarimida)، فقد قررت الجهات المعنية في بلادنا أن تلغي بصورة نهائية المواصفة الصيدلانية المرخص بها لمختبر هذا العقار المسجل برقم (E. N. 034.857)، والمعروف باسم «أقراص التيلامون»، اعتبارًا من تاريخ اليوم.

وبناء عليه، أطالبكم ببذل قصارى جهدكم لسحب جميع المنتجات التي

يمكن أن تندرج تحت المواصفة الصيدلانية المذكورة من السوق المحلي.

مدريد 27 سبتمبر 1962

المدير العام

للعلم والإفادة:

السيد المدير العام الفني - الصيدلاني للأدوية الدولية، ش.م.

- انتهى الأمر، ليليانا، أصبح رسميًا. صار اختفاء التيلامون من الصيدليات، والعيادات، والمستشفيات، مجرد مسألة أيام أو حتى ساعات. هذا حقيقي بالفعل.

نظرت إليه ليليانا ممتنة. انتابتها رغبة في الصراخ والقفز، لكن سيطرت على نفسها.

- مازال أمامنا الكثير لنتشاركه... (تابع دون خيرونيمو) لا يكن لديكِ أدنى شك. هل سترتدين ذلك الثوب البراق؟ لقد حلمت به عليكِ.

أرجوك اتركني أفكر في الأمر!

58

خرجت نوريا من عزلتها، بحلول تشرين أول/ أكتوبر، لكي تذهب إلى منزل بورو لتحمل الطعام إلى أجاتا. ذهبت ليليانا في المرات السابقة، لكن تلك المرة، ألحت عليها أورسولا لكي تبقى هي مع الطفلين لوقت أطول وهكذا تتمكن من الترويح عن نفسها.

انتابتها رعدة من مشهد واجهة البناء بميدان سان أجوسيتن. شعرت بأنها تختزن بداخلها صرخات ماكسيمو وضرباته، والمطاردة على السلم وألمها. مازال الباب مكسورًا. دخلت المنزل، واجتازت الصالة الوحيدة في طريقها إلى النافذة. اقتربت أجاتا حين رأتها هناك: زاحفة على الإفريز، وتتمسح بجسدها في الجدار بينما تتفرس فيها بإمعان. أمسكت بها نوريا ووضعتها فوق طاول المطبخ الصغيرة. فتحت عبوة معدنية من الطعام المحفوظ وقدمت لها محتواها. تصفحت بغير اكتراث، بينما تتناول القطة الطعام، دفترًا برز هناك من فوق طاولة مكتب كلاسيكية إسبانية.

لقد كتبت إليكِ كثيرًا. من الصعب للغاية على طفل تحمل مثل هذا الغياب. لا يتسع لاحتوائه جسدي الشديد الضآلة، فشرعت في تقويته بممارسة الرياضة، أحتاج أيضًا لتقوية تنفسي.

كنت كمن يغرق تحت الماء، عندما لم تعودي في ذلك الصباح، وجدت صعوبة في التنفس. أخذني الأب بيلسيرميس في الحال إلى المدرسة الداخلية. بكيت بلا انقطاع لعدة أيام. بدون طعام. بدون حياة. ضايقني

الآخرون في البداية، نعتوني بالبكّاء، وبكل ما خطر على بالهم. فهمت بعد ذلك أنه لم يكن وراء ذلك سوء نية، وأن بعضهم تعرضوا لظروف أسوأ مني ولكن حياتهم مضت. قالوا لي: إنه، من وجهة نظرهم، ليس لدي الحق في الشكوى، أو على الأقل ليس لدي حق أكثر منهم في ذلك، وإننا جميعًا نمضي في قارب واحد وإن عليّ أن أتحمل وأتطلع للأمام. بالرغم من العنف، إلا أن هذه كانت الرسالة التي أوصلوها لي.

شرعت في تكوين صداقات، وحكى لي بعضهم أن تلك المدرسة الدينية لم تكن وجهتهم الأولى، وأنهم جاؤوا من ملاجئ وجمعيات خيرية ترعى اللقطاء... كان هناك آخرون أيضًا، الأغنياء، وكنا عمليًا خدمًا لهم، إلا أن العلاقة معهم كانت مختلفة. لم يكترثوا لمشاكلنا، ربما لاعتقادهم أن الفقر والتعاسة متلازمان، وأنها مسألة قدر، ومن ثم ليس لدينا أي حلول.

لم يتركوني أراك، يا أمي. لا أدري لماذا تشوهت، لكن الحزن الذي تركه بداخلي رحيلك بدون أن أستطيع منحكِ قبلة لم يتمكن شيء من مداواته. سأفتقد دومًا تلك القبلة. لم أعد أنام بجوار أحد مطلقًا. كنت في غاية السعادة حينما كنت تحضنينني تحت بطانيتنا الوحيدة. أفكر أحيانًا أن لحظات كهذه تعوضني عن كل شيء، لأن كثيرًا من الناس لن يسعدهم الحظ لكي يعيشوا مثلها، على الرغم من أن حياتنا معًا كانت شديدة القصر لدرجة أن...

لم تستطع نوريا أن ترفع عينيها عن تلك الكلمات، على الرغم من شعورها أن قراءتها خيانة، وكأنها تنظر إلى روح بورو مكشوفة للضوء، بالإضافة إلى أنه بينما كانت تنبش في مشاعره، كان هو مقبوضًا عليه. ومع ذلك، انتابتها الرغبة في الاستمرار. انتقلت إلى الفقرة الثانية، لكن سمعت حينئذٍ صوتًا يدل على وجود شخص في الردهة. أصابها شعور بالفزع. وفكرت أنها قد تقدم على الإلقاء بنفسها من النافذة، قبل أن تعيش مجددًا ما حدث لها هناك

مع ماكسيمو. أخفت بصورة آلية تلك المفكرة ذات الغلاف البني في حقيبة يدها. واقتربت بمنتهى الحذر من الباب واضطرت للابتعاد في الحال بسبب اقتحام رجلين. سألها الشخص الذي دخل أولًا:

- من أنتِ؟

- نوريا، نوريا سومبورت (أكدت إجابتها لهما وهي شبه متلعثمة).

- وماذا تفعلين هنا؟

- جئت لكي أطعم القطة.

- تعرفين إذن سلفادور نافاسكويس التاريبا (قال الآخر).

عرفت في تلك اللحظة اللقب الثاني لعائلة المهندس الكيميائي. تتفق مع الحرف الثالث الذي قرأته في الجريدة مع ليليانا.

- نعم، بالطبع، ولهذا جئت.

- وهل تعرفين أين هو الآن؟

- أرسله أصحاب معمل مستحضرات التجميل الذي يعمل به إلى البرازيل لجلب مكونات من أجل مساحيق التجميل (تراءى لها أنه من الأفضل أن يستكملا هما المعلومات).

- إذن، ألا تعرفين أنه قد عاد؟

- لا (أجابت متظاهرة بالاندهاش). تصورت أنه من المنتظر رجوعه في غضون بضعة أيام.

- حسنًا، يبدو أنه سريع الإنجاز في بعض الأمور، ولهذا سرعان ما أنهى عمله هناك.

ظل الرجل قليل الكلام ينظر إليها من أعلى لأسفل وكأنه يقيمها.

- هل أنتِ رفيقته العاطفية؟

- لا، لقد تعرفنا منذ فترة وجيزة.

- هذا أفضل لكِ. انتظري في الردهة بينما نلقي نظرة سريعة هنا!

خرجت القطة معها وأخذت تتمسح بعقبيها اللذين لم تندمل جراحهما بعد. انحنت نوريا وأخذتها بين أحضانها. راقتها هرهرتها، رقة تمسّحها بها. فكرت في أخذها معها، وفي مدى سعادة ميربيا باقتنائها، لكنها أدركت، عندما شرعت أجاتا أذنيها عند سماع ضوضاء قادمة من الشارع، أن تلك هي بيئتها وأن انتزاعها من هناك، قد يؤثر على صحتها. قفزت القطة بمنتهى الرشاقة، وكأنه قد حدث تفاهم بينهما على هذا، وبالرغم من بطنها المنتفخة، صعدت درجات السلم الأربعة المؤدية إلى السطح، ووصلت إلى فتحة تهوية بالسقف بها انفراجة تكفي لمرورها.

خرج الرجلان على الفور. حمل الرجل الأقصر طولًا عدة كتب تكررت فيها على الغلاف كلمة «كيمياء» وكتابًا أصغر استطاعت نوريا قراءة اسم مؤلفه، سيلفر كين، مكتوبًا بحروف ضخمة باللون الأصفر. خاطبتهما قائلة:

- معذرة، هل أستطيع الرحيل؟ ينتظرونني بالمنزل

- حسنًا، أخشى أنه لن يكون بوسعك. سيتعين عليهم انتظارك لفترة طويلة لأنكِ ستأتين معنا الآن إلى القسم.

شعرت نوريا بقشعريرة لفت جسمها بالكامل. فكرت أن ذلك غير ممكن. انهارت الدنيا فوق رأسها وأخذت ترتجف.

- تحركي!

رأوا حينما مروا أمام باب شقة الطابق الأول فتاة صغيرة تنظر إليهم من فرجة في الباب لا تتجاوز بضعة سنتيمترات. تابعوا وكأنهم لم ينتبهوا إليها، ودخل الثلاثة الجزء الخلفي من سيارة. أدار شرطي آخر المحرك. شعرت بالاطمئنان لأنهم لم يشغلوا إشارة الإنذار.

وصلوا في الحال إلى قسم شرطة كوندي أسالتو. أصابها ذلك المبنى بالفزع: كان قصرًا على الطراز النيوكلاسيكي تزين شرفاته تيجان أعمدة، ويوجد به سلم داخلي. لاحظت في الداخل حالة التدهور التي حلت بحجرات المبنى التي مروا بها، فضلًا عن انتشار رائحة الصرف الصحي العطنة في كافة أرجاء المكان.

أجلسوها على مقعد متهالك للغاية، حيث رأت من موقعها ممرًا بأبواب على الجانبين. عاد الرجلان اللذان أحضراها إلى هناك في الحال. كان بورو برفقتهما ومعه الأب بيلسيرميس.

- أحضرنا لك زيارة، ونسائية. حتى لا يقولوا هنا وهناك إننا نعاملكم معاملة سيئة. ولكن، يجب أن تبقى معها هنا، لا يمكنها الدخول مثل القس.

شعرت نوريا بارتياح عندما رأت بورو ولأنها على ما يبدو لن يقبض عليها.

هرول نحوها، بمجرد أن رآها وتبادلا العناق. قال أحد الشرطيين:

- ادعت أنها ليست رفيقته العاطفية.

- نوريا، شكرًا على مجيئك. لا تعرفين كيف حالي هنا. إنه كابوس. كيف حالك؟

بدأ أحد عملاء المباحث يسجل في دفتر. خاطب معاون المباحث القس قائلًا:

- أبتِ، حضرتك اجلس هنا!

خفض بيسليرميس بصره. بدا شخصًا آخر، شاخ فجأة، وكأن كل طاقته قد تبخرت ولم يعد متبقيًا لديه سوى هيكله الداخلي وبنيته الخارجية. ربت على كتف نوريا عندما مر بجوارها. كانت مازالت مستمرة في عناق بورو.

- لم أعلم بعودتك (كذبت لتواصل الرواية التي أدلت بها).

- هذه ليست عودة (قال منفصلًا عنها قليلًا لكي يرى وجهها). يتهمونني بجريمة قتل! أنا أقتل مخبر سري لا أعرفه! أنا لا أعرف أي مخبر سري! أخبرني محامي أنه بلاغ من مجهول.

- ولكن لماذا؟ (سألت وكأنها لا تعرف أنه من تدبير ماكسيمو).

- لا أدري. عرضوا عليّ قنينة. (لم يرغب بورو في استخدام مصطلح «قارورة مختبر»)، تحتوي على بقايا حامض كبرتيك مركز، صور طاولة فوتبول في مكتب مثير للرعب وبعض شرائح مصورة لنجمات مثيرات.

نظرت إليه نوريا بدون أن تفهم

- وما علاقتك بكل هذا؟

- لا أدري، لكنني عثرت في لابريا على بعض عبوات التيلامون، فأحضرت بعض العلب شبه خاوية، والآن، تعد أيضًا وفقًا لهم أدلة تدينني لأنها تتعلق بتحقيق لا أعرف عنه شيئًا. لم يوضحوا لي شيئًا (قال يائسًا).

رأت نوريا أحد رجال الشرطة لا يرفع عينيه عنها وهو مستمر في تدوين ملاحظات في دفتر، كانت واثقة، على الرغم من عدم معرفتها بالإجراءات الشرطية والقضائية المتبعة في مثل تلك الأحوال، أنهم يسعون من خلال تلك المواجهة المرتجلة إلى إحراز تقدم في التحقيق؛ يفتشون عن تناقضات، تضارب في أقواله التي أدلى بها سابقًا، يراقبون سلوكه... لذلك عزمت على الانتباه لكل كلمة من كلماتها.

- لكنك لم تكن موجودًا هنا.

- يبدو أنه قُتل قبل سفري، لكن لا يهم. لن يغير من الأمر شيء وجودي في برشلونة من عدمه. لا يكترثون لأية أسباب.

- ستخرج قريبًا، سترى. أنت لا علاقة لك على الإطلاق.

- كيف تكونين متأكدة إلى كل هذا الحد؟ (سألها أحد رجال الشرطة).

- لأنكم كلما تقدمتم في التحريات، ستجدون أنه شخص طيب، ليس بوسعه التسبب في أي أذى.

- دعكِ من هذا! لن يطلقوا سراحي.

- بورو، هذا ظلم شديد.

- أنتن بارعات في الدراما. مؤهلات بالفطرة، ولكن لإنقاذه، يجب أن تفعلي أكثر من ذلك بكثير (خاطبها المخبر الذي قاد السيارة بهم حتى هناك).

- مثل ماذا؟ (أجابته بتحدٍ).

- نوريا، دعينا نهدأ (تدخل بيلسيرميس. كان يخشى أن ينصبوا لها فخًا: أن يجعلوها تدلي بشيء قد تندم عليه بعد ذلك).

- يتعين عليه، أن يخبرنا في البداية (قال الشرطي الذي أخذ الكتب، مشيرًا برأسه نحو بورو) أين كان حينما وقع الاعتداء على السيد بالادري في منزله وتعذيبه وتركه على شفا الموت. هل كنتِ معه هناك أيضًا؟

تبادلت نوريا وبورو نظرات قلقة. قال الشرطي بغطرسة:

- أرأيت! فمن الأفضل أن توفر وقتنا جميعًا وتخبرنا بالحقيقة مرة واحدة. لأنه لدينا، بالإضافة إلى المبلّغ، شاهد آخر، عامل نظافة رآك تتشاجر مع القتيل في ميدان كتالونيا. رفعت يدك عليه. لن تجرؤ على إنكار ذلك.

فتحت نوريا فمها لتحتج.

- نوريا (تدخل الأب بيلسيرميس مجددًا ليحذرها. نظرت إلى القس وهي تسيطر بصعوبة بالغة على رغبتها في مواجهة الشرطي).

- لكي نتمكن من الإجابة عن سؤالك، يتعين عليك إخبارنا أولًا تاريخ الواقعة التي تشير إليها (قالت محاولة السيطرة على غضبها).

- حسنًا.

أشار الشرطي إلى التقويم المعلق على الحائط. أخرجت نوريا المفكرة التي أخذتها من منزل بورو. نظر إليها بورو مندهشًا. شعر بأنه أكثر عريًا بكثير من اليوم الذي كانا فيه معا في منزله.

- انظروا! اقرؤوا! بورو، معذرة (قالت موجهة الحديث إليه، لكن بدون التوقف عن تقليب الصفحات بسرعة). كان هناك معك لبعض الوقت، يا أبتِ. (تمنت نوريا أن يتدخل القس، إلا أنه ظل خافضًا رأسه، منهارًا فوق أحد المقاعد المواجهة لطاولة معاون المباحث. ولما لم يفعل، تابعت).

نظر إليها رجال الشرطة بنظرات من أعلى إلى أسفل وانفجروا في الضحك فيما بينهم. فشعرت نوريا بالخجل. خشيت من أن يسألوها إذا كانت متزوجة، ولكنهم شرعوا في متابعة تلك السطور بنظراتهم. تدخل على الفور الشرطي الذي بدا أعلاهم رتبة:

- هكذا إذن، فإن هذا القس هو حجة غيابه؟ تخبريننا بذلك بكل بساطة، بالإضافة إلى ذلك تحضرين لنا بضع كلمات سحرية، فنطلق سراحه! انظري، الأمر لا يسير على هذا النحو! قد يكون كتبها لاحقًا. الأمر المؤكد حقًا أنه سيتعفن في السجن. لا تنخدعي! إن وضعه في منتهى الصعوبة: كل الأدلة ثابتة عليه.

- نوريا، هيا بنا (قال بيلسيرميس).

نظرت إلى بورو، فلاحظت أنه أيضا أكثر ذهولًا، وأقل حضورًا. بدت وكأنها الشخص الوحيد الذي احتفظ هناك بذاته لم تمس.

- هل اتصل السيد والسيدة فرومنت بكم؟ (سألتهم نوريا. لم تشأ الاستسلام).

- نحن هنا من نقوم بالاستجواب.

- يجب أن تتحدثا معهما، مع دون أليكس ودونيا ليونور.

- انظري! لا تعطينا أوامر! لم يكن ينقصنا سوى ذلك. بالإضافة إلى أنني لا أعتقد أنكِ ستعوضيننا عن المضايقة.

- نوريا، يكفي هذا اليوم. فلنرحل! (قال الأب).

حينئذٍ اقتربت من بورو وعانقته مرة أخرى.

- سوف نخرجك من هنا. أعدك بالعودة قريبًا.

- أعلم أنكِ معي، نوريا، وهذا يكفيني.

التصقت به أكثر وقبلته في عنقه.

- كفى إحراجًا. لقد كان هذا استثناء. لا تعتادا على الزيارات (قال معاون المباحث)

أمسك بيلسيرميس بذراع نوريا:

- هيا بنا! اعتنِ بنفسك يا بني وصلِّ!

اتجها نحو الباب. لم ترغب نوريا في النظر إلى الخلف، لم تكن ترغب في رؤية مشهد اصطحابهم لبورو عبر ذلك الدهليز الذي تفوح منه رائحة منفرة مثل باقي أرجاء المكان.

59

- سيفيدك استنشاق القليل من الهواء، فلنسِر معًا! (قال القس لنوريا).

- أشكرك على هذا، لكن ما زالت لا أستطيع بذل مجهود كبير... بسبب كاحليّ. لم يتعافيا تمامًا.

- حسنًا، فلنبحث عن مقعد ونجلس لبرهة!

- أبتِ، تبدو متغيرًا.

- هل ترين حالتي بهذا السوء؟ كل هذا يفوق احتمالي، تسبب في انهياري. وعلى الرغم من أنني جُبِلتُ على تحمل الشدائد... لكن الأمر يمس بورو...

- تحبه كثيرًا، أليس كذلك، يا أبت؟

- لو أن حياتي سارت بشكل آخر، فلا يساورك أدنى شك في أنني كنت أود أن أرزق بابن مثله!

ابتسمت له نوريا بتأثر.

- لقد كان شديد البؤس. وعانى كثيرًا بالفعل، والآن هذا.

- لا يحدثني إطلاقًا عن ماضيه. يقول إنه كان بخير في المدرسة الدينية الداخلية، ولكن ليس أكثر من ذلك.

جلسا على مقعد أمام سور الحديد الدائري المحيط بإحدى النوافير.

- لست متفاجئًا. كان طفلًا عندما قتلوا أبيه فجرًا عند خروجه بجيوب منتفخة من سهرة لعب ورق في مكان مشبوه.

- قتلوه؟ (سألت مندهشة).

أومأ بيلسيرميس معربًا عن أسفه.

- وأرغم أصحاب ديون القمار أمه على ممارسة الدعارة لسداد ديونه من المال الذي تجنيه من ذلك.

رفعت نوريا يدها لتغطي فاها من الذعر.

- كانوا يقيدون سلفادور، أثناء الساعات التي يأخذونها خلالها، بحبل إلى قائم السرير. مازال أثره باقيًا في معصميه. كانوا يتركون قريبًا منه صحنًا من الفخار به ماء وقطعة من الخبز الجاف. وجدته على هذا الحال عندما قتلوها هي أيضًا. إنها رذيلة القمار، يا ابنتي. تصور والده أن بوسعه إعالة أسرته بتلك الطريقة. حالفه الحظ ذات ليلة في سهرة قمار بمكان مشبوه. حقق أكبر مكسب في حياته. مال يمكنه من سداد العديد من القروض والاعتزال أيضًا، إلا أن الثروة لم تدم له إلا لبضعة أمتار. دفعه شخص، على مسافة شارعين من المكان الذي تجمعوا به، الباحة الخلفية لمحل أقمشة، نحو مدخل أحد المنازل، وذبحه بضربة سكين واحدة. اعتقدت الشرطة في البداية أنه مجرد حادث سرقة عادي. ذهبت امرأته لمستودع الجثث، ولكن لم يعطوها سوى حلته الملطخة بالدم، القميص، الحزام، حذائه، ومتعلقات قليلة أخرى. سلبوا ساعته أيضًا. لم نعرف كل هذا سوى بعدها بسنوات. أما هي، بيتانيا، فلم تعانِ من ذلك كنهاية زوجها فحسب، بل كبداية لشيء أسوأ بالنسبة للطفل ولها. ولم يكذب حدسها. كان سلفادور خينئذٍ في الخامسة.

أغمضت نوريا عينيها، فانسالت دمعة على وجنتها.

- والآن هذا (قال بصوت ضعيف) درس كثيرًا لكي يكون نفسه، ناضل من أجل الحصول على عمل جيد، وفجأة ضربة قاصمة جديدة. لا أعتقد أنه سينجو لو زجوا به في السجن.

- لا تقل ذلك، يا أبتِ! (لم تستطع نوريا استيعاب كل ذلك. شعرت هذه المرة أنها هي التي جلبت سوء الحظ مجددًا إلى حياته. ألصق القس كتفه

بكتفها وأمسك بيدها)

- أشعر بأنني لا أستطيع أن أشد من أزرك. نفدت مني هذه المرة كلمات العزاء. كلها.

***

في صباح اليوم التالي، كانت كلمات القس عن طفولة بورو الرهيبة، مازالت تطن في عقل نوريا. نظرت لبضع لحظات إلى صندوق الخطابات وكأن فتحها يعادل بالنسبة لها المجهود نفسه الذي يحتاجه تسلق جبل، ولكن لم يكن أمامها سبيل آخر سوى البدء.

سيدتي العزيزة:

أكثر شيء أتمناه في الحياة أن أصبح عالمة حيوان. انظري! أشعر بأنني في أفضل حال عندما أكون مع الحيوانات، على الرغم من أن الحيوانات الوحيدة التي أستطيع الاقتراب منها هنا هي تلك التي في الحظيرة. أحب تلك الأفلام التي تصور في أفريقيا عندما يرتدي الأبطال ثيابًا باللون الكاكي ويتعايشون مع القرود، والأفيال والزرافات.

أحلم بالتخصص في دراسة سلوكها، تغذيتها، علاقاتها. أشعر بشغف كبير حيال ذلك. لكن عندي مشكلة، سيدتي، عائلتي لا تملك الإمكانيات التي تمكنني من الدراسة في الجامعة.

أبكي ليالي كثيرة وأنا أفكر في أنه ليس لي ذنب في حياتي الحالية وفي أنني سأظل هكذا إلى الأبد، وسأموت بعد حياة بلا فائدة ترجى. يؤلمني هذا كثيرًا. ربما تبدو لك نزوة شباب، لكن صدقيني إذا أخبرتك أنها ليست كذلك. ينتابني الحزن أكثر فأكثر حين أفكر أن حلمي هذا غير قابل للتحقيق. هل درستِ؟ أخبريني من فضلك، ماذا يمكنني أن أفعل؟

وتفضلي بقبول فائق الاحترام،

إيسابيل

أجابت نوريا على هذه الرسالة وكأنها روبوت، مستخدمة المعلومات التي عرفتها من سنوات دراستها.

صديقتي العزيزة:

أعتبر نفسي شخصًا يتمتع بحدس كبير. ولهذا السبب أقول لك: إنني متأكدة من أنكِ ستتمكنين من تحقيق ما أخبرتني بأنه حلمك. لماذا؟ ستسألين. حسنًا الأمر في منتهى البساطة: لأنه يكمن في التصميم الواضح في عرضك، وفي أمنيتك التي لا رجعة عنها، الإرادة اللازمة لتحقيقه.

خطر على بالي الآن، أنه يمكنكِ مخاطبة المسؤولين في الصندوق الوطني لتكافؤ الفرص. يمكنك العثور على تلك المعلومة في الجريدة الرسمية. إنهم يقدمون منحًا قيمة للغاية، ولكن يحصل عليها فحسب الطلبة المتفوقون. لا يساورني أدنى شك في أن أسلوب تحريرك يدل على أنكِ واحدة منهم. في حدود علمي هناك منحٌ تتضمن 900 بيزيتا شهريًا، وهذا مبلغ سيكفيك ويفيض. جربي التقديم. وسوف يمنحونها لكِ. ليس عندي أدنى شك. لكن يجب عليك أيضًا أن تدخري كثيرًا، الاحتفاظ بشيء ما جانبًا بصفة دائمة، مهما بدا لكِ ذلك مستحيلًا. تعلمين أن التقشف يعد أيضًا من الفضائل المفيدة.

ابدئي على الفور! حلمكِ لن يأتيك حيث أنت، بل يتعين عليك أن تمضي أنتِ نحوه.

أتمنى لكِ حظًا وفيرًا، صديقتي إيسابيل. اكتبي لي مجددًا عن أخبارك الطيبة وأنا على قناعة بأنه، قريبًا، إذا واصلتِ بالعزيمة نفسها هذا المسار الذي وضحته لك، فستصلين.

***

سافر فاريك كيسلر من هامبورج إلى دوسلدورف بصحبة ميرخا لكي يخبر ميليفا عن تطور تحقيقات الشرطة بشأن حادث حوض الاستحمام.

أحسنت ميليفا استقبالهم وأخبرتهم بألا يقلقوا، وأنها فكرت من قبل في عرض قصرها للبيع، وأنها لهذا السبب في زيارة عابرة إلى الولايات المتحدة، وأنها قررت بناء على نصيحة من صديقة قديمة الانتقال للعيش في الأرجنتين.

– فريدا وأنا على تفاهم تام. يمكنك القول إننا عشنا حياتين متوازيتين، وعلى الرغم من أن هذا قد يبدو تناقضًا، كانتا على نحو ما غير متماثلتين. الآن هي تبدو ابنتي! (قالت متعجبة ولم يستوعب ضيفاها ماذا تقصد). لطالما تشاركنا كل شيء، ويجب أن يكون هناك شيء من الحقيقة في مقولة إن المعروف لا يضيع: فمثلما تركتكما تقيمان في منزلي، تركت لي هي منزلها لأنها ستنتقل إلى إسبانيا لفترة. سوف أعيش في جنة في قلب بتاجونيا، في إقليم البحيرات.

دق في تلك اللحظة جرس الباب فابتسمت ميليفا بغموض شديد.

– لقد أعددت لك مفاجأة، فاريك (قالت وهي متجهة نحو الباب).

تبادل كيسلر وميرخا نظرات مرتابة.

– لم أستطع الرحيل بدون أن أودعه (قالت أثناء دخول شخص إلى الصالة). سيجفريد! (طبعت ميليفا قبلة على وجنته). أراك في خير حال!

– سيجفريد باخراخ! لا أستطيع أن أصدق (قال كيسلر مقتربًا لكي يعانقه).

– صديقي القديم فاريك. هل جئت أنت أيضًا لتوديع ميليفا؟

– هل تستطيع أن تصدق أنها ستتركنا؟ (قال كيسلر وهو مازال ينظر في حيرة إلى صديقه).

– سيجفريد، هذه ميرخا، رفيقته العاطفية الحسناء. سويدية (قالت ميليفا).

حياها سيجفريد بلغتها.

– أين تعلمتها؟ (سأله فاريك)

- كنا نتحدث كثيرًا وبمختلف اللغات في قفص السجناء ذاك، لم يكن هناك شيءٌ أفضل لنفعله. ساعدني هذا على الأقل على كسب عيشي من الترجمات، لم أحتج للبحث عن عمل.

- دعونا من الحديث عن الأوقات العصيبة (قالت ميليفا بضيق، وهي تصطحبهم إلى الصالون). فالأفضل أن نتناول بعض المخبوزات. لا أعتقد أنها بجودة التي كنت تعدها لنا هنا، لكننا على الأقل سنأكل طعامًا سويًا.

- تبدو لي فكرة جيدة، وأخرجي لنا بعضًا من الخمر لكي نشرب نخبًا لأنكم ستكونون أول من يعرف الموضوع، بعد صديقي كونراد سنغر، (تبادل كيسلر مع ميرخا نظرة تواطؤ). سوف نذهب إلى أوبسالا لكي نتزوج وسوف نستقر بعد ذلك في مدريد. لدي فرصة كبيرة في الحصول على وظيفة مهمة هناك في مستشفى السلام الجامعي.

- عظيم عظيم! كنت تتكتم على الأمر. يبدو لي رائعًا، مبروك! (قالت ميليفا). من كان يصدق! أنت تتزوج.! تهانيّ، ميرخا، كنت أتصور أنك محصن.

ابتسمت ميرخا بسعادة.

- حسنًا، فاريك، حسنًا. لهذا لا يجب على أحد أن يفقد الأمل، حتى أنا. (ابتسم لهما سيجفريد). آمل ألا يكون الأمر مجرد هروب بعد كل ما تعرضت له مع التيلامون.

- على الإطلاق، إنني ذاهب مفعمًا بسكينة من أدى واجبه. على الرغم... (قال كيسلر مستدعيًا شيئًا ما) أقلب هذا الأمر في رأسي منذ فترة. هل تذكر ما حكيته لي عما تعرضت له أثناء ترحيلك؟

- يتعين عليك أن تكون أكثر دقة، فاريك، لم تعد ذاكرتي كسابق عهدها. علاوة على أنه... قد حدثت لي أشياء كثيرة.

- سيجفريد، انظر إلى هذه الصور، من فضلك! (عرض عليه نسخًا من تلك التي التقطها أثناء تحقيقه بشأن التيلامون). هل كان الأطفال الذين رأيتهم في معسكر الاعتقال بهذا الشكل؟

- بل وأسوأ (قال وهو يومئ بالإيجاب). لكنني لم أعرف مطلقًا إذا كان الذين رأيتهم بلا أذرع أو سيقان لأنهم ولدوا هكذا أم لأن أولئك الوحوش بتروها لهم. وتعرف أين استقر المقام بهؤلاء المتوحشين الآن؟ (سأل بمرارة). في مجالس إدارات الكثير من الشركات. نجوا من نورمبرج، وبعضهم فر إلى الولايات المتحدة... تعتبر صناعة البتروكيماويات والأدوية من أوائل الصناعات التي نهضت بعد الحرب. وبأي مقابل؟ مقابل أرواح الكثيرين. أغفلت العديد من الأشياء... ها قد أخبرتك.

- هذه المرة لن ندعهم يفلتون. هل يمكنني الاطلاع على تلك المستندات التي احتفظت بها عندما حرروا المعسكر؟

- بالتأكيد. سوف أرسلها إليك على عنوان العيادة في هامبورج. لم يخطر على بالي غرض أفضل.

60

دخل دون أليكس ودونيا ليونور منزلهما وانتبها على الفور لأريج الفانيليا عطر فريدا لورنسن. اجتازا الردهة فوجداها في الصالون. حولت بأناقتها الفائقة ذلك الركن الداخلي البرجوازي، الكلاسيكي، إلى لوحة مضيئة وفوق ذلك، حية.

- سنيوريتا لورنسن، معذرة. لم نتصور أنك ستعودين سريعًا من الخارج.

- نعم، كنت بحاجة إلى شيئين فحسب. ولم أجد صعوبة في العثور عليهما. أصبحت بفضل جولات ليليانا أعرف هذه المدينة كراحة يدي. إنها شابة في منتهى الكفاءة. أنتم محظوظون بموظفيكم. وهنا، أشعر بفضل كرم ضيافتكم وكأنني في منزلي... بل أفضل (ابتسمت).

- لقد جئنا الآن بالتحديد لأنه طرأ أمر في منتهى الخطورة لواحد من موظفينا. إنه بورو، الذي تعرفتِ عليه في بوينوس آيرس، لقد أُلقِي القبض عليه، بالخطأ بكل تأكيد. إنه أمر فظيع. نعرف هذا الشاب منذ سنوات طويلة، راعيه هو كاهن اعترافنا، وهو بالإضافة إلى ذلك القس الذي يساعدنا في برنامج المستشار العاطفي. تصوري! لا يمكن أن تكون هناك ضمانات أفضل من ذلك. باختصار هذا ظلم. ذهبنا للحديث مع شخص يمكنه أن يفعل الكثير من أجله. نأمل أن يجري إصلاح كل شيء، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل.

- وهل قُبض عليه لأسباب سياسية؟

- لا، على الإطلاق. لم تقع الاضطرابات الاجتماعية في برشلونة هذه المرة (قال دون أليكس. لم يدر إذا كانت فريدا على علم بالإضرابات في الشمال وإعلان الأحكام العرفية في بعض الأقاليم).

- الأمر أسوأ بكثير. إنهم يتهمونه بارتكاب جريمة قتل (قالت دونيا ليونور).

نظرت إليها فريدا باندهاش.

- لكن كما قلت لكِ، هذا غير حقيقي. غير معقول. انظري! على الرغم من سرية التحقيقات، زوجي أليكس تمكن من الاطلاع عليها عن طريق مفتش شرطة صديقه. التفاصيل مروعة. قتلوا رجلًا مقيدًا إلى طاولة فوتبول.

- فوتبول؟ (سألت فريدا غير مستوعبة).

- بيبي فوت (قال دون أليكس متذكرًا الطريقة الأرجنتينية لقول اسم تلك اللعبة)

- آه! (قالت على الفور) ومات على هذه الحال؟

- لا، يبدو أن السبب كان التعذيب الرهيب. تساقط حمض الكبرتيك المركز من الطابق العلوي قطرة قطرة ولا نعرف مصدره. مرعب. مرت ساعات قبل أن ينتبه أحد. أخذ ينزف من أنفه، على ما يبدو بسبب استنشاق هذه المادة الكيميائية. بشع.

- هذا ليس موضوعًا للحوار قبل الغداء، عزيزتي (وبخها السيد فرومنت).

- أعلم أليكس، لا أرغب في مضايقة ضيفتنا، ولكن أصابني الذهول منذ أن عرفت. لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر. يبدو أن أحدًا من الجيران لم ير الدم المنسال عبر درج السلم، لكن الشرطة تلقت بلاغًا. أما الشرائح المصورة... (انتصبت فريدا لورنسن واقفة عند سماع هذا واقتربت منها.

تابعت السيدة فرومنت): عندما وصلت الشرطة وجدوه يحتضر. حملوه إلى المستشفى، وهناك تمكنوا من إطالة أمد معاناته فحسب. عثروا بجواره على آله عرض شرائح مصورة لمشاهد نجمات حسناوات من هنا، كلهن يمثلن على مسرح قريب، مسرح فيكتوريا.

- ألم يخبرك صديقكما مفتش الشرطة بطراز آلة عرض الشرائح المصورة؟ (سألتهما فريدا).

نظر إليها دون أليكس ودونيا ليونور في حيرة. لم يبدُ لهما هذا السؤال مفاجئًا فحسب، بل أحمقَ وخارج السياق.

- كل هذا مشوق للغاية بالنسبة لي. لا تعرفان إلى أي مدى.

أثارت كلمات فريدا فضولهما، على الرغم من أنها لم تعكس أدنى ذرة تعاطف مع الضحية أو المهندس الكيميائي.

***

خرجت كلا من نوريا وليليانا من بناء مولاي حفيظ مبكرًا للغاية ذلك الأحد. انتصب القصر مهيبًا في الأفق وبدا كأنه ينظر إليهما بشموخ.

- هل تعتقدين أننا سنلفت الأنظار كثيرًا بأسلوب لبس كهذا؟ (لاحظت نوريا الطقم المكون من حقيبة يد وحذاء جلد صناعي لامع بلون أزرق سماوي ارتدت معه ليليانا ثوبًا له سترة كاروهات من طراز فيشي محبوك على خصرها تتلألأ أزراره الذهبية، تخيلت تناقض تلك الثياب مع تلك التي ترتديها والدتا الطفلين المشوهين اللتان قابلتهما).

- لا يهم، سيتصوران أننا من جمعية العمل الكاثوليكي (أجابتها ليليانا).

وصلتا إلى محطة ماجوريا قبل الثامنة وسلكتا طريقهما بين الخصاص. تذكرت نوريا زيارتها السابقة مع بورو إلى هناك؛ فشعرت بغصة في حلقها. أسرعت الخطا، وكأنها تود أن تترك وراءها أشياء كثيرة. تعثرتا في أعجف كلب

سبق لهما رؤيته على الإطلاق عندما وصلتا أمام الستارة المستخدمة كبوابة لمنزل ثيبيليرا. لم تجرؤ نوريا على مناداتها باللقب الذي أطلقته عليها سيدات الحي اللائي يصطففن أمام صنبور الماء العمومي. لم يكن هناك أي داعٍ للتفكير في خيارات بديلة، لأنها بمجرد أن سمعت حركة خرجت على الفور.

- أي خدمة أقدمها لكما؟ آه، إنها حضرتك (قالت بمجرد أن تعرفت على نوريا).

ارتدت تنورة ريفية وحرملة صوفية فوق الأكتاف ونظرت إلى نوريا بريبة.

- أحضرت لكِ هذا. (قدمت لها نوريا الراديو).

- لقد تذكرتِ (قالت بتأثر). شكرًا جزيلًا.

- بالتأكيد تذكرت. لطالما تذكرت. لكن لم تتح لي فرص المجيء قبل الآن.

- يا لها من لفتة! ماذا أستطيع أن أفعل لسيادتك؟

- حسنًا انظري! سأكون في غاية الامتنان لك إذا اصطحبتنا لمقابلة لزميتلك في المصنع تلك التي تناولت الحبوب نفسها وحبلت في توأمين. هل تتذكرين ما رويته لي أنا وصديقي؟

- لم تعد المسكينة بحاجة إليكما، لا تقلقي! أدركت أن التوأمين سيولدان مشوهين، مثل طفلي، فتركت الطبيعة تقوم بعملها. أجهضتهما. أتعرفان رأيي؟ الأمر أفضل على هذا النحو.

- معك حق (قالت ليليانا بكثير من الأسى). وكيف حالها؟

- أفضل، أفضل بكثير. لدرجة أنها عثرت على زوج. يدعى ماتيو. في السبَعين من عمره وهو أعرج، ولكن يتوافر به أهم شيء: إنه انسان طيب للغاية.

- بالفعل، كما تقولين: هذا هو أهم شيء. سيرعاها جيدًا بكل تأكيد وسيحبها (تدخلت ليليانا).

- مبروك إذن، تعلمين أنه يسعدني أن يسير الأمر على هذا النحو. (قالت نوريا مودعة. بدا من ابتسامتها أنها أفضل حالًا).

تلفتت ليليانا حولها مثلما فعلت نوريا في المرة الأولى. استقلتا سيارة أجرة، ما إن خرجتا إلى الطريق العام، للتوجه إلى ملجأ سان خوسيه. لم تتحدثا طوال الطريق؛ وكأن الصمت يستطيع محو مشهد تلك المباني الوضيعة من مخيلتهما. قالت نوريا لـ ليليانا، عندما ترجلتا عند البوابة:

تأتي مارينا نحو الساعة التاسعة لإرضاع صغيرها. بالتأكيد ستسعدها زيارتنا. المرة السابقة...

غالبت نوريا الذكريات والدموع.

- تعالي، هوني عليكِ! (احتضنتها ليليانا). أنت حرة. أتعرفين معنى هذا؟ يتعين عليك فحسب انتظار خروج بورو، وهذا سيتم بسرعة وبلا توان بفضل مساعدة السيد والسيدة فرومنت. سوف ترين.

- حلمت نوريا، عندما انعطفتا في الممر نفسه الذي كانا فيه المرة السابقة أمام لوحة إبراهيم وولده، بلقاء بورو هناك. لم يكن هناك سوى مارينا فحسب، بنفس الثياب الرجالية، والحذاء الضخم والسترة الكبيرة حاملة بين ذراعيها طفلها المشوه.

- شكرًا على العودة.

- لقد وعدتك. هذه هي صديقتي ليليانا. أرى أنه قد كبر كثيرًا (قالت نوريا وهي تداعب وجنة الرضيع المكتنزة بكل حنان).

- أتعرفين رأيي؟ أصبح بالنسبة لي الآن لا يضاهيه شيء في الدنيا. هذا الطفل نعمة. فبرغم ما به، فقد جلب لنا أيضًا الكثير من الأمور الطيبة: تقبله

زوجي أخيرًا، ولم يعد يشرب. لدرجة أنه اقترح عليّ إحضار إحدى بنات شقيقه لكي تقيم معنا وتعتني به. تصوري. ياله من تقدم! إنه ملاك من السماء، انظروا إليه!

فكرت نوريا في الكثير من حالات القابعين في منازلهم بين أقاربهم، والذين لم تعرف عنهم شيئًا.

- أهم شيء هو أنكِ صرت أكثر حيوية، وهذا هو الأفضل بالنسبة للطفل أيضًا. وبما أن رأسه سليم معافى؛ فأنا متأكدة من أنه سيجلب لكم الكثير من السعادة في المستقبل. سترين.

- هل من الممكن أن أحمله؟ (سألتها ليليانا).

تذكرت حينما ناولته لها، المرة السابقة، مع طفل مماثل بين ذراعيها في ملجأ ريباس، أمام نظرات دون خيرونيمو المندهشة.

***

وثّق دون خيرونيمو أولاربوس، بعد وفاة زوجته، علاقته أكثر بالأب بيلسيرميس. وكأنه مدين لزوجته بذلك. لم يكن يمارس سر الاعتراف على الرغم من أن القس طلب منه الحضور من أجل ذلك إلى إبراشية سان رامون بينيافورت.

عاد بمحض إرادته إلى ملجأ ريباس. شعر مثلما تنبأت ليليانا، أن تلك الأحداث سوف تثقل كاهله، وسيحتاج للتكفير عنها، على الرغم من أنه لم يسع من وراء تلك الأعمال إلا لتطهير نفسه وخاصة أمام ناظريها. قرر أنه إذا كانت لديه وسيلة لإقناعها لكي تتزوج به، فلن تكون من خلال الكلمات وغيرها من المتطلبات، بل من خلال الأفعال. علاوة على تصميمه على المشاركة في تخفيف هذا الكم الهائل من الألم حتى لو كلفه ذلك آخر بيزيتا لديه. قال لنفسه: إنه بهذه الطريقة ربما يموت فقيرًا لكن راضيًا، وقد أنفق

كل وقته وماله وطاقته من أجل الخير.

توجه بعد قضاء ساعتين في ذلك المبنى الذي فيه ملجأ الأيتام، إلى الكافيتيريا المجاورة لمعهد مستحضرات التجميل الخاص بصديقيه آل فرومنت لمقابلة شابة أرجنتينية ألح عليه أليكس بشدة لكي يقابلها. أصبحت حياة دون خيرونيمو شديدة الخواء والوحدة، لدرجة أن مجرد موعد كهذا قد يبدو له حافزًا وسط ذلك الفراغ المحيط بحياته. كما حفزته أيضًا إمكانية لقاء ليليانا عندما تخرج السكرتيرة من عملها.

أمعن أولرابوس النظر في اتجاه شارع بيلايو حينما رأى فتاة في منتهى الأناقة قادمة من ميدان كتالونيا. أدهشه ارتداؤها ثيابًا تجعلها تبدو وكأنها تفوق عمرها بسنوات كثيرة. توقفت لبضع ثوان عند الطاولات الخارجية، ثم اتجهت في الحال إلى طاولته. استمرت حالة انبهاره.

- هل أنت دون خيرونيمو؟ قالت فريدا لورنسن بابتسامة تشع بريقًا من شفتيها وعينيها الخضراوين في الوقت نفسه.

- نعم، نعم، إنه أنا (قال وهو ينهض واقفًا على الفور). كيف عرفتِ مع وجود كثير من الناس هنا؟ (بدت له طفلة، ولم يعرف كيف يخاطبها: بتكلّف أم بتبسُّط).

- حسنًا ذلك لأنك تبدو مطابقًا تمامًا للوصف الذي قدمته لي دونيا ليونور (قالت فريدا وهي تمد له يدها مصافحة). انظر لن أضيع الكثير من وقتك!

- بوسعك القول إنني أملك الآن كل وقت الكون. لا شيء ولا أحد ينتظرني. ومن ثم فأنا رهن إشارتكِ.

- أدرك أن المعلومات التي سأطلبها منك على قدر كبير من الحساسية (قالت بدون أية مقدمات أخرى) وعشمي في ذلك حكم الصداقة التي تجمعك بدون أليكس وزوجته. لتأخذ في الاعتبار أنني لا يروقني كثيرًا

طلب خدمات. لا يتماشى هذا مع شخصيتي.

- لا تقلقي. أخبريني بما ترغبين! (قال دون خيرونيمو مسحورًا).

- فلتر! أنا بصدد عقد صفقة عمل مع السيد والسيدة فرومنت قد تعود، سواء عليّ أو عليهم، بمكاسب كبيرة. هذا هو ما جاء بي إلى برشلونة. وعلى حد علمي أنت تعمل في وزارة التجارة.

- لا لا، لم أعد كذلك. أنا... تقاعدت، لكن أخبريني عن الأمر وسأفيدك على الفور إذا كان بوسعي عمل شيء من أجلك. مازالت لدي بعض الصلات (قال بنبرة تواطؤ).

منحته ابتسامة رضا.

- الأمر وما فيه، دون خيرونيمو، هو أنني أمضيت سنوات في التحري عن مسألة في الأرجنتين، وأود الآن التحقق من كل ما رأيته على الورق. أود أن أسألك بشأن أحد... الاجتماعات. بالتحديد عن شخص جمعك به لقاء. هذا هو ما جاء بي إلى هنا.

- لا أدري في هذه الحالة إذا كان بوسعي مساعدتك. كانت هناك أيام، خلال مشواري المهني الممتد، عقدت خلالها من ثلاثة إلى أربعة اجتماعات يوميًا، لجان، جلسات، لقاءات غير رسمية... من الصعب حصر ذلك.

- لكن أنا أحدثك عن اجتماع بعينه وأنا متأكدة من أنك لم تستطع نسيانه.

نظر إليها دون خيرونيمو بارتياب.

- أعلم بحكم خبرتي أنه لدخول بعض المنشآت بالإضافة إلى تحديد الموعد قبل وقت كافٍ، تسجل البيانات الشخصية لكل من يدخلون إلى هناك. هل أنا مخطئة؟

- لا، أنت غير مخطئة. وهل تطلبين مني...؟

- ذلك بالتحديد: بعض البيانات الشخصية، وإن أمكن المسجلة في

محضر الجلسة، ألا تعتقد، خيرونيمو؟

لم يستطع مقاومة نظرات فريدا، وطريقة تألق وجهها أسفل رموشها الثقيلة، وبينما تضيف باقي التفاصيل، نادى على النادل لكي يحصل على هدنة.

- سيادتك كنت ومازلت رجلًا نافذًا (قالت إطراءًا له). لا يساورني أدنى شك أن الاستعلام عن هذا الأمر لن يستغرق منك سوى بضع دقائق أما أنا... فصدقني سأظل ممتنة لك للأبد. (انتهزت لحظة الصمت لكي تداعب خصلات شعرها، التي سقطت على نهدها الأيسر). لكي أثبت لك ذلك، وإذا سمحت لي حضرتك، سوف أدعوك على العشاء بمجرد أن تحصل لي على تلك المعلومات.

- لا لا لا، غير ممكن على الإطلاق. شرف لي أنا دعوتك. لا تقلقي! سوف أحيطكِ علمًا عن طريق السيد والسيدة فرومنت لكي يتحقق هذا اللقاء في أقرب فرصة.

- من جانبي، من الممكن أن يحدث في هذه الليلة نفسها. اتصل من هنا من هذا المكان نفسه من على طاولة مشرب هذه الكافيتيريا، إذا شئت.

- أحتاج إلى الخصوصية. اتصور أنكِ تتفهمين ذلك (أجابها بارتباك شديد). أخبريني بتاريخ الاجتماع.

همست فريدا به في أذنه.

- نعم إنه الاجتماع الذي تصورت أنكِ مهتمة به. أغرب اجتماع، ولكن في الوقت نفسه أكثر لقاء مثمر عقدته في حياتي. سأحصل على الرد سريعًا. لا يساورنك أدنى شك! (قال بصدق، وكأن تأثير سحرها عليه جعله خادمًا لها).

كان من السهل على فريدا لورنسن الوصول إليه. حدثتها ليليانا، خلال جولاتها السياحية عن السيد وكيل الوزارة. ومع أنها لم تبح لها، فقد أدركت بكل وضوح أن علاقتهما كانت حميمة.

أطلعتها فريدا بمجرد أن توثقت الثقة بينهما، على الصورة التي وصلت إلى صديقتها ميليفا عن طريق كيسلر. التقطتها ميرخا صباح لقائهم في ميدان كتالونيا لكي يذهبوا لتناول الطعام في الميناء. كانت الطريقة المثالية التي احتاجتها لكي تحصل منها على أية معلومة. سألتها السكرتيرة:

- وهذه الصورة؟ كيف حصلتِ عليها؟

- ما رأيك؟ يبدو أن لدينا حتى أصدقاء مشتركين. أرسلتها صديقة إلى منزلي في بيبا لا أنجوستورا. ميليفا أعز صديقاتي، تعد بمنزلة شقيقة بالنسبة لي. تعرفت على بورو في بوينوس آيرس على الفور. (أشارت الدنماركية إلى رجل يظهر في خلفية المشهد). أخبريني...، أتعرفين من هذا؟

- لا، لم يسبق لي أن رأيته من قبل. لم يكن معنا. انتظري! من الممكن أن يكون... (حاولت ليليانا تذكر الشخص الذي كان يراقبهما من واجهة المطعم الزجاجية).

- أنا بحاجة للعثور عليه. اسمه هارالد وهو ألماني. آخر ما عرفته عقب ظهوره في هذه الصورة أنه حضر اجتماعًا في إحدى الوزارات بمدريد. عُقِد بالتحديد في وزارة الصناعة.

ذهلت ليليانا. أخبرتها، بدون الإشارة إلى موضوع الأطفال المبتوري الأطراف، بأن ذلك الصديق في الحكومة حكى لها عن تلك الواقعة مع الألماني الشديد الوقاحة وكيف أن الأمر كاد يصل لحد الاشتباك بالأيدي.

- حسنًا، حسنًا للغاية (اكتفت فريدا بقول ذلك مستشعرة أن كل شيء يسير في الاتجاه الصحيح).

مرت سبعة عشر عامًا منذ وفاة حبيبها أدلر إيجنر، ولم تشعر حتى تلك اللحظة في برشلونة، التي ترتشف فيها كلمات ليليانا وكأنها شراب الخلود، أنها صارت أكثر قربًا من أي وقت مضى من قاتل الشخص الذي منح أيامها

شعاع النور الوحيد. شعرت بأنها تولد من جديد، بأنها ترتوي بدماء جديدة، وبأنها وصلت أخيرًا إلى ما اشتاقت إليه كثيرًا وأرقها طويلًا.

***

ظلت ليليانا تعتصر ذهنها: تدرك أنها لو طلبت مساعدة دون خيرونيمو لإخراج بورو من الحبس، فستصبح مدينة له، وهو آخر ما تتمناه. كما تدرك أيضًا أن وساطته ستزيد من إمكانية إطلاق سراحه.

لم تحتمل رؤية نوريا على تلك الحال، وكأنها في حداد، منعزلة في منزلها مهملة نفسها. لم تكن تفعل شيئًا سوى رعاية طفليها، الكتابة والبكاء. خرجت معها مرات قليلة للذهاب إلى حي ماجوريا العشوائي وملجأ سان خوسيه. قالت لنفسها إنها ستظل تشعر بتأنيب الضمير إن قضى زميلها في معمل مستحضرات التجميل نحبه في السجن، وخاصة أنها لطالما حدثت أولرابوس عن الشعور بالندم. لم يساورها أدنى شك في أن دون خيرونيمو سيقيم الدنيا ولن يقعدها حتى يطلق سراحه، إذا عرضت عليه الزواج منه.

أمسكت بسماعة الهاتف أكثر من مرة لكنها ترددت في الاتصال به. كانت هذه هي المرة الخامسة خلال ساعة واحدة. وأخيرًا، قررت الاتصال، بعد الحصول على رقم هاتف منزله من مفكرة دون أليكس.

- دون خيرونيمو، إنه أنا.

- ليليانا، يا لها من مفاجأة! لم أكن أتوقعها بالفعل. كيف حالك؟

فكرت السكرتيرة أن سعادته مبالغ فيها بالنسبة لشخص لم يمض على ترمله فترة طويلة.

- أخبريني، يا حلوتي، ماذا أستطيع أن أقدم لكِ؟

- دون خيرونيمو. انظر! لقد ألقوا القبض على بورو، أنت تعرفت عليه هنا، في المختبر، لا أدري إذا كان السيد والسيدة فرومنت قد أخبراك بشيء.

الأمر هو أن دون أليكس تحدث مع مفتش شرطة صديقه وجميع الأمور لا تنذر بخير. أريد توكيل أفضل محامٍ في برشلونة للدفاع عنه. ساعدني، من فضلك.

ساد صمت على الجانب الآخر من الخط، وحبست ليليانا أنفاسها.

- ما هي التهمة الموجهة إليه؟ لأنه إذا كان أمرًا يتعلق بشركة أصدقائي، فبكل أسف لن أستطيع التدخل.

- لا، لا، لا شيء من ذلك على الإطلاق. لكن يتهمونه بجريمة قتل، بالخطأ، بكل تأكيد. إنه لم يفعل شيئًا. أؤكد لك.

- هذا أمر خطير بالفعل. خلاصة القول... إذا كان بريئًا كما تقولين... (سمعت ليليانا مجددًا عقب فترة صمت صوته الصارم). أدين لكِ بقدر كبير من السعادة، ليليانا. لا تقلقي! ستحصلين على الأفضل. أنت تستحقين الحصول على الأفضل دومًا. وتستحقين في حياتك، على وجه الخصوص، شخصًا أفضل مني. دعي الأمر لي! سأخبره بالاتصال بكِ هناك، في المختبر، لكي تتفقا. أما بخصوص أتعابه، فلست بحاجة لأن أخبرك بألا تقلقي بشأن ذلك.

- أنا ممتنة لك، دون خيرونيمو، أشكرك مجددًا.

- عفوًا، ليليانا. تعلمين قدر المحبة التي أكنها لكِ. والآن أستميحك عذرًا، سأتركك لأنني يجب أن أخرج. لكن لا داعي لأن أكرر لكِ أنني موجود لأجل أي شيء تحتاجيه. بحكم معرفتك الطويلة بي، تعلمين أنه بالرغم من تغير وضعنا، فإنني لن أتخلى مطلقًا عن مساعدتك. أتمنى لك حظًا وفيرًا في الحياة.

- أشكرك، دون خيرونيمو. (بدت الجملة الأخيرة بالنسبة إلى ليليانا بمثابة الوداع النهائي. فشعرت بارتياح كبير).

61

تحول دون خيرونيمو من التفنن في إستراتيجيات لجذب ليليانا إلى أحضانه مرة أخرى إلى البحث عن وسيلة لغواية تلك الشابة الغامضة التي وصلت توًا من الأرجنتين. لم يعرف عنها شيئًا، منذ محادثة أمسيتهما الأولى في الكافيتريا، سوى أن ذلك البلد اللاتيني لم يكن مسقط رأسها، كما لا يمكن تحديد عمرها من مظهرها. أصبح أولرابوس أسيرًا لها، وكأنها أخذته من يده إلى مكان لم يسبق له معرفته أو يريد العودة منه.

سارع في تقديم معلومات أكثر بكثير من تلك التي طلبتها فريدا لورنسن. واستغل هذه الحجة، حسب اتفاقهما، لكي يلتقيا مجددًا. ذهبا إلى مسرح منوعات للاستمتاع بعشاء راقص: تحدثا، ضحكا، وسايرا إيقاع الموسيقى في تقارب تام. وعند الوداع، ضربت له فريدا موعدًا آخر بعد أسبوع في المكان نفسه. اعتبرت أن تحديد موعد لقائهما القادم سيحررها من بحثه عنها قبل ذلك، وأن مهلة سبعة أيام ستتيح لها العودة بعد أن تكون قد حققت هدفها. وبعد أكثر من عقد ونصف من التربص، كانت مقتنعة بأن خطتها في منتهى الإحكام حتى في أدق التفاصيل. كان عملًا شاقًا. رأت أن دون أليكس ودونيا ليونور هما اللبِنة قبل الأخيرة لبلوغ انتقامها.

انتهزت فريدا سفر السيد والسيدة فرومنت إلى باريس لكي ترحل من مطار برشلونة متجهة إلى بوينوس آيرس، إلا أنها نزلت متخفية من الطائرة أثناء محطة الترانزيت الأولى في مدريد ومعها جواز سفر ألماني. وبالتخفي نفسه، تحلت بالصبر لكي تعود إلى برشلونة بالحافلة. أما في العاصمة

الأرجنتينية، فسيتكفل شخص، مقابل ما دفعته له وأمرته، بتمرير جواز سفرها الذي سبق إرساله بالبريد الجوي المسجل المستعجل داخل ظرف لن يظهر له أي أثر بعد ذلك، من نقطة مراقبة الجوازات والحصول على التصديق المناسب، على أن يعود جواز السفر بالطريقة نفسها إلى مطار ألبرات.

استعانت فريدا لإتمام مهمتها بجيديون، حفار القبور بمقبرة لاريكوليتا الذي استدعته عندما تأكدت من أنه قد حانت لحظة الانتقال للفعل. عرضت عليه إجازة مدفوعة التكاليف في إسبانيا، مسقط رأس أسلافه حسبما أخبرها وسيعود إلى بيئته الطبيعية وسط الأحجار الرمادية ما إن ينجز مهمته، وهناك سيكون من السهل عليه للغاية التظاهر بدرجة يصعب معها أن يتصور أحد أنه ذهب في أي وقت من الأوقات لأبعد من سياج السور الحديدي المحيط بالمقابر.

التقيا في مدخل منزل السيد والسيدة فرومنت. اتفقت معه على موعد هناك وبهذه الطريقة يمر كأي ساعٍ. طلبت منه أن يبحث بأسرع وقت ممكن عن أبعد كوخ، والأحسن أن يكون خاويًا ومهجورًا، في حيٍ سوموروسترو[1] العشوائي بين مستشفى الحميات وبويبلو نويبو، وليتولَّ ذلك بنفسه! أعطته بعض التوجيهات بصفة خاصة عن التيار الكهربائي الذي ستحتاجه، وضربت له موعدًا منتصف الليل في أحد شوارع وسط المدينة حيث يتعين عليه القدوم بصحبة الشخص الذي وصفته له.

– لقد جئت لخدمتك، آنستي (قال جيديون). سأفعل كل ما تطلبين. وأشكركِ على استعانتك بي.

يسّر عليها وجود السيد والسيدة فرومنت في باريس، الخروج من البناء من دون الاضطرار لتقديم مبررات. وصارت ليليانا دليلًا رائعًا عبر شوارع

1. يعد الآن من أروع شواطئ مدينة برشلونة (م)

المدينة، فعرفت بفضلها بوجود حي سومورو سترو.

خرجت إلى الشارع، ما إن أعدت كل شيء، وسارت لمسافة خمسمائة متر. وضعت نظارات شمس بيضاوية وعقصت شعرها بمنديل رمادي منقط بالأبيض. ارتدت ثيابًا سوداء بالكامل، تنورة محبوكة وبلوزة في منتهى الاحتشام. تصورت أنه لن يدقق أحد في شخص يرتدي ثياب الحداد، وكأن تلك الثياب توحد بين كل من يمرون بتلك الحالة. وجدت أثناء مرورها أمام واجهات المحال، أنه من الصعب عليها حتى تمييز صورتها بين المارة المنعكسة صورهم هناك.

وصلت بعد نحو ربع الساعة إلى نزل مغلق. حددت موقعه قبل عدة أيام، في آخر زقاق بدا أنه لم يدخله أي أحد منذ سنوات. استخدمت قطعة سلك معدني في فتح القفل البسيط للغاية لبوابة يبدو عمرها ثلاثة قرون على الأقل، وتسللت إلى الداخل بخفة أتاحتها لها الممارسة المتواصلة لأنواع مختلفة من تمرينات اللياقة البدنية. انتُزعت من المدخل المكسو ببلاط إسمنتي، درجة سلم ذي درابزين خشبي بحالة جيدة للغاية. خمنت فريدا أن عمر النزل من الداخل يقدر بنحو خمسين عامًا، على عكس الواجهة.

حملت من منزل شارع بيلايو، في حقيبة ضخمة للغاية، العديد من مستحضرات النظافة، خرق مطبخ، زجاجة نبيذ، رغيف خبز وكل ما يلزم لإعداد وجبة، بالإضافة إلى ثياب للتغيير وقميص رجالي جديد.

دخلت المطبخ ووجدت طقم أدوات مطبخ متنوعًا وكاملًا، أكثر رفاهية بكثير مما توقعت. على الرغم من أن طبقة الغبار المتراكم عليها كانت أكثر سمكًا مما قدرت. تحققت من نزول ماء من الصنبور، فتهيأت لكي تضفي على ذلك المكان مظهر حياة، لكيلا يشك ضيفها في أن ذلك النزل يعمل بكامل طاقته. من أجل ذلك، لم يكن يتعين عليها سوى تهيئة المدخل، درجات السلم، المطبخ، لربما عنّ له التطلع حوله، وصالة الطعام الصغيرة

المجاورة له، شديدة التباين مع القاعة الأخرى الفسيحة التي تتسع للكثير من الطاولات. كما يتعين عليها أيضًا من باب الاحتياط، تنظيف الحمام وغرفة منفردة.

انتهت في غضون أربع ساعات. كما نجحت أيضًا في استعادة بريق الأثاث والزجاج. ثم تأهبت لإعداد وجبة طعام تشبه تلك التي أخبرتها دونيا ليونور بأنها تسمى حساء كرات اللحم «إسكوديبا». ستعد شيئا مشابهًا، لم تتصور في النهاية أن ما طهته سيشي بوجود اختلاف كبير عن وصفتها الكتالونية. هزت أنبوب البوتجاز التي كانت في خزانة خلف ستارة مضمومة، ولم تعرف هل وجدتها ثقيلة من تأثير الإجهاد، أو لأنها كانت مملوءة. سيجنبها كل اكتشاف الحاجة للخروج إلى الشارع. قررت، بالرغم من قناعتها أن ضيفها لن ينهي الطبق الرئيسي، من حساء كرات اللحم (galets)، إعداد الحساء بكل مكوناته: اللحم، السجق، الخضروات، الحمص المنقوع، والأهم من كل ذلك، ورق الغار الذي ستستبدله لاحقًا بأوراق نبات الدلفى السام بعد الانتهاء من إعداد طبقها بصورة آمنة ثم تضيف للطبق الآخر قطرات منوم قوي للغاية.

ساعد إشعال نار الموقد أيضًا على تغيير رائحة تلك الغرف. لم تقلق بشأن باقي الغرف لأن مسرح أحداثها يقتصر على تلك الحجرات الأربعة. شرعت بعد الانتهاء من إعداد الطعام، في التزين.

استأجر جيديون سيارة باسمه لكي يذهب إلى المطار لاصطحاب الشخص الذي حددته له الآنسة لورنسن. تركه في الثانية عشرة تمامًا في شارع أرمنجول مع توصيات محددة لكي يدخل الزقاق بمفرده حيث يقع ذلك النزل المهجور. فتحت فريدا على الفور، بعد أن قبعت لبضع دقائق خلف الباب عندما سمعت وقع خطواته. ترك هارالد، بمجرد دخوله حقيبة جلدية بنية اللون أشبه بحقيبة طبيب أرياف، على أرضية البهو، وتبعها

صاعدًا السلم بدون أن يتوقف عن تفحص كل شيء. جلس مباعدًا بين ساقيه على أحد مقاعد حجرة الطعام:

- تحت أمرِك.

- نعم، نعم، لدي الكثير لكي أخبرك به، لكن قبل ذلك دعني أحضر لك مشروبًا ينعشك.

عادت فريدا لورنسن من المطبخ حاملة صينية عليها كأسا نبيذ وكوبا ماء. جلست أمامه وارتجلت نخبًا، إلا أن ضيفها لم يحرك ساكنًا. لم تبال بهذه اللامبالاة لأن شعورها بالارتياح كان يفوق احتقاره. ظلت تنتظر لسنوات تلك اللحظة. كان بوسعها التعجيل بحدوثها قبل ذلك، إلا أنها لم تشأ المجازفة حتى لا تخفق. وقد أفادها الانتظار كثيرًا.

نظر إليها وكأنه يريد اختراقها، أو كأنها مصنوعة من مادة شفافة. استوعبت فريدا قسوته منذ الوهلة الأولى، إلا أنه لم يتمكن من ترهيبها. كانت قد استعدت جيدًا لتلك المعركة.

- أعتذر عن تأخر وصول طائرتك. لهذا الغرض طلبت من مالكة النزل السماح لي بدعوتك على العشاء هنا. لا يوجد مكان مفتوح في هذه الأوقات. أتصور أنك تتضور جوعًا. (مالت عليه قائلة): أريدك أن تقتل شخصًا. كما تعلم.

- تحت أمرِك (كررها).

- نام الآخرون، لكنني لا أثق. تعلم ميل الناس للتلصص. لطالما كان للجدران آذان. انظر! (اقتربت أكثر منه لكي تتأكد من استنشاقه لعطرها، ويرى مبنت نهديها، انفراج شفتيها أثناء فترات الصمت. لم يكن لديها النية لغوايته على الإطلاق، ولكن تصرفها على هذا النحو ضاعف اللذة التي شعرت بها. أدركت مدى سيطرتها على الموقف). تحركني الرغبة في الانتقام.

تعلم بحكم... (تلعثمت فريدا وفي النهاية قررت أنه لا توجد كلمة أخرى) مهنتك أن هذه من أشد نوازع النفس البشرية، ولهذا تعتبر الأكثر قابلية للاستيعاب. أتمنى الموت لمن قتل... زوجي، لأنه اغتال في الوقت نفسه أي سبيل أمامي للسعادة.

- أتفهم (قال مفكرًا في الفنتازيا المحيطة بتلك الشابة).

- أعلم أين يوجد الليلة، ثمة في برشلونة حي بشع اسمه سوموروسترو، يعتبر فقيرًا، ولكن به منطقة أكثر بؤسًا: سكانه يعانون أسوأ ظروف معيشية. تصور أنهم يبنون مساكنهم من صناديق السمك! لابد أن رائحتها لا تطاق. سيكون في الكوخ الذي سيرشدك إليه الشخص نفسه الذي أحضرك إلى هنا. كل ما أريده هو ألا يطلع عليه الصبح. هذا هو كل شيء. سأذهب لإحضار العشاء.

اقتربت فريدا، بعد أن بسطت على الطاولة مفرشًا بلون الرمان، حاملة صينية، عليها اثنان من الأطباق الأربعة التي أعدتها. لكنها تعثرت وسقط الحساء فوق هارالد على كتفه الأيمن. انسكب السائل على محيط صدره حتى بنطاله وكأنه عصابة.

- آه، معذرة. يالي من حمقاء! أرجوك، تقبل أسفي. إنه التوتر. أنت تستوعب كم أنا متوترة، أليس كذلك؟ هل تريد أن تنظف نفسك قليلًا؟ انتظر! سأذهب لأرى لعلي أجد شيئًا. (خرجت فريدا، تظاهرت، بأنها متجهة نحو الغرف وأخرجت من حقيبة قميصًا مصنوعًا من ألياف اللايوسل، وهو نسيج حديث، وعلى الرغم من أنهم يقولون إنه لا ينصح باستعماله، لم يكن يحتاج للكي. عرضته على هارالد). آمل أن يكون مقاسك، إنه الوحيد الذي عثرت عليه. لكنك مفتول العضلات للغاية... تفضل.

ترك باب الحمام مفتوحًا وكأنه لم يكن يريد أن تغيب عن نظره. رأته فريدا وهو يتبول وبعد ذلك، أمام الخزانة ذات المرآة، يسكب الماء على رأسه

ووجهه. جفف نفسه بالمنشفة، وارتدى القميص بعد أن هزه في الهواء. فكرت عندما عاد، أنه من المؤسف اجتماع الجمال وفساد الطباع إلى هذا الحد. شرعت في تقديم طبق حساء جديد.

- أنا جاهز (قال بمنتهى الصرامة).

- حسنًا، فلنأكل! أتمنى أن يعجبك. أعتقد أنني أوضحت لك أنه يتعين عليك إنجاز المهمة التي أوكلتها إليك اليوم.

انتاب فريدا شعور بأنها اقتربت أكثر فأكثر من تحقيق النصر، مع كل ملعقة حساء يرتشفها في صمت لكي يتناول كرات اللحم بعد ذلك. حسبت الوقت بمنتهى الدقة. أما إذا بدأ يشعر بالضعف أو بتشوش الرؤية، فستعزو ذلك بدون شك إلى رحلة الطيران والنبيذ. من المفترض أن يبدأ في الشعور بالدوار هناك، على أن يكون عند بدء اختلال ضغط دمه وتباطؤ إيقاع نبضات قلبه داخل سيارة جيديون التي يجب أن يركبها بمحض إرادته وسائرًا على قدميه. ومن المقدر أن يكون في الكوخ حين يداهمه الشعور بالغثيان، فيما لن يجعله القيء وتشنجات المعدة قادرًا على الصمود على قدميه. من المفترض أن تكون تلك أقرب لحظة لفقدان الوعي التي سينتهزها كلٌّ منهما لإحكام السيطرة عليه تمامًا.

اختلست فريدا نظرة إلى ساعتها. كانت الواحدة وعشر دقائق. انقضى بالفعل أكثر من ساعة بالرغم من الصمت ونظرات هارالد المتفحصة، التي بدا وكأنها تجمد الزمن.

- ما رأيك فيما عرضته عليك؟ (عاودت فريدا الاقتراب منه أكثر قدر الإمكان).

- المعتاد: التوقيت، نمط الحي نفسه... ليس لديّ ما أقوله. لطالما سارت الأمور على هذا النحو.

- لن ينتابك أي شعور بالخوف، أليس كذلك؟ (تحسست بإهمال متعمد العضلة العضدية بذراعه الأيسر).

لم يصدر عنه أي رد فعل على مداعبتها بل نهض واقفًا وحذت هي حذوه.

- حسنا. أفضل الوصول مبكرًا لتفقد المنطقة. أعطيني مالي.

دخلت فريدا المطبخ وأخرجت من الحقيبة نفسها التي أحضرت بها باقي الأشياء، رزمة أوراق مالية مربوطة بشريط. كانت واثقة من أن جيديون لن يعدم حيلة لإرجاع النقود. نزلا إلى الشارع.

62

- آه، انظر، إنه هنا (قالت فريدا حينما رأت جيديون مستندا إلى الجدار المقابل للبوابة).

كانت قد طلبت منه الحضور قبل نصف ساعة من الموعد المقرر.

- لم أذهب إلى أي مكان، آنستي (قال جيديون). لقد بقيت هنا طوال الوقت.

- عظيم! إنك شخص في منتهى اللطف. بوسعنا الرحيل الآن.

فكرت فريدا أنه لم يكن أمامها خيار أفضل من جلب مجرم من الخارج وفوق كل ذلك متيم بها، كانت فكرة عظيمة، فلم تكن تستطيع المجازفة بالاتفاق مع مجرم آخر في مدينة غريبة.

تظاهر جيديون بأن نظرة هارالد المخيفة أرهبته. حفظ أمتعته القليلة في حقيبة السيارة ولكنه سمع فريدا تقول:

- نسيت شيئًا. سأنزل في الحال. (بدرت عنها إشارة إلى مساعدها عندما وصلت إلى باب النزل ودلفا معًا إلى المدخل). يبدو أن مفعول نبات الدلفى السام أو المخدر لم يبدأ سريانه فيه بالفعل. لقد كانت جرعة كافية لقتل حصان، لم أتوقع أن يكون شديد القوة إلى هذا الحد. تستغرق المسافة حتى هناك نحو عشرين دقيقة أو أكثر. يتعين عليك أن تطيل الرحلة، لا تتوقف حتى ترى أنه قد غطّ في النوم؛ وإلا، فإنه كفيل بقتلنا نحن الاثنين.

- لا تشغلي بالك، آنستي، لقد واجهت مواقف أسوأ. لا يوجد ما

تخشينه. تصرفي بشكل طبيعي!

- هارالد، معذرة على الانتظار (قالت وهي تثبت سوارًا في يدها، وتركب في المقعد الخلفي من السيارة. بينما استقر الرجلان في المقاعد الأمامية). الآن، هيا بنا.

- لحظة واحدة (خاطب جيديون). أنت ستصطحبني إلى الكوخ، لكن... هي؟ لا أريد أن يكون أحد قريبًا مني أثناء ممارسة عملي. لا يروقني وجود متفرجين!

- أتفهم ذلك، لكن هذه المرة ستكون استثناء، مثل المبلغ الاستثنائي الذي دفعته لك. لا تقلق سآتي على مسؤوليتي، وأؤكد لك أنني لن أزعجك.

أراد هارالد الرد، لكن لاحظ أنه يجد صعوبة في النطق. مدت فريدا رأسها قليلًا، وتحققت أيضًا من انسدال جفونه. تمنت أن تكف أنوار شارع لاكونديسا دي سوبراديل عن إزعاجه. ظلت منتبهة لكل لفتة، وعندما رأت رأسه مالت على كتفه الأيسر، وضعت يدها في المكان نفسه على جسد جيديون.

- يبدو أن كل شيء على ما يرام (قالت بمنتهى اللامبالاة قدر استطاعتها). هل حفظت الطريق؟

- لم أفعل شيئًا خلال فترة بعد الظهيرة سوى التجوال فيه ذهابًا وإيابًا.

- استمر في هذا الشارع القريب من الميناء لفترة أطول، من باب الحيطة (أضافت فريدا بعد سماع بداية شخير هارالد).

انعطفوا بالقرب من مدخل شارع سان أدريان.

- الآن (قالت فريدا). فلنسرع! قبل أن تهاجمه تشنجات المعدة ويستيقظ.

دخلوا حي سومورروسترو من الجانب الشمالي. سلط المصابيح الأمامية على حاجز متداعي للغاية قائم فوق كتلة خرسانية. توقف جيديون وبدون

أن يوقف المحرك، نفح أحد خفراء الحي بضعة أوراق نقدية.

- تفضل! ولا تتأخر في تفريغ الحمولة.

ساد الظلام كل شيء تقريبًا. لم يكن ثمة ضوء سوى المنبعث من أحد المصابيح المتدلية بكابل من داخل أحد المنازل، حيث تم تقليم أعواد خيزران السور الذي يحجب البحر. وصلوا إلى أقصى الطرف الآخر من الصف الأول لتلك الخصاص غير المتماثلة، المتكلسة أكثر مما هي مطلية بالجير. ترك جيديون السيارة بجوار قطعة أرض فضاء نمت فيها الحشائش والصبار، مسلطًا المصابيح على أحد المباني.

- أود أن أخبرك، أن هذا هو المنزل.

- هل به كهرباء؟

- نعم الآن (خاطبها جيديون مشيرًا إلى عامود ينبعث منه شرر تيار كهربي). هيا يجب أن نسرع. (فتح الباب المجاور للسائق وأسند هارالد من أسفل إبطيه).

شرع في جر الألماني، عندما وطئت قدماه الأرض، نحو الكوخ. اصطدم هارالد عندما أدخله، بحلق الباب وأفاق واستند إلى الأرض لكي ينهض واقفًا. أحاط عنق جيديون بيديه ما إن تمكن من الوقوف على قدميه.

رأتهما فريدا من السيارة: كادت تنقطع أنفاس حفّار القبور والمجرم الأرجنتيني. ضغط هارالد أكثر على عنق شريكها. كانت تدرك أنه إن قتله فستكون نهايتها على يديه. فتحت فريدا صندوق السيارة وأخذت تفتش في الظلام. وعندما اعتقد هارالد أن جيديون صار بلاحراك وقرب أذنه من صدره ليسمع إذا كان مازال يتنفس، عاجله الآخر بركلة من ركبته بين ساقيه جعلته يثني جذعه ألمًا. فقد توازنه؛ فثبت قدميه على الأرض مباعدًا بين ساقيه حتى لا يسقط، وحينئذٍ جاءت فريدا من خلفه: ممسكة بيد مقبض

المنيفيلا وبالأخرى رافعة السيارة، اقتربت منه ولوحت بالمقبض المعدني في الهواء، ثم هوت به بكل قوة على عنقه. ارتمى هارالد على الجدار. وتدفق الدم منه بغزارة، في البداية تهاوت ركبتاه، فأراد التمسك بحلق الباب ولكنه انهار في النهاية.

- آنسة لورنسن، أحضري الحبال! بسرعة.

قلبه جيديون على وجهه وأوثق قيده بالحبال. كممه بعد ذلك. فتش في جيوبه، استعاد النقود وأعطاها لفريدا، انتزع أوراق هوية الألماني وألقاها بعيدًا.

أخرج بعد ذلك آلة البروجكتور من طراز سواير روتوماتيك 747 المدفونة في الرمال التي كان قد خبأها ظهر اليوم.

تناول الكابل الممتد إلى الداخل عبر نافذة الكوخ الخلفية، وجذبه لكي يتأكد من أنه الموصول بعمود الكهرباء، ثم فصل العازل وتضفير الأسلاك باستخدام زردية.

- الآلة جاهزة. تستمد تيارًا من الأرضي (قال وهو يتلفت حوله).

انحنت فريدا وثبتت الشرائح الشفافة في الأسطوانة. تمنت بكل ما أوتيت من قوة أن تعمل.

- جرب الآن! (خاطبت جيديون بعد أن أجرت بعض التعديلات الإضافية).

تدفق المزيد من الدم من رأس هارالد سيلفينر. بدت أول صورة ظهرت على الجدار المواجه لهم وكأنها تجلٍّ خارق. ظهر أدلر إيجنر مبتسمًا عقب تكريمه. كان الوسام المتدلي على صدره المنتفخ عبارة عن قرص شمس أشعتها مشرقة كأشواك القنفذ فوق شريط أبيض. يظهر في الشريحة التالية في قاعة بالسوليتال منتجع النازي رافعًا ذراعيه، وكأنه يقود أوركسترا.

بدأ هارالد يتشنج، أراد الصراخ لكن الكمامة منعته. تراءت في عينيه نظرة الرعب نفسها التي لطالما لاحظ مجرم أورلانتا تجمدها في عيون ضحاياه. بينما يظهر أدلر إيجنر، في الشريحة التالية مصفقًا في بهو أحد المسارح.

- تانهاوزر (Tannhäuser)

- ماذا تقولين؟ (سألها جيديون).

- دار الأوبرا. كنا نحضر عروضها هناك أيضًا، في سوليتال.

وبينما يعاني هارالد من التشنجات ويحاول الزحف بضعة سنتيمترات، تجسد عشيق فريدا في ذلك الكوخ بحي سومورروسترو وسط عرض عسكري حاشد.

- جيديون، إنني أستطيع سماع حتى الموسيقى العسكرية. أشكرك على هذه اللحظة من السعادة الكبرى.

- آنستي، أعلم أنها لحظتك، لكننا لا نستطيع البقاء هنا طوال الليل. أنا لا أثق في خفير الحي. وعدته أننا لن نتأخر كثيرًا.

- أعلم ذلك، لكن دعني أستمتع قليلًا.

بدأ هارالد يضرب الجدار المتداعي الأقرب له بحذائه الجلدي. ظهر في الصورة الجديدة، كلٌّ من فريدا وأدلر، في حفل راقص. انتفضت وفي الوقت نفسه انهمرت دفعة واحدة كل الدموع التي حبستها طوال تلك السنوات. أضفى تناقض الظل والنور في الصورة، وتقارب وجهيهما والحجم الذي ظهرا به على المشهد قدرًا من الأصالة وواقعية وكأن قاعة الموسيقى موجودة على الجانب الآخر من ذلك الكوخ المتهالك، بالقرب من ساحة لا برثلونيتا. انتابتها الرغبة في الانتقال عبر الضوء لكي تعود إلى هناك لتكون معه.

دخل جيديون بعبوة بنزين في يده. لاحظ الاثنان على ضوء الشريحة التالية تعرق هارالد ومعاناته الحيوانية.

- الآن، يجب أن نرحل (قال جيديون، وبدون أن يسأل فريدا عن أي شيء نثر محتوى تلك العبوة المعدنية على سيلفينر).

أخرج بعد ذلك علبة ثقاب من جيبه.

- اسمحي لي بنيل هذا الشرف (خاطب فريدا وهو يناولها علبة الثقاب).

- من دواعي سروري، سرور عظيم، أعظم شعور جربته على الإطلاق.

أمسكت بعود الثقاب مشتعلًا بين أصابعها لبضع ثوان وخاطبته:

- أيها البائس. لا تدري ماذا اقترفت. ما ارتكبته بحقنا. كان حبًا لا نظير له.

ثم ألقت العود المشتعل فوق جسده وصرخت:

- مرحبًا بك في الجحيم!

أمسك جيديون بذراعها.

- بسرعة (قال وهو يقتادها إلى السيارة).

لم تستطع فريدا أن تحول بصرها عن تلك المحرقة البشرية داخل الكوخ أو الكف عن الضحك. صاحت فريدا:

- من الأفضل أن السم لم يؤثر فيه كما كنت أتوقع. زاد هذا من معاناته أكثر.

تحول نسيج القميص المكون من الرايون وألياف اللايوسيل الصناعية بنسب متساوية إلى كتلة لهب أحرقت قلبه في ثوان قليلة.

- أتمنى أن تبقى آلة العرض بمنأى عن النار. ألا تحترق على الأقل حتى قدوم الشرطة. هيا نخبرهم، جيديون.

- هل تعتقدين أنهم سيأتون إلى هنا؟

- سنقول لهم إن الحادث وقع في مستشفى الحميات. بالتأكيد لن نجعل

الأمر سهلًا عليهم، ولكنهم سيأتون ما إن يرون ألسنة اللهب. لا يساورني أدنى شك في ذلك. هيا بنا!

توقف جيديون عند أول كابينة هاتف رأوها وأبلغا الشرطة. وفي غضون أقل من ربع ساعة، كانا هما الاثنين في عالم آخر: لم تكن هناك أية علاقة بين الشوارع المجاورة لميدان تطوان وقوس النصر بتلك المناطق العشوائية.

- هل ستستقل الطائرة الآن؟ (قالت في عجلة عندما مرا من هناك).

- قبل صياح الديك، أكون قد سافرت (أجابها). لم يكن الأمر سيئًا على الإطلاق، لكن في المرة القادمة حين تضطرين لتقدير جرعة سم، اتركي لي هذه المهمة، أنا معتاد على هذا. كان خطيرًا مثلما أطال أمد معاناته.

- لن تكون هناك مرة قادمة، جيديون.

أمام البناية رقم 56 بشارع بيلايو، وقبل أن تترجل من السيارة، استقطعت فريدا جزءًا من المال الذي استردته من جيب هارالد وأعطته له.

- لقد سددت أجري بالفعل. يالها من أيام قضيتها! تفوق الخيال. أتمنى ألا تتلقي إلا الأخبار التي تسرك.

- لن تكون هناك أخبار (قالت بكل ثقة). لقد ساعدنا في حل قضية وتجنب إدانة بريء. كل شيء في مكانه.

- نقصت الوحوش واحدًا، آنسة لورنسن.

- إيجنر. سيكون اسمي اعتبارًا من تلك اللحظة فريدا إيجنر. بهذا العمل استحققت عن جدارة حمل هذا اللقب. الآن فحسب.

شاهدته فريدا وهو يبتعد بينما تخرج المفاتيح من جيبها. صعدت حتى طابق السيد والسيدة فرومنت، دخلت الحمام المجاور لحجرة الضيوف، وفتحت صنبور حوض الاستحمام. ذهبت بعد ذلك إلى المطبخ وصبت كأس أنيس بيرنو فرنسي مع بعض الماء والكثير من الثلج وأخذته معها.

رأت نفسها متألقة في مرآة ذلك الحمام بالحجم الطبيعي بعد أن خلعت ثيابها، وكأنها تشاهد لأول مرة تأثير ذلك العلاج المستمر الذي اتبعته. ستترك لمضيفيها عددًا ضخمًا من الملاحظات بخط يدها لكي يحولوها إلى الكتاب الذي كانا يحلمان بنشره.

احتست كأس الشراب وسط فقاقيع الصابون في حوض الاستحمام. وارتسمت في خيالها صورة وجه أدلر إجنر أمامها. رفعت الكأس، وعلى عكس ما حدث معها قبل عدة ساعات، شعرت هذه المرة بأن النخب متبادل. فكرت، أنه بالرغم من التناقض، في بعض الأحيان تكون استجابة الأموات أفضل من الأحياء.

63

تلقى السيد والسيدة فرومنت إخطارًا من الشرطة ما إن عادا من باريس. استقبلهما في قسم الشرطة بشارع كوندي ديل سالتو، نفس المفتش الذي شهد لقاء بورو ونوريا مع الأب بيلسيرميس.

- أخبراني، هل تقيم الآنسة لورنسانا في منزلكما؟

- لورنسن (صحح له دون أليكس). بالفعل، ومقيمة معنا لبضعة أيام..

- هل أصابها مكروه؟ قاطعت دونيا ليونور زوجها بقلق.

- أنا من يطرح الأسئلة هنا. ماذا تعرفان عنها؟ لم نتمكن من العثور لها على أثر. أين هي؟

أخبره السيد فرومنت أنهم عرفا بوجودها منذ سنوات طويلة، وأنهم يعتبرونها تجربة حية على الشباب الدائم؛ حكى له أيضًا عن الأغراض التجارية لاتفاقهما، وكيف كانت تعيش في عزلة بجوار البحيرة...

- كل هذا لا يعنيني. كل ما أريده هو التحدث إليها. أين هي؟

- لا أدري (أجابت دونيا ليونور). عندما عدنا من باريس لم تكن موجودة في شقتنا. تركت ملحوظة تقول فيها إنها اضطرت لتسوية أمر يتعلق بالميراث. وصلها خطاب الموثق العمومي وهي هنا، ولم يكن أمامها حل آخر سوى العودة إلى الأرجنتين مرة أخرى لأنه لا يوجد من يحل محلها في التوقيع، ومن جانب آخر تعدّ هذه مسألة منطقية للغاية. أعلم بالفعل أنها ودعت صديقنا، دون خيرونيمو أولرابوس. أسأله هو. فلم يعد هذا

الشخص يفكر في شيء آخر سواها منذ ذلك الحين. وأنا لا استغرب ذلك، خاصة وأنه أمضى حياته بالكامل بدون أن يعرف امرأة أخرى غير زوجته المسكينة المشلولة (أعتبرت دونيا ليونور أنه كان من المهم كشف تلك الجزئية من خصوصية الحياة العاطفية لصديقهما).

دون مفتش في دفتر اسم وكيل الوزارة.

- وماهي العلاقة بينها وبين سلفادرو نافاسكويس؟

- علاقة؟ (اندهش دون أليكس للغاية). التقيا على العشاء في بوينوس آيرس. هذا كل شيء.

- نحن عرّفنا أحدهما بالآخر (صححت دونيا ليونور المعلومة). كان تحديدًا في فندق سيلكيت. رحل بورو بعدها إلى البرازيل، ووفقًا لعلمنا لم يلتقيا بعد ذلك مطلقًا.

تبادل السيد والسيدة فرومنت النظرات لإدراكهما أنه ما كان ينبغي عليهما التأكيد بتلك الصورة الحاسمة على الرغم من أنهما فعلا توًا. تذكرت دونيا ليونور وكذلك دون أليكس التغير الجذري الذي طرأ على سلوك فريدا خلال ذلك العشاء في بوينوس آيرس فيما يتعلق بردها. لم يكن هناك من سبيل لإقناعها قبل ظهور بورو لتسافر إلى برشلونة، وبعد ذلك بدا أنه لم يكن لها أمنية غيرها.

- لا أدري إذن، إذا كان بوسعكما أن تفسرا لي لماذا جاءت الآنسة لورنسن بملء إرادتها للإبلاغ عن مصرع زوجها في الأرجنتين قبل سنوات طويلة. كشفت لنا تفاصيلَ مروعة للغاية عن كيفية عثورهم عليه إلى جوار ماكينة تعذيب معقدة للغاية بها ذراع آلية كانت تقوم بسلخه حيًا أمام جهاز عرض شرائح مصورة. بدت لنا فتاة مسكينة ممسوسة.

تبادلت دونيا ليونور ودون أليكس النظرات باندهاش بالغ.

- لا نعرف عن أي شيء تحدثنا. أؤكد لك أن لا شيء يربطنا بها سوى أمور تتعلق بالأعمال، نحن متخصصون في قطاع مستحضرات التجميل، وبالتأكيد حتى حضرتك تعرف منتجاتنا (قالت ليونور). أما ما تحدثنا عنه فلا نعرف عنه شيئًا.

- هذا ما لا أستطيع تصديقه حقًا. لعلها أخبرتكما بشيء، فهي في النهاية كانت تقيم في منزلكما. لا نشهد كل يوم اختفاء زوجة بهذه الطريقة... العجيبة. أتعرفان أيضًا أطرف ما في الأمر؟ أن ما أخبرتنا به يتطابق نقطة بنقطة مع ما عثرنا عليه في مكتب بالادري، حتى طراز جهاز عرض الشرائح. بالإضافة إلى ذلك، عثرنا هذا الصباح، على المدعو هارالد سيلفينر مقتولًا في ظروف مشابهة. هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟

أومأ السيد والسيدة فرومنت بالنفي في الوقت نفسه.

- حسنًا كل الشواهد لدينا تؤكد أننا بصدد نفس القاتل. أسلوب الأداء نفسه بالضبط.

على الرغم من عدم إظهارهما لذلك، إلا أنه بدأ يتضح لهما معنى الحديث الذي أجروه في الأرجنتين مع فريدا حول بعض ديون الماضي وعزمها على استيفاء هذه الديون.

- يجب أن تصدقني (قال دون أليكس). لم نسمع مطلقًا بهذا الاسم الذي أخبرتنا به توًا والذي لا أستطيع تكراره، كما لا نعرف عن أي شيء تحدثنا. لكنني أرجوك رجاءً حارًا، سيدي المفتش أن تسمح لنا برؤية سلفادور. مجرد دقيقة واحدة فحسب. أعدك بذلك. إنه بمثابة ابن لنا. أتدري؟ في مثل عمرنا... (حاول تليينه. نظر المفتش إليهما لبضع لحظات. بعد ذلك أومأ برأسه إلى شرطي كان بجوار ممر زنازين الحجز وفي الحال حضر بورو أمامهم. صار أكثر نحافة ولا يكف عن حك رأسه ومعصميه)

- كنت أعلم أنكما لن تتخليا عني في هذه الحفرة. هل بوسعي الرحيل

الآن؟ (تساءل مخاطبًا المفتش).

- مستحيل.

- بورو (تدخلت السيدة فرومنت) لم يعد متبقيًا سوى القليل. السيد أولرابوس عين لك محاميًا. إنه على وشك الوصول. سترى أنه سرعان ما سيخرجك من هنا.

- الزمي الصمت، سيدتي! (زجرها المفتش). مع أنه ليس مهمًا عندي أن تعطيه آمالًا زائفة. ومع ذلك أحذركما أنه على الأرجح أنكما ستبقيان بصحبة «ابنكما» إذا لم تخبراني، بمنتهى الصراحة، عن طبيعة الأعمال الأخرى التي بينكما وبين الآنسة لورنسن. ولتعلما أن كل ما أخبرتماني به يبدو مثيرًا للشكوك. إذا اكتشفت أنكما متورطان أيضًا، فسوف تندمان لعدم إدلائكما بالحقيقة منذ البداية. أنت (خاطب الشرطي من جديد) اقتده إلى الحجز مرة أخرى! تصورتما أنه سيعدم؟ ورأيتما أنه مازال على قيد الحياة. ارحلا قبل أن أندم على أنني تركتكما ترحلان!

لم يتح لبورو الفرصة لقول أي شيء، إغلاق عينيه فحسب اللتين أعشاهما ضوء ذلك المكتب. التفت المحقق إلى أحد الشرطيين، بمجرد خروجهما إلى الشارع، وقال له:

- أحضر جهاز عرض الشرائح المصورة في قضية بالادري، والجهاز الآخر نصف المحروق الذي عثرنا عليه في الكوخ! تحر عن كل شيء يتعلق بهذين الجهازين! إذا كانا جديدين أم مستعملين، من أين تم شراؤهم؟ اتصل بكل محلات الأجهزة الكهربائية الخاصة بالتصوير الفوتوغرافي، التي تبيعها! أريد التقرير هذا المساء. وأمر آخر: أين الرسالة التي تركتها الأرجنتينية للمحامي؟ لا أرى أية فائدة ترجى منها على الإطلاق، لكن يتعين عليّ تقديمها له، إنه واجبي. ولكن، سوف نقرؤها أولًا.

***

عرفت نوريا عن طريق ليليانا أن تلك الرسالة التي أرادت فريدا أن يعطوها للمحامي تحتوي على عنوان موثق عمومي يحتفظ بكل مستندات تحرياتها عن هارالد سيلفينر.

وفّى دون خيرونيمو بالوعد الذي قطعه لعشيقته السابقة بتوفير أفضل دفاع. ولكن انتاب نوريا القلق، بالرغم من كل تلك الأنباء، لأنه لم يكن أي شيء مؤكدًا. وجدت العزاء الوحيد في طفليها. لم تعد تعرف شيئًا عن ماكسيمو منذ ذلك الحين. أسعدها اختفاؤه بنفس الطريقة غير الملائمة وغير المتوقعة التي دخل بها حياتها. مازال يتعين عليها التحدث مع والديها، كانت قد أجلت أمورًا كثيرة لأنها شعرت بعدم قدرتها على الانطلاق حتى خروج بورو. تمنت بكل ما أوتيت من عزم الاعتقاد بأن الأمور ستسير على هذا النحو.

عادت ليليانا بعد يومين إلى منزلها لتحاول رفع معنوياتها، أحضرت لها الثوبين المتطابقين اللذين صنعتهما لها ولميريا. أصرت نوريا على أن تدفع لها، لكن صديقتها قالت إن الشيء الوحيد الذي ستوافق عليه بالمقابل هو أن تدعوها لتناول الطعام مساء الجمعة في كافيتيريا سافوي. لم تكن لدى نوريا أية رغبة في الخروج، لكن لم تستطع الرفض.

عندما حل ذلك اليوم، وجدت نوريا أثناء عبور لاس رامبلاس ضوء الشمس شديد السطوع بصورة غير مألوفة بالنسبة لهذا التوقيت من شهر أكتوبر بدرجة أعشت عينيها. وقفت أسفل المظلة وأخذت تبحث عن صديقتها. لم تعتد عيناها على الضوء بعد، وكأنها مازالت داخل سيارة الأجرة. تفحصت الظلال، حركت جفونها عدة مرات وتذكرت، وهي واقفة هناك في تراس تلك الكافيتيريا، أول مرة جلست فيها إلى واحدة من تلك الطاولات مع بورو. كانت تلك الخاطرة من القوة لدرجة أنها تصورت أنها تراه بين زبائن الكافيتيريا.

تنحت جانبًا لتفسح المجال أمام الداخلين إلى البار. قررت البقاء واقفة

ملتفتة نحو شارع بيلايو. فتحت حقيبة يدها وأخرجت نظارتها الشمسية وشرعت في تنظيفها بقطعة محرمة لونها بيج. لم تأتِ ليليانا وشعرت نوريا بالقلق. فكرت في الصعود إلى معهد مستحضرات التجميل حتى لا تضطر للانتظار أكثر من ذلك.

نظرت حولها، نحو المارة أولًا ثم إلى الجالسين هناك، وقبل أن تلمحه، رأت ابتسامته. أفقدتها الأحداث الأخيرة إلى حد ما الشعور بالواقع. ابتسمت، ولكن كأنها تبتسم لذكرى. شرعت في تحريك رأسها من جانب لآخر ثم غطت وجهها بيديها. تقدمت نحو آخر طاولة، الملاصقة للواجهة الزجاجية الخارجية لمقهى سافوي. نهض بورو وكأن ذلك ضروريٌ لكي تتحقق نوريا من أنه هو. تعانقا وانخرطا في البكاء. بكيا وكأنهما أدركا أنهما تمكنا بالفعل من النجاة من حادث غرق. أمسكت بيده ودخلا. لم يجتذبهما الاستمتاع بالخريف الذي مازال صحوًا لأنه كان ينتظرهما ما هو أكثر منه إشراقًا. جلسا على المقاعد المكسوة بمفارش باللون الأرجواني والممتدة بطول الجدار من عند المدخل وحتى الحمام. ضمها بورو بقوة من جديد بين أحضانه. سألته نوريا، دون أن تعرف على وجه الدقة كيف تبدأ الحديث:

- هل وصلتك رسالتي في الوقت المناسب؟

- نعم، لكن كما رأيت لم أستطع تفادي أي شيء. أعتقد أنه حتى لو كنت عدت بالمركب، لما تغيرت النتيجة. فكرت في عدم العودة، الهروب، لكن أشعر الآن بالسعادة لأنني فعلتها، لأنني واجهت ما كان ينتظرني وأن تحل المسألة. على الرغم من أنه كان عذابًا. نوريا... ها نحن هنا، في نفس المكان على الرغم من أننا نبدو آخرين.

- نحن لم نتغير. إنه ماكسيمو الذي كان يجب أن يكون رهن الاعتقال. اعذرني بورو! (قالت وأمسكت بيده)، اعذرني على الزج بك في كل هذا. أبلغ عنك بسببي.

- أنتِ لا ذنب لكِ في أي شيء. (قال وهو يقبلها).

- وصلتني رسالتك أيضًا.

- وهل مزقتها أم احتفظت بها لكي تذاع في الراديو؟

ابتسمت نوريا في الحال وقبلته.

- لقد فكرت كثيرًا هذه الأيام... وعانيت الكثير من الآلام (شرع بورو في حك معصميه بقوة فأمسكت بيديه). عشت طوال هذه السنوات بالألم الذي سببته لي القبلة التي لم أستطع إعطاءها لأمي. كما يقولون، الأشياء التي لم تفعلها تسبب ألمًا أكبر. ولهذا عزمت على إنجاز كل الأمور المعلقة.

تحسست أصابع نوريا ندوبه ثم قبلتها.

- كيف حال طفليكِ؟

- بخير. ميريا لم تعرف شيئًا بعد. قلت لها إن والدها رحل هذه المرة في سفرة أطول، إلى الخارج.

- وماذا قالت؟

- سألتني ما هي عاصمة الخارج؟

انفجر الاثنان في الضحك. انتابت نوريا الرغبة في مواصلة تقبيله ومعانقته. وأن يبقيا بمفرديهما معًا لساعات طوال.

- بورو، هيا بنا إلى منزلك. لعل أجاتا تشعر بالجوع. لحظة، سوف أجري مكالمة هاتفية.

كان النادل مستغرقًا تمامًا في برنامج المستشار العاطفي الإذاعي لدرجة أنه كان من الصعب أن يوافيها بدون أن تصرخ فيه.

أورسولا (قالت بمجرد أن جاءها الرد)، هل دورا موجودة؟ (أضافت، بعد أن سمعتها تقول إنها خرجت): هل تمانعين في الذهاب بالطفلين إلى منزلي والبقاء معهما لحين عودتي؟

64

تعيش دافني جرتشن في واشنطن تملؤها راحة ضمير يأمل دون خيرونيمو بلوغها. اعتبروها بطلة بسبب إنجازها مع هيئة الأغذية والدواء الأمريكية (FDA). أدت واجبها وأكثر بنجاحها في فرض رقابة على كل تلك المنتجات التي يستهلكها الأمريكيون.

تذكرت ذلك السبت، أثناء خبز قالب الحلوى الذي سترسله إلى منزل حميها، كيف حاولت شركة أورلانتا رشوتها في قضية التيلامون حينما عرضوا عليها ثروة كانت لتتيح حياة رغيدة لها ولأحفادها. لم يعرفوا أن هذا لا يُعد إغراءً بالنسبة لشخص يعتبر أنه حاز كل شيء. كانت تشاهد عائلتها في الحديقة حين قفزت إلى ذهنها الصور التي رأتها لأطفال مبتوري الذراعين أو الساقين مقيدين إلى أرجوحات، أو الصغار الذين يتحركون على كرسي متحرك، بعضهم يكتبون ممسكين بالقلم بأفواههم أو يثيرون صخبًا على لوح السباحة في حوض الاستحمام وأجسادهم محاطة بالفللين. بدا وكأن صوت آلة الأكسيليفون التي يعزف عليها أحد أولئك الأطفال بقدميه يصل حتى هناك. استخدمت تلك الأنشطة وتلك الأشياء كإستراتيجية لإضفاء نوع من الاعتيادية على حيوات أشخاص محكومين بالعجز للأبد. مزقها تصور أنهم يبتسمون لأنهم لا يعرفون بعد المستقبل الذي ينتظرهم. كما اعتبرت أن الأسوأ كان من نصيب أمهاتهم، بسبب شعور بالذنب ينهشهن لتناولهن تلك الحبوب. اعتقدن أنهن كن ضعيفات لتناول العقار بسبب عجزهن عن تحمل الغثيان، وأنه بسبب ترفهن الوهمي الزائل، حكم على أطفالهن بالعيش

مشوهين مدى الحياة. اكتُشِف أنه في حالات أخرى تناوله الرجال كمنوم ونقلوه من خلال السائل المنوي.

أرسل إليها كيسلر البيانات التي جمعها بورو نافاسكويس، وأخبرها أيضًا بعثوره في إحدى مستعمرات الجذام في البرازيل على الكثير من عبوات دواء خاصة بالتيلامون ونشراته. أصابت هذه المواد الدكتورة جرتشن بالذهول من طريقة تعريف الأشخاص الأميين بالخطورة التي يمثلها ذلك الدواء على النساء الحوامل: طُبِع على الصندوق الكارتوني رسم تخطيطي لفتاة منتفخة البطن، عليها علامة إكس حمراء، بصورة تسلط الضوء على الحمل المبكر لدى السيدات البرازيليات.

كما عرفت الدكتورة عن طريق بعض المبشرين، أن هذا الرسم جعلهن يعتقدن أنه دواء إجهاض، فتناولنه لهذا الغرض، فلم يتسن لهن تحقيق غرضهن، وأنجبن أطفالًا مبتوري الأطراف. وهذا حدث بالفعل في بعض مناطق أحراش الأمازون البيروانية.

تقرر، استنادًا إلى بياناتها، التي حصلت عليها بفضل معارف كيسلر في إسبانيا، سحب تداول الدواء بكافة صوره: كبسولات، أقراص أو شراب. ولكن الكابوس لم ينته بعد في باقي أنحاء العالم، اقتصر ذلك على بعض دول أوروبا مثل بريطانيا وهولندا... لم تكن الدكتورة جرتشن تريد أن تحمي بني جلدتها فحسب، بل كانت مستعدة من أجل هذا الغرض لأن تطلب الاستعفاء من عملها كصيدلانية في هيئة الأغذية والدواء الأمريكية (FDA) لمواصلة الكفاح في أمريكا الجنوبية. ويتعين عليها قبل ذلك، إقناع والدي زوجها، أما والداها فيعيشان في كندا، ولم تكن ترغب في إرسال أبنائها بعيدًا عن البيئة التي نشؤوا فيها، لكي يقضي أحفادهم وقتًا أفضل معهم. بدا لها قالب فطيرة التفاح حجة جيدة، ضمن حجج أخرى كثيرة كانت على استعداد لتسوقها.

أحكمت ربط عقدة مئزر المطبخ وكأنها تتمسك أكثر بقناعاتها. تركت قالب الحلوى على إفريز النافذة وصعدت إلى حجرتها لكي تتزين. استكملت الجمال المحيط بها: مزهرية الورد، باقي تفاصيل الزينة، منزلها بالكامل، وقارنته بالألم الذي يملأ العالم وكأنه سيل لا يتوقف.

أصبحت وكالة العقاقير والأدوية التي ترأسها، تجري بعد ما حدث مع التيلامون اختبارات أكثر شمولًا. اعتبرت أن هذا هو أكثر الانتصارات التي حققتها ديمومة، لأنه لم يكن شيئًا مؤقتًا بل مستدامًا، يعد بمنزلة علامة فارقة قبلُ وبعدُ في التجارب السريرية.

***

قررت نوريا سومبورت وبورو نافاسكويس، بالرغم من ظروفهما، البقاء في برشلونة والإقامة في بناء مولاي حفيظ. كانا على يقين، شاركتهما دورا إياه، أن ماكسيمو لن يعود إلى هناك مطلقًا. ساعد وجود الناس حول بورو، على التخفيف من الحزن الذي سببه امتناع الأب بيلسيرميس عن التحدث إليه. قال له، إنه بالرغم من الرأي الجيد الذي كونه عن نوريا منذ أن عرفها، لن يوافق مطلقًا أن يعيش في خطيئة تلك العلاقة المنحلة مع خليلته أو عشيقته أو كما شاء له أن يسميها. أما هو فلم يفقد الأمل في الحصول في يوم من الأيام على غفرانه، بالرغم من قوله عندما أحاطه علمًا بالأمر: «لا تجعلني أختار بين شريعة الرب وهذا الهراء!» حفرت في ذهنه النظرة التي رمقه بها في تلك اللحظة.

عرف بورو، عندما ترك شقته الصغيرة أمام كنيسة سان أجوستين، أنه عندما سلم المفتاح، سيغلق إلى الأبد أكثر بكثير من مجرد منزل: كل ماضيه. أوصى فتيات دونيا ريتا أن يشملن أجاتا كيبلر برعايتهن. كان متأكدًا أنه من الأفضل أن تظل مقيمة فوق تلك الأسقف، وأنهن سيمنحنها الحب الذي تفتقر حياتهن إليه. لكن لم تتح لهن فرصة الاستمرار في رعايتها لفترة طويلة،

نظرًا لأنه، قبل انقضاء أسبوع، ظهرت القطة ذات ليلة أمام واجهة منزل جادة بونانوفا، لتثبت لهما، من خلال موائها، بما لا يدع مجالًا للشك، أنها أيضا تريد العيش هناك.

في صباح يوم سبت، في الساحة المقابلة لميناء برشلونة، على مسافة أمتار قليلة من نقطة بداية ارتطام البحر بحاجز الأمواج الإسمنتي، توقف بورو ونوريا وبصحبتهما مارك وميرييا، أمام مسرح عرائس متنقل. اجتذبتهم موسيقى الأكورديون وصخب من يحركون تلك الدمى.

انتزع هواء أكتوبر منديل حرير سماويًا عريضًا من سيدة، وطيره باتجاه الماء، لحق به بورو قبل اختلاط ألوانه بلون سطح البحر الساكن. عصره، وبينما يتفرس في وجوه جمهور مشاهدي العرض الطفولي، رأى سيدة تتطلع مبتسمة وهي تشير إليه. كانت تمسك بمقود كرسي صغيرها المتحرك، طفل مستغرق تمامًا مع الدمى؛ لمعت عيناه بقوة وفغر فاه لدرجة أنه كاد يصرخ من الأحداث التي تقدمها تلك الدمى: كان مفعمًا بالحماس.

اقترب بورو منهما ممسكًا بيده بالمنديل المبتل. قالت له المرأة:

- أشكرك. أحضره كلما استطعت. تروقه كثيرًا عرائس الماريونيت.

فكر أن ذلك الطفل الصغير لا يستطيع ملاحظة الخيوط التي تجعل تلك الدمى تتحرك على المسرح الصغير، بدا مقتنعًا بأنها تومئ وتسير من تلقاء نفسها. كانت عرائس الماريونيت ممشوقة القوام، رشيقة، خفيفة، تتمايل وكأن طبيعتها أقرب للحركة منها إلى السكون.

تقاربت وتباعدت يدا طفل الكرسي المتحرك وكأن الخيوط التي تتحكم فيهما تهبط من السماء حتى هناك بواسطة آلية غير مرئية ولكنها تعمل بمنتهى الإتقان. على النقيض، لم يكن يحدث الشيء نفسه مع الخيوط التي كان يتعين عليها رفع قدميه أو تثبيت ساقيه بشكل متوازٍ فوق الأرض لكي يسير. لم تكن تحركهما الخيوط. لم يستطع بورو تحاشي سؤال والدة الطفل عن سبب حالته.

- وُلد هكذا، بساقين غير مكتملي النمو. نبتت القدم في إحداهما من الورك. لا ترى من البنطال. نصحونا ببترها له، لكنني لا أدري.

فكر الكيميائي أن التيلامون قطع أيضًا الخيوط التي كانت ستتيح له تحريك ساقيه، والنهوض من ذلك المقعد الذي سيكبر به.

***

دعا السيد والسيدة فرومنت كلًا من بورو ونوريا إلى منزلهما بشارع بيلايو، بمجرد أن عرفا أنهما سيكونان أسرة تضم طفليها، وإن كانت في الوقت الراهن، على هامش القانون. طلبا منهما، حول الطاولة المنخفضة نفسها بحجرة المعيشة التي التقت فيها نوريا لأول مرة بدونيا ليونور، الاحتشام في المقام الأول، لأنهما لا يريدان أية فضيحة في حياتهما أو في حياة أي من مساعديهما المقربين. قالت السيدة فرومنت:

- آه، نوريا! حسنًا، لا أدري كيف ستسير أمورك، بعد ما فعله بك وزواجه من تلك المرأة الأخرى؟ وعلى أيٍّ!

ظل مارك نائمًا لفترة طويلة، لكن ميريتا لم تكف عن وضع سبابتها بين قضبان قفص العصافير. كانت نوريا قلقة للغاية مما قد تسمعه الطفلة ولهذا استأذنت من رؤسائها لكي تأخذها الخادمة إلى المطبخ. سألت ميريتا وهي تنظر إلى الصينيتين الفضيتين المكسوتين بمفارش من الدانتيل الأبيض:

- لكن هل يوجد هناك أيضًا حلوى مثل هذه؟

- أكثر بكثير، يا حلوتي (قالت نوريا).

تابعت السيدة فرومنت، بمجرد أن عادت من المطبخ:

- يجب أن تشعري بالاطمئنان لكي تعملي على كتاب فريدا. وهذا إن وجدناه. لا أدري ماذا جرى لهذه المرأة. أنا متأكدة من أنكِ ستتمكنين من البدء قريبًا. بفضل الكتاب ستحقق مبيعاتنا من مستحضرات التجميل

أرباحًا أضعافًا مضاعفة. أليس كذلك، أليكس؟ من الواضح أن أساليب عنايتها نجحت معها. لم يعد ينقصنا سوى تلك الجزئية الصغيرة: لقد قلبنا المنزل رأسًا على عقب بحثًا عن المخطوطة ولا سبيل للعثور عليها. كما لا نعرف إذا كانت قد أخذتها معها. على أية حال، يتعين علينا الانتظار لحين عودتها أو أن تخبرنا بشيء. لم تتصل بنا. ولكن شيئًا ينبئني بأنها ستوفي بوعدها. ربما ترسله لنا بالبريد أو عن طريق شخص.

تصافحوا مودعين عند باب الشقة، ثم دخلوا المصعد بعربة الطفل. لم يبد على ميرييا، عندما وصلوا للبوابة، أنها تشعر بأي خوف من تلك الأجواء المتحفية شبه المظلمة. اتجهت على الفور إلى المزهرية الضخمة على هيئة أنثى مشدود خصرها بمشد. وما كادت تمس الطلاء الخارجي للوعاء الخزفي، حتى تمايل على قاعدته وسقط على الأرض. اختلطت شظايا البورسلين المزخرفة بعناية من الجسد الأنثوي بقطع المقابض المشغولة. عثر بورو ونوريا بين القطع المكسورة، عندما صعدا درجات السلم الأربعة ليتحققا إذا كانت الطفلة قد جرحت، على مفتاح مربوط بشريط أسود يحمل بطاقة كارتونية مدون عليها اسم: «بومبيو جينير».

طلب منهما بورو أن ينتظروه، حتى يعطي المفتاح للسيد والسيدة فرومنت. عندما أصبح مرة أخرى أمام الشقة، فتحا له الباب على الفور.

- سلفادور، هل نسيتما شيئًا؟

- دونيا ليونور، ميرييا كسرت المزهرية بأسفل. أعلم أنها كانت ذات قيمة كبيرة. معذرة.

- نعم، كانت كذلك، لكن لدينا هنا وعاء خزفي آخر نستخدمه كحامل مظلات. سنقوم بوضعه في تجويف الجدار، ولن يضيرنا خسراننا لقطعة.

- عثرنا بداخلها على هذا المفتاح. انظري الاسم المدون على الدلاية.

- بومبيو! لم أسمع ذلك الاسم منذ سنوات. لدرجة أنني لم أعد أتذكر حتى أنه عاش هنا. توجد حجرة بأعلى، أشبه ببرج حمام مهجور، كان منزله. اعتاد الكتابة طوال اليوم، بعض الهذيان عن العرقيات، اضطهاد النساء، اليهود، وفي الليل يجتمع مع أصدقائه في مناقشات على المقاهي حتى ساعة متأخرة. توفي قبل نحو أربعين عامًا، وهكذا، لك أن تتصور. ترى من وضع المفتاح هناك؟ هل تركه هو نفسه؟ هل من المحتمل أنه ظل في تلك المزهرية على مدار كل هذه العقود؟

كان بورو يريد الرحيل، ولكن يبدو أن ذلك المفتاح حل خيط ذكريات دونيا ليونور.

- سلفادور، تعال معي لحظة! (التفتت لوهلة نحو داخل المنزل) أليكس، سأعود في الحال. (ثم خاطبت بورو مجددًا): سوف نتحقق إذا كان هناك شخص آخر علم بأن هذا المفتاح كان مخبأ هناك. لن نخسر شيئًا.

دخلا المصعد. نظرت السيدة فرومنت إلى أعلى وكأنها تريد أن تصل قبله. سارعت بالخروج بمجرد أن وصلا إلى الطابق الأخير.

فكر بورو أن نوريا ستشعر بالقلق. بالإضافة إلى أنه لم يكن من اللائق على الإطلاق أن يتركها بمفردها مع طفليها في نفس المكان الذي تعرضت فيه للاعتداء.

- هذا الباب الآخر يفضي إلى العلية. تعال! افتح أنت هذا الباب، لكي ترى أفضل.

سُمع عندما دفع بورو الباب، هديل الكثير من الحمام الذي استقر هناك. حلق بعضه في الهواء، واكتفى بعضه برفرفة أجنحته فحسب، وكأنه لا يريد الابتعاد كثيرًا. حط الحمام الذي طار على الإفريز. ساد الظلام المكان. وكان عليهما التحرك بحذر.

رفعت دونيا ليونور مفتاح كهرباء الردهة وفي الحال شاهدا دفترًا على الطاولة الوحيدة. فتحته دونيا ليونور بدافع الفضول.

- يبدو أنه لبومبيو. لم تكن نهايته جيدة. يبدو أنه ترك أشياء كثيرة هنا.

- افتحيه! (قال بورو بمجرد أن لاحظ تأخرها لبرهة).

كانت ابتسامتها تتسع أكثر، كلما قلبت صفحات الكتاب.

لاحظ بورو ارتعاش يديها وهي ممسكة به.

- إنها مخطوطة فريدا! تصور أين كانت! كيف وصلت إلى هنا؟ ولو لم نصعد؟

ناولته السيدة فرومنت المخطوطة لكي يتأكد هو أيضًا.

- بورو، أعتقد أننا تركنا هذه السيدة بمفردها لوقت طويل. لم نكن أفضل مضيفين في الكون. من المؤسف ألا تستطيع التواجد في كل مكان. انظر إلى أين اضطرت أن تصعد. ماذا كانت تفعل هنا؟ الكتابة؟ لا يهم، لم يعد شيء يهم الآن، الشاهد أن فريدا أنقذتك. لو لم تظهر... ويكون معنا الكتاب!

أخشى أننا وقتها لم نكن لنتواجد هنا. أنا على الأقل كنت سأكون في مكان أسوأ. وهذا حقيقي. (قال متلفتًا حوله متوجسًا). انتابني اليأس من عدم تصديقهم لي، شعرت وكأنني صوت يصرخ في صحراء. أكرر لكما امتناني لأجل كل ما فعلتماه من أجلي. أنتما سندي، لولاكما، ولولا الأب بيلسيرميس، ونوريا، وليليانا لكنت إنسانًا بائسًا، وهذا في حال بقيت على قيد الحياة.

- بورو، نقطة أخرى. أود أن أقول لك شيئًا. عدني بأن تصلح وضعك مع نوريا! إنك مدين للأب بيلسيرميس بذلك.

ابتلع بورو ريقه وتنهد.

65

أنشئ قسم خاص في ملجأ ريباس للأيتام لرعاية الأطفال الذين ولدوا مبتوري الأطراف بتأثير التيلامون. واستمر اهتمام دون خيرونيمو أولرابوس الشديد من أجل تحويل هذا المشروع لحقيقة بأسرع ما يمكن. وجُهز الجناح أيضًا بفضل المبلغ السخي الذي تبرع به المحسن الكريم المجهول للمؤسسة.

أعطت فريدا لورنسن لوكيل الوزارة السابق في آخر أمسية التقيا فيها رزمة بسمك عدة سنتيمترات من أوراق النقد الخضراء مربوطة بشريط. وحددت له شرطين: أن يوجه المال لعمل خيري وألا يعلن عن مصدر الأموال.

***

استمعت نوريا في منزلها، بعد تحية المذيعة المعتادة، وبينما يسري لحن مقطوعة «صيف هندي» من تأليف فيكتور هربرت، لإعلانين عن صنفي كريم من معهد مستحضرات التجميل، ووصفة لصنع حلوى، وملخص لحياة أحد القديسين، قبل بث الرسالة الأولى.

سيدتي العزيزة:

تجرأت على الكتابة إليكِ لأنني أود أن أطلب منك معروفًا، لكن قبل ذلك اسمحي لي أن أحيطكِ علمًا بالخلفيات: لطالما كنت شابًا شديد التحفظ، أعتبر نفسي إنسانًا طيبًا، بالرغم مما شهدته من حولي، وخاصة في عالم الصناعة، أقصد بعض الممارسات غير الأخلاقية على الإطلاق.

كنت أحظى قبل أقل من عام بحياة بسيطة: أذهب من العمل إلى المنزل، حيث تنتظرني قطتي، أسبح في مسبح لا برثلونيتا، ألتقي من حين لآخر بأحد رفاق المدرسة الداخلية أو زملاء عملي السابق، وأشياء قليلة أخرى لا تذكر. فقدت والديّ منذ نعومة أظفاري وفي ظروف مأساوية، سأوفر عليكِ وعلى الآلاف من مستمعي برنامجك الإذاعي الخوض فيها.

قالت ميريا إن ذلك البرنامج يصيبها بالملل وأنها ستعود للرسم مرة أخرى. وغط مارك في النوم.

كانت نوريا في منتصف المطبخ تمامًا بين صفي الخزائن. شعرت بأن هذه الكلمات تأتيها من السماء، وكأنها تأكيد على أن سحابات الغيوم تبتعد عن حياتها. هزتها كل جملة وفي الوقت نفسه رسمت لها ابتسامة تمنت الاحتفاظ بها للأبد.

انظري، أود أن أبوح لكِ ولأركان الكون الأربعة بأنني واقع في الحب. ربما ليس من المعتاد أن يعبر رجل عن مشاعره بهذه الطريقة، ولكنني لم أعد أستطيع الكتمان. صحيح أنني التقيت بالإنسانة التي أتشارك معها الآن أيامي ولياليّ في أكثر الظروف التي يمكن أن تتخيلينها تعقيدًا، إلا أن هذا زاد من تقديري لها أكثر، فأنا أعتبر أن التقدير هو أكثر أشكال الحب صدقًا. ما رأيكِ؟ التقينا ونحن بصدد الكفاح من أجل التصدي لأمر رهيب، آفة حقيقية حصدت أرواح كثيرين وعرضت حياة الكثيرين للخطر.

لم يساور نوريا أدنى شك، عندما سمعته على هذا النحو، أن باقي المستمعين سيتصورون أنه يتحدث عن جائحة. وكان التيلامون بالفعل كذلك بدون شك: فقد أسفر عن سقوط المئات من الضحايا في جبهات مختلفة.

لكن وسط كل هذا الألم تفجر حبي لها. انظري! أعتقد أن هناك نوعًا من قوانين التعويضات، يتسبب من جانب، في منحنا، عوضًا عما لا نملكه

أو نفقده، مميزات أخرى مع فوائد إضافية. ربما أبدو لكِ ساذجًا، ولكن من الذي لا يصبح كذلك حينما يقع في الحب؟ لو كان شيئًا عقلانيًا، لكنا بصدد الحديث عن أمر آخر. تكمن هنا تحديدًا قوة هذا الشعور: إخراجنا من ذاتنا ليحولنا إلى آخرين، يجعلنا أفضل، فنتصور أننا لا نقهر.

لا أريد أن أنسى في ذروة أوقات سعدي الشخص الذي كان طوال كل هذه السنوات بمنزلة أب لي، دون سابينو بيلسيرميس.

لن أطيل عليكِ أكثر من ذلك. هذا هو كل ما كنت أود إخبارك به. إذا استمعتُ إلى رسالتي، فسأعرف أنكِ تكرمت بتحقيق رجائي الذي لم يكن سوى بث الشعور الذي ينتابني عبر الأثير.

وتفضلي بقبول فائق التقدير والاحترام،

سلفادور نافاسكويس التاريبا

***

خمن بورو عندما دخل الشقة الكائنة ببناء مولاي حفيظ، من وجه نوريا أنها استمعت إلى الرسالة.

- كما ترين، وضعني الأب بيلسيرميس على رأس القائمة المذاعة.

- ألم تكتبها لهذا الغرض؟ (سألته نوريا بدون التوقف عن الابتسام). تصورت أنه بيان اعتراف بالحب. سأخبرك بشيء بخصوصه، أنه على الرغم من اعتقادي أنه لن يمنحنا مباركته، هذه اللفتة تعد على الأقل نوعًا من الترضية.

- لا أدري. لعله وجد نفسه مضطرًا، لأنه غير موافق على الإطلاق. ولا يزال مستاءً للغاية. يجب أن نفعل شيئًا، نوريا فأنا لا أستطيع العيش مع هذا الشعور بالتكدر، أريد التصالح معه. لقد كان أهم إنسان في حياتي طوال كل هذه السنوات.

- أدرك ذلك (قالت وهي تمسك بيد بورو)، وأنا لا أريد أن يتسبب وجودي في ابتعادك عن بيلسيرميس. لقد خطر على بالي شيء: يمكننا استشارة المحامي الذي دافع عنك. ما رأيك؟ لربما كان زواجي من ماكسيمو غير قانوني.

- يبدو لي أنه من غير الممكن على الإطلاق أن نحصل على كل شيء. على أيٍّ... سأطلعك على خبر سار: سيأتي كيسلر وميرخا إلى برشلونة خلال عطلة نهاية الأسبوع المقبل. لقد حصل على الوظيفة التي تقدم لها بقسم الأشعة والطب العلاجي بمستشفى لا باث بمدريد. وسوف نحتفل.

- يا لسعادتي بذلك! أتصور علاوة على ذلك أن تغيير الأجواء قليلًا سيكون مفيدًا لهما.

***

استغرقت نوريا خلال الأيام التالية، في العمل بمنتهى الجدية على فك شيفرة دفتر فريدا. كانت قد كتبته على مدار اثنتي عشرة عامًا ومزجت فيه وصفاتها للعناية بالجمال والتغذية ببعض الاعترافات الحميمة، والكثير من أمور الحياة اليومية مع تحرياتها بشأن الرجل الذي قتل أدلر إيجنر. لم يساور نوريا أدنى شك أنها تعد شهادة عاطفية، وأنها استخدمت هذا الأسلوب في الكتابة لتبقى شهادتها حتى بعد موتها.

تستهلها بتجربتها في سوليتال، مما يعني بالنسبة لحياتها هزيمة الجيش الألماني، وأوروبا جديدة تنهض من تحت الرماد، لم يعد يربطهما الكثير بها. توقفت نوريا أمام بضعة سطور سطعت أمام عينيها وكأنها مضيئة:

جعلوا حبيبي يختفي لأنه جلب من ألمانيا معلومات أزعجت كثيرين تمكنوا من تثبيت مكانتهم على مقاعدهم كرؤساء مجالس إدارات العديد من الشركات. لم يشأ إخباري بفحواها، لأنه أراد بذلك حمايتي. اكتفى

بقوله إنه شيء في منتهى الحقارة. لم يساورني أدنى شك حيال خطورة ما عرفه، لدرجة أنه لم يهدأ لهم بال حتى اكتشفوا مخبأه في آخر بقاع العالم. بكل أسف، رحل ومعه ذلك السر إلى القبر.

أضافت فريدا لورنسن ورقة إلى تلك الصفحة.

أوكلوا مهمة اغتيال أدلر إلى هارالد سيلفينر، قاتل مأجور، نفذها بمنتهى الدقة، متلذذًا بتعذيبه، وكأن لديه مسألة شخصية ضده. يتضمن أسلوب عمله المميز إعداد مسرح الجريمة متعمدًا أن يبدو فنيًا مهما كان المشهد مروعًا. وضعني تكرار أسلوبه في أكثر من حالة على الطريق. يبدو أنه لم يكن يستطيع مقاومة تضخيم جرائمه بواسطة آلة العرض، وكأنه يود إظهار ما كان يشغل عقول ضحاياه في اللحظات الأخيرة.

جئت إلى برشلونة لأنني كنت أود أن أجعل من هذه المدينة قاعدة عملياتي في أوروبا، الاقتراب شيئًا فشيئًا حتى الإيقاع بسيلفينر، ولكن لم أضطر للاستمرار نحو الشمال. أدى مصرع المخبر السري -الجريمة التي اتهم بورو نافاسكويس بارتكابها- إلى تقليص رحلتي للغاية من جنوب الكرة الأرضية لبلوغ الانتقام. أوقع غرور هارالد سيلفينر به مثل غالبية الأشخاص المعدومي الضمير.

كتبت تلك القصاصة وهي في برشلونة وربما كانت آخر ما أضافته إلى الدفتر. كان معها صورة. أُسقط في يد نوريا عندما لاحظت أنها التقطت في ميدان كتالونيا قبل لحظات من المواجهة التي وقعت بين بورو وجيوفري بالادري. وكان أغرب ما في الأمر ظهور هارالد سيلفينر بينهما. يمكن رؤيته بمنتهى الوضوح. كُتب على ظهر الصورة بخط مختلف:

عزيزتي فريدا، أعتقد أن مشوار بحثك بلغ نهايته. إنه موجود هنا. أرسل لي

صديقي العزيز فاريك كيسلر هذه الصورة. تحري عن مرافقيه وستصلين إليه. تعلمين أنني أكثر شخص يحبك. صديقتك وكاتمة أسرارك، ميليفا.

استخدم الطبيب الألماني تلك الصورة كبطاقة معايدة. يقرأ إلى جانب تلك السطور التحيات المقتضبة وأطيب تمنيات كيسلر. أرسلها من هامبورغ على عنوان في الولايات المتحدة ومن هناك أرسلتها ميليفا في ظرف إلى فريدا على منزلها في بييا لا أنجوستورا.

66

أوصلت سيارة أجرة منتصف نهار السبت كلًا من فاريك كيسلر وميرخا أمام بناء مولاي حفيظ.

- سنرافقكما لاحقًا إلى الفندق. الآن استريحا هنا قليلًا! (قال بورو). تهانيّ على زواجكما.

ارتسمت ظلال الكآبة أمام عيني نوريا وهي تفكر أنهما لن يبادلاهما التهاني على ذلك مطلقًا.

- يجب أن تزورا أوبسالا (قال كيسلر).

حكت لهما نوريا خلال البرهة التي أمضياها في الحديقة قصة ذلك البناء الحداثي. تألقت ميرخا في ثوب أبيض وعلى الرغم من ارتدائها معطفًا ثقيلًا للغاية، شعرت بالبرد فقرروا في الصعود في الحال.

عرض عليهم كيسلر، بمجرد أن جلسوا إلى طاولة يوجد فوقها صينية وضع عليها إبريق ليمونادة، وعاء قهوة، عدة أكواب وفناجين وطبق حلوى، محتوى ملف أزرق.

- إنها المستندات التي تمكن صديقي سيجفريد باخاراخ من إخراجها في الوقت المناسب من معسكر اعتقال برجن-بيلسن. أرسلها إليّ في هامبورغ من دوسلدورف. بالإضافة إلى بعض المستندات الأخرى التي حصلت عليها أنا خلال هذه الأسابيع. لم يعد أمامهم الآن أي مهرب. استطعت إعادة تجميع القصة كاملة من كل هذا. فلنر ما رأيكم! (بدأ فاريك يترجم

لهم من الألمانية):

في إطار التجارب التي أجريت ضمن برنامج الأسلحة الكيماوية، اكتشف طبيب عضو في الحزب النازي، من سنوات دراسته الجامعية، المركب الكيميائي الذي يشغلنا حاليًا. تتضمن المذكرة المرفقة كافة البيانات التي توضح أن التيلامون لم تكن شركة أورلانتا أول من توصل لتركيبته عام 1953، بل كان نتاج التجارب التي أجريت على سجناء في معسكرات الاعتقال أثناء الحرب العالمية الثانية.

اكتشف فريق كيميائي تابع لكونسورتيوم (سي إتش درير) تأثير أحد المكونات بشكل عرضي، أثناء إجراء أبحاث لزيادة مفعول مبيد حشري.

قطع كيسلر قراءته وسأل:

- هل سمعتم عن غاز السارين؟

أومأ بورو بالإيجاب.

- توجد هذه المادة سائلة في حالتها الطبيعية (تابع كيسلر). أبشع ما في الأمر أنه أثناء الحرب كان لدى هذه الشركة، (سي إتش درير)، معسكر اعتقالها الخاص، وبه آلاف السجناء تحت كامل تصرفها المطلق لإجراء تجاربها عليهم.

شعرت نوريا بغثيان، إلا أنها لم ترغب في المغادرة، كان يجب أن تسمع كل ما سيقوله فاريك مهما بلغت درجة بشاعته.

- وحدث أن سقط عرضًا على بشرة بعض العاملين بأحد مختبرات الشركة، قدر من هذه المادة، ونتيجة لهذا الاحتكاك، أصيبوا بعد نحو عشرين دقيقة بتشنجات، شلل، غثيان وتشوش في الرؤية، بالإضافة إلى أعراض أخرى. هنأ علماء النازي المسؤولون عن تلك المختبرات أنفسهم لاكتشافهم توًا سلاحًا كيميائيًا. زادوا الجرعة في التجارب التالية على السجناء حتى

توصلوا إلى التسبب في حدوث وفاة فورية بالاختناق لمن يتعرض له. يكفي ميللجرام واحد للقضاء على حياة شخص.

وجد بورو أيضًا صعوبة في استيعاب كل تلك الوحشية.

- وهل توجد علاقة بين هذا الاكتشاف والتيلامون؟

- نعم. حولوا هذا السائل إلى غاز لكي ينتشر بسهولة أكبر في الجو واخترعوا، التيلامون كترياق لغاز السارين. طلب هتلر، بمجرد علمه أن باستطاعته الحصول على هذه المادة، من وكالة التسليح الألمانية (Waffenamt)، العمل على إنتاجها على نطاق واسع، إلا أنه طلب في الوقت نفسه من علماء (سي إتش درير)، تطوير الترياق بأسرع ما يمكن تحسبًا لوقوع الغاز في يد الأعداء وتعرض الألمان للهجوم. هذا هو أكبر سر حرصت أورلانتا على إخفائه. وهل تعلمون من هم الرؤساء التاريخيون لشركة الدواء التي صرحت بتداول التيلامون؟

- مكتشفو غاز السارين (قالت نوريا).

- اثنان منهم. الأول، شرادر، يطلقون عليه أبو الأسلحة الكيماوية، والعوامل العصبية. خبير متخصص في مركبات الفوسفات العضوية.

- مبيدات حشرية تهاجم الجهاز العصبي (قال بورو، متذكرًا بدقة المواد المستخدمة في مصنع منتجات رش الآفات الذي كان يعمل به).

- تمكن المدعو شرادر من تعزيز فاعلية هذه السموم فلم تعد تقتصر على إبادة الحشرات بل البشر وبالآلاف. هذه هي السيرة الذاتية القذرة لبعض كبار مسؤولي أورلانتا. كان مؤسسا الشركة، هانزنكليفر وروبينر، حسبما عرفته من مستندات سيجفريد، من كبار الأعضاء البارزين في الحزب النازي. وكافأهما النظام، بكل تأكيد. توافرت لديهما، بالإضافة إلى إمكانية إجراء تجارب غير محدودة على السجناء، وفقًا لما هو مدون في هذه الجداول والرسوم البيانية، أيدٍ عاملة بالسخرة لمصانعهما التي صادراها من ملاكها

اليهود. ولكم أن تتصوروا حجم أرباحهما طوال هذه السنوات. حققا واحدة من أكبر الثروات في ألمانيا.

– هذا يعني أن مجلس إدارة شركة أورلانتا للأدوية مكون من مجرمي حرب (قالت ميرخا، بعد أن استمعت بانتباه شديد كيف نقل زوجها بلغة أخرى ما تعرفه بالفعل).

– كل شيء موثق هنا. هذه هي نهاية المطاف. وإزاء هذا، لم يعد أمام أورلانتا سوى التلاشي. تفكيك نفسها (قال فاريك) بانقضاء السبب تنتهي العلة[1].

– مع كل سوابقهم (قالت نوريا)، لم يكن التخلص منا ليمثل أية مشكلة بالنسبة لهم. لماذا لم يفعلوها؟

– عرفوا منذ اللحظة الأولى، عندما تفجرت الفضيحة في ألمانيا أن أمرهم قد انتهى. حاولوا إطالة أجل المبيعات لأقصى وقت ممكن فحسب لمواصلة جني المزيد من الأرباح.

– على حساب... (قالت).

– نعم، على حساب قتل الكثير من الأبرياء وتشويههم. لكن هذا يعد سقوط إمبراطوريتهم الاقتصادية. لم يعد هناك سبيل للتراجع. عرفت خلال الأيام التي قضيناها في السويد أنهم باعوا حقوق تداول هذا السُّم هناك إلى شركة ميريديان. ولد تسعون طفلًا مشوهين فأدركت شركة الأدوية هذه في الحال أن العقار قد يكون في منتهى الخطورة على الجنين. المقصود، أوقفوه، ولكن بعد ما يقرب من مئة ضحية. وذلك باحتساب من بقوا على قيد الحياة وحدهم. عرفت أيضًا أن شركة ستيل كو. (Still Co) حصلت على ترخيص التيلامون ومنها انتشر في جميع أنحاء العالم. وإذا وصل إلى أفريقيا... ليس

1. مثل إسباني يعني حرفيا بمقتل الكلب ينتهي داء الكلب (م)

لدي أية بيانات عن تلك القارة.

سمعوا طرقًا على الباب بالتزامن مع دق الجرس. نهضت نوريا على الفور.

- إني راحلة (قالت أورسولا وهي تناولها مارك النائم فوق كتفها بينما دلفت ميرييا). لأن اليوم السبت، أود الذهاب هذا المساء إلى السينما)

- شكرًا جزيلًا، أورسولا. لدينا ضيوف. أشكرك على الاعتناء بهم. تفضلي! (أعطتها نوريا ورقة مالية من فئة خمسة وعشرين بيزيتا التقطتها مع على قطعة الأثاث)

- مساء الخير، يا سادة (حيتهم أورسولا وهي تبتسم وفي الوقت نفسه تومئ لها بامتنان).

- من هم، مامي؟ (سألتها ابنتها وهي تتطلع إلى فاريك وميرخا).

- صديقان في منتهى الظرف، يا حلوتي.

- يجب أن نحتفل بعملي اعتبارًا من الآن في مستشفى إسباني (قال كيسلر). إذا كان يروق لكم بعد تناول الطعام والقيلولة الإجبارية أن نلتقي بالقرب من الجسر. هذه المرة أدعوكم أنا: بمناسبة الزفاف، وعملي الجديد وبنجاحنا في قص أجنحة هؤلاء الصقور.

- ماما، ماذا تفعلون؟ (سألت ميرييا باستغراب).

- لا شيء، يا حبيبتي، إنها طريقة في الحديث. ليليانا لديها علم بالفعل أننا سنتناول العشاء معًا (قالت نوريا ملتفتة إليهما بعد أن أجابت على ابنتها).

- كم يسعدنا أن نلتقي بها أيضًا!.

67

أخبرتها دورا، ذلك الإثنين من شهر نوفمبر، حينما تأهبت نوريا لفتح مخطوطة فريدا مجددًا لتبويب ملاحظاتها وتحريرها على الماكينة، بأن مديرتها اتصلت بها هاتفيًا. لم تعد نوريا تجيب على رسائل برنامج المستشار العاطفي، منذ قبولها مهمة كتاب الدنماركية.

- أرى أنكِ في خير حال (حيتها دورا من العلية) علاوة على السكينة التي صرنا ننعم بها في بناء مولاي حفيظ. هذا هو المهم. الصخب يعكر صفو الروح.

- أنا في غاية الامتنان لكِ... لولاك كانت حياتي ستتخذ مسارًا مغايرًا.

أثبتت لها السيدة بلومر أنه كما يمكن أن تأتي الخيانة من أقرب قريب، يمكن أن يأتي الدعم من البعيد بلا قيد ولا شرط.

- عزيزتي، إنكم تؤنسون وحدتي كثيرًا. أكثر مما تتصورين. (ناولتها سماعة الهاتف ما إن اجتازت ممر بهو منزلها). تفضلي، لا تدعيها تنتظر!

- سيدة فرومنت، صباح الخير.

- نوريا، هل تتذكرين باتيس، المحامي الذي تولى الدفاع عن بورو؟

- نعم، بالطبع. لا يمكن أن أنساه مطلقًا.

- تحدثنا معه الجمعة، تحت إلحاح الأب بيلسيرميس. هذا الشاب، المحامي شديد البراعة. في منتهى الذكاء. المهم، لقد طرحنا عليه حالتكما.

- حالتنا. (لم تستوعب نوريا على وجه الدقة ما ترمي إليه).

- سألخص لك الأمر: لديك الحق في...

- ماكسيمو (قالت نوريا. أصبحت بعد كل هذا الوقت استغرب ذكر اسمه).

- أن يعوضك ماكسيمو عن الضرر. لقد تصرفت بدافع حسن النية وزواجكما يصبح باطلًا لأنه، وفقا لما أخبرنا باتيس...، انتظري حتى أراجع هذه الورقة. ها هي: بسبب وجود مانع للارتباط[1]. لكن الأمر ليس على هذا النحو لأنه على ما يبدو تزوج بكِ أولًا ولم يكن يوجد آنذاك أي موانع. ومن ثم يكون قد خدع المرأة التي تزوج بها في مدريد لأنه حينذاك لم يكن أعزب.

(شعرت نوريا بألم في رأسها وكأنها سقطت في دوامة، أو صعدت أعلى الساقية الدوارة في الملاهي).

- وهذا يعني، أنكِ أنتِ وسلفادور لم يعد أمامكما سوى مخرج وحيد.

اندهشت نوريا أنه مازال هناك سبيل.

- أن تحصلي على بطلان الزواج من الكنيسة.

- دونيا ليونور، أنا في غاية الامتنان لكِ...

- أنا متعاطفة معكما، ولكنني أقوم بذلك بصفة خاصة من أجل الأب بيلسيرميس. إنه في غاية الحزن، كما أنني أتعامل مع الأمر على أنه عمل خيري، وسيكون المبلغ في النهاية، تبرعًا للكنيسة وبهذه الطريقة يعود كل شيء إلى مكانه. لا أزعم أنه الحل المثالي، لكن على الأقل لن يعيش سلفادور مع امرأة متزوجة. ومع ذلك، أخفيا الأمر بقدر الإمكان. لا يساورني أدنى شك في أن ذلك ممكن في منزلكما، لكن هنا، مع العاملين في المصنع...

1. وفقًا للكنيسة الكاثوليكية يشترط تقديم شهادة «خلو موانع» لإتمام الزواج (م)

- سيدة فرومنت، لا أدري ماذا أقول لكِ.

- لا تقولي شيئًا. استمري في العمل على كتاب فريدا؛ فنحن في أمس الحاجة إليه. سأوافيكِ بمجرد حصول باتيس على الأوراق من الأسقفية فاستعدا للاجتماع به.

***

عصرت فريدا لورنسن بقوة التوت الأحمر والأزرق الذي كان بيدها اليمنى ثم لعقت العصير. استندت بمرفقيها إلى سور من جذوع الأشجار أمام مبنى السوليتال الرئيسي.

مر ما يقرب من عشرين عامًا منذ هجرت ذلك المكان ورحلت إلى الدنمارك، وبالرغم من ذلك، بدت تلك المباني الوادعة وكأنها احتفظت بكل ذكرياتها لم تمس في مخطط غير مرئي، يختلف عن الواقع، لكن وطأتها كانت أشد بالنسبة لفريدا. أعاد حضورها الحياة لهذه الأطلال، واستعادت أرجاء المنتجع أنس سكانه من جديد: استمعت إلى موسيقى الأكورديون، ومقطوعات الفالس حينما كانت فرقة الأوركسترا تتدرب، واستشعرت أحضان أدلر إجنر وقبلاته في كل لحظة. تذكرت اصطفاف الأسرة المعلقة أمام الكبائن، النسيج الثقيل الشديد النظافة المشدود إلى الأطر الخشبية. اعتاد أدلر دعوتها للقيام بمغامرة باسطًا لها يده، قائلًا: «هيا نقطف الزهور»! يتوغل الاثنان في الغابة للاختفاء عن أعين الناس ومطارحة الغرام هناك، فوق العشب، داخل أحد المخازن أو بجوار أي جدار. يستحمان بعد ذلك في النهر أو في أحد حمامات السباحة، يرتديان ثيابهما من أجل العشاء ويرقصان. كانت الحياة في صورتها الأكثر نقاء على مسافة لا تزيد عن نحو عشرين كيلومترًا من أوشفتز.

ذهبت فريدا إلى هناك، حتى جنوب بولندا، من أجل استعادة أدلر إجنر.

صعدت الربوة حتى قمتها حيث يمكنها رؤية بحيرة سد ميدسوبرودسكي، التي أطلق عليها المهندسون الذين شيدوها بحيرة الأعاجيب. التفتت نحو زجاج النافذة المترب وبدأت تفركه بيدها وكأنها تود تشغيل ساعة تدور إلى الخلف تتيح لها الرجوع إلى احتفالات أعياد الميلاد عام 1943 وكل أيام السعادة الغامرة التي شملتها.

طافت حول المنزل إلى أن عثرت على باب المطابخ. عثرت في أحد الأركان، بين طيات الستائر الشفافة لنافذتين، على مزهرية من الكريستال المزخرف. «سأذهب لقطف الزهور»، قالت فريدا وكأنها بصحبة شخص. خرجت مرة أخرى لطريق الأشجار، عبرت الجسر المشيد من جذوع الأشجار وتوغلت في الغابة. جرجرت ذيل ثوبها الأزرق البحري فوق بساط العشب الأخضر. أحكمت دثار معطف الفراء المعقود بشريط حريري أسود فوق صدرها، عندما شعرت ببرودة تلك البقعة الظليلة. وقع اختيارها على تلك الثياب الفاخرة من أجل لم شملها بأدلر إجنر. لم يساورها أدنى شك في أنه ما إن يلقي عليها التحية فلن ينفصلا بعدها على الإطلاق. كانت تلك هي الطريقة الأكثر تأكيدًا لكيلا تهرم مطلقًا بعد أن صارت الصبية الخالدة.

***

بعد أسبوع، سمع جيديون أثناء تسوية جزء من الأراضي المعشوشبة، لحنًا موسيقيا بعيدًا، فمدّ ببصره نحو البوابة. ترك الفأس ونفض التراب عن سرواله. وركض قاطعًا مسافة الخمسمائة متر التي تفصله عن سور مقبرة لاريكوليتا الحديدي في بوينوس آيرس. في الخارج، كان هناك موكب جنائزي يحف بعربة حنطور من الخشب الأسود محمول عليها نعش فخم ويجرها حصانان. اعتمر الحوذي قبعة عالية وحرملة ويرافقه رجل آخر ارتدى حلة سوداء داكنة. لم يوجد أحد حول عربة الخيول سوى الموسيقيين،

الذين عكفوا على تكرار جزء من «مارش سيجفريد الجنائزي»، من أوبرا فاجنر غروب الآلهة. تركوا آلاتهم الموسيقية لكي يرفعوا النعش المعدني المذهب على أكتافهم، وراحوا يقطعون دروب تلك المقبرة التاريخية إلى أن توقفوا أمام لحد. أخرج موظف وكالة الجنازات الذي قطع الرحلة في المقعد الأمامي من عربة الخيول إلى جوار الحوذي، بطاقة الوكالة من حلته وناولها إليه.

- تجد هنا (قال) البيانات وشهادة الوفاة من أجل السجلات. فلنبحث عن جيديون!

لم يكن بحاجة لتناول تلك المستندات لكي يعرف أنه ترقد بقاع ذلك النعش الآنسة لورنسن التي أصبح لقبها إجنر. قدم نفسه وطلب منهم أن ينتظروه.

- لطالما كان الموت أثقل من الحياة (قال لهم) وشرع يفتش في الجانب الخلفي من الإبراشية عن اثنين من العمال ليساعداه في رفع لوح شاهد القبر.

- تركت هذا النص مكتوبًا ليُنقش على شاهد القبر، وأوكلت هذه المهمة إليك (قال الشخص نفسه وهو يناوله مبلغًا من المال يكفي لكسوة حمام أوليمبي بالرخام بالكامل). ويوجد هنا إيصال. يجب أن توقعه.

صدرت عن جيديون زفرة عميقة، حينما شرعوا في إنزال التابوت بالحبال. تعين عليهم إعادة وضع الحجر مجددًا بين غيره من الأحجار. وما إن انتهوا من تثبيه، حتى انصرفوا في غضون ثوان معدودة وكأنهم في عجلة من أمرهم وقد تأخر بهم الوقت.

«السيد والسيدة إجنر»، (Herr und Frau Eigner)، هذا ما كُتب على الورقة الموجهة إلى نحات الرخام. هذا هو ما أرادت فريدا أن يراه الآخرون محفورًا على الجزء العلوي من ذلك المستطيل المعدني. كتابة لا تمحى عن

رباطها الأبدي.

بعد أن جلس حفار القبور لبرهة إلى جوار ذلك اللحد، الذي صار للزوجين منذ ذلك الحين، داعب سطح تربته، مثلما تمنى أن يفعل دوما مع بشرة فريدا. ثم نهض. أصبح لديه اعتبارًا من الآن من يتسامر معه كل مساء قبل انصرافه.

خاتمة

وصلت ميريا إلى برشلونة في الأول من مارس/ آذار عام 2016، قادمة من اليابان بعد يوم كامل من السفر وعبور عاصفة رعدية عنيفة أثناء المسافة بين مطار ألبرات وبناء مولاي حفيظ. أتمت في ذلك اليوم الثامنة والخمسين، وكانت تود الاحتفال مع والديها وشقيقها مارك، الذي أنجب أربعة أطفال ليعوضها عن عدم الإنجاب.

لا تزال نافذة تصطفق في الطابق العلوي من البناء العريق الكائن في جادة باسيو دي لا بونانوفا. بعد التئام شمل ميريا بعائلتها، انتهزت ذلك السبب للصعود إلى العلية على الفور لتحية دورا. تذكرتها من رحلتها السابقة في أعياد الميلاد وقد صارت مسنة تمامًا، ولكنها مازالت في منتهى الأناقة التي اعتادت أن تراها عليها. سمعت من المدخل أغنية فرنسية تعود لسنوات السبعينيات، قصة جميلة «*Une belle histoire*» لميشيل فوجان. اضطرت لدق الجرس عدة مرات حتى فتحت لها.

شعرت بحنان غامر حينما رأتها أمامها. كانت كعادتها معتنية بثيابها للغاية. رأت من فوق كتفها عندما عانقتها، صورة لها ولمارك وهما صغار معلقة في صالة الاستقبال. يعد وجود دورا وأورسولا من أفضل الأشياء في طفولتها ومراهقتها. تمثل هذه الجدران بالنسبة لميريا منزلًا إضافيًا أعادوا بناءه بعد رحيل والدهما.

- تخبرك أمي بأن تنزلي للعشاء في الثامنة والنصف.

خاطبتها ميربيا ببطء شديد فيما أحكمت دورا وضع سماعتها قبل أن تجيبها.

- حسنًا، جيد جدًا. كم يسعدني أن أراك هكذا باهرة الجمال وفي ريعان الشباب

- دورا، أنا في الستين من عمري تقريبًا.

- أنتِ طفلة، مقارنة بي. ستبقين دائما طفلة بالنسبة لي. طفلتي.

شعرت ميربيا بالتأثر الشديد.

عملت دورا في مقتبل عمرها بمهنة لم يكن بوسعها الإفصاح عنها لأحد. وكان هذا سبب الحدود التي وضعتها في المعاملة، وطباعها المتحفظة، وغياب تفاصيل حول خروجاتها اليومية، وأثناء بعض عطلات نهاية الأسبوع. سمحت منذ تقاعدها، بالتقارب والبوح بالأسرار كما رقت طباعها. تخلصت من رداء الحرص والحذر، بمجرد أن تركت وراءها نشاطها السياسي والدبلوماسي، لكي تظهر على طبيعتها الحقيقية.

***

لطالما قال السيد والسيدة فرومنت إنهما ما إن يقنعا فريدا لورنسن بنشر كتابها، فسيكونان أول من يتبع نصائحها. وقد كانا على صواب في تنبؤهما بأن نجاح الكتاب سيكون مدويًا، وتوافقت مبيعاته الكبيرة مع هاجس اكتشافهما ما هي وصفة الشباب الدائم. كان القراء يريدون التعرف على المرأة التي تجسد جدوى تلك النصائح، إلا أنهم لم يسمعوا بها مطلقًا بعد ذلك، واضطروا للاكتفاء بالسطور التي كانت تحررها نوريا، والتي يتضح منها بما لا يدع مجالًا للشك أن أحد أهم المكونات للحصول على ذلك المظهر الصحي والجذاب هو قوة الإرادة.

يستشف من القراءة أيضًا أن تلك المرأة التي كانت تتمتع بمظهر الصبية الخالدة، عاشت لنفسها، وكانت تقضي يومها بالكامل منشغلة بالعناية بنضارتها: بممارسة التمارين والهرب من الشمس، تتغذى على الفاكهة والخضر بصفة خاصة، تتناول القليل من الأسماك، ولا تقرب اللحم إلا فيما ندر. هذا هو أساس حميتها التي تجمع أيضا بين الهلام الطبيعي وحليب الكفير (متخمر)، توت العوسج، بذور الكتان وعباد الشمس ومكملات غذائية فيتامينية. تنصح بالتوافق مع إيقاع ضوء النهار: النوم مبكرًا والتبكير بالاستيقاظ. لم يكن ينقص تلك القائمة سوى التجارب التي أجريت عليها في سوليتال، إلا أن السيد والسيدة فرومنت أمرا نوريا بحذفها من المسودة الأولى التي قدمتها لهما. تتضمن التجارب التي أخضع الرايخ الثالث، فريدا لها الحقن بهرمونات مستخرجة من خصيان قرود ومن السجناء الذين قتلوا في معسكرات الإبادة.

لم تعرف زبونات المعمل أو مستمعات برنامج المستشار العاطفي شيئًا على الإطلاق عن تلك التفاصيل. اشترين الكتاب ومعه كريمات معهد مستحضرات تجميل آل فرومنت، الذين أصبحت تجارتهم الأكثر ازدهارًا داخل هذا القطاع.

تزوجت ليليانا من باتيس، المحامي الذي نجح في إعادة الحرية إلى بورو. وآل إليها إرث كبير بعد وفاة زوجها: ذريته.

حافظ بورو ونوريا على صداقتهما مع فاريك وميرخا.

حقق كيسلر شهرة عالمية بسبب بحثه عن التيلامون وأيضًا بسبب المشوار العلمي المرموق الذي أنجزه بعد ذلك. لم تقتصر مبادراته المتعددة وطاقته التي لا تنفد على تطوير مجال الأشعة فحسب، بل ركزت أيضًا على تحقيق مزيد من التحسن في حالة المرضى بجميع التخصصات. عملت زوجته على مدار عقود مع دار نشر ترجمت من السويدية العديد من الروايات البوليسية.

لم تتعرف ميريا أو مارك على دون خيرونيمو أولرابوس، لكنهما عرفا أنه وفى بالوعد الذي قطعه على نفسه إلى ليليانا من خلال العمل الخيري الذي قام به لصالح ملجأ ريباس لرعاية الأيتام. أما ثاني أكبر هواجسه، فكان بالإضافة إلى الملجأ، العثور على فريدا لورنسن. لدرجة أنه كتب لها قصائد شعر. قلب عليها الدنيا لكي يجدها، ولم يخطر على باله مطلقًا الاستسلام والكف عن البحث. لقي دون خيرونيمو حتفه في حادث طيران رحلة أيبيريا رقم 610[1] التي تحطمت بالقرب من بلباو في 19 فبراير/ شباط 1985. عرف ابنا نوريا هذه الأخبار مع الكثير من التفاصيل، لأن والدهما، ماكسيمو ثفرا، كان مسافرًا أيضًا على متن تلك الطائرة. لم ينج منها أحد.

تقدمت ميريا، عندما بلغت العشرين من عمرها، بطلب إلى السجل المدني لتغيير اسم عائلتها الأول، وأصبحت تدعى ميريا نافاسكويس سومبورت. أما مارك فقد أوضح أنه لن يفعل ذلك لأن مشاعره صارت إلى ما صارت عليه ولا يحتاج إلى ورقة تشهد بذلك.

عمل دون أليكس ودونيا ليونور على تخزين الخطابات المرسلة إلى معمل مستحضرات التجميل مع ردودها ببلدة كان تيريل، في منزلهما الريفي بضاحية كورنيليا. عندما اشترت بلدية تلك القرية هذا العقار من العائلة، عثر العمال الذين توجهوا لإخلائه هناك على الكنز الذي يحتوي على أكثر من ثلاثة عقود من التاريخ الشعبي لهذا البلد مرويًا بأدق تفاصيله. نقلت الرسائل إلى أرشيف قريب لتصنيفها وتحويلها إلى وسائط رقمية، بفضل الحماس المهني لأحد الخبراء الفنيين في التراث الثقافي.

1. واقعة حقيقية لرحلة طيران داخلي على متن طائرة بوينج طراز 727 وقد راح ضحية الحادث المأسوي 148 شخصا نتيجة اصطدام الطائرة ببرج هوائي بث تليفزيوني على جبل أويز في إقليم الباسك (م)

استطاعت نوريا، بهذه الطريقة إنقاذ بعض الرسائل. احتفظت بتلك النسخ في صندوق إلى جوار الآلة الكاتبة الخاصة بها من طراز أوليمبيا ذات اللون الأزرق السماوي. كانت توبخ نفسها أحيانًا على ما اضطرت لكتابته، ولطالما رددت لنفسها أنه لا يغتفر، ولكن سرعان ما تزول عنها تلك الهواجس بعد أن تلقي باللوم عن دورها على المجتمع المنغلق الذي قدر لها العيش فيه.

التف حول المائدة العامرة التي أعدتها ميريا في ذلك اليوم، للاحتفال بعيد ميلادها أكثر الأشخاص المهمين في حياتها: نوريا مع زوجها، مارك وزوجته لاورا، أبناء أخيها وجارتها دورا. لا تفوت مناسبة بدون النظر إلى أمها وبورو. تتابع اهتماماتهما المستمرة، كيف ينظران بعضهما إلى بعض من فوق الكؤوس، يبتسمان خلسة، يتبادلان الغمزات، كانا في المجمل زوجين محظوظين مفعمين بالمرح بالرغم من الأمراض والتقدم في العمر، تسعة وسبعون عامًا وأربعة وثمانون عامًا. وعلى الرغم من احتفالهما قبل خمس سنوات باليوبيل الذهبي لارتباطهما، مازالا غير مصدقين ما جرى لهما حتى الآن. عثرا بالفعل على أصعب شيء: شخص يحبانه ويحبهما بدون قيد ولا شرط، بدون مشاكل، واحة وسط معترك الحياة اليومية، مكان يعودان إليه، حضن يكونان به في أمان من كل شيء، خطوة مقسومة على اثنين، رباط يمنحهما القوة الكافية لكيلا يستسلما مطلقًا.

مازال بورو ينظر إليها حتى الآن بعينين تلمعان. تبدو نوريا بالنسبة له استثنائية تمامًا. إنسانة لن تتكرر، يفوق جمالها ممثلات الأفلام التي كانوا يشاهدونها في المدرسة الدينية الداخلية بعد مراجعة موبينات الأفلام بالمقص لاستئصال الكادرات التي يحدث فيها تلامس بين الممثلين.

لم يكن يفرق معهما طبيعة ارتباطهما، مفردات «مدني» أو «كنسي» لم تكن تعني شيئًا بالنسبة لما كانا يشعران به، لكن قررا قبول عرض السيد والسيدة

فرومنت والمضي قدمًا في تلك الإجراءات المضجرة للغاية. وكثيرًا ما كانا يتذكران الأب سابينو بيلسيرميس. كل يوم بالنسبة لبورو. فقد كان هو من سلم نوريا بنفسه خطاب الأسقفية الذي يخطرونها من خلاله بأنها حرة. انهمرت في تلك اللحظة دموع بورو، مثلما كان يحدث له عندما كان طفلًا ويشعر بوحدة شديدة. عندما تصالحا، عانقه القس بقوة لدرجة أن بورو خشي أن تتحطم عظامه.

شعرت نوريا بأنها بلغت الكمال: منحتها الحياة أكثر بكثير مما تخيلت أن يكون ممكنًا، كما تمدها تلك اللقاءات مع أبنائها بالطاقة لكي تواصل التحمل على ما يرام لشهور كاملة. جمع شملهم بصورة حاسمة ونهائية البحث من أجل تتبع أثر الرسالة المتعلقة بالتيلامون التي وضعتها ليليانا في الصندوق بجانب رسائل برنامج المستشار العاطفي الأخرى. تذكرت نوريا أيضًا الرسائل التي تلتها بعد ذلك حول الموضوع نفسه، التي كتبتها الأمهات تعبيرًا عن امتنانهن للدعم الذي قدمته لأبنائهن المتضررين من هذا العقار في ملجأ ريباس لرعاية الأيتام. لم تكتف هذه المؤسسة بإيواء الأطفال ضحايا هذا السم فحسب، بل قدمت معلومات واستشارات مجانية لمن بقوا مع أسرهم. صار مقصدًا يفدون إليه من جميع أنحاء إسبانيا لكي يركبوا لهم سيقانًا صناعية، أو يصفون لهم بعض الأدوية المتخصصة ويحصلون عليها، في المجمل، كافة الرعاية اللازمة للبقاء على قيد الحياة يومًا بعد يوم.

تذكروا كم عانوا من أجل أولئك الأطفال، الذين مر عليهم الآن أكثر من نصف قرن. لطالما كررت نوريا على مسامع مارك وميرييا أنه كان من الممكن أن يصيرا مثلهم، وأن أية امرأة حامل لم تكن بمنجى من ذلك الخطر الرهيب، وأن كبسولة واحدة كانت كفيلة ببتر سيقانهما أو أذرعهما.

شعرت ميرييا بأن هذه الكارثة الصحية حددت مصيرها أيضًا حتى قبل أن تعي من أمرها شيئًا. وما إن واتتها الفرصة انخرطت في الكفاح الذي

بدأه أكثر أشخاص تقدرهم. بإرشاد من بورو، كرست ميرييا حياتها من أجل تحليل عملية التفاعل التي جعلت التيلامون يتسبب في تشويه آلاف الأشخاص في جميع أنحاء العالم. أحرزت تقدمًا كبيرًا في السنوات الأخيرة في أبحاثها بمعهد طوكيو للتكنولوجيا لدرجة أنها أوشكت على نشر مقال علمي في مجلة تايندولر. عملت على ما يسمى في الكيمياء بـ«الجزيء الكيرالي»: مركب ذو بنية مشابهة لما يحدث عند مطابقة راحتي اليدين. تكادان تكونان متطابقتين، الواحدة بالنسبة للأخرى، إلا أن ما يكونه كلتاهما يعد تطابقًا متخيلًا: نظرة في المرآة. أما إسهام ميرييا العظيم مع فريقها من العلماء اليابانيين فكان اكتشاف أن التيلامون يمنع نشاط البروتين المسؤول عن تطور الخلايا. ولهذا السبب، لا تنمو أطراف الأجنة وأعضاء أخرى مكتملة. تنبأت بأن تحظى جهودها ومثابرتها باعتراف عادل. كرست حياتها بالكامل لتلك القضية. وحدث الشيء نفسه مع مارك، على الرغم من أنه قام بذلك من خلال عمله كمحامي الجمعية الإسبانية التي ضمت ضحايا ذاك العقار الدوائي.

اعتادت ميرييا مراقبة اليدين والساقين والأقدام. لم تنس مطلقًا عندما كانت تكتب أو تمسك كتابًا بين يديها، أن ذلك المركب الكيميائي كان من الممكن أن يتسبب في بتر عدة أعضاء من جسدها، وأن تلك المأساة، كان من الممكن أن تحدث لأي إنسان.

سمعوا على مدار السنين أن ما تسبب فيه التيلامون يقارن في بلاد أخرى بالكوارث الكبرى مثل غرق التيتانيك، الكارثة التي تسبب فيها تسرب مادة كيميائية من مصنع مبيدات حشرية بمدينة بوبال، السحابة المشعة التي خلفها انفجار مفاعل تشيرنوبل... ومثل غيرها من الحوادث التي قضت على حياة آلاف البشر. إلا أن حالة ذلك المركب الكيميائي، بالرغم من اختلافها عن تلك الحوادث، تنطوي على جانب مدمر: أنه على الرغم من علم مصنعيه

بتأثيراته الضارة، رفضوا سحبه من السوق. بلغت أورلانتا ذروة ازدهارها من تجارة عقار كان له تأثير القنابل على المواطنين.

كانت هذه آخر جريمة حرب ارتكبها النازي. ومازال تأثيرها باقيًا إلى الآن، بعد سنوات طويلة من انتهاء المعارك الحربية على أولئك الذين بقوا على قيد الحياة بسبب ذلك الهجوم الكيمائي على المكان الذي تتشكل فيه الحياة، داخل أرحام أمهاتهم.

- تمت -

تعليق الكاتبة

على عكس أحداث هذا الكتاب، لم يُحظر في إسبانيا، تناول التيلامون، العقار الذي تسبب في تلك الأضرار الرهيبة، لم يُنشأ أي مركز متخصص لرعاية المتضررين، كما لم يتلق هؤلاء أي نوع من المساعدة للتغلب على كل هذا الألم. تعتبر إسبانيا أكثر دولة ولد فيها أشخاص مشوهون، والبلد الوحيد الذي لم يتقاض فيه أحد تعويضات، وصُدر إليه العقار المسموم بعد حظره في ألمانيا والولايات المتحدة، بغرض التداول التجاري. لم تُطرح للبيع في الولايات المتحدة المليون جرعة التي كانت تنتظر التصريح بالموافقة، نتيجة للرفض الحاسم من قبل الصيدلانية فرنسيس اولدهام كيلسي. لم يتوافر لدينا هنا شخص مماثل بينما كان لدينا فائض من المرتشين واتفاقيات من أسفل الطاولة مع العديد من الشركات. تساءل أحد المتضررين العام الماضي في رسالة مفتوحة إلى صحفي معروف: «كم تقاضى كبار المسؤولين في نظام فرانكو بوزارة الداخلية، بالإدارة العامة للصحة، بالتفتيش العام على العقاقير، للتصريح ببيع هذا السم في إسبانيا، على الرغم من علمهم بالأضرار التي يسببها؟ كيف استطاع هؤلاء الأشخاص النوم؟». خدع معمل المستحضرات الدوائية الحائز على الترخيص حتى فريق الأطباء بتجارب أمان زائفة. يجرح هذا الدليل الموثق. ولم يردعهم شيء.

يبدو أن العدالة الإلهية أو الشعرية لا تتحقق إلا في الروايات، أما

خارجها فتبسط شمس الجشع الذهبية أشعتها على العالم، ووازع الضمير مجرد («حصى صغير») يقذف به بعيدًا.

يتناول الفيلم الوثائقي للمخرجين جاك موريس وديفيد موريس بعنوان «مهاجمة الشيطان» أو (Attacking the Devil 2014)، الحملة الضخمة التي قام بها الصحفي هارولد إيفانز حول قضية مشابهة للأحداث التي تتعرض لها هذه الرواية. يشير الريبورتاج إلى أنها كانت أسوأ كارثة حدثت في عصور السلام. يتضمن، ضمن العديد من الروايات، قصة كورين، طفلة بلجيكية، من مدينة لياج، وُلدت بتشوهات بشعة عام 1962، فأعطاها والداها رضّاعة بها لبن مسموم. برأتهم إحدى المحاكم الشعبية.

تم قتل العديد من هؤلاء الأطفال بمجرد مولدهم، ولقي الكثير منهم حتوفهم في صغرهم. وقعت حوادث انتحار كثيرة بين من بلغ منهم سن المراهقة. أما من اختاروا بالرغم من كل شيء أن يعيشوا، فيحكون أنهم عندما كانوا يخلدون للنوم وهم صغار كان آخر ما يفكرون فيه دومًا الشيء نفسه: كانوا يتمنون بكل ما أتوا من قوة أن تنموا لهم عندما يستيقظون سيقان، أيادٍ، الأصابع أو الأذرع الناقصة لديهم. جعلهم اليقين في أن ذلك لن يتحقق مطلقًا ينضجون فجأة. وحطم هذا قلوبهم، لكن تتوقف سير بقية حياتهم على الطريقة التي تحمل بها كل واحد منهم هذا الأمر.

تقول إحدى الشخصيات في الفصل الثاني والثلاثين من هذه الرواية: «يتساوى لديهم حين يبيعون الرمان[1] سواء كان فاكهة أم قنابل يدوية». وهذا بكل أسف السر وراءه: الجشع الإجرامي، مراكمة ثروة، مضاعفة المنفعة، تلبية مطالب حملة الأسهم، على حساب أي شيء. حياة الإنسان بوصفها متغيرًا سوقيًا آخر.

1. تحمل كلمة رمانة باللغة الإسبانية معنيين الفاكهة والقنبلة اليدوية (م)

يرجع أصل هذا العقار، الذي أطلق عليه في السياق هنا مسمى «التيلامون» إلى فترة ما بعد الحرب العالمية في أوروبا عام 1946. تزايد الطلب على المهدئات والحبوب المنومة أكثر من أية عقاقير أخرى؛ لأن الذين بقوا على قيد الحياة بعد المعركة كانوا منهارين، ومعنوياتهم محطمة وخابت آمالهم. كانوا بحاجة لاستعادة الرغبة في الحياة، والأمل على وجه الخصوص؛ واستمر تسجيل وفيات بسبب جرعات زائدة من عقار الباربيتورات إلى أن ظهر عقار روجوا له على أنه رائع لأن له التأثير نفسه، ولكن بدون الكثير من الأضرار. وُصف خصيصًا للحوامل على اعتبار أن شعورهن الصباحي بالغثيان عضوي لأسباب نفسية، بمعنى أن الدوار الذي كن يصبن به راجع بنسبة كبيرة للتوتر الناتج عن حالتهن. إن عدم تناول أمهاتنا الكبسولة، وميلاد أطفال لم تنقص أجسادهم أعضاء، كان مجرد مسألة حظ أو الروليت الروسي، اللعبة الرهيبة التي مارسوها معنا جميعًا.

على العكس جاءت حالة الولايات المتحدة مختلفة تمامًا، بفضل الطبيبة الكندية السالفة الذكر، واسمها الحقيقي دافني جريتشن. وعرفانا بجميلها مازال اسمها يذكر في «استبيان جالوب» وهي وسيلة استطلاع رأي عشوائية تستخدمها وسائل الإعلام لقياس الرأي العام. تتضمن إحدى بياناته سؤالًا للمواطنين عن أكثر الأشخاص الذين يقدرونهم. وعندما طرح هذا السؤال على الأمريكيين أجاب الكثير منهم، بعد مضي أكثر من نصف قرن، إنها أكثر شخص يفخرون به، لأنه خلال رئاستها هيئة الغذاء والدواء الأمريكية (FDA: Food & Drug Administration) منعت تداول العقار.

توفيت هذه السيدة في 7 آب/ أغسطس 2015، بمدينة أونتاريو، كندا، عن عمر يناهز 101 عامًا. تذكروها حينئذٍ، لأجل قدرتها الهائلة على العمل وشعورها الراسخ بالمسؤولية وذمتها غير القابلة للشراء. كما عرف أيضًا، وذكر في العديد من رسائل النعي، أمر في منتهى الطرافة، حاسم وفي غاية

الأهمية بصورة مذهلة: قُبلت عام 1936 بقسم الصيدلة بجامعة شيكاغو بسبب ضياع النسخة الأصلية من طلب التحاقها وعدم إمكانية التحقق من أوراق اعتمادها. واعتقدت اللجنة المكلفة بتقييمها طوال الوقت أن من أوصى بها، البروفيسور جيللنج، وهو مرجعية كبيرة، أنه أرسل إليهم كعادته أحد طلابه الشباب، أي طالب رجل. وما إن مثلت فرنسيس أولدهام كيسلي أمامهم، لم يجد الدكاترة أعضاء اللجنة سبيلًا آخر سوى قبولها لكيلا يناقضوا رغبة زميلهم القديم.

اعترف كثيرون بأنهم كانوا على علم مسبق أنها امرأة، وكانوا على وشك إيقاف اختبار القبول. لكن قررت مصادفة محضة، مثل اسمها، فرنسيس، الذي يستخدم مذكرًا ومؤنثًا سواء بسواء، مصير كثيرين. قال الرئيس كينيدي، عندما كرمها بمنحها أرفع الأوسمة لمواطن مدني، إنها تستحق هذا التكريم لأنها أكثر شخص أنقذ مواطنين أمريكيين من الموت.

أوصي القارئ إذا أراد التعمق في أي من جوانب حبكة الرواية، أن يسلك الطريق عكس المسار الذي سلكته في عملي التوثيقي، ليس عليه سوى كتابة (AVITE) (جمعية ضحايا عقار الثاليدوميد في إسبانيا[1]) على أي محرك بحث رقمي وسيتحقق، بكل أسف، من أن كثيرًا من البيانات المذكورة هنا، حقيقية أكثر من اللازم. كما يمكنه مراجعة الوثائق الأصلية المتعلقة بهذه الرواية، باللغتين الإسبانية والألمانية على صفحة هذه الجمعية. كان أقسى شيء عليّ مشاهدة صور الأطفال المشوهين، وكذلك العديد من التقارير الصحفية المصورة التي يظهرون فيها مبتسمين لأنهم مازالوا يعيشون في فردوس عدم الإدراك.

أتيح لأول مرة لمتضررين من عقار مشابه للتيلامون الحديث عبر

1. رابط الجمعية على الانترنت: https://www.avite.org

برنامج خط 900 على القناة الثانية بالتليفزيون الإسباني (Línea 900 de TVE en la 2). حظي التقرير المصور بمليون وأربعمائة ألف مشاهدة. فيما بعد وبفضل الجهود التي بذلها الصحفيان خوليو كارمونا وخوليا أوتيرو، أجريا مقابلة مع اثنين من المتضررين في برنامجهما «الكرز»، وأسهم هذا في مشاركتهما لمأساتهما مع مليونين ونصف المليون من المشاهدين. كان ذلك في الـ24 من آيار/ مايو عام 2005. ومنذ ذلك الحين بدأت قضية هؤلاء الأشخاص تتردد كثيرا في وسائل الإعلام. ولم يعد متبقيًا سوى أن يفعل المسؤولون السياسيون وشركة الدواء -التي سببت لهم هذه الأضرار، عندما كانوا ما يزالوا في أرحام أمهاتهم- شيئًا من أجلهم.

قرأت من أجل كتابة هذه الرواية كل ما نُشر تقريبًا حول هذا الموضوع حتى تاريخه: بالإضافة إلى بعض رسائل الدكتوراة، سواء في علم الأحياء أو في علم الصيدلة، وتصفحت على المواقع الإلكترونية الجرائد الصادرة عام 1962، وبخاصة من خلال أرشيف صحيفتي (أ ب ث) أو (ABC) والبانجواريا. استخرجت مقالًا من صحيفة بويبلو (العام الثالث والعشرين، عدد رقم 7157، أيلول/ سبتمبر 1962) وعارضت كل ما سبق مع العديد من القراءات: «مستوصف من أجل الفترة الانتقالية»، لجيرارد امبرت، «صديقاتي العزيزات»، لبيتات إستاني، «عزيزتي إيلينا» لخوان سوتو بينيولو المتوفي مؤخرًا، «نساء غرقى. المستشار العاطفي النسائي في إسبانيا الستينيات والسبعينيات» لبورا سانشيث، ونشر هذا العام، وغيرها كثير أخذت منها بعض النقاط المحددة فحسب.

كما عكفت على البحث لساعات طوال في محتوى المادة العلمية، أي تتبع أسماء وتاريخ الشوارع، الميادين، الطرق وأي ملمح عام آخر خلال عصر فرانكو لكي تظهر هنا كما كانت تسمى في تلك الفترة. يبرز بين الحالات الأكثر طرافة -لأنه كان هناك الكثير من الحالات كما هو معلوم- حول

تغيير أسماء الطرق لأسباب أيديولوجية، اللافتة الخاصة بشارع إدواردو ماريستاني، مهندس سكك حديدية. أعيد تسمية الشارع ليصبح ماركيز أرختنيرا، أي أن الشخص المختص بالتكريم، ظل هو نفسه، لأن هذا كان لقب النبالة الذي أنعم عليه به ألفونسو الثالث عشر مكافأة له على تشييد نفق أطلق عليه هذا الاسم.

تحتل أهمية قصوى بالنسبة لروايتي، كتب الباحث الأرجنتيني كارلوس دي نابولي ومن بينها «أعالي البحار» عن هروب قيادات النازي من أوروبا إلى أمريكا الجنوبية على متن غواصات، وموضوعات أخرى عن ممارسات الرايخ الثالث مثل «تركيبة الشباب الدائم. علماء النازي في الأرجنتين». ومن بين الأعمال البالغة الأهمية لي أيضًا كتاب «الدواء السري» للمؤرخ روك برينر وتينت ستيفنز أستاذ علم التشريح والأجنة بجامعة آيداهو الأمريكية. أذكر حول هذا الكتاب الأخير، الصادر عن دار نشر بيريسوس، كلمات الصحفي، هارولد إيفانز، المذكور سلفا في هذا التعليق: «إنه تشريح رائع ومهم للمأساة، والمحاولات المتأخرة لإصلاحها. لقد أسدى المؤلفان للمجتمع خدمة جليلة».

اطلعت في أرشيف بايكس يوبريغات (Arxiu del Baix Llobregat) بسانت فيليو، على الأصول التي تحتوي على تفاصيل الحياة اليومية المؤلمة لبلد منسوخة في رسائل برنامج المستشار العاطفي الذي جابت شهرته الآفاق والذي استمر بثه عبر الأثير بلا انقطاع منذ عام 1947 وحتى 1984.

أختم هنا مشروعًا بدأ في تشرين الثاني/ نوفمبر 2014، عندما أرسلت للطبع روايتي السابقة. وأترك اعتبارًا من الآن هذه الرواية بين أيديكم. أود شكركم جميعًا يا من أتحتم لي سرد هذه القصة التي صارت الآن قصتكم.

***

كل الشكر إلى ناشراتي راكيل جسبرت وبوريفيكاثيون بلاثا، على المهنية التي تتحليان بها، وعلى مودتكما، وتفهمكما وصداقتكما، ولإنصاتكما إليّ، وعلى منحي الحرية، دائمًا، كما أشكركن أيضًا يا من عملتم معهما لكي تتجاوز كلماتنا الموجات والصفحات والأنماط واللغات والشاشات: لاورا فرانش، لاورا بيردورا، إيسابيل سانتوس، بانيسا سانتاولايا، سيلفيا اتشابي، ليديا استيبان، إيميلي البي، خيما سانخوان، بيلار لافوينتي، خابيير سانث، دانييل كالديرا، خيرمان كارييو، سابرينا رينالدي، ثوا كاراباكا وإيستر أيثبورو. وأتوجه بالشكر أيضا إلى زملائي الكتاب بدار نشر بلانيتا، الذين أسدوا لي نصائح وتوجيهات رائعة. وإليكم جميعًا يا من زودتموني بمعلومات في غاية الأهمية، ودون أن تعرفوا ذلك في بعض الأحيان. فقد قصصتم عليّ بعض القصص التي ظهرت في رسائل برنامج المستشار العاطفي: ليوبلدو تريبو فيجروا إجوال، آنا سائنث سورو، سلبادور سوريانو، بيري ثربانتيس، إيسابيل دومينجث، بيرونيكا سيجوبيانو، بالنتي فائنيه، ميرتشي انسواتيجي، بترا ديندنجر، لاورو أنايا والكثير من الأشخاص الذين لا أذكر أسماءهم لأن تجاربهم الحياتية المنسوخة هنا سردوها بأنفسهم.

إلى قارئي الأول المخلص دائمًا: إيميليو سائث سورو، الذي تعبر عنه ببراعة شديدة كلمات شاتوبريان حيث عرف الحب على أنه: «جنون الصداقة» وكذلك عنوان كتاب مونيكا كارييو: «الحب. كله. جنون».

كما أود أيضًا التعبير عن امتناني وتقديري إلى راكيل م. باريو على الإنجاز والصياغة، ولكن بصفة خاصة من أجل مشاركة موهبتها معي. وإلى أنييس رويلو لفتحهما أبواب فرنسا أمامي بعباراتهما المكللة دائمًا بأقصى أمارات الترحيب. إلى خورخي أوليفر دي لا كروث، الباحث الإسباني بمستشفى سانتا آنا برنو الجامعي، بجمهورية التشيك، على إسهاماته حول الجزيئات والخلايا. وضعت كلماته على لسان كلّ من بورو وفاريك وسنغر وذكرتها في

بحث ميريبا في اليابان. وإلى كارمينا كاسينو على توجيهي بشأن كيفية عمل نظام البريد عام 1962، ومن أجل قراءاتها الدقيقة وحماسها الشديد.

ولأجل إعارتي نموذجه، وتفاصيل كثيرة من حياته، أتوجه بالشكر إلى البروفيسور كلاوس كناب، رئيس قسم الأشعة بمستشفى لا باث بمدريد على مدار ثلاثين عامًا، بعد عمله بنفس التخصص في مستشفى بهامورغ. لديه الكثير من السمات المشتركة مع الطبيب فاريك: المصير، الإنجازات، سنوات عمرهما الـ88 المفعمة بالحيوية وسكنى حي تشامبري بمدريد. وأشكر الرحالة البرتو أرثيل كيسلر، على سماحه لي أن أطلق لقب عائلته الثاني على اسم شخصيتي (فاريك كيسلر). والشكر أيضًا لأستاذة اللغة والصحفية المجتهدة بيتات أستاني، شديدة الشبه بنوريا سومبورت. أتمنى أن يمنحها القدر نفس السعادة. وأشكر عائلتي، آنخيليس، أصدقائي، قرائي، طلابي وأصحاب المكتبات، وموظفي المكتبات، وأصحاب المدونات... بفضلكم وكل من تابعوني بشكل يومي وسريتم عني من خلال حساباتي على الفيس بوك وتويتر وبريدي الإلكتروني.

تواصلت على مدار فترة الكتابة هذه مع بعض الأشخاص الذين يعانون من مرض تفقم الأطراف[1]. وهذا هو الاسم الوصفي الذي أطلق

---

1. تَفَقُّمُ الأطراف مشتق من الكلمتين Phoce أي فقمة، وMelia أي طرف) (Phocomelia)وهي متلازمة جينية نادرة جدًا تشمل العديد من التشوهات الخلقية، لدى الرضع، أبرزها انعدام تطور (نمو) الأطراف العلوية والسفلية، أو قُصر جلي وضمور حاد فيها. يشبه الطفل المولود الفقمة التي تملك كما هو معروف أطرافًا قصيرة جدا مقارنة بباقي جسدها. هناك تشوهات إضافية قد تظهر في هذه المتلازمة تشمل: تخلفًا عقليًا، اضطرابات في النمو، حنكًا مشقوقًا (cleft palate)، شفة مشقوقة (Cleft lip) وغيرها. والخلل الجيني المسؤول عن ظهور هذه التشوهات غير معروف. النساء اللاتي تناولن في الأشهر الأولى من الحمل أقراص الأدوية المضادة للآلام والمعروفة باسم ثاليدوميد (Thalidomide)، أنجبن أطفالًا عانوا من هذه المتلازمة بنسبة أعلى من غيرهم. ويمنع، حاليًا استعمال هذا الدواء للنساء الحوامل (م).

على تشوهاتهم لتشابهها مع زعانف الفقمة. طرحت عليهم الكثير من الأسئلة حول عاهاتهم الجلية الرهيبة، حول المستقبل، لكن أكثر ما أثار فضولي لمعرفته فكان من أين يجلبون كل هذه القوة اللازمة لكيلا يستسلموا؟ لا أدري إن كان بتأثير كارما أو تأثير البومرانج (الارتداد)، من تسببوا لهم في هذه التشوهات تعرضوا للبتر أيضًا، لأنهم فقدوا، على مدار كل هذه العملية، التي شهدت كثيرًا من مراحل التقاضي، الجزء الأكثر جوهرية وحيوية الذي يجعل من الانسان إنسانًا: الروح.

لهذا السبب، ولأجل نضالهم، للنموذج الذي قدموه، وللطريقة التي أظهروا بها أنه يجب دائمًا مواصلة المضي، أود الإشادة بإنجاز (AVITE) (جمعية ضحايا الثاليدوميد في إسبانيا). كما أود الإشادة بكافة الضحايا وأخص بالذكر عنهم كلًا من رئيس الجمعية خوسيه ريكلمي ونائبه رفائيل باستريتشيا. أشكركم على سماحكما لي بإجراء مقابلة معكما، وآنا كاستييو وماريانو جارمنديا في الرويال كازينو بمدينة مورسيا، 8 حزيران/ يونيو 2016. تعرفت هناك أيضًا على مانويل بيوكي، وبالطريقة نفسها في ألفامين، ثاراجوثا، تمكنت من مشاركة خيسوس ماركو بعض ساعات في مكتبته. لديه بالفعل الكثير من الحالات بشكل مبالغ فيه.

بالنظر إلى الأمر بعد انقضاء أكثر من خمسين عامًا على ميلاد غالبية الضحايا، يبدو أكثر دقة تصنيفها على أنها جريمة جماعية ضد الإنسانية. وتعرف هذه الممارسات المقيتة، بحسب المادة السابعة من ميثاق المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي بأنها: «أي اعتداء شامل أو ممنهج ضد مواطنين مدنيين مع العلم بالاعتداء المذكور». توافرت لدى مختبر المستحضرات الدوائية الإثباتات والأدلة العلمية بشأن ما كان يجري وبالرغم من ذلك لم تتوقف عن تسويق هذا العقار. بالإضافة إلى أن الوثائق التي عثر عليها أثناء تلك العقود حول ملابسات اكتشاف هذا الجزيء وشهادة براءة اختراعه،

تسمح بحصول المتضررين على وضعية ضحايا النازية. إلا أنهم لم يحصلوا على هذا الاعتراف أو أي اعتراف آخر. صنفت دومًا على أنها حالات فردية، إلا أن الكثير من الحالات المنعزلة تصنع أرخبيلًا. ولن يرى المرء شيئًا ما لم يرغب في النظر. يضاف إلى وحشية التخلي التي فرضت عليهم وحشية جديدة: العار الوطني. لقد تعاقبت عليهم حكومات، محاكم، محاكمات، عقوبات، ولم يتلقوا سوى وعود، كلمات، وأحكام، مهما بدا هذا غير منطقي ضدهم، وعندما طالبوا بتعويضات. أخبروهم بأن «حقوقهم سقطت بالتقادم» دون الأخذ في الاعتبار أن هناك أمرًا أكثر أهمية وأنه لا يجب أن يسقط بالتقادم على الإطلاق: الأخلاق.

كلنا نستطيع معًا عمل شيءٍ لمعالجة الظلم المستمر الذي نشهده، بدافع أكبر، هو أنه من حسن الحظ أننا شهود فحسب عليه ولسنا ضحاياه في هذه الحالة، وبصفتي مؤلفة هذه الرواية، سوف أمنح نسبة من حقوق البيع التي حصلت عليها كنوع من التعاون مع نضال جمعية ضحايا الثالدوميد في إسبانيا (AVITE) من أجل تحقيق العدالة.

أود أن أختم بالتذكير بأنه في كل هذه المأساة الفظيعة كان هناك من أجبروا بالإضافة إلى ذلك على الاضطلاع بدور أسوأ من الضحايا: إنهم أباء الضحايا. فلتجد قصتي هذه نفعًا إذن! هذه المعالجة التي لا تسرد كيف وقعت الأحداث، بل كيف كان يجب أن تحدث، في التخفيف ولو قليلًا من وطأة هذا النسيان اللاأخلاقي والمتعمد.

كلمة المترجم

تختلف كثيرًا الظروف التي بدأت فيها ترجمة هذه الرواية عن ظروف الانتهاء منها وحتمًا نشرها. أمن كثيرًا أن المترجم تقع على عاتقه رسالة سامية، وهي نقل الثقافة من كاتب العمل الأصلي بلغته إلى المتلقي بلغة ثقافة النص المترجم. ومع الوقت تتسع أفاق هذه الرسالة لتشمل أبعادًا أكبر ربما تسهم في مساعدة المتلقي على فتح عينيه وتنبيه حواسه لأمور تجري خارج السياق المعرفي المحيط بمجتمعه، ليدرك بكل بساطة أن الإنساني والمشترك بين المنقول عنه والمنقول إليه يجمع ويوحد أكثر بكثير مما يفرق بين ثقافتي الفريقين.

أتصور أن الأحداث المأسوية الحقيقية المستوحاة منها تفاصيل هذا العمل الإنساني العظيم وحبكته لا تختلف كثيرًا عن ظروف الجائحة التي تعاني منها البشرية الآن ولكن على نطاق أوسع، وأن سلوك البشر، المنقسم تجاه الوضع الكارثي الذي تسببت فيه مأساة الرواية في الخمسينيات والستينيات، لا يختلف كثيرًا عن سلوكهم تجاه تداعيات فيروس الكورونا في القرن الحادي والعشرين: هناك دائمًا جانب الخير وجانب الشر في صراع أزلي لا يحسم مطلقًا، ولكن تمنح تفاصيل تطوره البشر الفرصة ليحسموا خياراتهم.

تحمل كلمة (Huella) من العنوان الأصلي للعمل، في اللغة الإسبانية معنى البصمة ومعنى الأثر في الوقت نفسه، وحتى الانتهاء من كتابة هذه السطور مازالت الحيرة تتملكني هل يكون العنوان «بصمة رسالة» أم «أثر رسالة». اخترت أثر الرسالة في النهاية ولكن أتصور أن الوقائع ستترك في

القارئ بصمة مشابهة لما تركتها عندي من قوتها وأثرها العميق. وفي النهاية، يؤكد موريس نادو أن «الرواية التي لا تترك أثرًا، قبلها وبعدها، سواء في الكاتب أو القارئ لا جدوى منها. هذا صحيح؛ فنحن لم نعد الأشخاص أنفسهم كسابق عهدنا عندما انتهينا من قراءة «المحاكمة» (وبكل تأكيد لم يعد كافكا أيضًا كما كان بعد كتابتها). إرنستو ساباتو «الكاتب وأشباحه».

تمت بحمدلله.

أغسطس 2020

طه زيادة

الكاتبة:

روساريو رارو (1971)، روائية إسبانية من مواليد إقليم كاستييون، شرق إسبانيا. درست الآداب اللاتينية بجامعة بالنثيا وتقنيات الكتابة الإبداعية في جامعة سان ماركوس والجامعة الكاثوليكية البيروانيتين. نشرت العديد من القصص القصيرة والروايات، وحصلت على العديد من الجوائز الأدبية في إسبانيا مثل جائزة مدينة ويلبا، وجائزة أتينيو مدينة جالدوس، وجائزة كلمات المرأة، وجائزة حكايات التكنو بمحطة الإذاعة رقم 5، ووصلت إلى التصفيات النهائية لجائزة بارجاس يوسا للرواية. تشرف على العديد من ورش الكتابة الأدبية والإبداعية في جامعات مثل جاومي الأول بإقليم كاستييون. من أهم أعمالها الأدبية «العودة إلى كامفرانك» و»أثر الرسالة» وصدر لها مؤخرًا «مختفية في سيبوني».

المترجم:

طه زيادة (49 عامًا) مترجم صحفي وأكاديمي مصري، من مواليد القاهرة، تخرج في قسم اللغة الإسبانية بكلية الآداب جامعة القاهرة عام 1992. حاصل على ماجستير الترجمة الصحفية من جامعة سلمكنة عام 2016 وحاليا بصدد إعداد أطروحة الدكتوراة عن الترجمة الصحفية وأثرها في نشر الصور النمطية والأحكام المسبقة من الجامعة الإسبانية نفسها. نشر العديد من المقالات الصحفية حول الثقافة والأدب والسينما في العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربية بالإضافة إلى عمله بوكالة الأنباء الإسبانية لمدة ست سنوات. نشرت له ترجمات عن الإسبانية لكبار الكتاب من إسبانيا وأمريكا اللاتينية منها:

- حكايات شعبية من آسيا، (اليونسكو تراث الإنسانية) الهيئة العامة للكتاب.
- الآتي من الزمان أسوأ، رفائيل سانشيث فرلوسيو، المركز القومي للترجمة.
- رحلة مصر وسوريا وفلسطين: مراسلات إيميليو جارثيا جوميث وميجل آسين بالاثيوس (1927-1928) المركز القومي للترجمة.
- شجار قطط، إدواردو مندوثا، مسعى للنشر.
- ماذا يحدث في كتالونيا، مسعى للنشر.
- الانفصال، سيلفيا أرازي (الأرجنتين)، مسعى للنشر.
- زايد: سيرة ذاتية للإمارات العربية المتحدة، ديكسون أكوستا ميديين (كولومبيا)، دار بتانة.
- مختارات من المقامات البيروانية، ريكاردو بالما (بيرو) دار نشر جامعة ريكاردو بالما.
- ماريانيلا، بنيتو بيريث جلدوس، دار نشر كلمات.
- بدرو أنطونيو دي آلاركوندار نشر كلمات.
- تاريخ الكذب، خوان خاسينتو مونيوث رينخيل، دار الخان .

ROSARIO RARO

LA HUELLA DE UNA CARTA

روساريو رارو

أثر رسالة

في عالم محكوم بقبضة من حديد، ومفروض على قاطنيه أن يعيشوا في الظلام، يتسلل بصيص نور، من خلال رسالة من مجهول، تكشف عن صحوة ضمير، إزاء عالم رهيب، صنعه استبداد الدكتاتورية الفرنكوية وفساد المستفيدين منها على أوسع نطاق، فراح ضحيته مئات الآلاف.

يغمر هذا الضوء حياة الظلال المخملية التي تعيشها بطلة هذه الرواية، نوريا، فيحملها بعيدًا، من حياة هادئة إلى مغامرة لاكتشاف هذا الواقع المظلم في إسبانيا الستينات.

«أثر رسالة»؛ رواية صادمة، وحدث يسير بخطى سريعة، عن تاريخ تم إسكاته عمدًا طيلة عقود، ولكن تبقى الرسائل دليلاً، محفوظًا، وفاضحًا، على تواطؤ الجميع.

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

ISBN 978-1-989667-20-0
9 781989 667200

Ghaf Publishing
منشورات غاف